

جيف إيدن

قائمة مجلة
فورين أفيرز لأفضل
الكتب الصادرة في
عام ٢٠٢٢

حِفْظُ اللَّهِ لِأَحْكَامِ السُّوقِيَّةِ

المسامون السوقييت والحرب العالمية الثانية

نقله إلى العربية: محمد صلاح علي

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing



حَفِظْ اللهُ الْإِتِّحَادَ السُّوفِيَّيْنَ

المسامون السوفييت والحرب العالمية الثانية

بينما كان الجيش السوفييتي الأحمر يخوض حربًا ضروسًا ضد النازيين، وضع ستالين حدًا للاضطهاد العنيف الذي مارسته الدولة على الدين طيلة عقدين من الزمن. وفي ظل هذا التحول الجذري الذي طرأ على السياسة الدينية السوفييتية، كُلف القساوسة والأئمة والحاخامات، ومن إليهم من الزعامات الدينية، بتعبئة المواطنين السوفييت لخوض «حرب مقدسة» ضد هتلر.

ابتهج بعض المواطنين لذلك في حين فرغ آخرون، وأفضى انقلاب سياسة ستالين نحو الدين إلى انتشار القول بأن «حربه على الدين» قد ولّى زمامها. وكانت عاقبة ذلك أن تبدلت الحياة الدينية السوفييتية تبدلًا جذريًا؛ إذ أقام الجنود الصلوات في ساحات المعارك، واحتفلت القرى بالأعياد الدينية التي كان الاحتفال بها مضي أمرًا محظورًا، واستخدمت الزعامات الدينية المدعومة من الدولة مناصبها الجديدة لا في توطيد أركان سُلطتها على جماعاتها فحسب، ولكن أيضًا في التماس مزيد من الحريات الدينية.

وبعد، فإن هذا الكتاب «حفظ الله الاتحاد السوفييتي» يقدم إطلالة على «الثورة الدينية» في زمن الحرب؛ فيسلط الضوء على مسلمي الاتحاد السوفييتي، مستخدمًا طائفة شتى من المصادر: الروسية والتركية والبشكيرية والأوزبكية والفارسية. ومن خلال استخلاص الأدلة من روايات شهود العيان، وإجراء المقابلات، والاطلاع على رسائل الجنود، والقصائد التي ألقيت على الخطوط الأمامية للحرب، وتقارير المفوضين السوفييت، والعرائض والالتماسات، وخطب الزعامات السوفييتية المسلمة، يذهب جيف إيدن إلى أن الثورة الدينية أجهتها الدولة وأجهها المواطنون السوفييت المتدينون على حد سواء، في حين أخذت العناصر السوفييتية الملحدة تنظر بعين السخط إلى بروز الدين مرة أخرى في الحياة العامة.

ISBN: 978-977-6459-53-3



9 789776 459533

مدارات للأبحاث والنشر

٦٩ تقسيم الكاظمي - المطبعة - الحرم - الجزيرة

جمهورية مصر العربية

(٠٢) ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢ - ٠٢٣٥٨٢٠٩١٦

info@mdarat-rp.com

مدارات للأبحاث والنشر

حفظ الله لاجاز السوفيتي

المسامون السوفيت والحرب العالمية الثانية

حفظ الله الاتحاد السوفيتي:

المسلمون السوفييت والحرب العالمية الثانية

چيف إيدن

هذه هي الترجمة العربية الشرعية الكاملة لكتاب

God Save the USSR:

Soviet Muslims and the Second World

by :Jeff Eden

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بالإنكليزية عام ٢٠٢٢.

جميع الحقوق محفوظة

تصدر هذه النشرة بموجب اتفاق مع منشورات جامعة أكسفورد.

© Oxford University Press 2021

حفظ الله الاتحاد السوفيتي: المسلمون السوفييت والحرب العالمية الثانية

تأليف: چيف إيدن

نقله إلى العربية: محمد صلاح علي

الإخراج الفني: أحمد نسيرة

الغلاف: حسن عصام

الخطوط: عبده الجمال

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٩٨٦ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-53-3

الطبعة الأولى: رجب ١٤٤٤هـ / يناير ٢٠٢٣م

مدارات للأبحاث والنشر

٦٩ تقسيم الكابلي - المطبعة - الهرم - الجيزة - جمهورية مصر العربية

٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢ - ٠٢٣٥٨٣٠٩١٦

info@madarat-rp.com

facebook.com/Madaratrp

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف، ولا تعبر -بالضرورة- عن رأي الناشر

چيف إيدن

حفظ الله التجار المسلمين

المسلمون السوقيين والحرب العالمية الثانية

نقله إلى العربية: محمد صلاح علي



المحتويات



٩.....	مقدمة الترجمة
١٧	شكر و عرفان.....
٢١	قائمة الاختصارات.....
٢٥	مدخل: الجدل حول «الثورة الدينية» في زمن الحرب
٨٩	(١) الإطار: من سنوات القمع إلى «صفقة ستالين الجديدة»
١٥١	(٢) ستالين إمامًا: البروباغندا السوفييتية الإسلامية في الحرب العالمية الثانية ...
١٩٥	(٣) التفاوض بشأن التسامح الستاليني: المؤسسات الإسلامية في زمن الحرب
	(٤) صلوات الجيش الأحمر وقصائد الجبهة الداخلية: لمحات من حياة
٢٢٩	المسلمين السوفييت في زمن الحرب.....
٢٧٣	(٥) البيروقراطيون حيارى: مراقبة المسلمين في كازاخستان بعد الحرب
٣٠٥	الخاتمة
٣٢٧	ملحق: مختارات من البروباغندا الدينية السوفييتية ووثائق زمن الحرب
٣٥٥	ملحق الصور
٣٧٧	قائمة المصادر والمراجع.....
٣٩٥	الكشاف الجامع

مقدمة الترجمة



بسم الله الهادي إلى الحق بإذنه، والصلاة والسلام على خير معلّمي الناس الخير
محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه الكرام ...،

وبعد

فإن اختيار كتاب لنقله إلى العربية وطرحه لعموم القراء - عند المترجم والناشر
الحقّ - ليس أمرًا هينًا يتم في جلسة واحدة أو محاوره هاتفيه، ولكنه عملية بحث
تقتضي التدقيق والتمحيص، يجتهد فيها المترجم والناشر معًا ليختارا أجود ما كتب
في هذا الباب أو ذاك، من حيث جدّة الموضوع وزاوية التناول ومنهج البحث والدقة
العلمية، وما إلى ذلك من شروط لا بد أن يستوفيهما الكتاب المختار. وهذا هو
المنهج الذي التزمته في أي اختيار سابق، وراعيّ التأكد منه في أي عملٍ يُعرض
عليّ. وقد جمع بيني وبين دار مدارات للأبحاث والنشر الاتفاق على هذا المنهج
الذي تحرص الدار على مراعاته في منشوراتها غاية الحرص. وليس أدلّ على ذلك
من اختيارها قبل عامين ترجمة كتاب البروفسور ديفيد معتدل في سبيل الله والفوهرر،
ثم اختيارها ترجمة كتاب البروفسور چيف إيدن، في محاولة لتتبع قضية توظيف
القوى العظمى للإسلام والمسلمين إبان الحرب العالمية الثانية.

وقد وافق اهتمام الدار بهذا الموضوع همًا شخصيًا عندي بحال المسلمين خلال
تلك الحقبة المفصلية، وحال المستضعفين في العموم ممن زُجَّ بهم في أتون بعض
الحروب الشرسة التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل، كما يُقال.

ومهما يكن من أمر، فقد وافقتُ على ترجمة الكتاب، واجتهدتُ فيه قدر استطاعتي ليكون مرجعاً يسدُّ ثغرةً في المكتبة العربية عن حال المسلمين والإسلام في الاتحاد السوفييتي إبان الحرب العالمية الثانية وما بعدها، ومشعلاً يضيء منطقةً مظلمةً في خريطة المعارف العربية عن هذه المنطقة.

وإنني أزعج - وأرجو ألا أكون مخطئاً - أن الكتابات المتعلقة بتاريخ المسلمين في الاتحاد السوفييتي شحيحة نادرة، ولا تغطي إلا مساحةً ضئيلة من تاريخ المسلمين في آسيا الوسطى وروسيا. فالكتابات العربية التي تتناول التفاعلات بين المسلمين والإمبراطورية الروسية طوال القرن التاسع عشر، ثم بينهم وبين الاتحاد الروسي والسوفييتي طوال القرن العشرين قليلة، كما أن أكثرها غير مؤسس على مناهج بحثية دقيقة، بل الغالب عليها إيراد طائفة من الأخبار والمرويات مجهولة المصدر.

ويبلغ عدد المسلمين اليوم في روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق نحو سبعين مليون مسلم، كانوا عشرين مليون مسلم عند اندلاع الثورة الشيوعية. وكان الإسلام قد دخل هذه المناطق إبان احتدام الصراع عليها بين الدولتين العباسية والصينية، فأسلم كثير من خانات المنطقة التُّرك، وتبادلوا السفارات والزيارات مع الخليفة العباسي. وازدهرت الحواضر الإسلامية هناك؛ كسمرقند وبخارى وجرجانية، وأصبحت مراكز للعلم والحضارة، حتى أضعفها الغزو المغولي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

ثم كان أن تعاقب على المنطقة طائفة من الدول والقوى العظمى، كالصينيين والمغول والقوى التركية الصاعدة، ثم الإمبراطورية الروسية التي ثار الصراع بينها وبين الراج البريطاني على النفوذ في المنطقة، فيما عُرف باللعبة الكبرى. ثم بدأت الإمبراطورية الروسية منذ منتصف القرن الثامن عشر تمدُّ عينها إلى آسيا الوسطى وجنوب شرق أوروبا؛ فما لبثت إلا قليلاً حتى ضمَّتْها كلها إلى ممتلكاتها مع نهاية القرن التاسع عشر، والتزمت التسامح تجاه الإسلام والمسلمين.

وقد ازدهرت بين المسلمين إبان حُكم الإمبراطورية الروسية تياراتٌ إحيائية متعددة، أبرزها «الحركة الجديدة» التي حاولت تجديد التعليم الديني لدى مسلمي

آسيا الوسطى وجنوب شرق أوروبا من خلال تجديد أدوات التعليم والأخذ بالمناهج العلمية العصرية، وتمكنت من تخريج عددٍ كبير من أعلام المشايخ والمفكرين آنذاك. ولم يكن للفلسفة الماركسية أيُّ حضور حقيقي بين المسلمين، فلم تنتشر بينهم الحركات الشيوعية، ولم يشاركوا في الثورة البلشفية مشاركة جادة، بل إن كثيرًا من قادة المسلمين أعلنوا تشكيل حكومات مستقلة عن الاتحاد الروسي وتمكنوا -مدة لا تتجاوز بضعة أشهر في كل حالة- من حُكم عددٍ من المناطق ذات الأغلبية المسلمة. لكن آل الأمر في النهاية إلى سيطرة السوفييت على مقاليد الأمور في الاتحاد الروسي كاملاً، وأُعلن قيام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (الاتحاد السوفيتي) في عام ١٩٢٢.

ولم تكن سياسة قادة الاتحاد السوفيتي نحو الدين ثابتةً منذ البداية؛ فعلى الرغم من عدائهم الأيديولوجي للدين، فإن تكييفهم السياسي لهذا العداء مرَّ بعدة تحولات؛ ففي البداية، ظنَّ لينين أن استخدام السلاح الأيديولوجي والبروباغندا فحسب كافيان لاستئصال الأفكار الدينية ونشر الأيديولوجيا الشيوعية. بيد أن موقف قيادات الاتحاد السوفيتي من رجال الدين أخذ يتحوَّل شيئًا فشيئًا، ولا سيما مع تأسيس الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٢٢؛ إذ نُظر إليهم على أنهم ممثلون للبرجوازية، فُشِّت حربٌ مفتوحة عليهم، وطفقوا يُضطهدون في جميع أنحاء البلاد، ثم تعاظم الأمر في عهد ستالين.

وقد رسَّخ ستالين سلطته في الاتحاد السوفيتي على حساب منافسيه في غضون النصف الثاني من العشرينيات، وشنَّ حملةً أيديولوجية عنيفة على الدين استوعبت الاتحاد السوفيتي من أدناه إلى أقصاه. وفيما يتصل بالمسلمين على وجه الخصوص، صدر أمرٌ عامٌ بإغلاق المساجد أو تحويلها إلى مستودعات ومسارح ومؤسسات حكومية، وتعرَّض علماء الدين للاضطهاد، وأُغلقت المدارس الدينية وحُظرت الأوقاف، وهو جم حجاب النساء هجومًا عنيفًا من قبل الحكومة وأذرعها الشعبية. ثم كان أن شهدت الثلاثينيات تلك الحقبة التي عُرفت بعهد الإرهاب الكبير؛ حيث اعتُقل الآلاف من أئمة المسلمين في جميع أنحاء البلاد، رفقة غيرهم من النُخب،

وأعدموا. ولكن مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وقع تحولٌ في السياسة السوفيتية تجاه الدين، وفي حياة المسلمين الدينية، وهو التحول الذي يقصُّ علينا هذا الكتاب من خبره. وحفظ الله الاتحاد السوفيتي عنوان عبقرية، اختاره مؤلفه مازجاً فيه بين عدة عناصر متناقضة اجتمعت في فترة الحرب؛ إذ مزج بين استعمال الخطاب الديني (الإسلامي والمسيحي وغيرهما) في تعبئة السوفيت لحرب الغزاة النازيين، والاتحاد السوفيتي بما عُرف عنه من طابع إلحادي معادٍ للدين، والنزعة الوطنية المتمثلة في نشيد «حفظ الله القيصر» الذي كانت القيصرية الروسية قد اتخذته نشيداً وطنياً رسمياً، بما يعني اعترافاً ضمناً بفشل العُدَّة الأيديولوجية السوفيتية، وضرورة اللجوء إلى مصادر أخرى للشرعية تعود إلى ما قبل الحقبة السوفيتية.

* * *

لقد صدرت قبل نحو عامين ترجمتنا لكتاب البروفسور معتدل عن حملة البروپاغندا النازية تجاه المسلمين، فتلقَّها القراء بالقبول؛ تقديرًا لما كشف عنه الكتاب من بعض الجوانب المهمة المتصلة بتاريخ العلاقة بين ألمانيا النازية والمسلمين، والتي غفلت عنها أكثر الدراسات المهمة بهذا الموضوع، فضلاً عما توفَّر عليه المؤلف من دراسة مصادر لم يجتهد في جمعها أو لم يصل إليها قبله إلا نفرٌ قليل.

وكان من أثر الكتاب المذكور أن حفز البروفسور جيف إيدن - أستاذ التاريخ المساعد بجامعة نورث وسترن (Northwestern University) بالولايات المتحدة، والمتخرِّج في جامعة هارفارد - على النظر إلى الوجه السوفيتي المقابل لمحاولات النازيين، فكتب أول كتابٍ عن تجربة المسلمين السوفيت إبان الحرب العالمية الثانية، وتناول كيفية تفاعلهم مع حملة البروپاغندا السوفيتية والتسامح الذي ادَّعته الدولة آنذاك؛ إذ يقول إيدن: إن معتدل «نبَّهنا بدراسته الشاملة الممتازة إلى قصة توظيف القوى غير الإسلامية للإسلام في الأغراض السياسية والعسكرية»⁽¹⁾، وأشار

(1) Jeff Eden, "A Soviet Jihad against Hitler", *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, 2016, Vol. 59, No. 1/2, pp. 237-264.

إلى دهشته حين وقف في مدينة آلماتي الكازاخية على نداء بالأوزبكية المكتوبة بالحرف العربي، يدعو فيه أحد علماء المسلمين إلى محاربة هتلر والنازيين والدفاع عن الاتحاد السوفيتي والاستشهاد في سبيله؛ فقد كان ذلك مخالفاً لكل ما يعرفه عن الدين هناك، حيث مُرست أشد أنواع الاضطهاد والقهر، وشنَّ ستالين حرباً شرسة على الجماعات الدينية، وسُجن آلاف القساوسة والأئمة والحاخامات وعوام المؤمنين، وأُعدم كثيرٌ منهم. والفرضية الشائعة عن الدين هناك أن من نجا من هذه المجازر الوحشية إما أنه عاش في الظل متخفياً في كنائس ومساجد الأقبية، وإما أنه فرَّ بدينه إلى المنافي.

ومن هنا بدأ إيدن في جمع المصادر التي تحكي قصة التحول الذي طرأ على السياسة السوفيتية نحو الدين، وقصة تفاعل المسلمين معها، وخرج بلوحة بديعة تجمع بين المصادر الرسمية من سجلات محفوظات ووثائق ومواد صحفية، وبعض المصادر الأخرى غير الرسمية كالشعر الفلكلوري المتوارث لدى المسلمين الكازاخ والبشكير والتتر، والمراسلات بين الجنود المسلمين وعائلاتهم، والحوارات المنشورة وغير المنشورة مع المسلمين في زمن الحرب؛ فاستقامت له بفضل ذلك كله قصةٌ للتحول الذي شهدته الحياة الدينية للمسلمين في الاتحاد السوفيتي منذ الحرب العالمية الثانية، منطلقاً من وصف التغييرات التي طرأت على السياسة السوفيتية تجاه الدين، وموقع علماء المسلمين منها، وتفاعل عموم المسلمين معها، ودور بيروقراطية الدولة في تنفيذها.

بين الفوهرر والمارشال

يلوح لي أن من سيقراً هذا الكتاب مع كتاب معتدل سالف الذكر ستثور في ذهنه بعض المقارنات؛ كأن يقارن بين هتلر وستالين، أو بين المسلمين الخاضعة رقابهم للمارشال والمسلمين الماديين أياديهم للفوهرر، أو بين الدولة السوفيتية الغاشمة ودولة الرايخ الثالث الراسخة، وما إلى ذلك من ألوان المقارنات. والحقُّ أنها مقارنات لا بد لأي مهتمٍّ بقضية توظيف القوى غير المسلمة للإسلام والمسلمين من

عقدتها والعناية بها. ويمكننا أن نشير فيما يلي إلى طرف من هذه المقارنات في عجلة.

لعل أول ما يسترعي انتباهنا من ألوان المقارنة بين السوفييت والنازيين في علاقتهم بالإسلام، موقعهم السابق منه؛ فالألمان لم يكن تحت حكمهم المباشر قبل الحرب كثير من المسلمين، وإنما دفعهم للتقارب معهم أن هؤلاء المسلمين كانوا يشكلون قوة كبيرة يمكن استغلالها في إشعال الخطوط الخلفية لدول الحلفاء. وكذلك، لم يكن الألمان في عداء مباشر مع المسلمين، ولم يكن القمع والقهر من سمات العلاقة بينهما، بل العكس هو الصحيح. وفي المقابل، كان الاتحاد السوفيتي يحكم عشية قيام الحرب أكثر من أربعين مليون مسلم موزعين في جميع أنحاء، ويمثلون، على حدّ تعبير ديفيد معتدل، «كعب أخيل» الذي حاول النازيون استغلاله ضد ستالين. وفوق ضخامة حجمهم، كانت علاقة المسلمين بالاتحاد السوفيتي علاقة عداء مباشر؛ حيث ظلت دولة المارشال تقهرهم وتضطهدهم بسبب دينهم، ولم تكفّ عن اعتقال أئمتهم ومشايخهم ونفيهم إلى معسكرات الاعتقال لما يقرب من ربع قرن قبل الحرب.

ومن صور المقارنة أيضًا ما اتسم به تعامل الرايخ الثالث مع المسلمين من رسوخ وانضباط بيروقراطي، في مقابل السيولة التي عانى منها النظام السوفيتي؛ إذ اتسمت حملة پروباغندا النازيين تجاه المسلمين في الغالب الأعمّ بتنظيم مُحكم، بدأ من أهداف الحملة وخطوطها العامة التي رسمها الفوهرر بنفسه مع كبار معاونيه، حتى وصل إلى أدق التفاصيل المرتبطة بأزياء الجنود المسلمين في الفرق العسكرية وأوقات صلاتهم وأعيادهم، وانتهى ذلك إلى نظام بيروقراطي معقد يتابع كل شؤون المسلمين في الأراضي التي احتلتها القوات النازية. ولكن في المقابل، نجد فصلًا كاملاً في كتابنا هذا عن التخبط الذي عانت منه البيروقراطية السوفيتية في تعاملها مع الدين، وهو تخبط نابع من فساد التنظيم الإداري للدولة ذاتها وفشله، جنبًا إلى جنب مع مخالفة الوضع الجديد لمبادئ أساسية من مبادئ البيروقراطية التي عاشت على محاربة الدين لأكثر من عشرين عامًا.

ونرى كذلك فارقاً بين أئمة المسلمين السوفيتية ونظرائهم الذين تعاملوا مع النازي؛ إذ تمكن الأولون من مفاوضة النظام والحصول على مكاسب حقيقية؛ كإعادة افتتاح المساجد وإزالة القيود الدينية، والسماح بعودة شعائر الدين إلى المجال العام ورسوخها حتى بعد الحرب، وذلك كله في مقابل ما قدموه من مساعدة جادة في حشد بني جلدتهم من عامة المسلمين، واستخراج تبرعاتهم المادية والعينية، وإقناعهم بموالاتة الجيش الأحمر. وتختلف هذه الحالة كل الاختلاف عن حالة المسلمين الذين تعاملوا مع النازي ودعموه وحشدوا له المسلمين في كل موقع من مواقع المواجهة، دون أن يتمكنوا من تحصيل أي مكسب حقيقي، بل كان الأمر وبالأعلى عليهم في النهاية عندما تعرضوا لهم والمسلمون لانتقام السوفيت والحلفاء وأذئابهم في القرم والبلقان.

* * *

يسلط الكتاب الضوء - كما أسلفنا - على حقبة مظلمة من التاريخ الحديث، وتشتد ظلمتها في العالم العربي؛ لأننا غافلون عن سياقها الجغرافي والتاريخي، غير ملمين بكثير من حوادثها وأشخاصها، على الرغم من الروابط التاريخية والثقافية التي تجمعنا بأهلها. والحق أن هذه الظلمة كانت عائقاً أمام عملية الترجمة ودافعاً ومحركاً لها في الوقت نفسه؛ ذلك أنها أفضت إلى صعوبات جمّة في تتبع كثير من خيوط السردية التي يقدمها إيدن، وفي نقل أسماء الأعلام والأماكن من جهة، ولكنها كانت دافعةً من جهة أخرى إلى بذل غاية الوسع في إخراج الترجمة على أحسن وجه ممكن؛ فاجتهدت ما وسعني الجهد في البحث والسؤال والمراجعة في نقل أسماء الأعلام والأماكن بردها إلى لغاتها الأصلية، التي تنوعت بين روسية وكازاخية وبشكيرية وتترية وأردية وفارسية، وفي مراجعة المؤلف في إشارات، وتلميحاته الساخرة أحياناً، واجتهدت أيضاً في التعريف بالحوادث والشخصيات والمفاهيم الضرورية إيضاحاً لتفاصيل سردية الكتاب، ثم أضفت إليه في النهاية ملحقاً بصور توضيحية وتوثيقية مهمة تكمل فائدته وتعظم نفعه.

وأودُّ في ختام هذه المقدمة الموجزة أن أتوجه بالشكر إلى الدكتور محمود إمام،
مدرّس الأدب العربي بكلية دار العلوم؛ لعنايته بالمقاطع الشعريّة المترجمة الواردة
في الكتاب، نظماً ولغةً. كما أجدّد شكري وامتناني للأخ والصدّيق العزيز، الناشر،
الأستاذ أحمد عبد الفتاح، على حُسن اختياره لما ينشر وعلى التزامه بإخراج
منشوراته في أفضل صورة ممكنة. وأهدي هذه الترجمة إلى زوجتي التي تحمّلت
انشغالي الدائم، وإلى ابني يحيى، أنبته الله نباتاً حسناً، وإلى المستضعفين كلهم ممن
لا حول لهم ولا قوة.

وبعدُ، فالله أسأل أن يهدينا سواء السبيل، وأن يتم علينا نعمته بأن يكتب القبول
الحسن لهذه الترجمة، وأن يجعلها في ميزان الحسنات الذي ترتفع به الدرجات.
والله من وراء القصد، عليه توكلت وإليه أنيب.

محمد صلاح علي

القاهرة

٥ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٢٢

شكر وعر فان



[vii] / بادئ ذي بدء، أشكر صديقي وزميلي آلن چاي فرانك (Allen J. Frank) الذي كان مصدر إلهام لي خلال المراحل التي مرَّ بها العملُ في هذا الكتاب بحثًا وتدوينًا؛ فقد تکرَّم بإطلاعي على طائفة من المصادر الحافلة بالمعلومات، وكانت مثاقفاتنا محفزةً ومُعَلِّمةً لي في كل مرحلة، وكان أيضًا أول من قرأ مخطوطة الكتاب كاملةً، وقَدَّم لي تعليقاتٍ وتصحيحاتٍ نفيسة.

لقد شرعت في العمل على هذا الكتاب حين كنتُ زميلَ بحوث ما بعد الدكتوراه بمنحة أندرو ميلون، في قسم الدراسات الآسيوية بجامعة كورنل. وقد رحَّب به هناك وغمرني بعطفه كلُّ من دان غولد (Dan Gold)، وكيث تيلور (Keith Taylor)، وكيارا فورميكي (Chiara Formichi)، وإيرين كوتميل (Erin Kotmel)، وشيلا حداد (Sheila Haddad)، وكثير من الطلبة الرائعين. وقد عرضتُ مسوِّدةَ فصلين من فصول الكتاب في مجموعة عمل بريت دو باري وميلون متعددة التخصصات (Brett de Bary Interdisciplinary Working Group)، وهي ورشة كتابة أكاديمية رائعة، سعدتُ فيها بصحبة بنجامين أندرسون (Benjamin Anderson) وراشد غويال (Raashid Goyal) وپاتريك نائيف (Patrick Naeve) وديفيد باورز (David Powers) ودانييل ريد (Danielle Reid) وآرون روك-سينغر (Aaron Rock-Singer) وأفدتُ من اقتراحاتهم.

وقد استعملتُ بعض المواد التي اشتمل عليها هذا الكتاب في «عرض توظيف» في كلية سان ماري الآسرة في ميريلاند (SMCM)، والتي أراني الآن محظوظًا لكونها بيتي الأكاديمي، ولم أتخيل قطُّ أن أجد قسمًا يسوده التجانسُ وتجمع بين أعضائه

المودة كقسم التاريخ الذي أنتسب إليه، فالشكر الجزيل والتحية العاطرة لزملائي في قسم التاريخ بكلية سان ماري: كريستين آدامز (Christine Adams) وآديانا برودسكي (Adriana Brodsky) وغاري ديني (Garrey Dennie) وتشاك هولدن (Chuck Holden) وسارة مالينا (Sarah Malena) وتشارلي ماسغروف (Charlie Musgrove) وغيل سافاغ (Gail Savage). وجزيل الشكر أيضًا للوسي مايرز (Lucy Myers) وآديان راينز (Adrienne Raines)، وكنت راندل (Kent Randell)، وبريندا رودغرز (Brenda Rodgers)، وغيرهم كثير من زملاء والأصدقاء الذين جعلوا من الكلية مكانًا أرحب وأكثر دعمًا.

وقد عرفت بعض أجزاء الفصل الثاني طريقها إلى النشر أول مرة في مقالة نشرتها بمجلة تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماعي (*Journal of the Economic and Social History of the Orient*)، وتأسست على كلمة ألقيتها في مؤتمر بجامعة هارفارد، قمتُ على تنظيمه مع باولو سارتوري (Paolo Sartori). فجزيل الشكر لباولو وللمراجعين المجهولين في مجلة تاريخ الشرق وللحضور الآخرين في هذا المؤتمر الذي لا يُنسى.

وقد قدّم لي كثيرٌ من الأصدقاء والزملاء من الدعم والنصيحة ما لا يُقدَّر بثمن في هذا المشروع، وأخص بالشكر ألفريد بوستانوف (Alfrid Bustanov)، وديفين دو ويس (Devin DeWeese)، والمراجعين المجهولين في مطبعة جامعة أوكسفورد، وأعبر عن شديد امتناني لبريد نولان (Brid Nowlan)؛ لذكائها وجديتها في تحرير / [viii] مخطوطة الكتاب. ولقد أزعجتُ العديد من الأصدقاء والزملاء الآخرين في أثناء عملي على هذا المشروع، لا بأجزاء من مخطوطه، بل برسائلي الإلكترونية التي حثّها الكافيين، والصور الساخرة «الميمز»، ورسومات «الكوميكس» الغامضة؛ فإليهم جميعًا أسوق الشكر لسعة صدرهم وصدق مودتهم، وهما أمران مفيدان في تعزيز الروح المعنوية للباحث غاية النفع، شأنهما في ذلك شأن أي تشجيع أكاديمي. لقد درستُ تاريخ الاتحاد السوفيتي أو اللغات المنطوقة هناك أو كليهما معًا على عددٍ من كبار المعلمين؛ فأودُّ أن أسوق الشكر إلى كاغان أريك (Kagan Arik)،

وآنا بوبروف (Anna Bobrov)، وبيثاني بريلي (Bethany Braley)، وديفين دو ويس،
وثاديوس فورتني (Thaddeus Fortney)، ومالك خوچاييف (Malik Hodjaev)،
وتشاد كيا (Chad Kia)، وأوليه كوتسيوبا (Oleh Kotsyuba)، وتيري مارتن (Terry
Martin)، ونتاليا رييد (Natalia Reed)، ورون سيلا (Ron Sela)، وويلر مكتوش
تاكستون (Wheeler M. Thackston) وداليا يشارپور (Dalia Yasharpour).

ولكل طلّابي السابقين والحاليين، أقول: إن وجودي في قاعة الدرس معكم هو
أكبر ملهم لي ومن أعظم متعي في الحياة.

وبعد، فإنني أهدي كتابي هذا لجدي لأبي روبرت إ. إيدلسبرغ (Robert E.
Eidelsberg) (١٩٢١-١٩٩٨) وجدي لأمي إيزيدور «إرفنغ» حنين (Isidore
"Irving" Hanin) (١٩١٨-١٩٩١) اللذين انضمّا إلى صفوف الجيش الأمريكي
إبان الحرب العالمية الثانية؛ حيث خدم حنين جنديًا في اليابان والفلبين، وأقلع
الملازم أول إيدلسبرغ ضمن حملات طائرات (B-24) على ألمانيا ضمن مجموعة
طائرات القصف رقم ٤٥٨.

وأخيرًا، شكرًا لآشلي (Ashley)، نور حياتي.

قائمة الاختصارات



- [ix] (AkadNkKaz): أكاديمية جمهورية كازاخستان الوطنية للعلوم؛ مدينة ألماتي.
- (AkadNkTat): أكاديمية جمهورية تترستان للعلوم؛ مدينة قازان.
- (CARC): مجلس الشؤون الدينية.
- (CAROC): مجلس شؤون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.
- (DUMSK): مجلس النظارة الدينية لمسلمي شمال القوقاز.
- (DUMZAK): النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز.
- (GARF): سجل المحفوظات الحكومي لروسيا الاتحادية؛ موسكو.
- (HPSSS): مشروع هارفارد عن النظام الاجتماعي السوفييتي؛ كامبردج،
ماساشوستس.

IIIIP: Boltina, V.D. and L.V. Sheveleva, *Iz istorii islama v Pavlodarskom Priirtysh'e 1919–1999: sbornik dokumentov*. Pavlodar: EKO, 2001.^(أ)

ISG3: Arapov, D.Iu., and G.G. Kosach, eds. *Islam i sovetskoe gosudarstvo (1944–1990)*. Sbornik Dokumentov. Vypusk 3. Moscow: Mardzhani, 2011.^(ب)

(أ) فيرادميتريفنا بولتينا ولودملا فاسيليفنا شفلغا، من تاريخ الإسلام في منطقة بافلودر إرتش ١٩١٩–

١٩٩٩: وثائق مجمعة (بافلودر، ٢٠٠١). (المترجم)

(ب) دميتري أرابوف وغريغوري كساتش (محرران)، الإسلام والدولة السوفييتية (١٩٤٤–١٩٩٠)

(موسكو، ٢٠١١). (المترجم)

(NatArchGE): سجل المحفوظات الوطنية في جورجيا؛ مدينة تبليسي.

(NKGB): مفوضية الشعب لأمن الدولة.

(NKID): مفوضية الشعب للشئون الخارجية.

(NKVD): مفوضية الشعب للشئون الداخلية.

(OMSA): المجلس الديني لمسلمي أرنبورغ.

PDDUM: Akhmadullin, V.A. Patrioticheskaia deiatel'nost' dukhovnykh upravlenii musul'man v gody velikoi otechestvennoi voiny. Moscow: Islamskaia kniga, 2015⁽¹⁾.

(PURKKA): الإدارة السياسية لجيش العمّال والفلاحين الأحمر.

(RGASPI): سجل محفوظات الدولة الروسي للتاريخ الاجتماعي السياسي؛

مدينة موسكو.

RPTs: Vasil'eva, O.Iu., I.I. Kudriavtsev, L.A. Lykova, eds. *Russkaia pravoslavnaia tserkov v gody Velikoi Otechestvennoi voiny, 1941– 1945 gg. Sbornik dokumentov.* Moscow: Izd. Krutitskogo podvor'ia Obshchestvo ljubitelei tserkovnoi istorii, 2009.^(ب)

(RSFSR): جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية.

(SADUM): النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان.

(SNK): مجلس مفوضي الشعب.

(Sovinformburo) / [x] مكتب المعلومات السوفيتي.

(أ) عبد الله أوفيتش أحمدلن، العمل الوطني للنظارات الدينية الإسلامية في الحرب الوطنية الكبرى (موسكو، ٢٠١٥). (المترجم)

(ب) الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في الحرب الوطنية الكبرى (١٩٤١-١٩٤٥): وثائق مجمعة (موسكو، ٢٠٠٩). (المترجم)

(Sovinformburo): النظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا.

(TsUNKhU): الإدارة المركزية للمحاسبة الاقتصادية القومية.

VRGV: Odintsov, M.I. *Vlast' i religii v gody voiny. Gosudarstvo i religioznye organizatsii v SSSR v gody Velikoi Otechestvennoi voiny. 1941-1945.* Moscow OOO "Favorit," 2005⁽¹⁾.

(VTsIK): اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا.

(أ) ميخائيل أدينتسوف، السُلطة والدين في الحرب: الدولة والمنظمات الدينية في الاتحاد السوفيتي في الحرب الوطنية الكبرى (١٩٤١-١٩٤٥)، (موسكو، ٢٠٠٥). (المترجم)



مدخل:

الجدل حول «الثورة الدينية» في زمن الحرب

/ في أثناء الحرب العالمية الثانية، وُضع حدٌ لما مُورس في السنوات السابقة [١] عليها من قمع سوفيتي وحشي للأديان، وأوكل ستالين للزعامات الدينية في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي، وكان بعضهم قد خرج لتوّه من معسكرات الاعتقال، مهمّة تعبئة المواطنين لخوض «حرب مقدسة» ضد هتلر. وفي الوقت نفسه، شارك مواطنون يدينون بديانات مختلفة -يحدوهم الاقتناع بأن عهدًا جديدًا من التسامح الديني قد انبلج صُبحه- فيما يمكن اعتداده ثورة في الحياة الدينية السوفيتية؛ فأقام الجنود الصلوات على الجبهة، واحتفلت قرى كاملة بأعياد كان الاحتفال بها فيما مضى أمرًا محظورًا، واستعملت الزعامات الدينية التي حظيت بدعم الدولة مناصبها الجديدة، لا في ترسيخ سلطتها على جماعاتها الدينية فحسب، بل في التماس مزيد من الحريات الدينية أيضًا.

يروى كتابنا هذا قصة هذه «الثورة الدينية» ويحاول تفسيرها، مُرَكِّزًا على المسلمين السوفيت المنحدرين من مناطق آسيا الوسطى والقوقاز-أورال والقوقاز، الذين قاتل ملايين منهم في صفوف الجيش الأحمر، أو عملوا في الجبهة الداخلية لدعم المجهود الحربي. والحقُّ أنه ليس كتابًا عن كفاحهم ضد النازيين، بل عن دينهم في زمن الحرب؛ عن الكيفية التي حُشد بها الدين أداة جديدة في پروباغندا الدولة، والكيفية التي انحسر بها القمع الديني ثم بدّل جِلده، وكذلك الكيفية التي تجاوزت بها الجماعات المسلمة السوفيتية مع بزوغ فجر الحريات الدينية غير المسبوقة، التي رعّت الدولة بعضها، وتحقّق بعضها الآخر بفضل عجزها أو عدم اكتراثها.

ورغم ما شاع من أساطيرٍ عن انتصار الإلحاد السوفييتي، فقد استطاع الكثير من المواطنين النجاة بهويتهم والمحافظة على إيمانهم من القمع الوحشي الذي مسَّ الأديان في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، وهو ما لاحظته ستالين بوضوح، ووثَّقه المسؤولون السوفييت على نحو مطَّرد، عامًا بعد عام، في تقارير سرية مضطربة أو غاضبة نائرة. وكانت حيوية الدين هذه هي ما كان ستالين يطمح إلى استغلاله حين سعى إلى الحصول على مساعدة الزعامات الدينية، المسيحية والمسلمة والبوذية واليهودية وغيرها، في دعوة المواطنين إلى خوض غمار الحرب^(١). وبعثها

(١) يوشك الإجماع أن يتعقد على أن زمن الحرب لحظة محورية في تاريخ الدين في الاتحاد السوفييتي. إلا أن الكتابات التاريخية الكثيرة المكتوبة بالإنكليزية عن الحرب العالمية الثانية لم تتطرق في غالبيتها إلى مسائل الدين المتعلقة بالمسلمين السوفييت، أو مسلمي دول الحلفاء في المجمل، والذين قاتل أغلبهم في الجيش الأحمر السوفييتي. فمثلًا، لاحظ يعقوب روثي (Yaacov Ro'i)، في دراسته العميقة عن تعامل البيروقراطية السوفييتية مع الإسلام، أن عهد الحرب مثل منعطفًا حاسمًا، وقد اشتمل عنوان الكتاب الفرعي على عبارة «الحرب العالمية الثانية»، لكن التعليق على هذه السنوات المحورية لا يشغل إلا أربع صفحات من كتابه، انظر:

Ro'i, *Islam in the Soviet Union: From the Second World War to Gorbachev* [New York: Columbia University Press, 2000], 102–105.

وأما أفضل كتاب صدر في الآونة الأخيرة عن الإسلام السوفييتي، وهو كتاب إرين تاسار (Eren Tasar) السوفييتي والمسلم (*Soviet and Muslim*)، فيبدأ بفصل عنونه: «الحرب العالمية الثانية والوطنية السوفييتية المستلهمة من الإسلام»، لكنه لا يناقش الحوادث التي وقعت خاصة في سنوات الحرب بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥ إلا في إحدى عشرة صفحة من ثلاثة وستين صفحة هي قوام هذا الفصل، انظر:

Tasar, *Soviet and Muslim: The Institutionalization of Islam in Central Asia* [New York: Oxford University Press, 2017], 15–16, 46–50, 53, 57, 75–76.

وعلى عكس ذلك، نجد ما لا يقل عن تسعة كتب صدرت بالإنكليزية منذ عام ٢٠٠٧ عن الجوانب الدينية للتحالفات بين المسلمين وقوى المحور. أفضلها بلا شك كتاب ديفيد معتدل (David Motadel) الشهير (*Islam and Nazi Germany's War*) الصادر عن منشورات جامعة هارفارد في عام ٢٠١٤ [وقد ترجمت هذا الكتاب في عام ٢٠٢١ إلى العربية، وصدر عن ناشر كتابنا هذا بعنوان: في سبيل الله والقوهر: النازيون والإسلام في الحرب العالمية الثانية - م]. ونجد كذلك أعمالاً أخرى؛ مثل:

المؤسسات الدينية بعد موات وتعزيزها إياها، أسست الحكومة السوفيتية نظامًا مزدوجًا للبروباغندا الموجهة لـ «الأقليات القومية» المسلمة في البلاد^(٢). فمن

= David G. Dalin and John F. Rothmann, *Icon of Evil: Hitler's Mufti and the Rise of Radical Islam* (New York: Random House, 2008); Barry Rubin and Wolfgang G. Schwanitz, *Nazis, Islamists, and the Making of the Modern Middle East* (New Haven, CT: Yale University Press, 2014); Chuck Morse, *The Nazi Connection to Islamic Terrorism: Adolf Hitler and Haj Amin al-Husseini* (Washington, DC: WND, 2010); Jeffrey Harf, *Nazi Propaganda for the Arab World* (New Haven, CT: Yale University Press, 2009); Edwin Black, *The Farhud: Roots of the Arab-Nazi Alliance in the Holocaust* (Dialog Press, 2010); Klaus-Michael Mallmann and Martin Cüppers, *Nazi Palestine: The Plans for the Extermination of the Jews in Palestine* (Philadelphia: Enigma Books, 2013); Francis R. Nicosia, *Nazi Germany and the Arab World* (Cambridge: Cambridge University Press, 2014); and Matthias Küntzel, *Jihad and Jew-Hatred: Islamism, Nazism, and the Roots of 9/11* (New York: Telos Press, 2007).

وكان أكبر فوج مسلم معروف يقاتل مع النازيين هو الفيلق التركستاني المكوّن من قرابة ثلاثين كتيبة من مسلمي القوقاز وآسيا الوسطى. وفي المجمل، نجد أنه ربما قاتل مع النازيين ما يقرب من مائة وثمانين ألف (١٨٠.٠٠٠) مسلم سوفيتي سابق. وهو رقم كبير، لكننا إذا وضعناه في سياقه، تبين لنا أنه أقل من نصف عدد الجنود الكازاخ في الجيش الأحمر، الذين كانت أغليبتهم الساحقة من المسلمين. وعلى نطاق أوسع، نشرت ساياكا تشاتاني (Sayaka Chatani) دراسة رائعة عن رعاية الاستعمار الياباني الذين تطوعوا للدفاع عن اليابان، انظر:

Nation-Empire: Ideology and Rural Youth Mobilization in Japan and Its Colonies (Ithaca: Cornell University Press, 2018).

(٢) على الرغم من أنه يصعب علينا الوقوف على تقدير قاطع لإجمالي عدد المسلمين الذين حاربوا في صفوف الجيش الأحمر على امتداد الحرب، فإننا نجد عددًا قليلًا من التقديرات للعدد الإجمالي للمجنّدين من المناطق ذات الأغلبية المسلمة تثبت أن عددهم في المجمل كان بالملايين. فمن بين الكازاخ، قاتل ما يقرب من أربعمئة وخمسين ألف (٤٥٠,٠٠٠) جندي على الخطوط الأمامية، وستمئة وواحد وثمانين ألفًا (٦٨١,٠٠٠) آخرين من أذربيجان، ومائة وستة وعشرين ألفًا (١٢٦,٠٠٠) من داغستان.

Roberto J. Carmack, *Kazakhstan in World War II: Mobilization and Ethnicity in the Soviet Empire* (Lawrence, KS: University Press of Kansas, 2019), 12; Martha Brill Olcott, *The Kazakhs* [Washington, DC: Hoover Press, 1987], 188; A.B. Iunusova, ed., 225 let =

[٢] تمجّد / «صداقة» الشعوب السوفييتية كلها، وتُعلي من شأن الدفاع عن الاشتراكية التي هي موضع إجماع هذه الشعوب. ومن ناحية أخرى، وكُلت إلى بعض النُخب المختارة من المسلمين مهمةٌ تدشين دعوة تعبئة موازية، تتسم بطابع إسلامي واضح. ولقد صاغت هذه النُخب المسلمة المجهود الحربي بلُغة الجهاد الإسلامي القديم، في خُطب ومقولات أشبه بالفتاوى؛ فاستعملت القرآن كما عنَّ لها، واستعملت بعض الأحاديث الملائمة والمعروفة المروية عن النبي محمد [ﷺ]، وأُعلن هتلر عدوًا للإسلام على الخصوص، لا يسعى إلى استئصال مسلمي العالم فحسب، بل ومحو تراثهم وتدمير مقدّساتهم كذلك. وعُدَّ الجنود أيضًا «مجاهدين»، وسُمّيت الحرب غزاةً وجهادًا. وانظر كيف خاطب الإمام المسلم المنحدر من آسيا الوسطى، والمدعوم من الدولة، إيشان باباخان أو إيشان باباخانوف (Ishan Babakhanov)^(١)

= *Tsentrāl'nomu dukhovnomu upravleniiu musul'man rossii: Istoricheskie ocherki* [Ufa, 2013], 264.

وفي غير الاتحاد السوفييتي، نجد أن سبعمائة ألف (٧٠٠.٠٠٠) مسلم آخريين قاتلوا في الجيش الهندي، وربما تسعمائة ألف (٩٠٠.٠٠٠) من رعايا المستعمرات في شمال إفريقيا ذات الأغلبية المسلمة قاتلوا في صفوف فرنسا.

Xavier Bougarel, Raphaëlle Branche, and Cloé Drieu, "Introduction," in Xavier Bougarel, Raphaëlle Branche, and Cloé Drieu, eds., *Combatants of Muslim Origin in European Armies in the Twentieth Century: Far from Jihad* [London: Bloomsbury, 2017], 2-3.

وقد انضم عدد أقل من ذلك من الجنود المسلمين، وإن كان كبيرًا في ذاته، إلى صفوف الحلفاء في جنوب شرق آسيا والولايات المتحدة الأمريكية والبلقان.

(أ) شيخ الإسلام إيشان باباخان بن عبد المجيد خان بن يونس خان بن أيوب خان، عالمٌ وإمام إسلامي كبير، انتهت إليه رئاسة العلم والعلماء في آسيا الوسطى وكازاخستان منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى وفاته في منتصف القرن العشرين. وقد وُلد في عام ١٨٥٨ في مدينة طشقند إبان عهد خانية قوقند، وكان أبوه عبد المجيد بن يونس خوجه خان رئيسًا لمدرسة «موي مبارك» (Муи-Мубарак) العريقة، وتتسبب العائلة إلى محمد بن الحنفية، ابن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما. درس باباخان علوم الشريعة على يد أبيه وجده، ثم في مدرسة «مير عرب» بمدينة بخارى، وهناك تعمق في تصوفه على الطريقة النقشبندية، وانتقل إلى مدرسة «كوكلداش» أكبر مدارس طشقند حيث تضرّع =

جمهورية حاضاً إياه على خوض غمار القتال (في خطبة ترجمناها هنا من أوزبكية مكتوبة بالحرف العربي)⁽³⁾:

«لقد أرسل مسلمو تركستان وكازاخستان بفلذات أكبادهم،
رفقة الشعوب السوفيتية كلها، إلى هذا الجهاد العمومي المقدس

= في علوم الفقه والعقيدة والكلام والحديث. وبحلول أواخر القرن التاسع عشر تولى إمامة مسجد «طلا شيخ» [تلة الشيخ] في قلب مدينة طشقند، وأمسى أحد أكبر فقهاء المدينة ووجهائها وله كلمة مسموعة بين أهلها. وأدى فريضة الحج في عام ١٩١٢، في رحلة استغرقت ستة أشهر. وعندما اشتعلت ثورة أكتوبر في عام ١٩١٧، وقف إيشان باباخان في صف الثورة حذراً، ودعا المسلمين إلى عدم الانشغال بالشئون الدنيوية والتكيف مع الظروف الجديدة. لكن ذلك لم يُعفه من حملات القمع الدينية التي شنتها الاتحاد السوفيتي بدءاً من عام ١٩٢٤؛ إذ صودرت أمواله وأموال عائلته كلها في عام ١٩٢٨، وطُرد أصغر أبنائه من المدرسة، واضطر للهروب والاختباء هو وأبناؤه جميعاً حتى هدأت الأمور. لكن الحملات تجددت إبان الإرهاب الستاليني الكبير في عام ١٩٣٧، واعتُقل هو وابنه زين الدين بتهمة التعليم الديني، وأُرسلا إلى معسكرات الغولاغ الرهيبة في بورياتيا بسبيريا، ثم أُطلق سراحه بعد فترة، لكن ابنه مات هناك في عام ١٩٣٨، واعتُقل هو مرةً أخرى في عام ١٩٤١ مدة قصيرة.

ولهذا كله، كان معقولاً أن تختار السلطات السوفيتية باباخان ليكون وجه سياستها الدينية الجديدة، التي كانت -كما يفصل الكتاب- تحولاً درامياً فرضته ظروف الحرب واحتياجاتها. فأسس رفقة علماء آخرين «النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان» في عام ١٩٤٣، وانتخبه أعضاؤها رئيساً بالإجماع، وتبرع بيته ليكون مقرّاً لها، وبأكثر من ألف كتاب ومخطوطة لمكتبتها، وظل رئيساً للنظارة حتى وفاته في عام ١٩٥٧ عن تسعة وتسعين عاماً، ودُفن في ضريح الإمام القفال الشاشي في طشقند.

وقد ورد اسم الشيخ إيشان باباخان بأكثر من صيغة في الكتابات العربية والإنكليزية والروسية، مثل: إيشون وإيشون وإشان، وباباخان وباباخانوف. وقد اخترنا كما أسلفنا في المقدمة ردّ الأسماء إلى أصولها قدر الإمكان، مع النصّ على ما ذكره المؤلف في أول ذكرٍ للاسم. وبعد بذل الوسع، انتهينا إلى أن الاسم الأول للإمام هو (إيشان) وهو لقبٌ منتشر بين مسلمي آسيا الوسطى في الإشارة إلى مشايخ الصوفية، ويُردُّ في أصله إما إلى اللغة الجغتائية بمعنى «الرجل الطاهر» أو «الولي»، أو اللغة الفارسية بمعنى «هم»؛ إذ كان يُحظر ذكر أقطاب الصوفية بأسمائهم الأولى، فاستُخدم الضمير هم في الإشارة إليهم احتراماً وتوقيراً. أما الاسم الثاني، فقد خلصنا إلى أنه (باباخان) وليس باباخانوف؛ لأن هذا الثاني إنما يُذكر في أسماء أبنائه وأحفاده؛ إذ تُضاف إلى أسمائهم نسبة (وف/ob/ov) التي تشير إلى اسم الأب أو الجد. (المترجم)

(3) AkadNkKaz MS 123 VII, 7-8.

(*umūmī va muqaddas jihād*) وهذه الغزاة. وطفقوا كأبائهم يقرأون لهم الفاتحة الشريفة ويؤدعونهم، أملين انتصارهم ومحقق عدوهم ... فمن جاد من المسلمين بنفسه في سبيل الله والدين فهو شهيد، ومن ذبح الأعداء، أهل الفتن الملعونين، فهو من الغزاة والمجاهدين المقاتلين في سبيل الله.

إن النُخب المسلمة المدعومة من السوفييت، من أمثال باباخان، لم تُعينهم الدولة رجاء «إحياء» الإسلام، بل توجيهاً له وتحكماً فيه من خلال استغلال التيارات الدينية القائمة فعلاً في المجتمع السوفييتي؛ ذلك أن الدولة رأت في «السيطرة» على الدين خطوةً مهمّةً على طريق القبر الذي تحفره له. على أن هذا الانتصار النهائي ظل بعيد المنال؛ إذ كان مؤدّى الفرضية - التي تردّد صداها بين شاغلي المناصب العليا في الحكومة - بأن ثمة أرضاً خصبةً واسعةً لهذه «البروباغندا الدينية»، أن كبار المسؤولين السوفييت، وفيهم ستالين، أيقنوا أن حملاتهم الإلحادية متعدّدة الأوجه، التي امتدّت بضعة عقود، قد باءت بالفشل. بيد أن هذا الفشل لم يُنظر إليه على أنه مشكلة مستقلة، بل كان جانباً مما تردّد كثيراً حول عجز الدولة عن التغلب على «البقايا» (*perezhitki*)⁽¹⁾ الثقافية الرجعية التي تعود إلى الماضي قبل السوفييتي. ولقد ذكر أديب خالد (*Adeeb Khalid*) أنه بعد الغزو النازي «اعتمد ستالين في المجهود الحربي - بكلّ صفاقة - على مصادر الشرعية التقليدية؛ فأحيا النظام أبطال الإمبراطورية الروسية، وردّ الاعتبار لتقاليد الجيش الإمبراطوري الروسي، وتصالّح مع الدين ... / ووضع حدّاً لاضطهاد مظاهر التدين؛ ففتحت الكنائس والمساجد، وأُذن للمنظمات الدينية بالتنام هيئاتها

(1) بقايا (*пережитки-Survivals*) الماضي هي ما يبقى متجدّراً من جوانب الحياة الإنسانية (من قبيل العلاقات أو المعايير أو القيم أو أنماط العيش أو الأفكار أو الرؤى أو الأمزجة) من نظام اجتماعي سابق (رأسمالي برجوازي في حالتنا هذه) إلى نظام اجتماعي (اشتراكي) نشأ حديثاً. وقد استعملها ماركس وإنغلز، ومن ورائهما النظام السوفييتي، في الإشارة إلى أن المجتمع الاشتراكي الجديد لا يتغلّب تغلباً نهائياً يسيراً على التراث «الرجعي المحافظ» للنظم الرأسمالية التي أسقطها، وأنه يجب عليه مقاومتها مقاومةً يقظة. (المترجم)

بعد طول انقطاع. لقد كان النظام في حاجة ماسّة لكل مساعدة، ولقد أثبتت الزعامات الدينية ولاءها»⁽⁴⁾.

لقد يَسَّر ظهور بعض المصادر الجديدة المثيرة، في السنوات الأخيرة، دراسة الآثار الناشئة عن هذه التطورات التي وقعت زمنَ الحرب بعمق غير مسبق؛ ذلك أن مجموعات مطبوعات زمن الحرب ووثائق المحفوظات المرقمنة ومجموعات الوثائق المنشورة، بالإضافة إلى الدراسات التاريخية المحلية، كشفت الغطاء عن عالم قوامه الشُّعر والفلكلور الديني، وعن حياة دينية وشعائرية حافلة، وكشفت كذلك عن صمود العائلات ذات الأنساب الطاهرة الشريفة إبان الحقبة السوفييتية⁽⁵⁾.

(4) Khalid, *Islam after Communism* (Berkeley: University of California Press, 2014), 78.

(5) اتسمت جميع المصادر المتعلقة بالحياة الدينية للمسلمين السوفييت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، تلك الفترة الفاصلة؛ والبحوث المكتوبة عنها، بالضعف الشديد. ولم تكن ندرة البحوث هذه مقصورة على الدين، بل امتدت لتشمل المناطق ذات الأغلبية المسلمة. فقد ذكر إرين تاسار أن تاريخ آسيا الوسطى (مثلاً) «ظل في الثلاثينيات والأربعينيات غير مدروس في البحوث الغربية وبحوث آسيا الوسطى معاً» (Tasar, *Soviet and Muslim*, 45). وحينها كان هناك إجماع معقول بين كبار المؤرخين على أن الإسلام السوفييتي لا نافذة عليه إلا عيون المصادر «الرسمية»، أي عيون عملاء الحكومة الملحدة المتشددة، انظر:

Adeeb Khalid, "Searching for Muslim Voices in Post-Soviet Archives," *Ab Imperio* 4 [2008], 304;

وعن صورة مخالفة، وأكثر تفاؤلاً إلى حدّ ما، انظر:

Paolo Sartori, "Toward a History of the Muslim's Soviet Union: A View from Central Asia," *Die Welt des Islams* 50 [2010], 325; and Michael Kemper, *Studying Islam in the Soviet Union* [Amsterdam: Amsterdam University Press, 2008].

ويلخص تاسار الأزمة المزمّنة قائلًا: «إن كثيرًا من النصوص التي وضعها علماء الإسلام خلال الحقبة السوفييتية، من قبيل الشعر الديني وتراجم العلماء، ظلت حبيسة دور المخطوطات، ومخبأة في مكاتب عائلاتهم الخاصة، وهي على ذلك حتى الآن غالبًا، ولم تنزل الجهود الرامية إلى اكتشافها ودراستها في مهدها»، انظر:

Tasar, *Soviet and Muslim*, 13.

والواقع أن ظهور مكتبة حقيقية من المصادر السوفيتية الإسلامية في سجلات المحفوظات والمجموعات الخاصة لهو ظاهرة مفاجئة وحديثة، حتى إن التكامل السلس بين الموضوعات السوفيتية والإسلامية في شطر من هذه الأدبيات يثير العجب حقاً؛ فانظر مثلاً إلى هذا الانتقال الموضوعي من التعزية إلى الحزب الشيوعي في إحدى قصائد أسرى الحرب العالمية الثانية، وهي القصيدة التي تُرجمت هنا عن اللغة القومية، ويرجع تاريخها إلى عام ١٩٤٢^(٦):

آهة مكتومة آه .. حياتي	تبلع الأرضُ السوادُ الأمنيات
إخوتي سوف يعانون غيابي	يلبس الأسود حزناً أخواتي
زوجتي تنكح زوجاً آخرًا	والبكا حق لأمي للممات
«إلمو» أختي، تواصل الحزن عليّ	يأخذ الرفاق حقَّ التعزيات

* * *

فليحيا حزب الشيوعية	فليحيا حزب الشيوعية
ليصنع بهذا القهر	طريقاً للحرية!

لقد أُلّف قرويُّ داغستاني هذه القصيدة «سرّاً»، ثمَّ اكتشفها باحثٌ في الفلكلور السوفيتي بعد ذلك بسنوات، ولم تُنشر في حياة كاتبها قطُّ. وثمَّة قصائد كثيرة من جنس هذه القصيدة، وسنرى نماذج أكثر من الشعر في الفصل الرابع^(٧).

(٦) السطور الأخيرة في الأصل القومي نصها:

"Taziyatda yoldashlar ëre turar. / Yasha—yasha, kommunist partiyasi, / bu zulmunu azatlyq yolgha burar" A.M. Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dagestana o Velikoi Otechestvennoi voine* (Makhachkala: Dagestanskii nauchnyi tsentr Rossiiskoi akademii nauk Institut iazyka, literatury i isskuštva im. Gamzata Tsadasy, 2006), 37.

(٧) يُتم آلن ج. فرانك (Allen J. Frank) في هذه الأثناء كتاباً عن شعر المسلمين الكازاخ في زمن الحرب، مستنداً إلى المئات من قصائد جنود الجيش الأحمر، وهي حافلة بالصور والموضوعات الدينية. انظر:

Frank, *Kazakh Muslims in the Red Army, 1939-1945* (Leiden: Brill, 2022)

وفي الوقت الذي تخرج فيه للنور المصادرُ الإسلامية السوفيتية «غير الرسمية» كالرسائل والقصائد غير المنشورة، تجري إعادة نظرٍ لا بدَّ منها في المصادر الحكومية «الرسمية» التي تناول الإسلام. فمن ناحية، تحفل مصادر العهد السوفيتي عن الإسلام -البيروقراطي منها والأكاديمي- بفرضيات واهية مفتقرة إلى الدقَّة، وأوهام غمرها الشكُّ وهيمن عليها الانشغال بتوافه من قبيل دعاوى تأمر شيوخ الصوفية على إثارة انتفاضات مناهضة للسوفيت^(٨). ويتداول آخرون / أكاذيب تشبه أكاذيب الصحافة [٤] الصفراء عن «الهمجية البدائية» لشعائر المسلمين في حياتهم اليومية^(٩). أي أنه يسهل

= ويطيب لي الإعراب عن شكري وامتناني للدكتور فرانك؛ إذ أتاح لي الاطلاع على مسودة عمله الرائد، التي ألهمتني طوال مدَّة تألّفي هذا الكتاب.

(٨) إن هذا التصور الذي أجمع المؤرخون في العقدين الماضيين على رفضه، كان مقبولاً بحماس لدى محلّلي الإسلام السوفيتي الغربيين إبان الحرب الباردة. ومن هنا، نجد صامويل إندرز ومبوش (S. Enders Wimbush) وألكسندر بينغسن (Alexandre Bennigsen) يقولان: «إن الإسلام الصوفي عدو واضح للسلطة السوفيتية، في حين أن المؤسسة الإسلامية الرسمية توالياً وتخضع لها»، وإن المتصوفة يرون الشيطان قد تجسد في السُلطة السوفيتية، وفي المقابل تنظر السُلطات السوفيتية إلى الأخويات بوصفها انحرافاً خطيراً يجب القضاء عليه». انظر:

Mystics and Commissars: Sufism in the Soviet Union [London: C. Hurst, 1985], 40; 111.

وانظر أيضاً:

Bennigsen and Marie Broxup, *The Islamic Threat to the Soviet State* (London: Croom Helm, 1983).

(٩) فمثلاً، نجد فلاديمير نيقولايفيتش باسيلوف (V.N. Basilov) وك. ك. كوباكوف (K.K. Kubakov)، وهما اثنان من النشطاء المناهضين للدين في العهد السوفيتي، وكانا كذلك إثنوغرافيين بارزين، يزعمان محدّرين أنه في القرن التاسع عشر، كانت القرابين البشرية تُقدَّم في احتفالات تطهير الترع في آسيا الوسطى؛ حيث قالوا: «كانت القرابين تُكَمَّل بناء ترع الري وتطهيرها في آسيا الوسطى. ففي الغالب، كانت الحيوانات تُذبح ويُجعل مجرى دمائها في الماء، لكن في القرن الماضي، لجأ الأوزبك والطاجيك للتضحية بالبشر ملجأً أخيراً».

(Basilov and Kubakov, "Survival of Pre-Muslim Beliefs in Islam," in S.C. Dube and V.N. Basilov, eds., *Secularization in Multi-Religious Societies: Indo-Soviet Perspectives* [New Delhi: Indian Council of Social Science Research, 1983], 228).

وبعدها بعامين، أثنى بينغسن ومبوش على عمل باسيلوف بوصفه «عملاً علمياً أصيلاً». انظر:

Mystics and Commissars, 133.

علينا فهم السبب الذي دعا كبار المؤرخين، من أمثال ميشيل كيمبر (Michael Kemper)، إلى التحسُّر على الاستعمال غير النقدي لهذا النوع من المصادر، ليخلص إلى أنه لا يجب علينا تجاهل هذا النوع من المصادر فحسب، بل يتعيَّن علينا أيضًا تجاهل كلِّ مصدر كتبه السوفييت من غير المسلمين عن نظرائهم المسلمين^(١٠). ومن ناحية أخرى، في حين لم تُذكر الانتفاضة المُدعاة للمتصوفة الجوّالين قطُّ في أنواع أخرى من المصادر، كالمقابلات والمذكرات والالتماسات التي كتبها مسلمون، فإن الأنشطة الدينية اليومية التي رثى بشأنها البيروقراطيون كثيرًا ما وردت في المصادر. وفوق ذلك، يمكن للقراء الواعين بتحيزات «المصادر الملحدة» (atheist sources) السوفييتية أن يقرأوها قراءة مخالفة للمعهود؛ إذ إن هذه التحيزات - ككلِّ الاستعارات «السوفييتية» - تفتقر إلى الحذق إلا فيما ندر، كما أنها تميل في الغالب إلى صيغ واضحة يسهل إدراكها. فعلى سبيل المثال، ووفقًا لما وصفه ديفين دو ويس (Devin DeWeese)، يمكن للقارئ الفطن - فيما يتعلّق بالممارسات الشعائرية التي صوّرها السوفييت على أنها «شامانية»^(١١) وثنية أو «بقايا جاهلية» - أن يحدّد على نحو يسير التقاليد الإسلامية الشائعة والثابتة، الموجودة في جميع أنحاء العالم الإسلامي^(١١).

= وكذلك:

Jeff Eden, "A Soviet Jihad against Hitler: Ishan Babakhan Calls Central Asian Muslims to War," *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 59 (2016), 241-246.

(10) Devin DeWeese, "Islam and the Legacy of Sovietology: A Review Essay on Yaacov Ro'i's *Islam in the Soviet Union*," *Journal of Islamic Studies* 13/3 (2002), 298-330.

كتب كيمبر قائلاً: «إنني أميل إلى القول بأن الكتابات السوفييتية عن الإسلام، شأنها شأن نظيراتها الغربية في زمن الحرب الباردة، يجب تجاهلها بالكامل، إلا في حال دعمتها شهادات من المسلمين أنفسهم».

Studying Islam in the Soviet Union, 21.

(أ) الشامانية: توصيف لممارسات دينية يقوم بها شخصٌ يدعي أن له تواصلًا مع عالم الأرواح الغيبي عندما يكون في حالة غيابٍ عن الوعي. وهي ممارسات كانت ذائعة الانتشار في الديانات القديمة في سيبيريا وآسيا الوسطى. (المترجم)

(١١) انظر مثلاً:

وأخيراً، فإن الحدَّ الفاصل بين المصادر «الرسمية» والمصادر «غير الرسمية» يعتريه الالتباسُ أحياناً (وهي مشكلة سنعرض لها في الفصل الخامس). وإن شئت فانظر -على سبيل المثال- إلى المصادر التي وضعتها النُخب المسلمة المدعومة من الدولة زمنَ الحرب، والتي سنعرض كثيرًا منها في تضاعيف هذا الكتاب، فهل هي مصادر «رسمية»؟ لقد كانت هذه النُخب المسلمة تعمل لدى مؤسسة حكومية معيّنة أو بموافقتها على الأقل، لكن خلفيتها وتوجُّهها يختلفان تمامًا عن خلفية البيروقراطي الملحد القابع في موسكو وتوجُّهه، والجمعُ بين الأمرين معًا يعمِّي أكثر مما يجلِّي. والحقُّ أن أكثر النُخب التي استغلَّتْها الحكومة السوفيتية زمنَ الحرب كانوا «شيوخًا» يعتزُّون إلى أنساب إسلامية شريفة، وترجع رئاستهم الدينية وحظوتهم إلى عهد القياصرة، بل إلى ما قبل هذا العهد في حالاتٍ كثيرة. فمن ذلك مثلاً أن باباخان الذي مرَّ بنا آنفًا، وُلد في عام ١٨٥٨ وُزَّجَّ به في غياهب السجون السوفيتية مرتين، وأُطلق سراحه في المرة الثانية قبيل اندلاع الحرب. وكان باباخان «موظفًا سوفيتيًا» من نوع لم يُعهد من قبل على أقل تقدير. وكما سنرى، لم تكن أوروبا عندما التي قام عليها تأتية من موسكو ثمرةً «لا شوب فيها» مفروضةً عليه من أعلى، بل كانت خطابًا متفقًا عليه، وخليطًا لافتًا من الوطنية الإسلامية والسوفيتية.

يجمع هذا الكتابُ أصواتًا مختلفة؛ «رسمية» و«غير رسمية»، وأخرى في منزلة

-
- = Devin DeWeese, "Survival Strategies: Reflections on the Notion of Religious 'Survivals' in Soviet Ethnographic Studies of Muslim Religious Life in Central Asia," in F. Mühlfried and S. Sokolovskiy, eds., *Exploring the Edge of Empire: Soviet Era Anthropology in the Caucasus and Central Asia* (Münster: Lit Verlag, 2011), 35-58; Devin DeWeese, "Shamanization in Central Asia," *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 57 (2014), 326-363; Paolo Sartori, "Of Saints, Shrines, and Tractors: Untangling the Meaning of Islam in Soviet Central Asia," *Journal of Islamic Studies* 30/3 (2019), 1-40.

وانظر أيضًا الكتاب شديد الأصلة:

Sonja Luehrmann, *Religion in Secular Archives: Soviet Atheism and Historical Knowledge* (New York: Oxford University Press, 2015).

بين المنزلتين. ويعتمد كذلك على مصادر مكتوبة بلغاتٍ شتى؛ كالروسية والأوزبكية والبشكيرية والتترية والفارسية والكازاخية والقومية. غير أن الجهد هنا ليس منصباً على جمع كل الأدلة المتوافرة عن حياة المسلمين في زمن الحرب، ولا الخروج بتعميم حول كيفية تشكُّل نموذج «الإسلام السوفييتي» الذي كان إليه المرجع آنذاك، [٥] ناهيك عن أن يكون الجهد منصباً على مسار الحقبة السوفييتية كلها^(١٢). / إن هدفي أكثر تواضعاً من ذلك؛ أن أستكشف كيف تفاعلت حياة المسلمين وسياسات الدولة في غضون السنوات الأربع المحورية [للحرب]، مستخدماً دلائل مستقاة من مصادر متنوعة، بين خطبٍ وشهادات عيان ومذكرات ومراسلات وتقارير مفضوئين والتماسات ومقابلات وكتابات أدبية.

وتمَّ إشكاليتان لهما أهميتهما تخرجان عن إطار هذا الكتاب، رغم أنهما تستحقان دراسة مستفيضة؛ أولاهما: أنني رأيتُ ألا أتعرَّض لقضية السُّكَّان المسلمين المهجَّرين من القوقاز زمنَ الحرب على ما لها من أهمية؛ إذ ربما لافتقاري إلى المعرفة باللغات القوقازية، لم أتمكَّن إلا من جمع طائفة قليلة من المصادر، كانت أقل مما أمَّلتُ جمعه عن الأبعاد الدينية للتهجير؛ ولذا استبعدتُ هذا الموضوع المهم، وأرجو أن أستكمِّله في مرحلة قادمة حين أجد مصادرَ أوسع. وأما الإشكالية الثانية فهي أنني رغم إدراجي بعض المواد عن المسيحية الأرثوذكسية -أبرز أديان الاتحاد السوفييتي- رأيتُ أن تقتصر الدراسة عليها دون بقية أديان الأقليات في البلاد، كاليهودية والبوذية وفرق المسيحية الأخرى (من الكاثوليكية وصولاً إلى [طائفة الكنيسة] التجديدية).

ورغم تركيز الكتاب على التفاعل بين الحياة الإسلامية وسياسات الدولة والبروباغندا، فإنه يسلك طريقاً جديداً للإجابة على أهمِّ الأسئلة الأساسية والمثيرة للجدل والمتعلِّقة بالأديان السوفييتية إبان هذه الحقبة الحرجة، من قبيل: لم وقعت

(١٢) فاستنتاجات التاريخ على المدى الطويل تناسب دراسات المدى الطويل بدرجة أكبر، وانظر من هذه الدراسات مثلاً:

Tasar, *Soviet and Muslim*; Khalid, *Islam after Communism*; and Sartori, "Toward a History of the Muslim's Soviet Union: A View from Central Asia."

الثورة في الحياة الدينية؟ وما الدور الذي اضطلع به التدين «الشعبي» والإيمان الديني العام؟ ولماذا اتجهت الدولة السوفيتية، بعد سنواتٍ من تقتيل عشرات الآلاف من أفراد النُخب الدينية في حقبة الإرهاب الكبير بين عامي (١٩٣٧ - ١٩٣٨)، نحو التسامح الديني اتجاهًا جذريًا؟ ولماذا أحيا ستالين البطريكية المسيحية الأرثوذكسية زمنَ الحرب، وأسس «دور إفتاء» إسلامية متعددة، وأذن لها رسميًا بإصدار الفتاوى والإشراف على شبكة واسعة من المساجد؟ إن الإجابة على هذه التساؤلات ابتداءً وبشيءٍ من التفصيل ستكون بمنزلة تمهيد للعديد من الموضوعات التي تناولها هذا الكتاب بالدرس.

بروباغندا خارجية

من أشهر التفسيرات التي سبقت عن الثورة الدينية زمنَ الحرب وأكثرها غلوًا، القول بأن التحول في السياسة الدينية السوفيتية لم يكن له أدنى علاقة بمواطني الاتحاد السوفيتي أنفسهم، بل كان حملة بروباغندا موجهة للخارج، أي نحو الشعوب الأجنبية وقادتها^(١٣). ففي السنوات الأولى، كانت البروباغندا المناهضة للسوفييت تركز في الغالب على القمع الديني في الاتحاد السوفيتي؛ إذ نشر النازيون على سبيل المثال بروباغندا في سياق برنامجٍ أوسع / من الدعاية لألمانيا بوصفها [٦] حامية الحرية الدينية. وقد بيّن ديفيد معتدل (David Motadel) وغيره أن العالم الإسلامي على وجه الخصوص كان هدفًا لحملة بروباغندا نازية مفعمة بالنشاط. وتوجز مسوّدات بعض الخطط السرية، التي رُفعت في الثالث عشر من سبتمبر/ أيلول في عام ١٩٤١، إلى وزير الخارجية [السوفيتي] آنذاك، فيتشسلاف

(١٣) لذلك نجد كاريل كورنيلس بيركهوف (Karel C. Berkhoff) يقول: «وفي المجمل، كان التقارب مع الزعامات الدينية تقاربًا هزليًا؛ إذ كان هدفه الأول التأثير على الحلفاء الذين أُخبروا عنه أكثر من غيرهم، وعلى المواطنين الخاضعين للحكم الألماني. لكن بخلاف ذلك، عُدّ بلا فائدة تقريبًا، وما أمكن أن يمثل مساهمةً مهمة في التعبئة لم يُستغل استغلالًا مكثفًا في الإعلام»، انظر:

Motherland in Danger: Soviet Propaganda during World War II [Cambridge, MA: Harvard University Press, 2012], 209.

ميخايلوفيتش مولوتوف (Vyacheslav Mikhaylovich Molotov)^(١)، الورطة التي وجد الاتحاد السوفييتي نفسه فيها، وكذلك خطة اللعبة في بدايتها^(١٤):

«من المهم أن يضطلع مكتب المعلومات السوفييتي أو مفوضية الشعب للشئون الخارجية بسلسلة من الأعمال؛ بغية إبطال مفعول ما نشرته برلين وروما في الفترة الأخيرة من پروباغندا مناهضة للسوفييت في جميع أنحاء العالم الإسلامي:

(١) تنظيم لقاءٍ إذاعي (بين [تنظيمات] الجامعة السلافية أو اليهودية) يجمع ممثلين شرقيين ومسلمين وشعوب الاتحاد السوفييتي، من الأوزبك والكازاخ والتركمان والطاجيك والتتر والأذر واللزغين والشيشان والأوسيتيين^(ب)، ليطلقوا دعوة مناهضة للفاشية بين شعوب

(أ) فيتشسلاف ميخايلوفيتش مولوتوف (Вячеслав Михайлович Молотов)، ذراع ستالين اليمين وعضده في كل سياساته التي طبقها طوال حكمه الاتحاد السوفييتي، بل نصيره بعد موته ضد معارضيه وسياسة نزع الستالينية التي اتبعتها خروشوف.

ومولوتوف سياسي ودبلوماسي روسي من كبار البلاشفة، وعضو بارز في الحكومة السوفييتية منذ العشرينيات وحتى الخمسينيات. ولد في مقاطعة فياتسك (Vyatka) في عام ١٨٩٠، ثم انضم إلى حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي في السادسة عشرة من عمره، وسرعان ما انتقل إلى جناح البلاشفة فيه. واشتغل بتحرير جريدة البرافدا، وهناك بدأت علاقته بستاين ثم ساءت بلينين وتروتسكي اللذين رأوه متوسط القدرات والفهم وقللوا من موهبته، في حين رآه ستالين ركناً يمكنه الاعتماد عليه. رافق مولوتوف ستالين في صعوده، وشغل منصب رئيس مجلس مفوضي الشعب بين عامي ١٩٣٠ و١٩٤١، وجمع معه منصب وزارة الخارجية بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٩. وباختصار، كان مولوتوف العصا التنفيذية لكل ما قام به ستالين طوال حياته. (المترجم)

(14) G. Saksin to V.M. Molotov and A.S. Shcherbakov (September 13, 1941), *PDDUM*, 137; L.A. Koroleva and A.A. Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e. 1940-e gg.* (Penza: Penzenskii gosudarstvennyi universitet arkhitektury i stroitel'stva, 2015), 12.

(ب) اللزغيون شعب قوقازي يقطن جنوب جمهورية داغستان الروسية وفي الأجزاء الشمالية الشرقية من أذربيجان، ويبلغ عددهم نحو نصف مليون نسمة، وغالبهم من المسلمين السنة =

الشرق والمسلمين والعالم أجمع. ويمكن أن ينعقد اللقاء في موسكو
أوباكو أو طشقند، ويشارك فيه الكاتبان جامبيل باجاييف (Dzhambul)^(أ)
وأبو القاسم لاهوتي (Lakhuti)^(ب) وغيرهما.

(٢) تنظيم خطبة يلقيها المُطران سيرغي (Sergii)^(ج) أو خطبة

= الشافعية. أما الأوسيتيون فهم مجموعة عرقية إيرانية تقطن منطقتي أوسيتيا الشمالية والجنوبية، ويبلغ
تعدادها المليون نسمة، وغالبهم من المسيحيين الأرثوذكس مع بعض المسلمين ومعتقي الديانات
الأوسيتية القديمة. (المترجم)

(أ) جامبيل باجاييف (بالكازاخية: Жамбыл Жабайұлы) شاعر وفلكلوري سوفيتي كازاخي، وُلد
في جنوب كازاخستان في عام ١٨٤٦، وعاش نحو مائة عام. تُنسب إليه كثير من الأناشيد والأغاني
الوطنية السوفيتية والمؤيدة لستالين، وكرّمه السوفييت تكريمًا كبيرًا؛ فأطلقوا اسمه على مدن ومناطق
كثيرة في كازاخستان وروسيا وأوكرانيا، وحصل على كثير من الجوائز. (المترجم)

(ب) أبو القاسم لاهوتي (بالطاجيكية: Абулқосим Лоҳутӣ) هو الاسم المستعار لميرزا أحمد إلهامي،
شاعرٌ وناشط سياسي إيراني سوفيتي، نشط في إيران إبان الثورة الدستورية في أوائل القرن العشرين،
ثم فرّ إلى طاجيكستان أوائل العهد السوفيتي. ولد لاهوتي في عام ١٨٨٧ في مدينة كرمانشاه
الفارسية، وبدأ كتابة الشعر في سن صغيرة، ونُشرت أولى قصائده في الثامنة عشرة من عمره. ثم
شارك في مجريات الثورة الدستورية ١٩٠٦ وانضم إلى الصراع المسلح في تبريز، حتى حُكم عليه
بالإعدام وهرب من إيران إلى أماكن عدة حتى استقر في دوشنبه عاصمة طاجيكستان، وانضم إلى
أتباع الشاعر الطاجيكي صدر الدين عيني (بالطاجيكية: Садрӣддин Айни)، ورَجَّب به الجماهير
هناك، وعُدَّوه مؤسسًا للشعر الطاجيكي السوفيتي، وكتب النشيد الوطني لجمهورية طاجيكستان
السوفيتية. وعاش في الاتحاد السوفيتي حتى مات في موسكو عام ١٩٥٧. (المترجم)

(ج) البطريرك سيرغيوس (Патри́арх Сѣргий)، بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية في موسكو وروسيا كلها
بحكم الأمر الواقع من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٤٣، ثم رسميًا حتى وفاته في عام ١٩٤٤. وكان
سيرغيوس، وهو إيفان نيقولايفيتش ستراغورُدسكي (Иван Николаевич Страгородский) قبل
الرهبة، لاهوتيًا ومؤلفًا لكثير من النصوص الدينية والأدبية. وقد اشتهر بإعلانه المثير للجدل بتأييده
الولاء للدولة السوفيتية في عام ١٩٢٧.

ولد سيرغيوس في نيچني نوفغورد نيچغورودسكاياه (нижегородская) في عام ١٨٦٧ لعائلة أسقفية
شديدة التدين، واندرج في سلك التعليم الديني الأرثوذكسي منذ صغره. وبعث حين بلغ الثالثة
والعشرين إلى مهمة تبشيرية في اليابان وأتقن هناك اليابانية (ثم اليونانية واللاتينية والعبرية)، واستقر
فيها تسع سنوات حتى عاد إلى روسيا عام ١٨٩٩، وعيّن رئيسًا لمعهد سان بطرسبرغ اللاهوتي. وقد
تدرج في الرتب الكنسية حتى رفعه البطريرك تيخون إلى درجة المطران في عام ١٩١٧. واعتقله =

توجهها المراكز الدينية الإسلامية في الاتحاد السوفيتي إلى مسلمي العالم. ولدينا ثلاثة نداءات من هذا النوع بالفعل.

(٣) بالإضافة إلى هذين العاملين، تُجمَع المواد السابقة وتُسَلَّم -وفقًا لطلب ستافورد كريس (Stafford Cripps)^(١) - لوزارة الاستعلامات البريطانية لتنشرها من خلال قنوات الدعاية الإنكليزية بين مسلمي الشرق الأدنى والأوسط.

بعبارة أخرى يمكن القول: إن اهتمام المسؤولين السوفيت كان يتركز، خلال شهور الحرب الأولى، على ضرورة مواجهة البروياغندا الألمانية ببروياغندا مقابلة؛ ومن هنا انطلق السباق السيريالي بين هتلر وستالين لاستمالة قلوب المؤمنين وعقولهم، في الداخل والخارج. بيد أن أحدهما لم يتمكن من تحريف الحقيقة لتلائم أهدافه؛ فالبرنامج الإذاعي المشار إليه في الوثيقة السرية سالفة الذكر مثلاً كان قد بثه المحور في السادس من سبتمبر/أيلول من عام ١٩٤١، من روما، محدِّراً فيه المسلمين السوفيت من حملة تطهير^(ب) جديدة تلوح نُذرها في الأفق، وتتضمن

= البلاشفة في عام ١٩٢١ عدة أشهر، ثم نُفي إلى مسقط رأسه. ومع موت تيخون في عام ١٩٢٥، كان من ضمن المرشحين الثلاثة لخلافته، ثم أصبح القائم الفعلي بأعمال البطريك بعد اعتقال البطريك التالي بيتر مطران كروتسكي (Пётр Крутицкий) في العام نفسه. وظل على ذلك حتى وافق ستالين بعد تنازلات منه على عقد انتخابات رسمية في عام ١٩٤٣ قبل ثمانية أشهر من وفاته. (المترجم)

(أ) ستافورد كريس سياسي ودبلوماسي بريطاني، وُلد في عام ١٨٨٩ في تشيلسي بلندن. وكان في ذلك الوقت سفيراً لبريطانيا في الاتحاد السوفيتي، وبعد نجاحه في ضمّ ستالين إلى صف الحلفاء، عُدّ منافساً لتشوشل على منصب رئاسة الوزراء، لكن فشله في ضم المؤتمر الوطني الهندي أخرجه من المنافسة، فشغل منصب وزير إنتاج الطيران في مجلس وزراء الحرب، ثم رئيساً لمجلس التجارة، ثم مستشار الخزانة حتى استقال لظروفه الصحية في عام ١٩٥٠، وتوفي بعدها بعامين. (المترجم)

(ب) كان النظام التوتاليتاري الستاليني معادياً لكلّ صنوف الروابط الاجتماعية، ولقد عمل بجدّ لثفكيكها جميعاً حتى تلك التي كانت موالية له. وكان لديه تقليد دوري يقتضي «قطع رءوس» جميع النُخب الاجتماعية، بما فيها نخب الحزب الشيوعي البارزة، حتى لا تُنازع رأس الحزب، أعني ستالين، سلطانه المطلق. وكان هذا التقليد يسمّى «التطهير». ووفقاً لحثّه أرندت، ابتدأ ستالين بتصفية مجالس السوفيتات التي كانت تشارك الحزب السُلطة ووقفت عائقاً أمام انفراده بها، مفسحاً المجال =

طردهم من القرم قريباً (وقد صدّق الكثيرون هذه «النبوءة» الدعائية)، وتحويل المساجد الروسية كلها إلى دور عرض سينمائية (وهي نصف حقيقة، على أفضل تقدير)^(١٥). وسرعان ما أطلقت خطة لمواجهة پروباغندا المحور بأخرى سوفيتية؛ فوُزعت نداءات الأئمة السوفيت المسلمين - رفقة نخبة دينية سوفيتية أخرى - لا بين سكان البلاد المسلمين فحسب، بل في الخارج أيضاً من خلال وزارة [٧] الاستعلامات البريطانية. وكانت هذه البروباغندا في معظمها تمجّد الاتحاد السوفيتي؛ حصن الحرية الدينية.

وستظل هذه «البروباغندا الدينية» السوفيتية يتردّد صداها طوال ما بقي من سنوات الحرب^(١٦). ولقد دارت هذه المراسلات، التي سنعود لدراستها في الفصل الثاني، حول نقطتين: الأولى دعوات لمؤازرة الحرب على النازيين، التي وصفتها الزعامات الدينية السوفيتية بأنها «حرب مقدسة»؛ إذ قيل: إن النازيين يتهدّدون الحرية الدينية والجماعات الدينية، بل بقاء الدين نفسه (إسلاماً كان أم بوذية أم ما سوى ذلك من أديان). والنقطة الثانية أنها كانت إعلانات عن الحرية والرخاء الذي يرفل فيه المؤمنون في الاتحاد السوفيتي، بالإضافة إلى دفاعها عن الاتحاد السوفيتي بوصفه محفزاً لتقرير المصير لدى الجماعات الدينية وضامناً له.

= ليبروقراطية الحزب التي كانت شديدة المركزية، والأدهى شديدة الروسنة، وذلك بخلاف دعاوى النظام حول الصداقة بين الشعوب عامة، والشعوب السوفيتية خاصة. ثم انتقل إلى تصفية الطبقات، مبتدئاً لأسباب مفهومه بالطبقات المالكة، ثم الطبقات الوسطى المدنية الجديدة، ثم المزارعين الذين شكّلوا الطبقة الأوسع في الاتحاد السوفيتي وبالتالي الأقدر على منازعته سلطاناً. ولقد توّسل ستالين «تطهيرهم» بالتهجير تارةً والتجويع تارةً أخرى أو بالأشغال الشاقة في سيبيريا وغيره، وصولاً إلى المجاعة الكبرى في عام ١٩٣٢-١٩٣٣. أما موجة التطهير الثانية فكانت بين عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨، وسُمّيت «عهد الإرهاب الكبير». وأخّرت الحرب العالمية الثانية موجة التطهير الستاليني الثالثة والأخيرة (وافت ستالين منيته في عام ١٩٥٣) إلى النصف الثاني الأربعينيات، ولقد طالّت هذه الموجة بعض أقرب المقرّبين إلى ستالين نفسه، وفيهم لا فرينتي بيريا وزير داخلية سيء السمعة وعصاه الغليظة. (المترجم)

(15) PDDUM, 17-18; Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e. 1940-e gg*, 12.

(16) PDDUM, 44-45.

ويمثل هاتين النقطتين خير تمثيل نداءً وجَّهه في عام ١٩٤٥ المفتي والزعيم المسلم إيشان باباخان لمسلمي شينغيانغ (Xinjiang)، التي كانت آنذاك جمهورية تركستان الشرقية المدعومة من السوفييت، حيث يعيش الأويغور والكازاخ وبعض الجماعات الأخرى من مسلمي آسيا الوسطى. ويستحقُّ هذا النصُّ أن نوليه نظرة فاحصة؛ إذ يمثل منطلقًا حسنًا لهذا النوع الخاص واللاف من «البروباغندا السوفيتية الإسلامية»^(١).

في مفتتح خطابه يعترف باباخان أن الاتحاد السوفيتي لم يتمتع بشمعة طيبة بوصفه وطنًا سعيدًا للمسلمين، فيقول: «إننا نناشد العالم الإسلامي، نيابةً عن مسلمي تركستان جميعًا، بهذا الخطاب الذي يوجز في وصف [ظروفنا] الماضية والحاضرة كما هي؛ تنفيذًا لعدَّة فرضيات وتصورات [شائعة] عنَّا». ثم يُطوِّف المفتي بالمستمعين في رحلة خاطفة حول المزارات الإسلامية الشريفة في تركستان، مُبرزًا أقدس أضرحتها ومدارسها ومساجدها ومخطوطاتها. وتأخذ هذه «الجولة الصوتية» المستمعين من العجائب الكبرى إلى الصغرى؛ ومن مجمَّعات الأضرحة إلى عوالم الكتب، ومن سعة المعالم الشريفة إلى رحاب المكتبات الحديثة في الاتحاد السوفيتي، وهي المكتبات التي يبيِّن باباخان أنها تحوي كنوزًا؛ كالمصحف الذي كتبه الخليفة عثمان بن عفان بيده^(ب). ويمزج باباخان بين قصة الدين وقصة الأمم؛ إذ يشير إلى أنه من بين المخطوطات القيِّمة هناك مخطوطة كُتبت بلهجة تركية قروسطية،

(أ) حذفنا هنا، بالاتفاق مع المؤلف، الحاشية رقم (١٧) في الأصل الإنكليزي، والتي ذكر فيها عدد النسخ التي طُبعت من النداء، وذلك لأنه كُرِّر مضمونه في ص ٥٦ من النشرة العربية. (المترجم)

(ب) المصحف المقصود هنا هو «مخطوط سمرقند» أو «قرآن سمرقند»، وهو نسخة مخطوطة من القرآن محفوظة في مكتبة مسجد «طلا شيخ» بمجمع حضرة الإمام في طشقند، وهي من أقدم النسخ المحفوظة للقرآن الكريم. ويُعدُّ هذا المصحف أحد المصاحف التي يُدَّعى أنها المصحف الإمام الخاص بسيدنا عثمان بن عفان، الذي خطَّه بيده وقُتل قارئًا فيه وسال دمه الطاهر عليه. لكن البحوث الحديثة أكدت أن المخطوطة لا يمكن أن تكون قد كتبت قبل القرن الثاني الهجري. وهناك خلاف طويل الذيل حول كيفية وصول المخطوطة إلى سمرقند، لكن المعلوم قطعًا أن الروس استولوا عليها من سمرقند في عام ١٨٦٨، وأودعوها المكتبة الإمبراطورية في سان بطرسبرغ، ثم أهداها لينين إلى مسلمي أوفا في باشكورستان، ومنه أعيد إلى طشقند حيث هو حتى اليوم. (المترجم)

تُعَدُّ أصلَ اللغتين الأويغورية والأوزبكية، ومفاد ذلك أن آسيا الوسطى السوفيتية كانت وطنًا تاريخيًا للأويغور أيضًا. ثم يستطرد قائلاً: «إن تركستان ظلت آلاف السنين، وما زالت، وطنًا مقدَّسًا (*muqaddas vaqanlar*) للأوزبك والطاجيك والتركمان والكازاخ والقيرغيز والأويغور والقاراكولباك»^(١٧).

[٨] / وقد شفع باباخان هذا التطواف في المزارات الشريفة بدرس في التاريخ؛ إذ يقول: «لقد كنا، نحن مسلمي تركستان، متفرِّقين مشتتين قبل الثورة السوفيتية العظمى، ولم تكن لنا دولة، فاتحدنا وأسسنا جمهورياتنا الحرة تحت راية الحكومة السوفيتية». وفي ظلال هذا الاستقلال، ترقى سكان آسيا الوسطى؛ فكانوا مواطنين سوفيت مُحدثين بقدر ما هم مسلمون متدينون. ويمزج باباخان هاتين الهويتين في خليط منسجم؛ إذ يقول^(١٨):

«لدينا اليوم مدارس للتعليم العالي في كلِّ فروع العلوم، ويدرس فيها آلاف الشباب المسلمين. وعلى عتبة مدرسة «أولوغ بك» الساحرة في سمرقند، يتلأأ منذ خمسة قرون حديثُ نبينا الكريم ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». لكن هذا الحديث لم يتجسّد في الواقع إلا في كنف الحكومة السوفيتية. ولدينا اليوم أطباؤنا ومعلّمونا وأساتذتنا وخبرائنا الزراعيون ومهندسون وطيارونا. ولقد سنحت لمسلمي تركستان فرصة تطبيق مهاراتهم في كل مجالات الحياة، ووضّون رخائهم، مع التمسك في الوقت نفسه بإسلامهم».

ويوضّح باباخان أن هذا التقدّم الذي أحرزه المسلمون لم يكن أمرًا عارضًا مع الثورة البلشفية، بل كان سيرورةً مستمرةً يضمن بقاءها ستالين نفسه، ويحميها

(17) Babakhanov, appeal to the Muslims of Xinjiang (n.d.), PDDUM, 309–310.

(أ) القاراكولباك (بالقاراكولباكية): Qaraqalpaqlar هم مجموعة عرقية تركية يسكن أغلبهم جمهورية قاراكولباكستان بأوزبكستان، ويقدر عددهم بثمانمائة ألف وخمسة وعشرين ألف (٨٢٥.٠٠٠) نسمة، وغالبهم من المسلمين السنة. (المترجم)

(18) Babakhanov, appeal to the Muslims of Xinjiang (n.d.), PDDUM, 312.

الدستورُ السوفييتي، وتقوم على رأسها الآن دور الإفتاء السوفييتية الرسمية (مجالس الشؤون الدينية أو «النظارات الدينية»)، التي يقدمها بابا خان على أنها هيئات مستقلة استقلالاً تاماً عن الدولة، وبوصفها نوعاً من التمثيل الموازي للمؤمنين في الحكومة^(١٩):

«نحن أولو الأمر في سياساتنا واقتصادنا وثقافتنا ولغتنا وديننا وعاداتنا وحيواتنا الخاصة، وهذا كله بفضل دستور الاتحاد السوفييتي، قانون دولتنا الأساسي الذي خطَّه يدُ ستالين العظيم الحكيم المباركة؛ إذ تمنح المادة الرابعة والعشرون بعد المائة (١٢٤) من دستور دولتنا المواطنين جميعاً الحقَّ في اعتناق الدين الذي يريدون، وتتيح لعلماء كل دين وللمؤمنين من كل الطوائف نظاراتهم الخاصة، ولا تحول الدولة بين أصحاب الأديان والمذاهب وبين ممارستهم لشعائرتهم الدينية.

ويعلم المسلمون في شتى أنحاء العالم أن الإشراف على الأنشطة الدينية الإسلامية في تركستان من اختصاص النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، وهي النظارة المنتخبة في مؤتمر قورلتاي (Kurultai) للعلماء والمؤمنين من أهل الإسلام»^(١).

[٩] / ثم ينتهي باباخان إلى تناول الأزمة الحاضرة التي تتجسد في تلك الحرب الدائرة رحاها مع هتلر وحلفائه؛ حيث ذكر أنهم يبغون «تدميرَ وطننا، وإهدار حقوقنا، وإهانة ديننا وتحقيره، وتحويل المسلمين إلى البروتستانتية [كذا وردت]، وإنزال الجذب بحدائقنا الغناء، بعد أن يُغرقوا بدماء الشيوخ والنساء والأطفال ودموعهم

(19) Babakhanov, appeal to the Muslims of Xinjiang (n.d.), PDDUM, 312-313.

(أ) قورلتاي: كلمة تركية استعملت قديماً للإشارة إلى المجالس العسكرية والسياسية للقادة والخانات المغول والأترك، وتعني حرفياً «الاجتماع» أو «التجمع». وتستخدمها الشعوب التركية المعاصرة وشعوب آسيا الوسطى وأفغانستان بالمعنى السياسي والإداري المقابل لكلمات المؤتمر والبرلمان والاجتماع والمنتدى والجمعية. (المترجم)

قنات ربنا التي بنتها أيادي شعبنا، مع ما تحمله من ماءٍ وحياة وسعادة لأهلينا»^(٢٠).
ويبين المفتي أن الغزو النازي قد أهلك الحرث والنسل في القرم والقوقاز وغيرهما،
ويُشيد بما أظهره صناديد الحرب من المسلمين السوفييت من صور البطولة، ويحشد
جمهوره لدعم المجهود الحربي مستشهدًا بآيات قرآنية منتقاة، كآيات الشهيرة
﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(١٩)
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ ﴿ [البقرة، ١٩١] ^(٢١). ومع الإشارة إلى
الانتصارات الأخيرة التي حققتها القوات البريطانية والأمريكية، يختم باباخان تغطيته
للحرب بملاحظة ملؤها التفاؤل؛ إذ يقول^(٢٢):

«لقد اقتربت ساعة النصر على الفاشيين. ونحن -خُدّام الإسلام-
ندعو الله ليلَ نهار في المساجد، خمسَ مراتٍ في اليوم، أن يعجّل
بنصرنا على الأعداء. وإننا نناشد مسلمي العالم كلهم قائلين: إن
التهتليريين أعداء الشعوب المُحبّة للحرية، والمسلمين منهم خاصة؛
ولذلك، فإننا ندعو -نحن العلماء المسلمين في الاتحاد السوفييتي-
مسلمي العالم أجمع إلى الثورة على هؤلاء المستعبدين الفاشيين
الفجرة».

ويختم باباخان بما بدأ به قائلًا: «ولا يفرنكم ما يروّجه أعداؤنا وأعداؤكم -عليهم
لعنة الله- من افتراءات شنيعة على بلادنا!»^(٢٣).

والحقُّ أن وجود كثير من حلقات الإذاعة الإسلامية السوفييتية الموجهة للخارج
يدعم الفرضية القائلة بأن البروپاغندا الخارجية كانت تمثّل جانبًا مهمًّا من جوانب
السياسة الدينية في زمن الحرب، بل إنها ظلت قائمة حتى بعد أن طُرد النازيون من

(20) Babakhanov, appeal to the Muslims of Xinjiang (n.d.), PDDUM, 313.

(21) Babakhanov, appeal to the Muslims of Xinjiang (n.d.), PDDUM, 314.

يشير النص إلى أن هذه الآيات هي الآيتان ١٨٦ و ١٨٧ من سورة البقرة، والصحيح أنهما الآيتان
١٩٠ و ١٩١.

(22) Babakhanov, appeal to the Muslims of Xinjiang (n.d.), PDDUM, 315.

(23) Babakhanov, appeal to the Muslims of Xinjiang (n.d.), PDDUM, 315.

الاتحاد السوفييتي؛ ففي مايو/ أيار ويونيو/ حزيران من عام ١٩٤٥، زار إيران ثلاثة من كبار ممثلي دار إفتاء ما وراء القوقاز «النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز» (DUMZAK) التي أجازها الاتحاد السوفييتي، وذلك بدعوة من أحد أعضاء البرلمان الإيراني وشيخ الإسلام. وقد زاروا ما لا يقل عن عشرة مدن إيرانية، وخضعت أنشطتهم على نحو مطرد لمراقبة دقيقة من جانب عملاء وزارة الشؤون الخارجية السوفييتية. [١٠] وتؤكد تقارير العملاء أن أعضاء النُخبة الشيعة السوفييتية الثلاثة / هؤلاء كانوا خير مبعوثين؛ إذ دأبوا على تشجيع الانطباعات الإيجابية عن حياة المسلمين في الاتحاد السوفييتي، حيث يتمتع المؤمنون - حسب قولهم - بحرية الاعتقاد وبفرص للترقي لا تُحصَى. وقد حضر هؤلاء الممثلون الثلاثة ومعهم هدايا أهذوها أعضاء النُخبة الإيرانية، وخطبًا مُجازة سلفًا، وكان يُشرف عليهم عن بُعد إيغان فاسيليفيتش پوليانسكي (I.V. Polianskii)^(١)، المسئول السوفييتي المتمرس، المعادي للدين، ثم رئيس مجلس الشؤون الدينية (CARC)، ذاك الجهاز السوفييتي القائم على مراقبة الأديان كلها عدا الكنيسة الأرثوذكسية^(٢٤). وقد توجت هذه الزيارة بهذا البيان

(١) إيغان فاسيليفيتش پوليانسكي (Иван Васильевич Полянский) رجل دولة سوفييتي وُلد في عام ١٨٩٨ في مدينة كالوغا الروسية، وانضم إلى الجيش السوفييتي في عام ١٩٢١ ومنه إلى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية مشرفاً على عمليات ملاحقة المظاهر الدينية في الاتحاد السوفييتي إبان حملات القمع الأولى في العشرينيات ثم في حقبة الإرهاب الكبير في الثلاثينيات. وأسندت إليه في عام ١٩٤٤ رئاسة مجلس الشؤون الدينية، وظل على رأسه حتى وفاته في عام ١٩٥٦. (المترجم)

(24) PDDUM, 49-50.

كان المبعوثان الآخران اللذان رافقا الشيخ علي زاده أخوند هما زميلاه في النظارة الدينية أخوند عبد الرحيم قاضي باكو، والشيخ مصطفى قاضي مدينة لنسُرُن (Lankaran) بأذربيجان. وإن لفظة (Cults) المذكورة هنا هي مقابل كلمة (kul'ty) الروسية، التي يقترب استعمالها الشائع أكثر من الكلمة الفرنسية (culte) التي من الأفضل ترجمتها بـ (denomination) (مثل الفرقة البروتستانتية). وقد ترجمتُ لفظة (kul'ty) في الكتاب كله بـ (denominations)، لكن في حالة اسم الجهاز استعملتُ (Council for the Affairs of Religious Cults)؛ لأنه أصبح اسماً معتمداً في اللغة الإنكليزية، وأنا ممتن لآلن چاي فرانك على تأملاته النافعة في مشكلة الترجمة الشائكة هذه.

=

الإذاعي الذي ألقاه شيخ الإسلام أخوند أغا علي زاده (Akhund Agha Alizada)⁽¹⁾،
شيخ إسلام النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز، في الثالث عشر من يونيو/
حزيران، ووجهه لإخوانه في الدين في إيران.

ويستحق هذا النداء نظرة فاحصة؛ إذ يقفنا على بعض الدوافع الأساسية الأخرى
للبروپاغندا الإسلامية السوفييتية، ومنها التصريح الواضح بأن حياة المسلمين
السوفييت لم تتأثر بالقمع الديني، وأن دور الإفتاء الإسلامية الجديدة والمدعومة من
الدولة كانت مبادرات «شعبية» (وظلت ذلك)، وأن المسلمين السوفييت، ممثلين
في دور إفتائهم، يتمتعون بحرية التواصل مع مسلمي العالم أجمع.

وعلى الرغم من انتهاء الحرب، فقد افتتح علي زاده خطابه بخمس مقاطع جياشة
استدعى فيها ذاك العهد القريب الذي انقضت أيامه: «بلاء ومعاناة لا نظير لهما.
دُمّرت ... بلدانٌ مزدهرة، وأبيدت شعوبٌ عن بكرة أبيها، وسُلبت ثمارُ عملها
وأُحرقت. قُتل الأطفال الأبرياء والشيوخ، واغتُصبت النساء»⁽²⁵⁾. ويصف شيخ
الإسلام الأذري كيف حشد هو وزملاؤه القوات الإسلامية في القوقاز، بفضل
المناشدات التي نُشرت في الداخل وفي إيران. واستطرد قائلاً: «الحمد لله أن
الفاشيين الخونة تلقوا - تحت القيادة الشجاعة لفخامة المارشال ستالين - ضربات

= [أما نحن في ترجمتنا العربية فلم نواجه هذه المشكلة؛ إذ ليس هناك اسم معتمد للجهاز في
الأدبيات المكتوبة العربية؛ ومن هنا اخترنا اسم «مجلس الشؤون الدينية»؛ لأنه الأقرب للأصل
الروسي (Совет по делам религиозных культов) والأقرب لوظيفة الجهاز، واستعملنا
كلمات الديانات والفرق والطوائف في المواضع الأخرى حسب السياق. (المترجم)].

(أ) شيخ الإسلام أغا جواد أوغلو علي زاده (بالأذرية: Ağa Cavad oğlu Əlizadə)، أكبر مراجع
الشيعة في أذربيجان في النصف الأول من القرن العشرين. ولد علي زاده بن شيخ الإسلام
أخوند حاج محمد جواد في مدينة باكو، وأرسله أبوه إلى بغداد لدراسة العلوم الشرعية في
جامعتها، ثم التحق بحوزة النجف، وحصل هناك على لقب أخوند. ثم نشط في نشر العلم
الشرعي أوائل القرن العشرين بين الشيعة الأذريين، وشارك في تأسيس النظارة الدينية
الإسلامية لمسلمي القوقاز في عام ١٩٠٧، وأصبح رئيساً لها في عام ١٩٤٣ بعد إحيائها،
وظل على رأسها حتى وفاته في عام ١٩٥٤. (المترجم)

(25) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), PDDUM, 301-302.

قاضية وهزائم ساحقة على الجبهات كلها لم يجدوا من دونها مؤثلاً»^(٢٦). وكان اثنان من أبناء علي زاده نفسه، وأربعة من أقرب أقاربه يقاتلون على الجبهات، بالإضافة إلى كثير من المسلمين من «أبطال الاتحاد السوفيتي» (وهو أكبر وسام للشجاعة العسكرية في البلاد).

لكن ظلت هناك معركة أخرى يجب خوضها؛ «فبعد أن أدوا واجبهم نحو البشرية والعالم الإسلامي، توجَّهنا إليهم بنداءٍ آخر في عام ١٩٤٤، وشدّدنا [هذه المرة] على واجباتهم الدينية». فالمسلمون كانوا يثيرون أمام أئمتهم المسلمين في الحرب «مسائل دينية»، وأعلن علي زاده أنه لتلبية مطالبهم هذه، التمس هو وزملاؤه من مجلس السوفيت الأعلى إذناً بشكيل دار إفتاء. وكانت هذه المبادرة -فيما ذكر- نابعةً بالدرجة الأولى من المسلمين السوفيت وأئمتهم، ولم يكن للحكومة السوفيتية يدٌ فيها إلا الموافقة. ثم تقدّم علي زاده «نظارته» على نحو يشكّل مثلاً خالصاً / ومتقناً من فن البروباغندا الإسلامية السوفيتية الصاعد؛ ذاك الخليط المتناغم ومتنافر العناصر في آنٍ معاً، من الأخلاق الإسلامية وأفكار ستالين عن «صداقة الشعوب»، مع بسالة العمال البلشفية التقليدية^(٢٧):

«تهتدي نظارة الشئون الدينية في أعمالها بهدي القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة. وفي بعض الحالات الخاصة، يعقد أعضاء النظارة جميعهم اجتماعات طارئة. وتشمل النظارة في أعمالها الأنشطة التربوية التي تقوّي أواصر الصداقة ووشائج الوحدة بين شعوب الاتحاد السوفيتي، وترفع من معنويات فلاح المزارع الجماعية وتحشدتهم لموسم الربيع، وتشجّع العمال الدؤوبين المنتجين، وترعى مشاعر الإخلاص لقادة الحكومة والإدارة... إلخ. ومن مسؤوليات النظارة أيضاً تكليف بعض الأئمة بمهامّ مختلفة، وحماية أضرحة العلماء وكبار رموز الإسلام وآثارهم».

(26) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), *PDDUM*, 303.

(27) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), *PDDUM*, 304.

ويعرّف علي زاده الشخصيات الرئيسة في نظارته قبل أن يُلقي ببعض الأكاذيب الفاضحة في إجابته على أسئلة مضيفيه الإيرانيين؛ إذ يقول: «إن الوعظ في المساجد [السوفيتية] مثله مثل أي مكان آخر؛ يقرأ مشايخنا آيات من القرآن الكريم ويناقشون سير العلماء والأئمة والأنبياء. وفي كل رايون (raion)، يحظى كل أو بلاست (oblast)^(١) بطائفة من علماء المدارس الدينية وطلابها، وهناك حاليًا أكثر من خمسين (٥٠) طالبًا قوقازيًا يدرسون في إيران وفي العتبات [العراقية]. حتى إذا فرغوا من دراستهم، أمكنهم النهوض بمهمة الإمامة بإذن الحكومة. ولا تزال مساجدنا ومدارسنا الدينية وأماكن اجتماعنا كما كانت من قبل»^(٢٨). لكن الحقيقة أن المدارس الدينية في الاتحاد السوفيتي كانت قد أُغلقت كلها تقريبًا منذ أمد بعيد، وبالكاد في عام ١٩٤٥ أُعيد افتتاح شيء منها، كما أُغلقت آلاف المساجد. وأما فيما يتصل بالغياب الواضح للمسلمين السوفيت عن مكة، فقد أنحى علي زاده بلائمة إبعادهم على «الظروف المتعلقة بالبيئة الدولية»^(٢٩)، وأرجع السبب في ندرة الكتب الإسلامية المطبوعة بالكيريلية إلى أن الاتحاد السوفيتي يملك كثيرًا من الكتب الإسلامية المدوّنة بخطوط قديمة، «ولا حاجة لنا في إعادة طباعتها»^(٣٠)، ولا حاجة أيضًا لطباعة المصاحف أو استيرادها أو ترجمتها؛ لأننا «لا نكاد نجد بيتًا مسلمًا لا يحوي عدّة مصاحف»^(٣١).

/ ثم يتحول علي زاده إلى حماية الحكومة السوفيتية للحرية الدينية، وهو [١٢]

(أ) الرايون (raion/райón) والأوبلاست (oblast/область) والكراي (kraï/край) تقسيمات إدارية لجمهوريات الاتحاد السوفيتي، لا تزال قائمة حتى اليوم في العديد من الدول التي نشأت على أنقاضه. الجمهوريات هي الدرجة الأولى من التقسيم في الاتحاد، ثم يتلوها الكرايات والأوبلاستات على درجة واحدة، وتحتهما الرايونات ثم المدن والبلدات تحتها، مع استثناء بعض المدن التي تخضع للإدارة المباشرة لمجلس الأوبلاست. (المترجم)

(28) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), PDDUM, 305.

(29) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), PDDUM, 305.

(30) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), PDDUM, 306.

(31) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), PDDUM, 306.

الموضوع ذاته الذي تطرَّق إليه إيشان باباخان في خطابه لمسلمي شينغيانغ، لكن حديث علي زاده أتشع بمسحة «إيداع» أشدَّ اجتراءً^(٣٢):

«أود أن أقول كلمةً موجزةً عن حرية الدين والإيمان في الاتحاد السوفييتي؛ إذ لطالما تمتعت شعوب الاتحاد السوفييتي بحرية العقيدة، وتنصُّ المادة الرابعة والعشرون بعد المائة (١٢٤) من الدستور السوفييتي نصًّا خاصًّا على حرية [العبادة] للطوائف الدينية. فإن الدين والدولة منفصلان لا يجتمعان في الاتحاد السوفييتي. ونحن -العلماء المؤمنون- لطالما تمَّتَّعنا بحريةً كاملةً في ممارسة شعائرنَا الدينية؛ فالآذان يصدح في بلادنا صباح مساء».

ثم يفصّل علي زاده بعد ذلك القول في فرص التعليم العلماني والترقيّ في الدولة السوفييتية، مقارنةً بذلك بما كانت عليه الأمور في العهد القيصري الذي «لم تُول فيه [الحكومة] المسلمين أدنى اهتمام، وأعاقت تمكيننا من العلم والمعرفة، فكانت حياتنا آنذاك غمًّا وظلامًا»^(٣٣). والحقُّ أن الفضل [في هذا التحول] يرجع إلى السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأذري، جعفر باقروف (Jafar Baghirov)^(١)، وإن كان يرجع أيضًا بلا شكِّ إلى «القائد الأعظم للأمم جميعها، المارشال ستالين، الذي

(32) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), *PDDUM*, 306. (التشديد من

عندي)

(33) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), *PDDUM*, 306.

(أ) مير جعفر عباس أوغلو باقروف (بالأذرية: Mircəfər Abbas oğlu Bağırov)، أمين اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأذري خلال الفترة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٥٣، ورئيس مجلس مفوضي الشعب في جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية. ولد باقروف في عام ١٨٩٦ في مدينة قوبا (Quba) في أذربيجان، ودرس في مدارسها، وانضم إلى صفوف الجيش وشارك في شبابه في ثورة أكتوبر [١٩١٧] بنشاطٍ سري في العاصمة باكو، واندرج في صفوف الحزب الشيوعي الأذري، وترقى فيه حتى أصبح ممثلًا للشيوعيين الأذريين في الأمانة الشيوعية في عام ١٩١٩. وقد ترقى باقروف في المناصب الحزبية والحكومية حتى أصبح أمينًا عامًا للجنة المركزية للحزب الأذري، وظل على ذلك حتى وفاة ستالين، وحوكم في إطار سياسة نزع الستالينية في عام ١٩٥٤، وأعدم في عام ١٩٥٦. (المترجم)

يفكر في سعادة البشرية ورخائها دون النظر إلى القوميات والأديان. إنه يولي شعوب العالم أجمع اهتمامه، ويخصُّ الشعب الإيراني، جار وطننا القديم، باهتمامه الودود»^(٣٤).

كانت هذه هي الرسالة التي أرادت الحكومة السوفيتية من أئمة المسلمين نقلها إلى الخارج؛ وهي أن كل أوضاع المسلمين السوفيت على ما يُرام، وأنهم مُجمعون على قتال هتلر وإنزال الهزيمة به، وأن الدولة السوفيتية يسّرت لهم أمر تقرير المصير في أممهم «المستقلة»، وأقامت أواصر الصداقة بين هذه الأمم، وأن المسلمين مُنحوا حرية دينية مطلقة يكفلها لهم القانون، وأن المزارات الشريفة والمخطوطات والتقاليد محفوظةٌ مصنونةٌ، وأن المسلمين وحدهم هم من بادروا إلى إنشاء دور الإفتاء الإسلامية الجديدة في الاتحاد السوفيتي؛ من أجل معالجة مشكلاتهم وإرسال بعثات لإخوانهم في الدين خارج البلاد، وذلك دون أدنى تدخّل من الحكومة التي كان تدخّلها لا يعدو الموافقة والإقرار. وهكذا لم يعرف الاتحاد السوفيتي قطُّ أي صورة من صور الاضطهاد الديني.

على أن هناك بعض الحقائق المثيرة للاهتمام تتخلل هذه الأكاذيب؛ إذ أعلم علي زاده مستمعيه من الإيرانيين بأن بعض الأضرحة الإسلامية تحظى بالصيانة، وأن الصلوات المعتادة وشعائر الجنائز لا تزال تُؤدّى، وأن / مواسم العزاء - التي زادت [١٣] وتيرتها في زمن الحرب - لم تزل محافظة على نمطها الإسلامي التقليدي. كما ذكر أن المسلمين العاملين في الوظائف «العلمانية» كانوا يعتزون في غالبهم إلى أصول دينية؛ إذ «كان الغالبُ على علماء الجيولوجيا [مثلاً] أنهم ينتسبون إلى عائلاتٍ انخرطت بأبنائها جميعاً في الأنشطة الدينية على مدى عقود، وأنا نفسي أنتسب إلى إحدى هذه العائلات»^(٣٥). وعلى الرغم من أن الزعم بأن الحياة الدينية لم تتأثر سلباً

(34) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), PDDUM, 307.

(٣٥) عن التراث الديني لبعض العلماء المسلمين السوفيت، انظر:

Allen J. Frank, *Gulag Miracles: Sufis and Stalinist Repression in Kazakhstan*

(Vienna: Austrian Academy of Sciences Press, 2019), 109-115.

يفكر في سعادة البشرية ورخائها دون النظر إلى القوميات والأديان. إنه يولي شعوب العالم أجمع اهتمامه، ويخصُّ الشعب الإيراني، جار وطننا القديم، باهتمامه الودود»^(٣٤).

كانت هذه هي الرسالة التي أرادت الحكومة السوفيتية من أئمة المسلمين نقلها إلى الخارج؛ وهي أن كل أوضاع المسلمين السوفيت على ما يُرام، وأنهم مُجمعون على قتال هتلر وإنزال الهزيمة به، وأن الدولة السوفيتية يسّرت لهم أمر تقرير المصير في أممهم «المستقلة»، وأقامت أواصر الصداقة بين هذه الأمم، وأن المسلمين مُنحوا حرية دينية مطلقة يكفلها لهم القانون، وأن المزارات الشريفة والمخطوطات والتقاليد محفوظةً مصونةً، وأن المسلمين وحدهم هم من بادروا إلى إنشاء دور الإفتاء الإسلامية الجديدة في الاتحاد السوفيتي؛ من أجل معالجة مشكلاتهم وإرسال بعثات لإخوانهم في الدين خارج البلاد، وذلك دون أدنى تدخّل من الحكومة التي كان تدخّلها لا يعدو الموافقة والإقرار. وهكذا لم يعرف الاتحاد السوفيتي قطُّ أي صورة من صور الاضطهاد الديني.

على أن هناك بعض الحقائق المثيرة للاهتمام تتخلل هذه الأكاذيب؛ إذ أعلم علي زاده مستمعيه من الإيرانيين بأن بعض الأضرحة الإسلامية تحظى بالصيانة، وأن الصلوات المعتادة وشعائر الجنائز لا تزال تُؤدّى، وأن / مواسم العزاء - التي زادت [١٣] وتيرتها في زمن الحرب - لم تزل محافظة على نمطها الإسلامي التقليدي. كما ذكر أن المسلمين العاملين في الوظائف «العلمانية» كانوا يعتزون في غالبهم إلى أصول دينية؛ إذ «كان الغالبُ على علماء الجيولوجيا [مثلاً] أنهم ينتسبون إلى عائلاتٍ انخرطت بأبنائها جميعاً في الأنشطة الدينية على مدى عقود، وأنا نفسي أنتسب إلى إحدى هذه العائلات»^(٣٥). وعلى الرغم من أن الزعم بأن الحياة الدينية لم تتأثر سلباً

(34) Alizada, text of Iranian radio broadcast (June 13, 1945), *PDDUM*, 307.

(٣٥) عن التراث الديني لبعض العلماء المسلمين السوفيت، انظر:

Allen J. Frank, *Gulag Miracles: Sufis and Stalinist Repression in Kazakhstan*

(Vienna: Austrian Academy of Sciences Press, 2019), 109–115.

بالحكم السوفيتي مطلقاً إفك لا صدق فيه، فإن ما زعمه شيخ الإسلام من أن بعض الجوانب الأساسية من الحياة الدينية ظلت على أشكالها المألوفة يبدو حقيقة صادقة؛ فكما يدعي علي زاده، وكما سببنا في ثنايا هذا الكتاب، لم تنقطع بعض أوتار الحياة الدينية قط، وظل صداها يتردد كما كانت قديماً، في زمن الحرب وما بعده.

على أن البروباغندا الدينية السوفيتية الموجهة للخارج لم تقتصر على عامة المؤمنين من غير السوفيت، بل استهدفت كذلك إقناع نفر بعينهم من قادة العالم بتسامح الاتحاد السوفيتي مع الدين؛ إذ كان ذلك مطلباً ملحاً خلال سنوات الحرب، عندما أصبحت المحافظة على الدعم الكامل الذي تقدمه بريطانيا والولايات المتحدة رهين دفع الشكوك الماثرة حول القمع الستاليني⁽³⁶⁾. وآية ذلك أن شطراً كبيراً من الجمهور الأمريكي أبدى معارضته لتقديم الدعم المادي للاتحاد السوفيتي «الملحد»، وبلغ اهتمام الرئيس فرانكلين ديلاانو روزفلت (Franklin Delano Roosevelt) (المنتسب إلى الكنيسة الأسقفية) بهذا الأمر أنه أمر السفارة الأمريكية في موسكو ببحث حالة الجماعات الدينية في الاتحاد السوفيتي⁽³⁷⁾. ثم أعرب هاري إس. ترومان (Harry S. Truman) -الذي كان سيناتوراً عن ميزوري (Missouri) آنذاك- عن استراتيجية مفرطة في قسوتها عندما قال في يونيو/حزيران من عام 1941: «إن رأينا ألمانيا تنتصر، وجبت علينا مساعدة روسيا، فإن كان النصر حليفاً للروس، تعين علينا مساعدة الألمان؛ فيقتل بذلك أكبر عدد ممكن. ولكنني لا أريد أن أرى هتلر منتصراً تحت أي ظرف»⁽³⁸⁾. وقد استوثق ستالين عشية

(36) Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 215-216;

Aleksei Beglov, *V poiskakh "bezgreshnykh katakomb."* *Tserkovnoe podpol'e v SSSR* (Moscow: Izd. Sovet Russkoi Pravoslavnoi Tserkvi, 'Arefa,' 2008), 106-107.

(37) M.I. Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov' nakanune i v epokhu stalinskogo sotsializma, 1917-1953 gg.* (Moscow: Politicheskaiia entsiklopediia, 2014), 267.

(38) Dennis J. Dunn, *The Catholic Church and Russia: Popes, Patriarchs, Tsars, and Commissars* (Aldershot: Ashgate, 2004), 113.

انعقاد مؤتمر طهران في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٤٣ من درء أي تردّد لدى حلفائه الغربيين في التعاون مع السوفييت أو مواصلة دعمهم. وكان يرجو كذلك أن تتمخّض المفاوضات عن فتح جبهة ثانية ضد ألمانيا، انطلاقاً من غزو الحلفاء لشمال فرنسا، وهو ما كان يلحّ في طلبه منذ شهور الحرب الأولى. وعلى هذا النحو، يثبت مسار الأحداث أنه كاشفٌ [للحقائق]، ويدعم فرضية أن البروباغندا الموجّهة للخارج كانت عنصراً أساسياً من العناصر التي أفضت إلى تغير الموقف من الدين زمن الحرب؛ إذ إن تشكيل المؤسسات الدينية التي أجازتها الدولة (ومنها البطريركية المسيحية الأرثوذكسية ودور الإفتاء الإسلامية) وما تلاها من موجة الخطابات والبرامج الإذاعية التي أشرنا إليها آنفاً، لم يجرِ إلا في سبتمبر/ أيلول وأكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٣، أي قبل بضعة أسابيع / فحسب من [١٤] مؤتمر طهران^(٣٩). فإن كان ستالين يتغيّأ إثارة الشائعات حول انتعاش الحرية الدينية عشية المؤتمر، فإن توظيف بعض أبرز الزعامات الدينية في البلاد لتسبّح بحمد الاتحاد السوفييتي لهي حركة ماكرة بلا شك. ولم تغب آثار هذه «المصادفة» عن الصحفيين آنذاك، ولا عن الجماهير السوفييتية. بل إن أحد الصحفيين الأمريكيين قد توقع تسلسل الأحداث؛ فقبل ذلك بعدة أشهر، عندما حلّ ستالين الأهمية الثالثة

(٣٩) انظر:

V.A. Alekseev, *Illuzii i dogmy* (Moscow: Politizdat, 1991), 336; Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 275; Nathaniel Davis, *A Long Walk to Church: A Contemporary History of Russian Orthodoxy* (Boulder, CO: Westview, 2003), 18; Roger R. Reese, "The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Staliništ Regime during the Great Patriotic War," *War and Society* 33/2 (2014), 143.

أما دميتري فلاديميروفيتش بسيلوفسكي (D.V. Pospelovskii) فينتقد المؤرخين الذين يتخذون من لحظة طهران تفسيراً «جامعاً» لسياسة ستالين الدينية في زمن الحرب.

Russkaia pravoslavnaia tserkov' v XX veke [Moscow: Respublika, 1995], 191.

وانظر كذلك:

Mikhail Shkarovskii, "Stalinskaia religioznaia politika i *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov'* v 1943–1953 godakh," *Acta Slavica Iaponica* 27 (2009), 1–27.

«الكومترن» (Comintern)^(٤٠) - المنظمة السوفييتية الأساسية لتصدير الثورة - بغية طمأنة حلفائه، كتب مراسل النيويورك تايمز هارولد كالندر (Harold Callender): «يعتقد بعض المطلعين على العلاقات الروسية أن حلّ الأممية الثالثة ربما تلوّه مبادرة أخرى في المجال الديني؛ لتبديد الشكوك التي تكتنف صورة موسكو في الخارج»^(٤١).

وفي الوقت نفسه، أفاد صحفيُّ أيرلندي أن كثيرًا من الروس يُعدّون تيسير القيود الدينية سبيلًا «لإرضاء إنكلترا وأمريكا»^(٤٢). وقد نجحت الجهود، أو لم تسفر عن نتائج عكسية على الأقل؛ فمؤتمر طهران عُدد نصرًا لستالين، وزادت النسبة التي يحصل عليها الاتحاد السوفييتي من معونات الإعارة والتأجير (Lend-Lease)^(ب) في

(أ) كانت الكومترن (The Communist International) أو الشيوعية العالمية، والمعروفة بالأممية الثالثة، منظمة دولية يهيمن عليها السوفييت، وتأسست في عام ١٩١٩ لدعم الشيوعية والحركات الثورية الشيوعية في جميع أنحاء العالم وتصدير الثورة الروسية. وكانت تهدف إلى «الكفاح بكل الوسائل المتاحة، ومنها القوة المسلحة، لإسقاط البرجوازية العالمية وخلق جمهورية سوفييتية عالمية، في مرحلة انتقالية للقضاء الكامل على الدولة». (المترجم)

(40) Stephen Merritt Miner, *Stalin's Holy War: Religion, Nationalism, and Alliance Politics, 1941-1945* (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2003), 110-111.

وفي الوقت نفسه، قلّص ستالين حجم البروباغندا المناهضة للتأثيرات الدينية الأجنبية ذات السطوة؛ فقطع مثلًا البروباغندا المناهضة للقائمان بمجرد اشتعال الحرب، انظر:

Dunn, *The Catholic Church and Russia*, 111.

(41) Miner, *Stalin's Holy War*, 83.

وقد شعرت وزارة الخارجية البريطانية بالأمر نفسه، لكن مع تطور مثير؛ إذ خلّص كثيرٌ من محلّليها إلى أن هدف ستالين الأساسي هو التصدي لانتشار النفوذ البريطاني أو الأمريكي في القوقاز، انظر:

PDDUM, 60.

(ب) هي المعونات التي دفعتها الولايات المتحدة باسم قانون الإعارة والتأجير؛ إذ بموجبه تزوّد الولايات المتحدة حلفاءها - بريطانيا وفرنسا الحرة والاتحاد السوفييتي والصين وغيرهم - باحتياجاتهم من الغذاء والنفط والمعدات العسكرية على سبيل الإعارة والتأجير، وفي المقابل تحصل الولايات المتحدة على بعض المنافع؛ كالأستغلال المجاني لبعض القواعد الجوية. =

عام ١٩٤٣ حتى قاربت ضعف ما كانت عليه قبل ذلك، بل إن روزفلت أعلن أن «الكنائس في روسيا مفتحة الأبواب على حد علمي...»^(٤٢)، ثم حذا حذوه كبير أساقفة يورك المتعاطف مع السوفييت، سيريل غاربت (Cyril Garbett)، الذي قال: «إن العبادة في كنائس [الاتحاد السوفييتي] ليس عليها قيد أو شرط»^(٤٣).

ثم ألحقت الجولات الخارجية والبرامج الإذاعية للزعامات الدينية السوفييتية بحملة پروباغندا محدودة تقوم على نشر المطبوعات؛ حيث اشتملت على طبع نصوص مخصصة للاستهلاك الأجنبي فحسب. وربما كان أول منشور يؤبه له من هذا النوع هو الكتيب الذي نشره بطيريك الكنيسة الأرثوذكسية، سيرغي، والمعنون بـ «حقيقة الدين في روسيا» (*The Truth about Religion in Russia*)^(٤٤). وكان الهدف من هذا الكتاب - كما يوحي عنوانه - وضع الأمور في نصابها الصحيح؛ بيان أن الدين انتعش في روسيا رغم الشائعات المتداولة عن القمع الديني. وقد زعم البطريرك سيرغي - كما سيفعل علي زاده وغيره في برامج إذاعية خارجية أخرى - أنه لم يكن هناك قط أي قيد حقيقي على الحرية الدينية في الاتحاد السوفييتي، بل إن هذه الحرية كانت مكفولة بحكم القانون. وزعم كذلك أن شائعات القمع لم تكن إلا محض افتراء جعل يردده المهاجرون الروس، ممن كانوا يطمعون في الحصول على مزيد من التنازلات الدينية من ستالين، من خلال دفع روزفلت إلى جعل الحرية الدينية مسألة أساسية في التحالف بين الدولتين^(٤٥). صفوة القول إذن أن كل شيء

= ولكن المساعدات في المجمل كانت مجانية؛ إذ قَدِّمَت الولايات المتحدة ما مقداره خمسين مليار دولار أمريكي في مقابل حصولها على منافع تقترب قيمتها من الثمانية مليارات. (المترجم)

(42) Miner, *Stalin's Holy War*, 221.

(43) Miner, *Stalin's Holy War*, 266.

(44) Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 197.

(45) Daniela Kalkandjieva, *The Russian Orthodox Church, 1917-1948: From Decline to Resurrection* (Abingdon: Routledge, 2014), 159;

انظر أيضًا:

Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov' nakanune i v epokhu stalinskogo sotsializma, 1917-1953 gg.*, 297. =

كان على ما يُرام في حقيقة الأمر. وقد طُبِع الكتيب في دار نشر إسكرا ريفالوتسيه [شرارة الثورة] (Iskra Revoliutsiei press) التي كانت حتى وقتٍ قريبٍ مطبعة منشورات عصبة المناضلين الملحدين (League of Militant Atheists)^(٤٦). بل إن سيرغي نفسه تعرض للاعتقال قبل ذلك على أيدي البلاشفة.

[١٥] / وقد استُعين أيضًا ببعض الأئمة المسلمين في أعمال النشر الموجهة للخارج؛ فمن ذلك مثلاً أن الحديث الإذاعي الموجه لمسلمي شينغيانغ المشار إليه آنفاً نُشر في ترجمة مطبوعة إلى الأويغورية، من ثلاثة آلاف وخمسمائة (٣٥٠٠) نسخة،

= ومن المثير ما لاحظته دانيلا كولكادچيفا (Daniela Kalkandjieva) من أن كتاب حقيقة الدين في روسيا (*The Truth about Religion in Russia*) مثل أيضًا ادعاءً قويًا بسبق الكنيسة الأرثوذكسية على كل فرق المسيحية الموجودة في الاتحاد السوفييتي. ففيه، الكنيسة الأرثوذكسية هي الكنيسة بألف ولام التعريف، والممثل الوحيد للتراث المسيحي في البلاد (Kalkandjieva, *The Russian Orthodox Church*, 156). فلا نجد ذكرًا لأهل العقيدة القديمة ولا «الكنيسة الحية» ولا الكاثوليكية الرومية أو أي تقليدٍ آخر. وفي حين أن سيرغي ربما كان متفجعًا مباشرًا من بروز تصور احتكار أرثوذكسي للمسيحية، أمّلت الدولة بدورها في دعم مؤسسات دينية «قانونية» موالية لها في الداخل، بديلًا للنشاط «الطائفي» الذي يُعتبر مشكوكًا فيه في الغالب وتخريبياً وأرضاً خصبة لنشأة الجماعات المنشقة المناهضة للسوفييت. وقد نشرت البطريركية بعد ذلك كتابًا آخر في أيام الحرب للتوزيع في الخارج، عنونه بـ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والحرب الوطنية الكبرى، مدحت فيه الجهود الوطنية التي يبذلها رؤوس الكنائس وروادها في محاربة ألمانيا.

(46) Miner, *Stalin's Holy War*, 99.

[عصبة المناضلين الملحدين (Союз воинствующих безбожников) هي منظمة شعبية سوفييتية نشطت في الفترة بين عامي ١٩٢٥ و١٩٤٧، وجعلت النضال الأيديولوجي ضد الدين بكل صورته هدفها الأول. وبدأت بذور الجمعية مع جريدة الملحد (Безбожник) التي بدأت بإصدار أعدادها في عام ١٩٢٢، وشكّلت حولها دوائر من الكُتّاب والمراسلين والقراء، وعقدت في عام ١٩٢٥ مؤتمرًا أصدقاء جريدة الملحد، وأُخذ فيه قرار تأسيس «عصبة المناضلين الملحدين»، لتعمل على الترويج للأيديولوجية السوفييتية ومناهضة المظاهر الدينية في المجتمع، واستئصال «بقايا» الدين من المجتمعات السوفييتية. لكن مع تغير السياسة الدينية للاتحاد إبّان الحرب، تقلص نشاط العصبة إلى حد كبير، حتى حُلّت في عام ١٩٤٧. (المترجم)].

وَألف وخمسمائة (١٥٠٠) نسخة أخرى باللغة الكازاخية (وكانت موجّهة في الغالب للأقلية الكازاخية في شينغيانغ)^(٤٧). وكذلك فقد طُبِع نداءٌ آخر موجّهٌ للمسلمين الإسماعيلية في جميع أنحاء أوراسيا - أفغانستان وإيران والصين وسوريا والعراق - في ألفي نسخة (٢٠٠٠)، بمبادرة من جهاز أمن الدولة، الذي سُمِّي لاحقًا مفوضية الشعب لأمن الدولة (NKGB)^(٤٨)(١). وكثيرًا ما استُغلت خطابات

(47) PDDUM, 64-65.

(أ) مرّت أجهزة أمن الدولة الأساسية في الاتحاد السوفييتي بعد ثورة أكتوبر بعدة تحولات؛ ففي عام ١٩١٧، تأسست هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب (التشيكا - Чека - Cheka) وأوكل إليها ضبط معسكرات العمل وإدارة نظام معسكرات اعتقال الغولاغ وقمع الانتفاضات والتمردات المدنية والعسكرية، وتجاوز عدد قواتها في عام ١٩٢١ ماتبي ألف فرد، وكانت تابعةً لمجلس مفوضي الشعب مباشرةً. وفي بداية عام ١٩٢٢، حُلّت التشيكا ونُقلت وظائفها إلى إدارة الدولة السياسية (ГПУ - GPU)، لكن مع تأسيس الاتحاد السوفييتي نهاية العام خضعت الإدارة لإعادة هيكلة وضمّت إلى الإدارة السياسية المشتركة للدولة (ОГПУ - OGPU) وظلت على ذلك حتى عام ١٩٣٤ عندما انتقلت مهام أمن الدولة المذكورة ومعها محاربة الجاسوسية والقيام بمهام نشر الشيوعية خارج الاتحاد إلى الإدارة العليا لأمن الدولة (ГУГБ - GUGB) في مفوضية الشعب للشئون الداخلية (НКВД - NKVD) وذلك حتى عام ١٩٤١. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وزيادة إلحاح الشئون الأمنية، تأسست مفوضية الشعب لأمن الدولة (НКГБ - NKGB) بتفكيك الإدارة العليا من مفوضية الشئون الداخلية، وظل الأمر على ذلك مع تغييراتٍ داخلية حتى عام ١٩٤٦ عندما تغير اسم المفوضيات إلى وزارات، فأصبح اسم الجهاز وزارة أمن الدولة (МГБ - MGB)، ثم اندمجت في وزارة الشئون الداخلية مرةً أخرى في عام ١٩٥٣. لكن سرعان ما تغير النظام السياسي بعد وفاة ستالين وانقلاب خروشوف، وأعيدت هيكلة الأجهزة السياسية كلها، ومنها وزارة الشئون الداخلية التي انقسمت مرةً أخرى، وتغير اسم وزارة أمن الدولة إلى لجنة أمن الدولة، وهي لجنة الكي-چي-بي الشهير (КГБ - KGB)، وعادت لتتبع مجلس الوزراء مباشرةً. وقد ارتبطت هذه التغييرات المربكة كلها بتطورات الاتحاد السوفييتي نفسه على مستوى الإدارة، وبتغييرات التحالفات السياسية القائمة بين النخبة الحاكمة، وبتنوع المهام المطلوب تنفيذها، المؤقتة والدائمة. لكن هذه التغييرات كلها لم تكن إلا تغييرات اسمية غير جوهرية، وظلت الوجوه هي الوجوه، والسياسات على حالها. (المترجم)

(48) PDDUM, 65.

عبد الرحمن رسولوف (Gabdrahman Rasulev)⁽⁴⁹⁾ - رئيس النظارة الدينية (دار الإفتاء) المركزية وأحد أفراد النخبة المسلمة «الموالية» - بتصديرها للخارج. وقد هاجم رسولوف - في أحد خطبه - المفتي الفلسطيني الحاج أمين الحسيني، حليف هتلر وأحد مرؤجي البروپاغندا النازية في العالم العربي، واصفًا إياه بالكافر عبد «فوتان» (Votan)؛ إله النازية، وهو النطق الروسي للاسم الألماني للإله أودين⁽⁵⁰⁾. وفي عام ١٩٤٤، كان العزم معقودًا أن يضع رسولوف كتابًا عن الكفاح الإسلامي العالمي ضد النازيين، ليُنشر في الهند. لكن هذه الخطة لم تَرَ النور قط، وظلت حائرة بين مستويات الحكومة العليا؛ إذ تشاور پوليانسكي مع مولوتوف حول تفاصيلها.

وقد استمرت المنظمات الإسلامية والمسيحية في مزاوله نشاط النشر الأجنبي مدةً طويلة بعد نهاية الحرب؛ حيث بدأت دار إفتاء طشقند (SADUM) تحت إدارة إيشان باباخان في إصدار مجلتها المسلمون في الشرق السوفياتي (*Muslims of the Soviet East*) باللغة الإنكليزية، وهي المجلة التي جاءت في معظم محتوياتها مزيجًا بين الموضوعات السوفيتية القومية والموضوعات الإسلامية. وقد تضمّنت المجلة

(١) الشيخ المفتي عبد الرحمن رسولوف، إمام مسلم بشكيري تيري وشيخ الطريقة الخالدية النقشبندية، ومفتي أوفاء ورئيس النظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا. وهو الابن الأصغر للرمز الديني الكبير والمصلح التتري المعروف زين الله رسولوف (المشهور باسم زين الله رسولوف) مؤسس المدرسة الرسولية في مدينة ترويتسك بأرنبرغ. وُلد عبد الرحمن رسولوف في عام ١٨٨٩ في مدينة أوفاء، وبدأ الدراسة في المدرسة الرسولية من سن الحادية عشرة وحتى الثامنة عشرة عندما سافر إلى القاهرة ودرس بالجامع الأزهر ثلاث سنوات، ثم رجع وقام على التدريس في المدرسة الرسولية حتى أصبح مديرًا لها في عام ١٩٠٣، وارتفع شأن المدرسة في عهده بسبب إصلاحاته التي أدخلها على نظام التعليم وتوسعته لمبانيها ومكاتبها. وعندما توفي أبوه الشيخ زين الله في عام ١٩١٧، انتقلت إليه رئاسة الطريقة النقشبندية الخالدية. لكن شأنه لم يعلل لرتبة الرئاسة الدينية للمسلمين التتري إلا بعد وفاة الشيخ رضاء الدين بن فخر الدين، وفي ذلك حوادث رواها المؤلف في الفصل الأول. توفي الشيخ عبد الرحمن رسولوف في عام ١٩٥٠ ودُفن في حديقة المسجد الجامع الأول بأوفاء. (المترجم)

(49) E.D. Abataev, "Islam v gody Velikoi Otecheštvennoi voiny," *Istoriia Velikoi Pobedy: sbornik materialov mezvuzovskoi I 89 nauchno-prakticheskoi konferentsii* (Novokuznetsk: FKOU VO Kuzbaskii inštitut, FSIN Rossii, 2018), 13.

-إلى جانب نشرها خطابات ستالين- بعض المقالات المختارة؛ مثل: «واجبات أئمة المسلمين نحو الوطن في الفترة الحالية»، و«العمل الوطني للتدين الكازاخي»⁽⁵⁰⁾، كما نُشرت عدة طبعات محدودة من التقاويم الإسلامية السوفيتية بغرض التصدير⁽⁵¹⁾. وقد ألهمت هذه الجهودُ جهودَ الكنيسة الأرثوذكسية التي أطلقت في عام ١٩٤٣ جريدة بطيركية موسكو (*Journal of the Moscow Patriarchate*)، وأصدرت بعض التقاويم في العالم التالي⁽⁵²⁾.

وعلى هذا النحو، شهد مجال البروباغندا الدينية السوفيتية نشاطًا ملحوظًا إبان الحرب وما تلاها من سنوات. وقد ذهب المسؤولون السوفيت إلى أن هذا النوع من البروباغندا يُعدُّ خطوةً أساسية في مواجهة الدعاية النازية المناهضة للسوفيت، إلى جانب كونه خطوةً إيجابيةً في إثارة التعاطف الخارجي مع الاتحاد السوفيتي؛ ولهذا

(50) PDDUM, 81; Tasar, *Soviet and Muslim*, 56.

[استعملنا في الإشارة إلى المجلة اسمها الرسمي الذي صدرت به الترجمة العربية في عام ١٩٦٩، وفيه جاءت كلمة السوفيتي برسم «السوفياتي» - المترجم.]

(51) PDDUM, 47-48.

كانت الخطط الأصلية للمجلة، والموصوفة في رسالة إلى بوليانسكي، تحمل موضوعات مقالات من قبيل «الإمبريالية الألمانية: عدو المسلمين القديم»، و«الفاشية: عدو المؤمنين المسلمين»، و«الدستور السوفيتي والدين» (JSG3, 30-31). أما التقاويم فطُبعت بتردد أكبر، وجرى إزالة كثير من عناصر صورتها المقترحة في عام ١٩٤٧، والتي تضمنت في الأصل تراجم لأئمة مسلمين، واستشهادات قرآنية وأدعية دينية (بسم الله الرحمن الرحيم...). وبعد تأخر عدة مرات بسبب ضعف العمل على المطبعة، صدر أخيرًا «تقويم النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان» في طبعة من ثلاثة آلاف (٣.٠٠٠) نسخة، انظر:

V.A. Akhmadullin, "Reglamentatsiia sovetskim gosudarstvom vypuska i raspredeleniia islamskikh kalendarei, izdannykh muftiiatami (1944-1965)," *Veštnik Moskovskogo gosudarstvennogo lingvističeskogo universiteta* 1/794 (2018), 106-108

(52) Tatiana A. Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia: Russian Orthodoxy from World War II to the Khrushchev Years*, trans. Edward E. Roslof (New York: M.E. Sharpe, 2002), 77-78.

ووفقًا لسوماتشكو، لم يُنفذ قط الوعدُ المقطوع بإصدار خمسة عشر ألف نسخة من العدد الافتتاحي للجريدة؛ لأن المطبعة لم يصلها الورق الكافي، واضطرت الكنيسة إلى طباعة ثلاثة آلاف نسخة فقط.

فلا عجب في أن يذهب كثير من المؤرخين إلى أن الإصلاحات الدينية السوفيتية في زمن الحرب كانت نشاطًا دعائيًا خارجيًا، كما خالص بعضهم إلى أن هذا النشاط إنما كان يستهدف الجماهير في الخارج وليس الداخل.

بيد أن ثمة أسبابًا قوية - كما سنرى - تورث الشك في هذه الخلاصات، وتشير إحدى الفرضيات الشهيرة عن تحول السياسات الدينية إلى أحد هذه الأسباب، [١٦] ونعني به حقيقة أن جانبًا هائلًا / من البروباغندا الدينية السوفيتية إنما نُشر في الداخل للمواطنين السوفيت.

بروباغندا داخلية: ولاء التُّخوم السوفيتية ودعوات التعبئة للحرب

يبدو أن هذه البروباغندا «الداخلية» - التي بدأت مع شهور الحرب الأولى - قد وُزعت على وجه السرعة في المناطق التي احتلها السوفيت في شرق أوروبا، ثم في أراضي الاتحاد السوفيتي التي تهددها خطر تقدّم القوات الألمانية تهديدًا شديدًا. أما الأراضي التي احتلها الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٣٩^(١)، فقد كان يُنظر إليها على أنها منطقة تتسم بالتسامح الديني، حتى قبل اندلاع الحرب^(٥٣). وكانت التُّخوم

(١) بعد سبعة عشر يومًا من الغزو الألماني لبولندا في عام ١٩٣٩، والذي يمثل بداية الحرب العالمية الثانية، غزا الاتحاد السوفيتي المناطق الشرقية من بولندا (المعروفة باسم كريس) وضمّ أراضي تبلغ مساحتها أكثر من مائتي ألف (٢٠٠٠٠٠) كيلومتر مربع. وكان من بين سكّانها البولنديون التشيك والليتوانيون والبيلاروس واليهود الأوكرانيون وغيرهم من الأقليات. (المترجم)

(53) M.V. Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve—Gosudarstvenno-tserkovnye otnosheniia v SSSR v 1939-1964 godakh* (Moscow: Krutitskoe Patriarshee Podvor'e; Obshchestvo liubitelei tserkovnoi istorii, 1999), 103.

لكن الوقوف على حقيقة السياسة الدينية في المناطق المحتلة أعقد من مجرد القول: إنها كانت أكثر انفتاحًا أو غائبة. ففي الأراضي البولندية المحتلة، أمالت حملة قمع [ألمانية] للكنائس الأرثوذكسية، مستلهمة من الحملات الكاثوليكية، المواطنين الأرثوذكس في بولندا إلى ناحية المحتل السوفيتي، وكانت تلك فرصة كان السوفيتُ حكما بما يكفي لاغتنامها؛ إذ لم يكتفوا بالسماح للأرثوذكس بحرية الحركة دون اضطهاد، بل أدوا الدور، ولو كان أداءً ساذجًا، =

المحتلة في عام ١٩٤١ - وبعد تحرُّرها الكامل من ضغوط القيود الدينية المفروضة في بقية أنحاء البلاد- تضم سبعين في المائة (٧٠٪) من الكنائس السوفيتية العاملة كلها^(٥٤). وعلى الرغم من ذلك، فإن البيانات الإذاعية النازية أكدت للمواطنين السوفيت منذ اليوم الأول للغزو أن «أول إجراء ستخذه الإدارة الألمانية سيكون العمل على استعادة الحرية الدينية ... سنأذن لكم بتأسيس إبراشياتكم الدينية، وسيعبد الجميعُ الله حرًّا؛ كلُّ على دينه»^(٥٥).

= الذي كان يُتَظَر منهم الاضطلاع به، أعني مناصرة الكنيسة ضد مضطهديها الكاثوليك. تأمل مثلاً مشهد القساوسة الأرثوذكس في عام ١٩٣٩ وهم يقفون على رأس احتفالات «تحرير» السوفيت لهم، وخلفهم أبراج الكنائس تكتسي بالأعلام الحمراء ترحيبًا. وسرعان ما فوّضت موسكو الكنيسة الأرثوذكسية في نشر النفوذ السوفيتي في هذه الأراضي المحتلة وغيرها. وفي الوقت نفسه، شارك الجنود السوفيت في المناطق المحتلة مشاركة نشطة في الحياة الدينية، فقد أشار أحد القساوسة في كاتدرائية أرثوذكسية أوكرانية إلى نمو كبير في طقوس التعميد بعد وصول العسكرين السوفيت وعائلاتهم، وأن أعضاء الحزب الشيوعي والعاملين بمفوضية الشؤون الداخلية كانوا من ضمن من جلبوا أبناءهم لهذه الطقوس، انظر:

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 103-104; 109.

(54) Miner, *Stalin's Holy War*, 47; Reese, "The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Staliniŝt Regime during the Great Patriotic War," 137, 143.

انظر أيضًا:

Konstantin Oboznyi, "'Novyi kurs' religioznoi politiki Stalina i tserkovnaia situatsiia na okkupirovannykh territoriiakh Leningradskoi oblasti (1943-1944 gg.)." *Gosudarstvo, religiia, tserkov v Rossii i za rubezhom* 3 (2017), 360-387.

(55) Miner, *Stalin's Holy War*, 53.

في الوقت الذي أشرفت فيه القوات الألمانية على إعادة افتتاح المساجد، تأمر هتلر على دعم فرق متعددة بهدف تقسيم أي تحالف مسيحي، ومنع هيمنة أي كنيسة موحدة بعينها، انظر:

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 141; 144-145; 160-161

يقول ناثانيل ديفيس: «لماذا استضاف ستالين الزعامات الدينية؟ ولماذا فعل ذلك بعد أكثر من عامين من غزو هتلر؟ يبدأ التفسير الراجح من تحسينه المحدود لسياسة [التعامل مع] الكنيسة في عام ١٩٤١، التي كانت رد فعل على نهضة الحياة الكنسية خلف خطوط الألمان، وخوفه =

ومن المحقق أن هذه البيانات أغفلت مشاعر هتلر الشخصية نحو المسيحية التي اشتهر عنه قوله فيها: «المسيحية هي أقسى ضربة تلقتها البشرية، وما البلشفية إلا ابن سفاحها، وكتاهما من بدع اليهود»^(٥٦).

وعلى هذا النحو، اندلعت حربُ البروپاغندا بين الألمان والسوفييت على التخوم السوفييتية منذ أوائل أيام الحرب. وعندما اشتعلت «جبهات» أخرى للبروپاغندا الدينية السوفييتية في مراحل تالية من الحرب، جُنّدت الزعامات الدينية في بعض المناطق الأخرى لإعلان نفير الحرب، على نحو ما سنرى في الفصول القادمة. وخلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٥، عندما طرد الجيش الأحمر الألمان من شرق أوروبا، ظل هناك دافعٌ قوي لإذاعة التسامح الديني؛ في سبيل استحثاث الولاء أو على الأقل محو الدوافع البارزة للانشقاق^(٥٧).

بيد أن ثمة حافزًا جديدًا كلّ الجدّة للبروپاغندا الداخلية برز إلى الوجود منذ عام ١٩٤٢، عندما زاد قتلى الجيش الأحمر في المعارك زيادة هائلة، ومرادنا بهذا الحافز الجديد إشعال الروح القتالية لدى السوفييت من غير الروس؛ حيث كانت الروح المعنوية المتداعية لدى كثير من «القوميات» المسلمة السوفييتية جرى تداولها على نطاق واسع بين المسؤولين السوفييت، وكان التمييز [العنصري] متفشياً^(٥٨). وسرعان

= المحقق من أن تطلعات مؤمني الاتحاد السوفييتي قد تجعلهم مناهضين للسوفييت. وفي أشهر اليأس التي شهدت الانسحاب السوفييتي الأول، ثم الثاني في عام ١٩٤٢، تركزت طاقات ستالين على النجاة والاستراتيجية العسكرية، وعندما فكر في سيرغي وكنيسته، خلص إلى أن تقديم مزيد من التنازلات لن يؤثر على موقف سيرغي المؤيد علنًا بالفعل. ولكن بحلول عام ١٩٤٣، كان ستالين يفكر أكثر في السياسة، وكان الجيش الأحمر يحرق مناطق حافلة بالكنائس الأرثوذكسية، انظر:

A Long Walk to Church, 18.

(56) Richard Steigmann-Gall, *The Holy Reich: Nazi Conceptions of Christianity, 1919–1945* (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2003), 254.

انظر:

(57) Pospelovskii, *Russkaia pravoslavnata tserkov' v XX veke*, 191.

(٥٨) عن التمييز [العنصري] المتفشّي الذي لاقاه الجنود الكازاخ، انظر:

Carmack, *Kazakhstan in World War II*, 30–38.

ما ظهرت بعض المشاكل في شهور الحرب الأولى؛ فقد / كان غالب المجندين من [١٧] الروس والبيلاروس والأوكران، وكثيراً ما وُضع الجنود غير السلاف، ممن يتكلمون الروسية قليلاً أو ممن يجهلونّها تماماً، في وحداتٍ جميع أفرادها من الناطقين بالروسية، فعجزوا بذلك عن التواصل مع قادتهم أو رفقائهم. وفوق ذلك، خشي عامة المسؤولين السوفييت وقادة الجيش من أن غير الروس لم يكونوا على يقين من أسباب خوضهم القتال، وهي مشكلة افتُرض أن سببها الأصيل هو الافتقار إلى الوطنية، والجهل بنوايا هتلر ومدى قوته. وقد لُو حظ بحقّ في أوائل شهور الحرب أن الجنود المسلمين الذين ينحدرون من مناطق آسيا الوسطى والقوقاز كانوا من أكثر الجنود ميلاً إلى الفرار وإيذاء النفس لئيسرّ حوا من الخدمة، وإلى نشر الروح المعنوية السلبية، وكانوا كذلك أقل الجنود ميلاً للتطوع^(٥٩). ولئن كان جنود هذه المناطق أقليةً صغيرةً في الجيش الأحمر كله في عام ١٩٤١، فإنه بحلول عام ١٩٤٢، ومع زيادة عدد القتلى وخضوع مساحاتٍ واسعة من بيلاروسيا وأوكرانيا للاحتلال النازي، مسّت الحاجة إلى مزيد من الجنود ومزيد من حماسة السكان المسلمين. وفي مارس/ آذار من عام ١٩٤٢، أعرب يفيم شيدينيكه (Efim Schadenko)، قائد التعبئة والتجنيد في الجيش الأحمر، لستالين عن قلقه مما يُبديه هؤلاء السكان من عزوف شديد عن الانضمام إلى الجيش. وبعد أقل من شهر، صدر أمرٌ بتجنيد سرّيّ طارئٍ لألفٍ وخمسمائة جندي آخرين، كثيرٌ منهم كان قد أُرجئ تجنيده قبل ذلك، وغالبهم من أوزبكستان وكازاخستان^(٦٠).

(٥٩) انظر مثلاً:

Brandon Schechter, “‘The People’s Instructions’: Indigenizing the Great Patriotic War Among ‘Non-Russians,’” *Ab Imperio* 3 (2012), 109–133; Roger R. Reese, *Why Stalin’s Soldiers Fought: The Red Army’s Military Effectiveness in World War II* (Lawrence, KS: University of Kansas Press, 2011), 141–148; Miner, *Stalin’s Holy War*, 64–65.

(60) K.S. Drozdov, “Stalingrad: voennaia mashina Reikha protiv internatsionala sovetskikh narodov,” in V.A. Tishkova and E.A. Pivnevoi, eds., *Istoricheskaia pamiat’ i rossiiskaia identichnost’* (Moscow: RAN, 2018), 188.

ومع نهاية عام ١٩٤٣، برز الجنود من غير السلاح بروزاً متفاوتاً في أرض المعركة وفي سجلات الخسائر. وتعرضت الأقليات السوفيتية طوال الوقت منذ خريف عام ١٩٤٢ لحملات پروباغندا واسعة النطاق؛ فمع تشكيل مزيد من «الوحدات القومية»، من سكان القوقاز والقوقاز-أورال وآسيا الوسطى مثلاً، غُمرت هذه المناطق بموجات متتابة من الكتابات القومية والوطنية؛ حيث عرضت الجرائد ومتاجر الكتب والمسارح قصصاً عن أبطال الحرب من الأوزبك والكازاخ والقيرغيز والترجمان والطاجيك والبشكير والتر والشعوب السوفيتية الأخرى.

وقد توفّر كثير من الباحثين على دراسة هذه الموجة من موجات البروباغندا دراسةً مستفيضة في السنوات الأخيرة؛ من ذلك الأعمال الرائدة لـ براندون شستر (Brandon Schechter)، وبوريم شين (Boram Shin)، وتشارلز شو (Charles Shaw)، وروبرتو كارماك (Roberto Carmack) وغيرهم^(٦١). ويتفق هؤلاء المؤرخون إجمالاً

(٦١) انظر:

Carmack, *Kazakhstan in World War II*, 42–62; 92–107; Carmack, “Hero and Hero-Making: Patriotic Narratives and the Sovietization of Kazakh Front-Line Propaganda, 1941–1945,” *Central Asian Survey* 33/1 (2014), 95–112; Charles Shaw, “Soldiers’ Letters to Inobaton and O’g’ulxon: Gender and Nationality in the Birth of a Soviet Romantic Culture,” *Kritika* 17/3 (2016), 517–552; Boram Shin, “Red Army Propaganda for Uzbek Soldiers and Localised Soviet Internationalism during World War II.” *The Soviet and Post-Soviet Review* 42–1 (2015), 39–63; Schechter, “‘The People’s Instructions’”.

ما دامت الأدلة على تطور التصورات الذاتية المتعلقة بالهوية القومية في هذه الفترة أدلةً واهيةً، فإن العلاقة بين «تشكل الهوية» أيام الحرب وبروباغندا أيامها ستكون واهيةً هي الأخرى. لكن شين تدرس ما إذا كان لردّ الفعل الأوزبكي على الحرب، وعلى النداءات الدعائية المكثفة التي تطلب المشاركة، أي دلالة على الفاعلية. وفي حين يشدّد شستر على ما اتسمت به «هذه البروباغندا من طبيعة الإنتاج الكثيف» (Schechter, “‘The People’s Instructions,’” 118) دون أن ينكر ما كان لها من صدى محتمل، فإن شين تشير إلى أن «عملية التوطين كانت أعقد من مجرد «إدخال» تفاصيل أصيلة في سردية كبرى يضعها المركز. فسنوات الحرب منحت النخب الثقافية المحلية المنخرطة في وضع البروباغندا درجةً من النفوذ على موسكو، وتمكنوا لذلك من تحديد موقع أهمهم داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه» (Shin, “Red Army Propaganda for Uzbek Soldiers,” 41).

على أن هذه الجهود المكثفة التي بُذلت زمنَ الحرب، رجاء الجمع بين الوطنية والهوية العرقية القومية، أفادت في خلق هوية «هجينة»، سوفيتية و«قومية» في آنٍ معاً (أوزبكية أو قيرغيزية أو كازاخية أو غير ذلك)، ويزعمون أن الحرب كانت بوتقةً انصهر فيها الشعور الوطني الجماعي السوفيتي ونشأ فيها التمايز القومي في الآن نفسه؛ إذ أشادت آلة البروباغندا السوفيتية إشادةً بالغة بكبار الأبطال القوميين، وجعلتهم نماذج لجيلٍ جديد / من الأبطال. فمقاومة هتلر صُوِّرت على أنها نضالٌ [١٨] في سبيل الوطن السوفيتي والوطن المحلي العرقي القومي على حدٍّ سواء. لكن القصة التي يرويها ششتر وشن وشو وكارماك تركز على البعد «العلماني»، وكثير من نماذج البروباغندا التي يدرسونها تخلو خلواً تاماً من أي محتوى ديني صريح (ولا سيما عند مقارنتها بتلك البروباغندا الدينية الصريحة المزمنة لها، التي ندرسها في هذا الكتاب). فقد كانت البروباغندا القومية «العلمانية»^(٦٢) ونظيرتها الدينية السوفيتية عالمين متوازيين؛ يقوم على نشر أحدهما المثقفون والفنانون والصحفيون

= إن إشارة شين هذه إشارة واعدة، وسأستكشفها هنا في هذا الكتاب. لكن مثال شين الذي أوردته، والمستقى غالباً من الكتابات الأدبية الشعبية والبروباغندا الفنية، لا يميز بوضوح «خط الحزب» عن الجهود الدعائية لـ «النخب الثقافية المحلية». فحقيقة أن المسرحيين والروائيين الأوزبك أنتجوا نوع السير التبجيلية ذاتها التي شجّع عليها الجيش الأحمر من موسكو أو بالأحرى أمر بها، لا تخبرنا إلا بأن تصور هؤلاء الأدباء والحكومة السوفيتية عن موقع أوزبكستان من الاتحاد السوفيتي تصوّر واحدٌ إلى حدٍّ كبير. ولإيجاد هذا النوع من الفاعلية، نود أن نعرف خصيصاً إن كانت هناك حالات في أيام الحرب قد تفاوضت فيها النخب المحلية على تنازلات، لأنفسهم أو لجماعاتهم، ما كانت تُمنح لولا هذا التفاوض، أو حالات اختلفت فيها البروباغندا «المحلية» اختلافاً واضحاً عن سياسات الحزب أو قناعاته. يمكننا الرد بالإيجاب قطعاً في حالة الإسلام والنخب المحلية الإسلامية، على ما سيبيّن هذا الكتاب.

(٦٢) أستعمل هنا وجلاً كلمة «علماني»؛ إقراراً بحقيقة أن كثيراً من الأبطال «الوطنيين» الذين ظنّت سلطات موسكو أن قصصهم تخلو من أي مضمون ديني، إنما كان لهم إلى حدٍّ ما صدىً ديني لدى الجماعات المستهدفة بالبروباغندا المذكورة. فماناس (Manas) مثلاً، موضوعُ أطول قصيدة ملحمة في العالم، رُوِّج له الأكاديميون والمنسّقون الثقافيون السوفيت بوصفه بطلاً قومياً علمانياً للشعب القيرغيزي، لكن نادراً ما أشار أحدٌ من كتّاب العهد السوفيتي إلى ما هو جلي واضح لدى العديد من القيرغيز، ساعتها والآن، ألا وهو أن حبكة الملحمة تدور لا على مجرد بطلٍ يحارب الأعداء، ولكن على بطلٍ مسلم يحارب الكفار.

والمهيجون وأصحاب الدعاية، وأما الآخر فقد توفّر على نشر غالبه من أجزء من الزعامات الدينية.

إن الكيفية التي استعملت بها الحكومة السوفيتية الهويات القومية في زمن الحرب، وكيفية استعمالها الهويات الدينية، يشكّان فصلين من فصول قصة واحدة. وقد يختلف هذان التياران على مستوى البيروقراطية السوفيتية المتشظية، لكنهما يلتقيان لدى العديد من الشخصيات التي سنمرُّ بها في هذا الكتاب، ولم تبتلع الهوية القومية هويتهم الدينية أو تقوّضها، من أمثال علي زاده وإيشان باباخان، بل كما زعم كلاهما: «حبُّ الوطن من الإيمان».

ثورة من أسفل

يتلخّص جوهر الفرضية التي تقضي بأن رغبة الدولة في تعبئة القوّات كانت هي المحرّك الأساسي لـ «الثورة الدينية» زمن الحرب، فيما قاله سولجنيتسين (Solzhenitsyn)⁽¹⁾ في كتيبه الشهير خطاباً للقادة السوفيت (Letter to the Soviet Leaders) في عام ١٩٧٤^(٦٣):

«عندما اشتعلت الحرب مع هتلر، لم يُغفل ستالين -الذي أهمل كثيراً وأخطأ في طريقة استعداده للحرب- هذا الجانب؛ الجانب

(١) ألكسندر سولجنيتسين (Александр Солжени́цын) روائي ومعارض روسي ولد في عام ١٩١٨، اعتنق في شبابه الفلسفة الماركسية اللينينية ودعم الاتحاد السوفيتي، حتى اعتقل في أثناء مشاركته جندياً في الحرب العالمية الثانية بسبب انتقاده سياسات ستالين. سُجن سولجنيتسين ثمانين سنوات، وخرج بعدها في عهد خروشوف حيث الحرية النسبية في انتقاد ستالين وسياساته، وكتب كثيراً من الروايات التي تحكي ما كان يجري في عهد القمع ومعسكرات الاعتقال، وحصل بموجبها على جائزة نوبل في عام ١٩٧٠؛ لما فيها من «قوة أخلاقية استرجعت تراث الأدب الروسي» حسب قول لجنة الجائزة. وقد نُفي من الاتحاد السوفيتي بعد إزاحة خروشوف من السُلطة، وظل يعارض سياسات الاتحاد السوفيتي حتى زواله في عام ١٩٩١، ثم عاد إلى روسيا وظل مقيماً بها حتى مات في عام ٢٠٠٨. (المترجم)

(63) Aleksandr I. Solzhenitsyn, *Letter to the Soviet Leaders* (New York: Harper & Row, 1975), 17-18.

الأيدولوجي... فمنذ أول أيام الحرب، رفض ستالين الاستناد إلى
دعامة الأيدولوجيا [الشيوعية] المتداعية الفاسدة، بل تجاهلها تجاهلاً
تستوجهه الحكمة، وأمسك عن ذكرها، ورفع بدلاً عنها الراية الروسية
القديمة - التي كانت أحياناً في واقع الأمر راية الأرثوذكسية -
وانتصرنا!».

بهذه الصيغة، يتضح أن التغيرات الأساسية التي طرأت على الحياة الدينية زمن
الحرب كانت «ثورة من أعلى» صنعتها الحكومة على عينها وأذاعتها، ولم يقتصر
عملها - أي الحكومة - على مجرد إجازتها. وعندما نشر ماينر (Miner) كتابه حرب
ستالين المقدسة (*Stalin's Holy War*) في عام ٢٠٠٣، كان بوسعه أن يقرّر أن هذا
الموقف هو الأكثر شيوعاً بين المؤرخين، بل إنه الموقف «المعتمد» بينهم في واقع
الأمر (٦٤).

على أن ثمة نهجاً شائعاً على نحو متزايد يتخذ في مقارنة هذه القضية وجهة نظر
مقابلة؛ حيث يؤكد أن اضطرام الشعور الديني والتعبيرات الدينية / زمن الحرب دفع [١٩]
الحكومة السوفييتية - مسوقة بما كانت تعانيه من شدائد، ومسوقة كذلك بالدوافع
البراغماتية، لفتح أبواب التسامح - إلى إطلاق تيارٍ ستمسُّ الحاجةُ إلى توجيهه بعد
ذلك. وفي السنوات الأخيرة، صار موقف «من أسفل لأعلى» أشهر من موقف «من
أعلى لأسفل»، وخاصةً في روسيا. والواقع أن هذه الرؤية كانت هي رؤية ماينر أيضاً؛
إذ أوجز هذا الموقف إيجازاً بليغاً في قوله (المتعلق بالكنيسة الأرثوذكسية) (٦٥):

(64) Miner, *Stalin's Holy War*, 7.

(65) Miner, *Stalin's Holy War*, 320;

وانظر أيضاً:

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 199-200; Dunn,
The Catholic Church and Russia, 108.

كتب روجر ريس (Roger Reese): «إن الانطباع السائد يقول: إن الكنيسة ظلت مكتوفة الأيدي
على الهامش حتى أعاد ستالين تأسيسها في عام ١٩٤٣. لكن ما فعلته الكنيسة حتى تلك اللحظة
لم يظهر في الدراسات التاريخية الروسية إلا مؤخراً في بعض كتب ومقالات وبحوث مؤتمرات =

«لقد كان ما جرى زمنَ الحرب، خلافاً للكثير من السرديات، انبعاثاً جماهيرياً للدين، لا الكنيسة. وهذا التمييز مهمٌّ؛ لأن انبعاث الدين ثار عفويًا من الأسفل في ردِّ فعلٍ على الموت الجماعي زمنَ الحرب والتفكُّك المؤقت لروابط الإلحاد الشيوعي. وكان هذا الانبعاث مصدر اضطرابٍ سياسي؛ ولذلك سمح ستالين باستعادة بطيركية موسكو، يحدوه الأمل في استعادة النظام والاستقرار. وأما بين أبناء العرق الروسي، فقد انعكس الانبعاث الديني في بعض المطالب الشعبية بإعادة فتح الكنائس، واستعادة أملاكها، وتفعيل دور الجماعات والطوائف الدينية الصغيرة، التي كانت في الغالب مناهضةً للسلطة السوفييتية ومرتبطةً في بطيركية موسكو، أو معاديةً لها صراحةً؛ ومن ثمَّ فقد كانت خارج سيطرة الدولة».

وعلى غرار ذلك، يشدّد بعض المؤرخين على ما عدّوه هزيمةً في الحرب التي شنّها السوفييت على الدين في غضون العقود التي سبقت الحرب. وقد ذكرت شوشانا كيلر (Shoshanna Keller) فيما يخصُّ الحالة الإسلامية أن «تأسيس نظارات

= ومجموعات وثنائى منشورة. وتعزز هذه الأعمال ادعاء الكنيسة بأنها كانت مدفوعة بالوطنية، في محاولة منها للمطالبة بالشرعية في روسيا المعاصرة». ويقدم ريس منظورًا مناقضًا لذلك يندرج بشكلٍ عام تحت مظلة «الثورة من أسفل»؛ إذ يقول: «أزعم أنه على عكس التفسير الروسي الحالي، لم يكن دافع الكنيسة البطيركية بقيادة المطران سيرغي في عام ١٩٤١ هو الوطنية أو الرغبة في إظهار الولاء للنظام السوفييتي، بل إنها خططت أفعالها لتستغل الحرب في تحقيق ثلاثة أهداف؛ الأول والأهم أن تصبح ذات صلة بالحياة اليومية للشعب السوفييتي بنشرها العقائد والقيم المسيحية، والثاني أن تكتسب شرعيةً في عيون المناهضين لرجال الدين وغير المؤمنين عبر تقديم دعمٍ معنوي وعملي لجهود الحرب، والثالث أن تحضّل قوةً قانونيةً بإظهار جدارتها بالثقة وولائها عبر مظاهر الوطنية الروسية (لا السوفييتية) والمتوافقة مع دورها التاريخي، كل ذلك دون أن تدعم الأيديولوجيا الشيوعية. وفوق ذلك، أزعّم أن التفاعل الشعبي العفوي من المؤمنين والقساوسة مع دعم الكنيسة وأنشطتها أيام الحرب إنما يمثل في الأساس دعمًا للكنيسة والمسيحية والوطنية الروسية، ولم يكن للولاء للنظام الستاليني نصيبٌ من هذا الدعم إلا قليلًا إن كان»، انظر:

(Reese, "The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Stalinist Regime during the Great Patriotic War," 132-133; 136-137).

[دينية] جديدة، يقوم على رأسها جيلٌ جديدٌ تمامًا من الأئمة المسلمين الخاضعين لسيطرة الدولة خضوعًا تامًا، إنما يمثل اعترافًا عامًا بما تبين جليًا على مدار عدة سنوات، ألا وهو انقضاء معركة استئصال الإسلام^(٦٦). وكان ستالين -وفقًا لهذا الرأي- يتفاوض من موقفٍ ضعيفٍ. بيد أن فيكتوريا سمولكن (Victoria Smolkin) تذهب إلى الرأي المقابل؛ فتزعم أن السياسات الدينية زمن الحرب نشأت عن هيمنة وقوة وثقة مطلقة^(٦٧):

«كان الدين عند البلاشفة أمرًا له أهميته؛ نظرًا لما يتهدد به السُلطة السوفييتية من خطر، ولكن بانقضاء ثلاثينيات القرن العشرين، ومع القضاء شبه الكامل على سُلطة الكنيسة الأرثوذكسية، اعتقد البلاشفة أن الخطر قد عُطِّل مفعوله بنجاح؛ ومن هنا، فقد أمسى الدين في الاتحاد السوفييتي مقيّدًا بشروط الدولة، التي وضعها ستالين في عام ١٩٤٣ عندما انقلبت سياسته الدينية انقلابًا تامًا في زمن الحرب، وأنشأ بيروقراطيةً حكومية تقوم على إدارة الشؤون الدينية، فأسبغ طابعًا رسميًا على إطارٍ جديدٍ للتفاعل السوفييتي مع الدين، ظلَّ قائمًا طيلة العهد السوفييتي».

/ على أنه مما لا جدال فيه أن الإخلاص الديني لدى جنود الجبهة الأرثوذكس [٢٠] (مثلًا) بدا شائعًا للغاية، كما أخبر كثير منهم فيما أُجري معهم من مقابلات بُعيد الحرب وفيما تلاها من عقود. والحقُّ أن المقابلات التي أُجريت في إطار برنامج هارفارد عن النظام الاجتماعي السوفييتي تُلقي ضوءًا باهرًا على ما نعرض له بالدرس

(66) Shoshana Keller, *To Moscow, Not Mecca: The Soviet Campaign Against Islam in Central Asia* (Westport, CT: Praeger, 2001), 244.

(67) Victoria Smolkin, *A Sacred Space is Never Empty: A History of Soviet Atheism* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2018), 18; 49.

وتقول في مكانٍ آخر: «إن حقيقة أن قرار استعادة الدين إلى الحياة السوفييتية كان بقرار شخصي من ستالين إنما تعني تصوره أن التهديد السياسي الذي مثله الدين قد حُجِد بالفعل»، انظر:

A Sacred Space is Never Empty, 52.

في هذا المقام؛ ذلك أنها أُجريت بعد أعوام قليلة من الحرب (بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٣) مع طائفة من المغتربين والألاجئين السوفييت في النمسا وألمانيا والولايات المتحدة. وسرعان ما أُلِف بعض المحاربين القدامى التصرفات الدينية العفوية، حتى من جانب رفاقهم الشيوعيين الملتزمين، مثل ذلك الميكانيكي الأوكراني البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا؛ إذ قال: «أذكر أنه عند انفجار القنابل، كان أعضاء الكومسومول «الشبيبة اللينينية الشيوعية السوفيتية» (Komsomol)^(٦٨) والحزب يجأرون بالدعاء: «يا رب أغثنا»، وربما يجثون على رُكبهم ويبتهلون إلى الله في الشارع»^(٦٨). ويقول جنديُّ أوكرانيٍّ آخر من جنود الخط الأمامي، اسمه إيون لازاروفيتش ديجين (Ion Lazarovich Degen)، في مقابلة أُجريت معه بعد سنوات: «قُبيل أي هجوم لم يكن هناك ملحدون! كان الجميع يهمسون بالدعاء قبل المعركة، فلا أشقَّ من أن تنتظر في وضع الاستعداد لتلقِّي أمر الهجوم؛ يتوقف الكون حولك في صمتٍ مؤلم مفرِّعٍ مثيرٍ للجنون»^(٦٩). ولقد وصف كثير من الجنود مشاهداتهم اليومية للأجواء

(أ) الشبيبة اللينينية الشيوعية السوفيتية أو الكومسومول (Всесоюзный ленинский коммунистический союз молодёжи – комсомол) منظمة سياسية شبابية في الاتحاد السوفيتي، توصف في العديد من الكتابات بأنها الجناح الشبابي للحزب الشيوعي، وإن كانت مستقلةً عنه قانونيًا وتنظيميًا. وكان الأطفال من سنِّ السابعة يندرجون في جماعة «الأكتوبريون الصغار» (Октябрята) حتى سنِّ التاسعة، ومنها إلى منظمة «الفتية الرواد» (Всесоюзная пионерская организация) حتى سنِّ الرابعة عشرة. وقد أشبهت المنظمتان منظمات الكشافة الغربية؛ حيث انعقدت حلقات التلقين الأيديولوجية والأنشطة التعاونية والتعليمية بهدف غرس القيم الشيوعية في الأطفال. ثم ينتقل الشاب المراهق إلى منظمة الشبيبة، ويظل فيها حتى سن الثامنة والعشرين. وشارك المنضمون إليها في أنشطة الحزب الشيوعي وأعمال الدولة من البناء والنقل والزراعة الجماعية وغيرها، ودعموا الدولة في المحافل المختلفة، وشكّل أعضاء الشبيبة مفرخًا للقيادات المستقبلية في الحزب الشيوعي. وركزت الكومسومول في العشرينيات والثلاثينيات على حملات مناهضة الدين بين الشباب، وتطور الأمر حتى التحرش بالمتدينين والقساوسة في الشوارع أحيانًا. وقد وصل عدد المنضمين إلى الشبيبة في بعض السنوات إلى عشرات الملايين، وظلت قائمةً حتى عام ١٩٩١ وحُلَّت مع تفكُّك الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

(68) HPSSS sched. A, vol. 36, case 103/(NY) 1593, f. 23.

(69) Interview, Ion Lazarovich Degen, <https://iremember.ru/en/memoirs/tankers/degen-ion-lazarevich/> (accessed April 10, 2020).

الدينية في سنوات الحرب، فمن ذلك مثلاً أن أحد الطلاب الروس الشباب قال لمحاوِره: «أنا اليوم أكثر تديناً من ذي قبل ... وقد تعلم كثيرٌ من الناس الصلاة في الحرب»^(٧٠). وقال سائق جرّار مسلم ينتسب إلى موردوفيا: «لم أكن مؤمناً بالله، ولم أفكر فيه إلا حين كنتُ على الجبهة في الحرب»^(٧١). وكذلك قال ميكانيكي آلات أوكراني: «كنتُ أكثر تديناً في الحرب؛ فكنتُ أدعو الله سرّاً وأنا أشعل سيجارة وأشرع في التدخين، وكذلك كان يفعل أعضاء الحزب الشيوعي»^(٧٢). وكان لدى ضابط روسي في منتصف الأربعينيات ذكريات مماثلة؛ حيث قال: «لم أكن أكثرث لأمر الدين ... حتى وقعت الحرب، وخرجت إلى جبهة القتال. لقد مرّت بي أوقات عصبية دفعتني إلى التفكير في وجود الله، وكذلك في وجود الدين نفسه»^(٧٣).

وسوف نستمع إلى مزيد من هذه الأصوات في الفصل الرابع وبعض المواضع الأخرى من هذا الكتاب. فهل كان لهذه الأصوات التي جعلت تتزايد في صفوف الجيش الأحمر وفي شتى أنحاء الاتحاد السوفييتي أثرٌ عند ستالين؟

استمرارية للماضي

سأضيف إلى المقاربات السابقة مقاربةً أخرى، وهي أن السياسة الدينية زمنَ الحرب لم تشهد في الواقع تعييراً جذرياً. والحقُّ أنني لم أقف بعدُ على هذه المقاربة في أي نصٍّ مكتوب (فيما أعلم)، ولكنها برزت كثيراً في حواراتٍ مع زملائي المؤرخين، وهي تشدّد على استمرارية / السياسات التي كانت متبعة قبل الحرب، [٢١] وترى أن فترة الإرهاب الكبير (١٩٣٧-١٩٣٨) هي التي تمثل نوعاً من الشذوذ العارض في سرديّة خطيّة للسياسة الدينية السوفييتية، وليس الحرب الوطنية

(70) HPSSS sched. A, vol. 21, case 420, f. 7.

(71) HPSSS sched. A, vol. 14, case 191, ff. 23-24.

(72) HPSSS sched. A, vol. 18, case 342, f. 32.

(73) HPSSS sched. A, vol. 11, case 136, f. 53.

الكبرى^(١). ففي إبان فترة الإرهاب الكبير، اعتُقل عددٌ كبير من الزعامات الدينية (أو زُعم أنهم كذلك) وأُعدموا، لكن التعبير المهم هنا هو الزعامات. فنُخب الجماعات المتميزة والمتماسكة كلها - سواء أكانوا من الكوادر السياسية الأوزبكية أم الاقتصاديين الأكاديميين في موسكو - كانوا عُرضةً للخطر في هذه السنوات، في حين كان اضطهاد عمّال المزارع الجماعية أو المصانع أقل كثيرًا، وهو ما يصدّق أيضًا على «المؤمنين» المتدينين. فليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن من زُعم أنهم نخب دينية قد اعتُقلوا بمعدلات أعلى من غيرهم كضباط الجيش أو نخب الحزب في العموم، وليس لدينا من المعلومات ما يؤيد القول بأن عاملَ مصنع مسلم أو أرثوذكسي كان أكثر عرضةً للاعتقال من زميله المنتسب إلى عصبة المناضلين الملحدين. لكن من المهم استثناء الأقليات الدينية التي كان اضطهادها أمرًا يوشك أن يكون مطردًا منذ العهد القيصري، ثم ازداد في الفترة السوفييتية، ومن هذه الأقليات مثلًا فرقة «أهل العقيدة القديمة» (the Old Believers)^(٧٤).

(أ) من المثير التأمل في الحمولات الرمزية للأسماء الرسمية للعمليات العسكرية، فمثلًا حرب يونيو/حزيران في عام ١٩٦٧ سُميت في مصر وسوريا والأردن بالنكسة؛ لتخفيف وطأة الهزيمة، وسُميت في إسرائيل بحرب الأيام الستة؛ افتخارًا بسرعة الإنجاز. وفي مصر يُستخدم تعبير «حرب العاشر من رمضان» في الإشارة إلى حرب عام ١٩٧٣؛ للتركيز على الجانب الديني للحرب، وكذلك استند هتلر إلى الأساطير الألمانية في اختياره تسمية حملته على الاتحاد السوفييتي بالعملية «بربروسا»؛ نسبةً إلى الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا الذي سيُبعث من موته لينقذ ألمانيا عندما تحتاجه. وكذلك الأمر في حالة تعبير الحرب الوطنية الكبرى (Great Patriotic War - Великая Отчественная война) الذي يُستخدم في روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة للإشارة إلى حرب الاتحاد السوفييتي مع ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية، أو ما يناظر التعبير الغربي «الجبهة الشرقية» (the Eastern Front). وما نود الإشارة إليه هنا هو ما حملته هذا التعبير من بعدٍ رمزيٍّ قويٍّ استعملته الدولة السوفييتية في إثارة مشاعر الجماهير بتذكيرهم بحروبٍ سابقة استعمل فيها التعبير نفسه من أمثال المقاومة الروسية لـنابليون في عام ١٨١٢، وكذلك معارك الحرب العالمية الأولى. وفي المقابل، نجد أن إدراك دول الاتحاد السابقة لتلك الحمولة الرمزية دفع من يريد منهم التخلي عن ماضيه السوفييتي الشيوعي نحو إسقاط هذا الاسم عن الحرب رسميًا، واستعمال بدائل من قبيل الحرب العالمية الثانية مثلًا، كما فعلت أوكرانيا في عام ٢٠١٥. (المترجم)

=

(٧٤) انظر:

إن التحالفات التي قامت بين الحكومة السوفيتية والزعامات الدينية في زمن الحرب لم تكن جديدةً بالكلية؛ فالمطران سيرغي «رُقِّي» إلى بطريك في هذه الفترة، لكنه كان يوالي السوفيت منذ العشرينيات موالاةً صريحةً، و«تدرَّب» عبد الرحمن رسولوف على الدور الذي سينهض به في رئاسة النظارة الدينية المركزية زمن الحرب، حيث تولى إدارة المنظمة التي سبقتها عدة سنوات قبل حلّها في أواخر الثلاثينيات. وكذلك لم تكن فكرةُ توسعة نظام الاتفاقات المفيدة للطرفين بين الدولة وعددٍ مختار من الزعامات الدينية من الأفكار التي ابتُدعت في زمن الحرب، ويبين الفصل الأول أن لذلك أيضًا جذورًا تعود إلى فترة سابقة. ويبدو كذلك أن الدولة شرعت في إحياء الكنيسة الأرثوذكسية وتوسعتها في عام ١٩٣٩ في أوروبا الشرقية المحتلة، أي قبل نحو عامين من الغزو الألماني^(٧٥).

وأخيرًا هناك المشكلة الأصيلة التي تتمثل في توثيق شيء مجرد يتراوح بين مدٍّ وجزر، ونعني به «الحياة الدينية». فعلاوة على الإحصاءات الخاصة بإغلاق المباني والاعتقالات، تتكون أدلتنا في غالبها من نقولات انطباعية عن أولئك الذين شهدوا أحداث الحرب، ويشير بعضها - كما سنرى - إلى نشاطٍ ديني مستمر (كصلوات

= Irina Korovushkina Paert, "Memory and Survival in Stalin's Russia: Old Believers in the Urals during the 1930s-50s," in Daniel Bertaux, Paul Thompson, and Anna Rotkirch, eds., *On Living Through Soviet Russia* (New York: Routledge, 2004), 195-213.

[أهل العقيدة القديمة هم فرقة دينية روسية تتمسك بالطقوس ونمط العبادة الذي ساد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية قبل إصلاحات البطريك نيكون خلال الفترة ما بين عام ١٦٥٢ و١٦٦٦، وقد صدر من الكنيسة قرار عام بحرمان كل من يتبع هذه الطريقة القديمة. وظل الأمر على ذلك حتى عام ١٩٧١، عندما ألغت الكنيسة قرارها وقُبل أهل العقيدة القديمة ضمن رعاياها. وقد اخترنا ترجمة اللفظة الروسية (Старообрядчество) بأهل العقيدة القديمة اقتداءً بالمترجم القدير صلاح الدين عثمان هاشم رحمه الله في ترجمته البديعة لكتاب المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي تاريخ الأدب الجغرافي العربي، وهي أقرب الترجمات العربية للمضمون الروسي. (المترجم).]

(٧٥) انظر مثلاً:

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 215-216;

Miner, *Stalin's Holy War*, 50; Beglov, *V poiskakh "bezgreshnykh katakomb"*, 115.

الجماعة في الأقبية والمنازل الخاصة) طيلة أحلك السنوات إبان العشرينيات والثلاثينيات. وعلى الرغم من أن بعض الأماكن الدينية قد أعيد افتتاحها أيام الحرب، فقد ظلت أكثر الأنشطة الدينية الجماعية - في أثناء الحرب وبعدها - تُعقد في أماكن تحوطها السرية. ولكن الأهالي المتدينين في بعض المناطق الريفية، لم يلتزموا هذه السرية؛ حيث أفاد أحد أبناء الأطباء العسكريين / في مقابلة معه أجريت في أوائل الخمسينيات أن تعدد الزوجات والاستعلان بارتداء الحجاب ظلّا عادتين قائمتين في أرياف طاجيكستان في أوج القمع المناهض للدين⁽⁷⁶⁾:

«كان الزواج يُعقد تحت حكم السوفيت في مكتب تسجيل الأحوال المدنية (ZAGS)، حيث كان يتعين عليك إظهار وجهك. وكان نساء الطاجيك - كما تعلم - محجّبات بحكم العرف، بيد أنه كان يجب عليهن كشف وجوههن في مكتب التسجيل؛ ولذلك لم تُسجّل العديد من الزوجات. وكان تعدد الزوجات قائمًا في الجبال؛ فأنا أعرف شيخًا كبيرًا يبلغ من العمر ثمانية وسبعين (٧٨) عامًا، من منطقة بحيرة إسكندر كول (Iskandarkul)، وكان يجمع في عام ١٩٣٦ بين ثلاث زوجات: يبلغ عمر الأولى أربعة وستين (٦٤) عامًا، والثانية أربعين (٤٠) عامًا، والثالثة - وهي أصغرهن - ثلاثة وعشرين (٢٣) عامًا فقط. ومع ذلك، فقد درج النظام السوفيتي على محاربة البرانچا (paranzha) [البرقع]؛ فكانت المرأة التي سافر عنها زوجها مع الجيش الأحمر إذا جاءت لتستلم منه خطابًا من مكتب البريد، يرفض موظفو المكتب

(76) HPSSS sched. B, vol. 9, case 448, f. 19.

[الحجاب المقصود في الفقرة التالية هو البرقع المنتشر في دول آسيا الوسطى، ويحمل أسماء كثيرة؛ مثل: البرانچا والبرقع وغيرهما، ويغطي جسد المرأة كلها من رأسها وحتى أخمص قدميها. وقد شجّر الاتحاد السوفيتي في العشرينيات والثلاثينيات حملةً شرسةً على البرقع وحظره رسميًا، وأطلق شبيبة الشيوعيين من النساء والرجال على المسلمات في طشقند وسمرقند وغيرهما للتأكد من حظره. لكن المسلمات في كثير من الأحيان قاومن هذه المحاولات بل وقتلن أحيانًا بعض هؤلاء الشبيبة. (المترجم)].

تسليمها الخطاب إلا إن نزعت الحجاب. ونادرًا ما كنت ترى محجبة
في ستالين آباد، لكن في القشلاقات أو القرى البعيدة كان جلُّ النساء
محجبات».

ويعترف نفرٌ ممن أُجريت معهم بعض المقابلات في عهد ستالين بأن البروباغندا
المناهضة للدين لم تترك في مجتمعاتهم أو في مشاعرهم الشخصية أثرًا يُذكر؛ حيث
ذكر بائع كتب روسي أرثوذكسي أن: «الأساس الديني القوي الذي تلقينته عن أمي
وقف صامدًا في النهاية أمام كل هجمات البروباغندا السوفيتية؛ فقد كنت شديد
الاهتمام بمسألة الدين وقرأت فيها كثيرًا... وأعتقد أن البروباغندا السافلة المنحطة
المناهضة للدين جاءت بنقيض ما أريد بها؛ إذ لديّ أصدقاء عادوا إلى الدين بأثرٍ من
طابعها المنفّر»^(٧٧). وكذلك أكد سائق جرّارات آفاري مسلم في مقابلة أُجريت معه
في عهد ستالين أن «ستالين لم يغيّر مشاعري الدينية قيد أنملة. والحقُّ أن غالب
شعب الاتحاد السوفيتي ما زال متدينًا، رغم كل ما فعله النظام»^(٧٨).

ومن الأساليب التي أتبعت بغية تحاشي تأثير البروباغندا الإلحادية؛ تجاهلها، وهو
ما أشار إليه عامل شيشاني قائلًا: «لم أقرأ الكتب السوفيتية، فهي والجرائد السوفيتية
تحادد الله والدين، وكل ما فيها كذب. ولم نرد نحن شعوب القوقاز قراءتها، إلا
الأنذال منّا»^(٧٩). وقد أجمل أحدُ العمال الروس السابقين في المزارع الجماعية دينامية
المقاومة الهادئة هذه - التي كانت موضوعًا شائعًا في مقابلات من عاشوا أحلك
سنوات القمع ومذكّراتهم - فقال: «لقد كنتُ متدينًا على الدوام، [وعندما] قال
السوفيت: لا إله، لم أفعل شيئًا إلا الصمت والصلاة»^(٨٠). وتهكّم مزارع سابق آخر
- في الخمسينيات من عمره في مقابلة له ترجع إلى عهد ستالين - / على الأجنبي؛ [٢٣]
لانجرافهم إلى تصديق البروباغندا السوفيتية عن «العلمنة» الشاملة للبلاد^(٨١):

(77) HPSSS sched. B, vol. 31, case 479/(NY)1108, f. 19.

(78) HPSSS sched. A, vol. 13, case 159, f. 35.

(79) HPSSS sched. A, vol. 22, case 434, f. 31.

(80) HPSSS sched. A, vol. 14, case 275, f. 17.

(81) HPSSS sched. A, vol. 32, case 176/(NY)1173, f. 17-18.

«أُغلقت كنائس الاتحاد السوفيتي كلها في عامي ١٩٣٥ و١٩٣٦، ولم تبقَ إلا كنيسة واحدة في كل مدينة كبيرة، مثل موسكو ولينينغراد وخاركوف وكييف وأوديسا؛ لأن هذه المدن يزورها الأجانب ممن يسألون عن الكنائس والدين، فاعتادوا القول لهؤلاء الأجانب الأغرار: «كما ترون، غالبُ الناس لا يريدون الدين، فأغلقتنا الكنائس الكبيرة ونتخذها الآن مسارح ونوادي. وتلك الأقلية التي ظَلَّت على دينها لها هناك كنيستها». وفي أوديسا، ظلت إحدى الكنائس الصغيرة في مقابر الضاحية قائمة لم تُغلق، وكان يغشاها آلاف الناس يوم الأحد من كل أسبوع، وامتلأت المقابر بالجائنين على رُكبهم والمصلين».

صفوة القول أن بعض جوانب الحياة الدينية الأساسية التي ارتبطت بما جرى من «انبعاث» زمن الحرب قد بدأت قبل الحرب العالمية الثانية، وظلت مدةً طويلة بعدها.

تأملٌ في المقاربات الخمس

لدينا حتى الآن خمسُ تفسيراتٍ مختلفة للتحولات التي طرأت على الحياة الدينية في زمن الحرب؛ وهي: (١) أنها كانت حملةً پروباغندا خارجية في غالبها، استعملت فيها الحكومة السوفيتية دعاوى الحرية الدينية في التصدي للبروباغندا النازية، وفي الدبلوماسية مع الحلفاء («فرضية البروباغندا الخارجية»); (٢) أنها كانت حملةً پروباغندا داخلية في غالبها، وظفت فيها الحكومة السوفيتية دعاوى الحرية الدينية تصدياً للبروباغندا النازية في التخوم السوفيتية على الجبهة الشرقية («فرضية التخوم السوفيتية»); (٣) أن الحكومة السوفيتية وظفت الحرية الدينية لتعبئة المواطنين للمشاركة في المجهود الحربي، من أمثال «أبناء القوميات غير الروسية» الملتكئين («فرضية دعوات التعبئة»); (٤) أن الحكومة السوفيتية أرغمت على التكيف، وتوجيه الطفرة «الشعبية» التي شهدتها النشاط الديني (فرضية «ثورة من أسفل»); (٥) أن عهد الحرب لم يشهد «ثورة» في الحياة الدينية كما يبدو، فالتغيرات المعروفة، الأهم والأشهر، بدأت بالفعل قبل الحرب («فرضية الاستمرارية»).

ولكل فرضية مزاياها وعيوبها فيما أرى. فلتأمل أولاً «فرضية پروباغندا الخارجية»، / أي الزعم بأن التسامح الديني كان في غالبه أداة دعائية موجّهة من [٢٤] جانب الحكومة السوفيتية إلى الخارج. فقد كانت هناك - كما تبين لنا فيما سبق - حاجة ملحة لدى المسؤولين السوفيت لمواجهة البرامج الإذاعية الدعائية النازية المبتوثة من روما وبرلين والقدس، وكذلك لإقناع روزفلت وتشرشل وجماهيرهما بأن الاتحاد السوفيتي ليس إمبراطورية «ملحدة» في حقيقة أمره^(٨٢). وهناك نقاط أساسية ينتظمها مسار الأحداث تؤكد على أهمية هذه المحاولات، منها على سبيل المثال أن پروباغندا الدينية السوفيتية كانت موجّهة بالفعل نحو الخارج في بداية الحرب، وأنها ظلت قائمة بعدها، وأن أول «نظارة دينية» إسلامية مرخصة رسميًا لم ترَ النور إلا بعد أسابيع معدودة من مؤتمر طهران المحوري في خريف عام ١٩٤٣. بيد أن هذه الدوافع - من جهة أخرى - لا يمكن أن تفسّر إلا جزءاً ضئيلاً مما يسرده هذا الكتاب من تطورات دينية كبرى وقعت زمن الحرب؛ فالغالبية العظمى من پروباغندا الدينية السوفيتية كانت موجّهة إلى الداخل، أي نحو المواطنين السوفيت، دون الجماهير الخارجية، ونادراً ما سافر قساوسة الكنيسة الأرثوذكسية، التي نالت للتو دعم الدولة، وبطريقها إلى الخارج، وإنما قصرُوا أنشطتهم على الجماهير السوفيتية. ولا يمكن أيضاً النظر إلى غالب الجهود التي بذلتها هذه الأجهزة الدينية المرخصة رسميًا على أنها پروباغندا على الإطلاق؛ لأنها ليست تتضمّن إلا المحافظة على وظائف المؤسسات الدينية المعتادة والتقليدية، كعقد الصلوات الأسبوعية والجنائزات والزيجات والأعياد وما إلى ذلك. وكان بمقدور الحكومة السوفيتية زمن الحرب أن تسعى لقمع هذه الأنشطة داخليًا مع رسم صورة مختلفة في پروباغندا الخارجية، لكنها لم تفعل.

(٨٢) على الرغم من أن النازيين قد دمروا مئات الأماكن الدينية، فإنهم دعموا مزاعمهم في پروباغندا بأعمال واقعية، فتزعم بعض التقديرات بأنهم سمحوا بإعادة فتح آلاف الكنائس في التّخوم السوفيتية المحتلة (PDDUM, 63). وانظر أيضًا:

Shkarovskii, *Russkata Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 200.

ثانيًا: «فرضية پروباغندا التُّخوم السوفيتية». لقد وقع قسمٌ كبيرٌ من پروباغندا الدينية السوفيتية، وكذلك الدعم الحكومي للمؤسسات الدينية، في الأراضي التي احتلها الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٩، ثم في التُّخوم السوفيتية المهتدة بالاحتلال النازي الوشيك بعد يونيو/ حزيران من عام ١٩٤١^(٨٣). فقد كانت پروباغندا النازية -وفقًا لما برهن عليه ديفيد معتدل وغيره- مفعمةٌ بالحيوية وناجحةٌ إلى أبعد الحدود أحيانًا، وخاصةً بين المسلمين السوفيت، ومن المقبول عقلاً القول بأن مواجهتها كانت دافعًا أساسيًا من الدوافع المحرّكة لستالين. وبقطع النظر عن التهديد النازي، كانت هناك أيضًا وجهات نظر أخرى تجبُّ مكافحتها في الأراضي السوفيتية؛ إذ تزعم يوليا غوزيفا (Yulia Guseva) على سبيل المثال أن مقاومة پروباغندا الجامعة الإسلامية القادمة من جنوب آسيا والعالم العربي كانت من أهم الدوافع وراء إنشاء دور الإفتاء الإسلامية^(٨٤).

[٢٥] / على أن الإسراف في التركيز على هذه الدوافع يؤدي إلى إغفال حقيقة أن السّمات الأساسية للسياسات الدينية زمن الحرب، بما فيها أنشطة دور الإفتاء، استمرت بقوة خلال السنوات التي أعقبت الحرب، بل إن دور الإفتاء ظلت تمارس أنشطتها حتى نهاية العهد السوفيتي. وفي حقبة الحرب نفسها، كان جانبٌ معتبرٌ من النشاط الديني «المسموح به» والپروباغندا الدينية لا يتوجه إلى جبهة الحرب، وإنما يتوجه نحو آحاد الناس في آسيا الوسطى وسيبيريا، حيث لا خوف من إذاعات هتلر، فضلًا عن دباباته.

ثالثًا: «فرضية دعوات التعبئة». إن ما كانت الدولة السوفيتية تحتاجه من الجماعات الدينية لم يقتصر على مجرد التعاطف، وإنما كانت تحتاج منهم القتال، وهو أمرٌ تلكأت فيه وتردّدت «القوميات غير الروسية» -التي كان المسلمون يشكّلون جانبًا كبيرًا منها- أكثر من نظيرتها الروسية في عام ١٩٤١ و١٩٤٢. وقد كانت موجة

(٨٣) انظر مثلًا:

Miner, *Stalin's Holy War*, 78-79.

(84) Iu.N. Guseva, *Rossiiskii musul'manin v XX veke (na materialakh Srednego Povolzh'ia)* (Samara: Ofort, 2013), 156.

البروپاغنندا «القومية» الجارفة، التي أُعدت خصيصًا لجمهوريات وأراضٍ سوفيتية بعينها، هائلة، حتى إن العديد من المؤرخين ظنوا مؤخرًا أنها ساعدت على خلق هويات «هجينة» (أوزبكية-سوفيتية، أو كازاخية-سوفيتية، أو بشكيرية-سوفيتية... إلخ)، لا مجرد موجة من الوطنية.

لكن الفرضية القائلة بأن تعبئة القوات كانت هي دافع الدولة الأسمى تغضُّ الطرف عن السؤال الجوهرى حول أسباب استمرار معظم هذه التغيرات ذاتها -مثل البطيركية المرخصة ودور الإفتاء- في فترة ما بعد الحرب، أو حتى في أشهرها الأخيرة حين بدا أن النازيين قد انسحبوا انسحابًا كاملاً. والقيمة التفسيرية التي تقدّمها لنا هذه الفرضية تتناقص أضعاف ما منحتنا إياه عند التقدم النازي^(٨٥).

رابعًا: فرضية «الثورة من أسفل» التي تقضي بأن الحكومة السوفيتية إما أنها أكرهت على التوصل إلى تسوية مع الزعامات الدينية المبادرة وإما أنها ألهمت إياه بفعل الغضب الشعبى قبل أي شيءٍ آخر، مع أمثال المطران سيرغي (ثم البطيرك بعد ذلك بقليل) الذي سبق أول خطاباته للشعوب السوفيتية في الحرب خطاب ستالين نفسه. وهناك عدة مصادر (ورد كثير منها في تضاعيف هذا الكتاب) تؤكد الطبيعة العفوية التي اتسم بها الورع والنشاط الدينى زمن الحرب. وكان من النادر فعلاً أن تجد لدى ما نقله شهود العيان أو المشاركون [في الحرب] عن الحياة الدينية في زمن الحرب شيئاً كانت البروپاغنندا الحكومية هي الباعث عليه. بل على العكس، كان الانبعاث الدينى «الشعبى» -كثير الورد في مصادرنا- مثار قلق عميق لدى

(٨٥) وكذلك كما يلاحظ ريس (في مناقشته حالة السكان المسيحيين السوفيت أيام الحرب)، «قد يتساءل البعض عن سبب حاجة ستالين للاستمرار في تملُّق الجماهير أواخر عام ١٩٤٣ حين بدا أن الاتحاد السوفيتى لم يعد مهددًا بالهزيمة في الحرب، وكان رؤوس الكنائس البطيركية والتجديدية واليوسفية قد دعموا المجهود الحربى بالفعل. وكذلك، كان ستالين قد قدّم إيماءات تصالحية تُعدُّ مقابلًا لولاء الكنيسة. ومن هنا، يمكن القول: إن ستالين لم يعد في حاجة عملية إلى إعادة تأسيس الكنيسة».

(“The Russian Orthodox Church and ‘Patriotic’ Support for the Stalinist Regime during the Great Patriotic War,” 142).

المسؤولين السوفييت القائمين على مراقبة النشاط الديني. وتصف لنا طائفة كبيرة من المصادر الإسلامية وغير الإسلامية / الحياة الدينية في زمن الحرب بعبارة [٢٦] متشابهة، مفادها: أن ما كان خفيًا ذات يوم قد برز إلى الوجود، وأن ما كان محظورًا في يوم من الأيام وقع بلا وجل^(٨٦).

وأما فرضية «من أسفل إلى أعلى» فتنطوي على خطر إغفال بعض العناصر الأساسية في مسار الأحداث، أولها أن التغييرات الأساسية التي طرأت على السياسة الدينية وقعت فورًا، فور اندلاع الحرب. فسواء أكان ذلك استجابةً للبروباغندا النازية، أم تلبيةً لحاجة تملُّق الحلفاء الخارجيين، أو حتى مجرد هاجس مبكر بأن مزيدًا من القمع الديني قد يُفضي إلى انهيار الروح المعنوية، يتضح جليًا أن ما لاحظته ماينر من التصاعد «الشعبي» للشعور الديني من أسفل لم يحظَ بوقتٍ كافٍ للتطور، ناهيك عن أن يؤثّر على ستالين، في الوقت الذي كانت فيه التغييرات القادمة من أعلى جاريةً بالفعل. وثانيًا، في حين أن التحول الأساسي نحو التسامح كان مبكرًا

(٨٦) لكن من المهم الإشارة هنا إلى أن هذا الشعور لم يكن مُجمَعًا عليه؛ فبعض المسلمين والمسيحيين السوفييت في مقابلات أجريت في أواخر عهد ستالين تحسّروا على ما عدّوه تراجعًا عامًا ومستمرًا في الحياة الدينية، مركّزين على تراجع شعائر معينة عدّوها أساسية. فمثلاً، تحسّر حفيد رضاء الدين ابن فخر الدين لمحاوريه قائلاً: «لم يعد الأولاد يُختنون ولم يعد الزواج احتفالاً دينيًا؛ لأن الاحتفال المدني وحده هو المهم الآن. ولم يُعد الرجل يحتاج أحد الملالي في زواجه أو جنازته»

HPSSS sched. B, vol. 8, case 228 f. 11.

وأشار مسلم قبردي مولود في عام ١٩٠٣ إلى عدة أمور؛ مثل: القيود المفروضة على بعض العادات الجنائزية المهمة؛ إذ يقول: «لا يمكننا تكريم الموتى في العهد السوفييتي كما كنا نفعل مع الملأ، وتقلّصت فترة الحداد بسبب ضرورة عمل الناس لزيادة الإنتاج، وبالطبع ليس لدينا ملالي اليوم... فعادةً كان الملالي يسجّلون المواليد والوفيات والزيجات. وكذلك كنا نختن الأولاد في سن الثانية أو الثالثة، بل حتى أحيانًا في الثامنة والعاشرة، وهو ما لا يحدث الآن»

HPSSS sched. B, vol. 8, case 354 f. 10.

وقد أخبرت محاسبة روسية، تبلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا، محاورتها قائلة: «من المهم أن ندرك أن ستالين لم يهاجم أي دين صراحة، لكن دعائم الحياة الروحية ونواقلها إلى الناس قد دُمّرت. ولذلك لا نجد تنظيمًا كنسيًا، ولا أساقفة ولا كنائس محلية»

HPSSS sched. A, vol. 35, case 355/(NY)1498 ff. 27-28.

للغاية بحيث لا يمكن ربطه بتحويلاتٍ شعبية ملموسة، كان التحول نحو مؤسسات دينية جديدة مرخّصة، كالنظارات الدينية الإسلامية، متأخرًا للغاية؛ حيث كانت الحرب قد مضى على اندلاعها عامان عندما ترأس إيشان باباخان الاجتماع الافتتاحي لدار إفتاء آسيا الوسطى الخاصة به، وبعد ثلاث سنوات بقليل [أي: من اشتعال الحرب -م] تأسست دار إفتاء أخوند علي زاده في ما وراء القوقاز. وصفوة القول أن فرضية الجذور الشعبية ربما تجدي نفعًا في وصف الجو العام للتسامح زمن الحرب، ويمكنها بالطبع (كما سنرى) تفسير امتيازات تمكّنت الزعامات الدينية من الحصول عليها لجماعاتها بوصفهم وسطاء. ولكن هذه الفرضية لا ترتبط من منظور التسلسل التاريخي بأهمّ تحولات السياسة الدينية ارتباطًا قويًا.

خامسًا: «فرضية الاستمرارية» التي تكشف عن وجود روابط مهمة بين تطورات فترة الحرب وما قبلها، ولهذه الفرضية في الظاهر ما تقدّمه. فبغضّ النظر عن أمور من قبيل إغلاق الكنائس والاعتقالات، يستحيل حقًا تقييم أثر حملات التطهير السابقة على «الحياة الدينية» تقيّمًا علميًا دقيقًا؛ ولهذا فمن المعقول التشكيك في أن يكون لهذه الحملات أدنى تأثير على الحياة الدينية، اللهم إلا أنها دفعت الأنشطة الدينية الجماعية إلى التستر والخفاء. ففيما يتعلّق بالجماعات المسلمة، يمكن التشكيك في حاجة المسلمين إلى «رجال دين» أو إلى مراكز دينية (وكلاهما مما استهدفه سوط القمع)؛ فعلى سبيل المثال لا يحتاج المسلمون -خلافًا للكاثوليك- إلى سلطة دينية تُشرف على أعمالهم الدينية الأساسية، فضلًا عن أنهم يتمتعون في أداء الشعائر بالاستقلال عن السلطة الدينية؛ الأمر الذي يُورث التقاليد الإسلامية قابليةً للتكيف على نحو استثنائي في ظروف الاضطهاد؛ ذلك أنه في الأوضاع المثالية، يجب أن يقوم على الصلوات أو طقوس الجنائز إمامٌ عالمٌ موقرٌ، وإن كانت الجماعة تدفع عند غيابه بديلًا آخر مؤهّلًا. ولهذا، فمن المعقول الاعتراض على الاستعمال المُضللّ لكلمة «رجال الدين» في العديد من المصادر الإنكليزية (clergy) والروسية (dukhovenstvo) بوصفها تعبيرًا جامعيًا عن الزعامات الدينية المسلمة. / [٢٧]

فخلافًا لرجل الدين في الكاثوليكية، ليس ثمة ضرورة ملحة تفرض وجود الإمام؛ إذ

لا يعرف الإسلام طقس الاعتراف ولا المناولة المقدسة. ولا ضرورة كذلك للمسجد؛ فالصلوات والجماعات يمكن أن تُقام في أي مكان، حتى في الهواء الطلق، وكان الأمر على ذلك بالفعل. (وفي هذا الجانب، نجد [أيضاً] كثيراً من الدلائل على استمرار الصلوات المسيحية الأرثوذكسية في المنازل الخاصة)^(٨٧).
فكيف يمكننا إذن أن نحدد الزمن الذي قُمت فيه هذه الأعراف تحديداً دقيقاً؟

على أن التهوين من أثر اعتقال عشرات الآلاف من الزعامات الدينية وإعدامهم، وإغلاق مراكز دينية يمتدُّ عمرها إلى عدة قرون، يعني - من جهة أخرى - تجاهل شهادات من مرَّ بهذه الحوادث. فقد كان المتدينون يتذكرون سنوات القمع التي سبقت الجرب، وما كان لها من وخيم العواقب على الحياة الدينية، وفقاً لرؤيتهم لها^(٨٨). فـ «الحياة الدينية» في الإسلام مثلاً - شأن كثيرٍ غيره من الأديان - لا تتعلق

(٨٧) ذكر أحد المتحولين إلى المسيحية من القلميق: «اعتدت أن أذهب إلى الكنيسة حتى عام ١٩٢٩، وحتى عندما كنت في الكومسومول، أذهب إلى عمتي وتضيء شمعة أمام صورة مقدسة فلا تُرى من الخارج، ثم نصلي، كانت تجعلني أصلي... إنهم يقولون: إن السماء والأرض ما هما إلا ظواهر طبيعية، لكنني أؤمن في عقلي بوجود الرب. والآن بعد أن رأيت الغرب، اشتد إيماني قوة، وأظن أن أغلب مواطني الاتحاد السوفيتي ما زالوا مؤمنين بالرب»، انظر:

HPSSS sched. A, vol. 3, case 23 f. 21.

(٨٨) ولا يصدق ذلك على الجماعات المسلمة فحسب كما سيبين الكتاب، وإنما يصدق أيضاً على المسيحيين الأرثوذكس السوفيتي؛ إذ يصف لنا ميخائيل فيتالييتش شكاروفسكي (M.V. Shkarovskii) كيف ازدهار النشاط الديني الأرثوذكسي في زمن الحرب يتجلى بوضوح في وثائق المحفوظات، ومذكرات أيام الحرب وما بعدها، وشهادات شهود العيان، انظر:

Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve, 124-126.

لكن من ناحية أخرى، هناك من المؤرخين من ينازع في انتشار هذا التحول الاجتماعي؛ فنجد مثلاً دنيس ج. دَن (Dennis J. Dunn) يذكر أن «تنازلات ستالين لم يكن لها أي تأثير على تغير السلوك تجاه الدين، ولم تؤد إلى أي تحسن في الحالة البائسة للأحوال الدينية في معظم أنحاء الاتحاد السوفيتي»، لكنه يضيف أن «التنازلات القليلة التي قُدمت إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية كان لها مغزاهما بين الروس الذين افترضوا أن الشيوعيين على شفا التراجع عن سياستهم العامة المناهضة للدين»

The Catholic Church and Russia, 109; 112.

فحسب بالإيمان والهوية والصلوات الفردية، بل تتعلق كذلك بالجماعة والأنساب الشريفة والأماكن الدينية. وفي فترات الاضطهاد الديني خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، مُزّقت المجتمعات تمزيقاً عنيفاً وُعُصت بالمخبرين، واستؤصلت كثير من الأنساب الكريمة (وإن لم تستأصل جميعها بطبيعة الحال)، وتحوّلت بعض المباني الدينية التي كانت تحتلُّ موقع الصدارة في الحياة الدينية الجماعية -على مدار عدة قرون أحياناً- إلى إسطبلات أو مستودعات أو متاحف تمجّد «الإلحاد العلمي الماركسي اللينيني». وهنا يتبادر إلى أذهاننا مثلاً من عالمنا المعاصر؛ فحين تستغيث جماعة أويغور شينغيانغ في عام ٢٠٢٠ بالعالم؛ لأن دينها وثقافتها في خطر، فالراجح أنها لا تُحيل إلى إيمان الفرد بالله ولا إلى الهوية العرقية القومية، وإنما تشير إلى ذلك المركّب المتجذّر من الأعراف والأماكن الدينية والأنساب والشعائر الإسلامية الجماعية كلها، التي استهدفها السوفييت خلال العشرينيات والثلاثينيات^(٨٩). زد على ذلك أن «فرضية الاستمرارية» تتعارض تقريباً مع المصادر الرئيسة جميعها التي كُتبت إبان الحرب، والتي تشير في الغالب إلى الطفرة الاستثنائية والجديدة التي شهدتها النشاط الديني على اختلاف صورته، سواء كتبها مسئولون ملحدون أو مواطنون سوفييت متدينون، وتتناقض كذلك مع شهادات من عاصروا هذه الفترة^(٨٩).

= وكذلك، يشير إرين تاسار، حين يكتب عن النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان التي أقامها ستالين مؤسسة إسلامية «رسمية»، إلى أن «تأسيس النظارة أسهم في [نشوء] تصور شعبي مفاده أن الدولة الستالينية تفتح صفحةً جديدةً في نهجها مع من يخشون الله»، انظر:

Soviet and Muslim, 15.

(أ) بل حتى إيمان الأويغور وهويتهم القومية العرقية الآن في خطر بعد ممارسات الدولة الصينية التي تستهدف التلقين الأيديولوجي القسري للأطفال وتقليص خصوبة النساء الأويغوريات. فلا شك الآن أن الصين تهدف إلى القضاء على وجود الأويغور أنفسهم لا مجرد استيعابهم في «الثقافة الصينية الغالبة»! (المترجم)

(٨٩) كما تقول كاتريونا كلي في دراستها الفاتحة عن الكنائس المدنية السوفيتية في أثناء الحرب: «لقد تغيرت المكانة العاطفية للدين، حتى أن أعضاء النخبة الفكرية الذي كانوا متشككين انتابهم في سنوات حصار [لينينغراد] اللعينة شعورٌ بانجذاب متلهف للشعائر الدينية».

وتدلُّنا بعض المقابلات التي أُجريت في عهد ستالين على أن ثمة مواطنين سوفيت يصرِّحون بأنهم حافظوا على تقاليدهم في حقبة الاضطهاد الديني، ولكنهم يشدِّدون على وصف حقبة الحرب بأنها حقبة تغييرٍ مهم في الحياة الدينية وفي سياسة الدولة (وهما أمران متلازمان بشكلٍ ملحوظٍ في الغالب). وفي ذلك يقول أحد مهندسي السكك الحديدية: «كانت جدّتي وأمي متدينتين، وكما تعلم، كان الدينُ محظورًا في الاتحاد السوفيتي / إلى زمن الحرب. إلا أنه مع بداية الحرب، أصبح بإمكانك أداء الصلاة بصورة رسمية، في حين أن ذهاب أحد [الفتية] الرُّواد أو أعضاء الكومسمول إلى الكنيسة كان معدودًا قبل ذلك عملاً شائنًا. ومع ذلك، فقد كانت أُمي تحتفظ بالأيقونات وتصلِّي دائمًا»^(٩٠).

ويشرح أحد المفتشين الماليين الأوكران ما اتسمت به تغيير سياسة الدولة من تسلسل قائلاً^(٩١):

«أعدت الحكومة افتتاح الكنائس، وأمرت البطريك باستنهاض الهمم لبذل الجهود في الحرب. وتساءل الناسُ مستنكرين استعمال الكنائس في أغراض العسكرية: أي شيء هذا؟ ... وفي الحرب اضطلع القساوسة بدورٍ كبير بل عظيم من أجل الحكومة والشعب؛ اضطلعوا بدورٍ هائل. فإنك إن سجَّلت زواجك في مكتب تسجيل الأحوال المدنية (ZAGS)، ستعطيك الحكومة يومًا عطلة، وستعطي نفسك [كذا وردت] ثلاثة أيام للزفاف. وكانت الكولخوز [المزارع الجماعية] تتيح بعض وسائل النقل اللازمة لحضور الزفاف مجانًا. فانظر بعينك كيف تغيَّرت الأمور: فُتحت الكنائس وحصل الناس على عُطل

= Kelly, *Socialist Churches: Radical Secularization and the Preservation of the Past in Petrograd and Leningrad, 1918-1988* [DeKalb, IL: Northern Illinois University Press, 2016], 147.

(90) HPSSS sched. A, vol. 28, case 535, f. 37.

(91) HPSSS sched. A, vol. 15, case 305, f. 36.

ووسائل انتقال لحضور حفلات الزفاف. وكل هذه الأمور تأتي معاً:
يقع تغييرٌ واحد فيتلوّه غيره».

وفي مقابلةٍ أخرى يرجع تاريخها إلى أوائل الخمسينيات، حمل عامل شيشاني مسلم نظرةً أشدّ سوداوية، لكنه زعم زعمًا مشابهاً عن التغيّر الجذري الذي طرأ على سياسة الدولة في التعامل مع الأماكن الدينية: «يقول ذلك الوغد ستالين الآن: إنه يأذن بفتح الكنائس التي قهرها لربع قرنٍ مضى دون أن يؤمن بالله. يقول الآن: إنه يمكن فتحها! إنه لا ينتمي إلى جنس البشر، إنه الشيطان»^(٩٢).

وقد اقترح بعض المؤرخين في الآونة الأخيرة، من أمثال ل. أ. كوروليفا (L.A. Koroleva) وأ. أ. كوروليف (A.A. Korolev)، صيغةً مشتركةً واعدةً تجمع بين المقاربات الخمسة التي وصفناها آنفًا، وشرعوا أيضًا في تقييم تاريخ الدين السوفييتي زمن الحرب؛ إذ تصف كوروليفا وكوروليف تطورًا من ثلاثة أجزاء في هذا التاريخ: أولاً: مال مؤرخو الفترة السوفييتية إلى التشديد على النشاط الوطني العفوي للعديد من الجماعات في مواجهة الخطر النازي، وهي حركة أجازتها الدولة السوفييتية بأثر رجعي بعد وقوعها (وهو ما سمّيته بمقاربة «ثورة من أسفل»). وهذه هي الرؤية التي تتجلى بالطبع في خطابات باباخان وعلي زاده وغيرهما من الزعامات الدينية السوفييتية زمن الحرب. ثانيًا: تحوّل المؤرخون خلال العقود الأولى من حقبة ما بعد السوفييت إلى استكشاف الطرق التي أولت بها الدولة «عناية خاصة» للجماعات الدينية؛ بغية تشجيع نشاطها الوطني (مقاربة «ثورة من أعلى»). ثالثًا: كان التطور الأخير الذي لاحظته كوروليفا وكوروليف (وأيداه) هو انعقاد الإجماع على أن الدولة «منحت المؤمنين بعض الامتيازات، ولكنها كانت قطعًا داخل الإطار السياسي الأيديولوجي / للنظام الاشتراكي»^(٩٣). وبعبارةٍ أخرى، [٢٩] كان الأمر أخذًا وعطاءً، لكن الدولة كانت صاحبة اليد العليا على الدوام، ولم تُرغم قطُّ على تقديم أي تنازلات.

(92) HPSSS sched. A, vol. 22, case 434, f. 32.

(93) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzhe*, 11-14.

وتحمل هذه المقاربة رؤية تركيبية واعدة، وإن بدت غير كافية؛ ذلك أنها لا تُغفل موضعاً يسمح باستيعاب بعض الجوانب الأساسية في السياسة الدينية زمن الحرب من تلك الجوانب التي ستبرز معنا على امتداد هذا الكتاب، من قبيل ذلك الغموض المفاهيمي الذي اتسمت به سياسة الدولة، واندفاعها، وتنفيذها بغير اتساق، وما تهبأ بفعل ذلك من متسع لمبادرات مستقلة للجماعات والمواطنين المتدينين. أي أن القصة التي نرويها في هذا الكتاب ليست قصة دولة تفرض سيطرتها وتُحكم قبضتها على الحياة الدينية، بل كما سيبين الفصل الخامس، كان المسؤولون عن ضبط الحياة الدينية أنفسهم يحارون أحياناً فيما يجب أن تشمله «سيطرة» الدولة^(٩٤).

وما نخلص إليه أن أيّاً من هذه التفسيرات كلها لا يكفي وحده لشرح التغيرات الجذرية التي وقعت زمن الحرب في الحياة الدينية السوفيتية، ولا يرقى بمفرده لأن يكون هو النموذج المثالي لتقديم سردية دقيقة تصف التفاعلات الدينية إبان الفترة الحاسمة بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٥. ومع ذلك، فإننا واجدون طائفة من العناصر المكوّنة لهذه المقاربات جميعها تأتلف معاً لترسم صورةً دينامية دقيقة عن الحياة الدينية السوفيتية إبان الحرب. وهذه هي الصورة التي آمل تقديمها في هذا الكتاب، متخذاً من الإسلام حالةً دراسيةً. ومن الفرضيات المركزية التي يشتمل عليها هذا الكتاب أن التغيرات الدينية في زمن الحرب لا يمكن أن تُنسب إلى استراتيجية حكومية متماسكة، وإنما إلى سيرورة استرشدت في أوقات مختلفة بكل المتغيرات التي ذكرناها في هذا الفصل بدرجاتٍ متنوعة.

ويقدّم الفصل الأول عرضاً عاماً للتغيرات الأساسية التي طرأت على الحياة والسياسة الدينية السوفيتية بفضل طائفة من الموجات القمعية المتلاحقة خلال

(٩٤) لكن كوروليفا وكوروليف محققان في تنبيهننا إلى التفاوض بين الزعامات الدينية والدولة السوفيتية، حتى ولو كانت هذه المفاوضات أحادية الجانب غالباً، كما كان الأمر في حالة اجتماع ستالين بالبطاركة الأرثوذكس، وهو الاجتماع الذي سناقشه في الفصل الأول. وحسبنا أن نقول: إن الدولة عندما أعطت التنازلات، لم تُعطها بانتظام ولا دفعةً واحدةً. وهنا يبرز السؤال: متى تمكّن المواطنون السوفيت المتدينون من الانتفاع بالمناخ الجديد، وما الإشارات التي دفعتهم للتصرف؛ كأن يقدّموا التماسات للحكومة مثلاً، أو ينتقلوا بأنشطتهم من الأقبية المظلمة إلى العمل المُعلن؟

العشرينيات والثلاثينيات، وينتهي بنظرة فاحصة إلى «الصفقة الجديدة»^(١) التي عقدها ستالين مع الزعامات الدينية زمن الحرب. ومدار الفصل الثاني على بروز بعض النخب المسلمة التي أجازتها الدولة، ابتغاء الكشف عن الطريقة التي استُدعي بها أئمة المسلمين السوفييت لحشد جماعاتهم في الحرب؛ إذ اصطنع هؤلاء الأئمة في تصوير الكفاح ضد النازيين تعبيرات إسلامية في العديد من خطاباتهم، وعبروا عن قيم ومصالح مشتركة مع الدولة السوفيتية، واستعملوا منصبتهم الجماهيرية الجديدة في رسم حدود هوية إسلامية طائفية، من خلال استعمال نوع من الخطاب كان مُحَرَّمًا في المجال العام السوفيتي. ويقوم هذا الفصل أيضًا على عددٍ من هذه الخطابات البارزة، ترجمناها هنا من الأوزبكية والبشكيرية والفارسية والروسية، وكان كل خطاب منها دعوة إلى الحرب أطلقها مُفتٍ سوفييتي مسلم يستعمل لغةً تجسّر بين أوروبا وغندا السوفيتية زمن الحرب والخطاب الإسلامي التراثي عن «الجهاد».

والحقُّ أن ما بُدِّل من جهد في تعبئة المسلمين للحرب كان أكثر من مجرد حملة أوروبا وغندا، وكانت النتائج التي تمخض عنها أكبر كثيرًا من مجرد تعبئة الجنود. فقد استغلَّ أئمة المسلمين السوفييت حرياتهم الجديدة - على نحو ما سيتبين في الفصل الثالث - / في التفاوض مع الدولة السوفيتية على مجموعة من الامتيازات نيابةً عن [٣٠] جماعاتهم، ابتداءً من إعادة فتح المساجد التي أُغلقت قديمًا إلى السماح بالاحتفال بالأعياد الدينية الكبرى بدرجة أكبر من العلانية. ومن منظور الدولة السوفيتية، كانت هناك بعض المنافع التي يمكن أن تنشأ عن تسامح كهذا، فالمساجد المُفتحة أصبحت مراكز أساسية لجمع التبرعات لصالح المجهود الحربي، وكانت النُخب

(١) يُحيل المجاز الذي استعمله المؤلف هنا إلى الصفقة الجديدة أو الاتفاق الجديد أو نيو ديل (بالإنكليزية: New Deal)، وهي مجموعة من البرامج الاقتصادية التي أطلقت في الولايات المتحدة بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٦. تضمنت هذه البرامج مراسيم رئاسية أو قوانين قام بإعدادها الكونغرس الأمريكي أثناء الفترة الرئاسية الأولى للرئيس فرانكلين روزفلت. جاءت تلك البرامج استجابة للكساد الكبير وتركزت على ما يسميه المؤرخون الألفات الثلاثة وهي: «الإغاثة والإنعاش والإصلاح». وتشير تلك النقاط الثلاث إلى إغاثة العاطلين والفقراء، وإنعاش الاقتصاد إلى مستوياته الطبيعية، وإصلاح النظام المالي لمنع حدوث الكساد مرة أخرى. (المترجم)

المسلمة تنشر رسائل وطنية في خطبها الأسبوعية، وكان مما اشتملت عليه مدح ستالين وشكره.

وأما الفصل الرابع فيتعمَّق في دراسة تدين المسلمين إبان الحرب، معتمداً في ذلك على مصادر من قبيل أشعار زمن الحرب، ومذكرات قُدّامى المحاربين، وتقارير شهود العيان، والبرقيات السرية التي أرسلها المسئولون السوفييت، والخطابات المرسلة من الجبهة وإليها. وفي ثنايا ذلك ألتقط بعض جوانب التغير الديني «الأهلي» المتعلقة بفترة الحرب، وأبيّن طابع الثبات الذي وسم هذه التغيرات من خلال تتبعها في سنوات ما بعد الحرب.

ومع إعادة افتتاح المساجد وبروز الممارسات الشعائرية الإسلامية في المجال العام مرة أخرى، تجلّى تدريجياً أنه حتى بعد عقدين من الحكم والقمع الإلحادي الشرس، ظلّت الهوية الإسلامية راسخةً على نطاق واسع، والتزم الكثيرون بالتقاليد الإسلامية في الاتحاد السوفييتي. وقد وصف بعض المؤرخين ما جرى من بروز تيارين متوازيين في هذه الفترة: «الإسلام الرسمي» الذي يُحيل إلى النُخب الدينية التي أجازها السوفييت وما أشرفت عليه من أنشطة، و«الإسلام غير الرسمي» الذي يعني الأنشطة الدينية غير المسموح بها أو غير القانونية، التي ظلّت رغم ذلك قائمةً في العهد السوفييتي. لكن القول بوجود عالمين دينيين «متوازيين» يفترض تطبيق بعض السياسات الدينية الواضحة؛ للتمييز بين المسموح به وغير المسموح، ووجود «مسؤولين تنفيذيين» يفهمون هذه السياسات فهماً متماسكاً. وكما يوضح الفصل الخامس، لم تكن السياسة [الدينية] للدولة في زمن الحرب أو بعدها واضحةً على الدوام أو مفهومةً تمام الفهم، حتى في أذهان المسؤولين عن إنفاذها أنفسهم؛ إذ بيّن هذا الفصل من خلال معالجته مراسلاتٍ بين اثنين من البيروقراطيين الكازاخ - نُشرت مؤخراً بعد رفع السرية عنها - كيف غفل المسئولون على اختلاف طبقاتهم عن سياسات الدولة الدينية التي حيرتهم، بل تجاهلواها [أحياناً]. وربما كان لنمو هذه «المساحات الرمادية» - كما نوّكد في خاتمة الكتاب - أثر أكبر على الثورة الدينية في زمن الحرب مما كان لموجة البروباغندا الدينية التي قامت الدولة على إدارتها أو للجهود الدؤوبة التي بذلتها النُخب الدينية المُجازة من الدولة.

(١)

الإطار:



من سنوات القمع إلى «صفقة ستالين الجديدة»

/ منذ فترة مبكرة في عام ١٩١٨، تعرّض كبار القساوسة الأرثوذكس الروس إلى [٣١] فظائع يشيب لهولها الولدان من جانب أنصار البلاشفة. وقد استخرج ألكسندر نيقولايفيتش ياكوفليف (Alexander Nikolaevich Yakovlev) مؤخرًا بعض تفاصيلها من سجلّات المحفوظات^(١):

«شُوّه فلاديمير (Vladimir) مطران كييف وحُصي وأطلق عليه النار، ثم تُركت جثته عارية لتمثّل بها الجماهير. أما فنيامين (Veniamin) مطران سان بطرسبرغ - خليفة البطريك - فقتلوه إذ أحالوه عمود تلج بعد أن غمسوه في الماء البارد في يوم بردٍ زمهيري. ورُبط غير ماغين (Germogen) أسقف مدينة توبولسك، الذي رافق القيصر طوعًا في منفاه، حيًّا في بدّال باخرة، فقطّعته أسياف البدّال في دورانها. وكذلك دُفن أندروننيك (Andronnik)، وهو كبير أساقفة مدينة بيرم، حيًّا، وقد اشتهر بعمله التبشيري، وكان مبشّرًا في اليابان. وأما كبير الأساقفة فاسيلي (Vasily) فضُلب وأُضرمت النيران في جثته.

تشهد هذه الوثائق على أشدّ الفظائع وحشية التي ارتكبت بحقّ القساوسة والرهبان والراهبات: لقد ضُلبوا على أبواب جُدُر الأيقونات وحواملها، وألقي بهم في مراجل القار المغلي، وسُلخت رؤوسهم،

(1) Alexander N. Yakovlev, *A Century of Violence in Soviet Russia* (New Haven: Yale University Press, 2002), 156.

وُسُنِقُوا بِالسَّلَاتِ الْكَنْسِيَّةِ، وَأُدِي إِلَيْهِمْ طَقْسُ الْمَنَاوَلَةِ بِالرِّصَاصِ
الْمُذَابِ صَبًّا فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَأَغْرَقُوا فِي فَجَوَاتِ الْمَاءِ الثَّلْجِيَّةِ».

وبعد ذلك في عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢، عندما اجتاحت المجاعات روسيا،
صُودِرَت مَمْتَلِكَاتُ الْكَنْائِسِ بِحُكْمِ الْقَانُونِ، وَاحْتَفِيَ لِنِينِ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ؛ حَيْثُ
كُتِبَ: «لَيْسَتْ هُنَاكَ مُنَاسِبَةٌ أُخْرَى تَضَاهِي الْمَجَاعَةَ الْفَظِيْعَةَ الْحَالِيَةَ فِيمَا سَتَمْنَحُنَا إِيَاهُ
مِنْ مَزَاجٍ لَدَى عَامَةِ الْجَمَاهِيرِ يَتِيحُ لَنَا تَعَاظِفُهُمْ أَوْ عَلَى الْأَقْلِ حِيَادَهُمْ ... لَقَدْ دَقَّتْ
سَاعَةٌ أَنْتَصَرْنَا عَلَى الْكَهَنُوتِ الرَّجْعِيِّ»^(٢). أُخِذَتُ أَجْرَاسُ الْكَنْائِسِ وَالْأَيْقُونَاتُ
الثَّمِينَةُ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ وَصُهِرَت. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، بَسَطَ الْبَلَاشْفَةُ يَدَ الدِّعْمِ
لِلْكَنَيْسَةِ «التَّجْدِيدِيَّةِ» (Renovationist) مَنَافِسَةَ (الْكَنَيْسَةِ الْحَيَّةِ) (the Living
Church)؛ أَمَلًا فِي كَسْرِ وَحْدَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَرْثُوذُكْسِ وَإِقَامَةِ كَهَنُوتِ «عَمِيلٍ» يَمَلَأُ
فِرَاقَ السُّلْطَةِ^(٣). وَوَفَّقًا لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَنْاتُولِي قَاسِيلِيْقِيْتِش لُونَاتَشَارْسْكِ (A.V.
Lunacharskii)، رَئِيسَ مَفُوضِيَةِ الشَّعْبِ لِلتَّعْلِيمِ، فِي / بَرَقِيَّةٍ إِلَى لِنِينِ فِي عَامِ ١٩٢١:

(2) Davis, *A Long Walk to Church*, 3.

قَبْلَ ذَلِكَ بِسَنَوَاتٍ، سَلَكَ لِنِينِ سَبِيلًا أَقْلَ عَنَقًا فِي تَعَامُلِهِ مَعَ الدِّينِ؛ إِذْ تَقُولُ فَيْكْتُورِيَا سَمُولْكِن:
«فَحَتَّى عِنْدَمَا طَالِبَ لِنِينِ أَعْضَاءَ الْحِزْبِ بِالْأَنْضِبَاطِ الْأَيْدِيُولُوجِي الصَّارِمِ، فَإِنَّهُ كَانَ قَبْلَ كُلِّ
شَيْءٍ يَهْتَمُّ بِالسِّيَاسَةِ وَيَأْخُذُ بِحُكْمِ قَبْضَةِ الْحِزْبِ عَلَى السُّلْطَةِ. وَرَغْمَ مَوَافَقَتِهِ عَلَى «اسْتِعْمَالِ الْعِلْمِ
فِي الْحَرْبِ عَلَى الدِّينِ»، فَإِنَّهُ أَعْلَنَ صَرَاحَةً مَعَارِضَتَهُ لِلْقَمْعِ وَالتَّمْيِيزِ عَلَى أُسَاسِ دِينِي، وَطَالِبَ
الْبَلَاشْفَةَ أَنْ يَسَاعِدُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِزَالَةِ «الضُّبَابِ الدِّينِيِّ» مِنْ خِلَالِ «الْأَسْلِحَةِ الْأَيْدِيُولُوجِيَّةِ
فَقَطْ لَا غَيْرِ». وَلَكِنْ بِحُلُولِ عَامِ ١٩٢٢، سَنَّ لِنِينِ حَرْبًا مَفْتُوحَةً عَلَى رِجَالِ الدِّينِ، مَزَاوِجًا
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَرَجُوزِيَّةِ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ «كَلِمَا زَادَ عِدَدُ ضَحَايَانَا مِنْ مُمَثِّلِي رِجَالِ الدِّينِ الرَّجْعِيِّينَ
وَالْبَرَجُوزِيَّةِ الرَّجْعِيَّةِ، كَانَ ذَلِكَ أَفْضَلَ»، انظُر:

A Sacred Space Is Never Empty, 13; 29.

(٣) انظر:

Edward E. Rosloff, *Red Priests: Renovationism, Russian Orthodoxy, and Revolution, 1905-1946* (Bloomington: Indiana University Press, 2002).

عَارِضِ التَّجْدِيدِيِّينَ وَجُودِ بَطْرِيْكِيَّةِ أَرْثُوذُكْسِيَّةِ، وَفَضَّلُوا زَوَاجَ الْقَسَاوَسَةِ، وَكَذَلِكَ دَعَمُوا
اسْتِعْمَالَ اللُّغَةِ الرَّوسِيَّةِ فِي قُدَّاسِ الْكَنَيْسَةِ عَوَضًا عَنِ اللُّغَةِ السَّلَافُونِيَّةِ الْكَنْسِيَّةِ الْقَدِيمَةِ،
وَاعْتِمَادَ التَّقْوِيمِ الْغَرِيغُورِيِّ.

«قد يكون مفيدًا للغاية لتقديم المساعدة سرًا للأرثوذكسية التجديدية (يعني التجديدين) ذات الميول المسيحية الاشتراكية، وخلق حالاتٍ انتقالية متنوعة في المساحة الدينية لأجل جماهير الفلاحين»^(٤). وفي الوقت نفسه، كان البطريك الأرثوذكسي تيخون (Tikhon) قيد «الإقامة الجبرية» في أحد الأديرة، وقد تعذرت عليه المناقحة عن كنيسته، أو الرد رسميًا على التهديد التجديدي.

وبعد إطلاق سراح البطريك في صيف عام ١٩٢٣ (نتيجة ضغطٍ سياسي خارجي)، نشر بيانًا أعلن فيه أن غايات التجديدين أبعد ما تكون عن الدين القويم، ثم مرض ووافته منيته بعد ذلك بعام، فنعاه من فورهم كثير من المؤمنين الأرثوذكس بوصفه شهيدًا. ولكنه عند البلاشفة لم يكن بطريكًا على الإطلاق، بل كان مجرد رجلٍ يُدعى فاسيلي بيلافين (Vasilii Bellavin)؛ إذ كانوا قد ألغوا البطريكية في وقت سابق من العام نفسه. وعُيّن زعماء التجديدين في رئاسة المجلس الكنسي الأعلى؛ ابتغاء منحهم مكانةً عُليا لدى المسيحيين الروس، ولكن شعبية الكنيسة التجديدية لدى المواطنين السوفييت لم تصمد كثيرًا. وكان لإحباط الحكومة السوفيتية من الأثر الهزيل للتجديدية دورٌ في القرار الذي اتخذته الحكومة بالتفاوض مع أبرز من لم يُعتقل بعد من القساوسة الأرثوذكس؛ المطران سيرغي. وكان سيرغي، البالغ من العمر خمسين عامًا، ابنًا لكبير أساقفة، ومطرانًا منذ عام ١٩١٧، وكان موضع إعجاب بالغ من جانب كثير من الأساقفة، وكان مُتقنًا لليابانية بفضل مهمة خارجية اضطلع بها في عام ١٨٩٠، إلى جانب إتقانه اللغات الأسقفية التقليدية؛ كاللاتينية والعبرية واليونانية^(٥). وقد أعرب سيرغي في التاسع والعشرين من يوليو/

(4) Niccolo Pianciola, "Orthodoxy in the Kazakh Territories (1850-1943)," in *Kazakhstan: Religions and Society in the History of Central Eurasia*, ed. Gian Luca Bonora, Niccolo Pianciola, and Paolo Sartori (Turin: Umberto Allemandi, 2009), 245.

(٥) وقبلها، كان عشرة من إجمالي أحد عشر أسقفًا ممن رُقوا لرئاسة الكنيسة قد اعتقلوا سريعًا، انظر:

Davis, *A Long Walk to Church*, 4.

تموز من عام ١٩٢٧ عن ولائه الكامل للدولة السوفيتية. وعلى الرغم مما أشيع من أن هذا الصلح وقع تحت طائلة التهديد (وخاصة التهديد بإعدام القساوسة المعتقلين كلهم)، لم تنسَ طائفة من القساوسة الأرثوذكس لسيرغي قطُّ مهادنته العدو.

وفي لحظة التقارب المحورية هذه مع الكنيسة الأرثوذكسية، كانت أولى حملات السوفييت الكبرى على الإسلام في مهدها^(٦)؛ ففي فبراير/ شباط من عام ١٩٢٧، أي قبل [ذلك] بأربعة شهور، تأسست المفوضية الخاصة لمكافحة «الكهنوت» الإسلامي، وخاصةً في منطقة الفولغا-أورال والقرم^(٧). ولم تكن موجات القمع الأولى التي شملت المناطق الإسلامية كلها على القدر نفسه من القوة، ولم تكن السياسات ولا الاستراتيجيات ولا النتائج المرجوة واضحةً دومًا لدى السلطات السوفيتية المحلية المعنية بها. وتقيّم شوشانا كيلر التوجيهات المبهمة الصادرة في اجتماع رأسه أكبر مسئول ملحد في آسيا الوسطى، في فقرة يمكن إسقاطها على عددٍ

(٦) فمن ناحية، كانت جهود البروباغندا المناهضة للدين وأولى لمحات التدخل الإداري السوفيتي قد بدأت في المناطق الإسلامية بحلول منتصف العشرينيات. ولكن من ناحية أخرى، وعلى رغم أن نظام المدرسة التعليمي كان يتعرض لسيطرة أكبر، توسّعت سلطة النظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا المرخصة رسميًا (TsDUM)؛ فدخلت مناطق جديدة، وزاد عدد المساجد والمحتسبين والأئمة زيادةً تدريجية في منتصف العشرينيات، في بعض المناطق مثل كازاخستان. انظر:

Allen J. Frank, *Gulag Miracles: Sufis and Stalinist Repression in Kazakhstan* (Vienna: Austrian Academy of Sciences Press, 2019), 74; Saduaqas Ghilmani, *Biographies of the Islamic Scholars of Our Times*, ed. Allen J. Frank, Ashirbek Muminov, and Aitzhan Nurmanova (Istanbul: IRCICA, 2018), 35-40; 247; 477-481.

وقد كتب أديب خالد عن التحول العام في تصور البلاشفة عن الإسلام قرابة عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧، فقال: «تغير الوضع بحلول عام ١٩٢٦. ففي العالم البهيح الذي بينه البلاشفة، لا مكان (بطبيعة الحال) للبؤس أو الأحوال الخالية من المعنى؛ ومن هنا لا حاجة للتنهّد الحزين. وأصبح الدين الآن المعقل الأخير للمعارضة الأيديولوجية، وغطاء «العناصر الثورة المضادة» يدشنون انطلاقًا منه صراعهم ضد إرادة التاريخ»، انظر:

Islam after Communism, 69.

(7) Keller, *To Moscow, Not Mecca*, 113.

لا حصر له من «التعليمات» الدينية التي وضعها مسئولو مناهضة الدين في تلك السنوات؛ إذ تقول^(٨):

[٣٣] «ربما سببت لغته البيروقراطية شديدة الالتباس شيئاً من الحيرة لمستمعيه، الذين يُنتظر منهم تنفيذُ توجيهاته، / وفكُّ ألغاز ما يعنيه بـ «إعادة التسلُّح الأيديولوجي»، والانطلاق للتصدّي لرجال الدين في الوقت المناسب. ولكن ربما كان التباس العبارات أمراً متعمّداً ... إذ قد ينشأ عن هذا الالتباس مساحة رمادية كبيرة يمكن من خلالها لكل عمّال الحزب المحليين والاتحاديّين تسويغُ عددٍ كبير من التصرفات».

ولكن في الوقت نفسه، ربما مسَّ الإهمال والأوامر المباشرة، فقد اعترفت خلية حزب ريفية في تركمانستان بتجاهل معظم مذكرات الحزب التي وصلتها؛ إذ لم يكن هناك من أعضاء الخلية من يتقن الروسية، وكان أقرب مترجم على بعد ثلاثين (٣٠) فرستا^(٩)، ولم تكن كلفة استقدامه زهيدة^(٩).

وأما أوروباغندا فكانت أوضح من السياسات؛ إذ دأبت عصبة المناضلين الملحدين - وكانوا على رأس المسؤولين عن أوروباغندا المناهضة للدين - على محاولة التأثير على عوام الناس، وإقناعهم بأن الزعامات الدينية الإسلامية تتعاون مع الطبقات المستبدّة، مستغلين العمّال الذين يطلبون إرشادهم. وكذلك حثّت العصبة المسلمين على التفكير في أن الإجابات الميتافيزيقية التي يقدمها الدين قد يليت بفضل تقدم العلم، وكثيراً ما ردّدت القول بأن الدين كان على الدوام قاهراً عنيداً للمرأة. وقد تطورت هذه الأفكار من خلال سيلٍ دافق من الكتيّبات والمنشورات الصادرة باللغات المحلية، واتخذت في أحيان كثيرة صورة المقارنات المباشرة (الذامّة) بين الأحكام الدينية وبدائلها البلشفية^(١٠). فمن ذلك مثلاً أن أحد المنشورات

(8) Keller, *To Moscow, Not Mecca*, 129.

(أ) الفرستا (верста) وحدة قياس روسية للمسافة، وتساوي تقريباً ٠,٦ ١ كيلومتر. (المترجم)

(9) Keller, *To Moscow, Not Mecca*, 156.

(١٠) انظر مثلاً:

AkadNkKaz Inv. 1375: N.D. Makarov, *Analargha maslahatlar*, trans. M. Rasuli =

الصادرة بالأوزبكية المكتوبة بالحرف العربي جعل يقارن بين أحكام النساء في الشريعة وفي القوانين السوفيتية المناظرة لها؛ لإثبات ما تتسم به تلك الأخيرة من قبول لدى أي امرأة تقبل الاستماع [لهذه القوانين] طواعية أو تكره عليه^(١١). وقد انصبَّ تركيز البلاشفة على النساء المسلمات آنذاك بوصفهن «بروليتاريا بديلة» -ذاك التعبير المستعار من غريغوري چاي. ماسيل (Gregory J. Massell) - والذي أصبح الآن تعبيراً مطروحاً لدى المؤرخين السوفييت، بفضل موجة من الكتابات المهمة التي صدرت منذ أوائل القرن الحادي والعشرين. وثمَّ إجماعٌ عامٌّ في هذه الكتابات على أن الجهود السوفيتية في إكراه الجماعات المسلمة على مبادرات من قبيل نزع حجاب النساء لم يُكتب لها النجاح في أحسن الأقوال، وكانت في أسوأها خطأً كارثياً في التقدير وباعثاً على رد فعلٍ عنيف^(١٢).

= (Tashkent: Ozbekistan Dawlat Nashriyati; Saghliqni saqlash kutubkhanasi, 1925); *Qazaq aieldernyng otkendegysy men kazyrgy jaiy* (Kzyl-Orda: Izdanie Kazanskogo Gusudar, 1927).

(11) AkadNkKaz Inv. 1571: Na'mal Hakim, *Islamda va shura hukumatida khatun-qizlar huquqi* (Tashkent: Ozbek Dawlat Nashriyati, 1925).

يذكر أديب خالد أن أحد الدعائين التتر المناهضين للدين، واسمه حكيم، ألقى محاضراتٍ عن الإلحاد على جمهور من من آسيا الوسطى مبكراً في ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٢١، وفيها، حسب قول خالد، «أخضع [حكيم] جوانبَ عدة من الاعتقاد الإسلامي لاختبار العلم، ودحضها تبعاً لهواه»، انظر:

Khalid, *Islam after Communism*, 69.

(١٢) انظر:

Gregory J. Massell, *The Surrogate Proletariat: Moslem Women and Revolutionary Strategies in Soviet Central Asia, 1919-1929* (Princeton: Princeton University Press, 1974); Douglas Northrop, *Veiled Empire: Gender and Power in Stalinist Central Asia* (Ithaca: Cornell University Press, 2004); Marianne Kamp, *The New Woman in Uzbekistan: Islam, Modernity and Unveiling under Communism* (Seattle: University of Washington Press, 2006); Shoshanna Keller, "Trapped between State and Society: Woman's Liberation and Islam in Soviet Uzbekistan, 1926-1941," *Journal of Women's History* 10/1 (1998), 20-44; Chiara De Santi, "Cultural Revolution =

على أن التهديد الأخبث والأخفى الذي تعرضت له الشعوب المسلمة تمثل في نشاط الشرطة السرية؛ فبعد مصادرة الدولة للمدارس الدينية والمساجد وجميع مصادر دخل النُخب المسلمة في عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨^(١٣)، جرت «تصفية» كثير من هذه النُخب (أو من زُعم أنهم كذلك). وفي الوقت نفسه، عانى مَنْ ظلَّ ينعم منهم بالحرية نوعًا آخر من الأعياب الحكومية، ألا وهو دفعهم عمدًا نحو الإفلاس^(١٤)؛ ففي عام ١٩٢٨، أبلغ جهانگیر أبي عز الدين [آبزكلدين] (Dzhikhangir Abyzgil'din)^(١)، إمام المسجد الجامع الأول في / أوفاء، أحد زملائه بأن دار إفتاء أوفاء (التي ظَلَّت [٣٤] تحمل رخصة رسمية لمزاولة نشاطها) في حالة «شديدة الصعوبة، بل كارثية»، فبعد أن أفلست الصيف السابق، أصبح موظفوها لا يجدون قوت يومهم، وتعذرت أعمال النشر، وقلَّ عدد العاملين بسبب تسريح كثير منهم^(١٥).

= and Resistance in Uzbekistan during the 1920s: New Perspectives on the Woman Question,” in Paolo Sartori and Tomaso Trevisani, eds., *Patterns of Transformation in and around Uzbekistan* (Reggio Emilia: Diabasis, 2007), 51-89; Adrienne Edgar, “Bolshevism, Patriarchy, and the Nation: The Soviet ‘Emancipation’ of Muslim Women in Pan-Islamic Perspective,” *Slavic Review* 65/2 (2006), 252-272; Edgar, “Emancipation of the Unveiled: Turkmen Women under Soviet Rule, 1924-29,” *Russian Review* 62/1 (2003), 132-149; Khalid, *Islam after Communism*, 73-75.

(١٣) انظر:

Khalid, *Islam after Communism*, 72.

(١٤) عن الضرائب العقابية وقمع النخب الصوفية في كازاخستان، انظر:

Frank, *Gulag Miracles*, 75.

(أ) جهانگیر أبي عز الدين [آبزكلدين] (Джахангир Абызгильдин) عالمٌ وإمام بشكيري، وُلد في عام ١٨٧٥ في قرية نافوينبوكوفا (Новоянбеково) بمقاطعة أوفاء، لعائلة من الأئمة والعلماء. وتخرج في مدرسة «حسينية» بأرنبورغ، ثم أصبح مديرًا للمدرسة «العثمانية» التي أسَّسها الحاج القاضي خير الله عثمانوف في أوفاء. وكان في الوقت نفسه إمامًا وخطيب المسجد الجامع الأول في المدينة، الذي عُدَّ المسجد الأهم في الاتحاد السوفيتي حتى عام ١٩٢٠. وقد انتُخب جهانگیر في عام ١٩١٧ نائبًا لمدير المجلس الديني لمسلمي أرنبورغ حتى اعتقاله السوفيتي في عام ١٩٣٦، وأعدم بعدها بعامين. (المترجم)

(15) Alfrid K. Buštanov, “Islamskii apokalipsis pri Staline” (forthcoming), 13.

وكان كثير من ضحايا هذه الفترة من الفقهاء والناشرين والمعلمين المسلمين الذين ظنوا في لحظة ما أن الحكومة السوفييتية يمكن أن تكون حليفًا راسخًا لهم في صراعهم الثقافي مع منافسيهم من النخب الإسلامية الأخرى. وعُدَّ هؤلاء الإصلاحيون كما سمُّوا أنفسهم -والذين كثيرًا ما تلقَّبهم المصادر السوفييتية بـ «الملاي التقدميين»، ويسمِّيهم المؤرخون «الإسلاميين الحداثيين»- خطرًا استثنائيًا. ويوجز أديب خالد (Adeeb Khalid) تصور المسئولين السوفييت في الثلث الأخير من العشرينيات إيجازًا بليغًا؛ إذ يقول^(١٦):

«كانت الإدارات الشرعية التي حاربت المخالفات، وإدارات الوقف التي زعمت أنها تؤدِّي عملاً سوفييتيًا، ومدارس حركة التجديد التي تظاهرت بأنها مدارس سوفييتية؛ كلها محاولات من البرجوازية للتخفي في إزار الحضارة الحديثة ودعم الاشتراكية. سيندرثر العلماء التقليديون (الفقهاء المسلمون) وشيوخ الصوفية مع بقايا الإقطاع، أما المنافسة الحقيقية فإنها تصدر عن الرؤى البديلة للحداثة والتقدم».

ويحلل منتصف عام ١٩٢٨، أشارت بعض الإحصاءات التي وضعها بيروقراطيون سوفييت إلى أن عدد من «استؤصل» ممن زُعم أنهم «رجال دين» مسلمون بلغ ثمانية آلاف وأربعمائة وستين (٨.٤٦٠) شخصًا^(١٧). ولكن الراجح أن هذه الأرقام قد بُلغ فيها؛ حفاظًا على وظائف هؤلاء البيروقراطيين أنفسهم أو حماية لحياتهم، مثلها في ذلك مثل غالب الإحصاءات السوفييتية. ومن المشكلات المستعصية كذلك فهم المقصود بتعبير «رجال الدين» في الإسلام، ذاك الدين الذي يحظى فيه كلُّ فرد بـ «استقلالية شعائرية». إلا أنه ليس من قبيل المبالغة أن نقول: إنه بحلول ذلك الوقت كان آلاف المسلمين قد اعتقلوا أو نُفوا أو أُعدموا؛ لأسباب تتعلق بنشاطهم الديني تعلقًا صريحًا. فكما كتب خالد: «لم نقف على إحصاء دقيق للمساجد أيضًا، لكننا نرى أثر الدمار في المساجد شبه الخربة أو المهجورة التي

(16) Khalid, *Islam after Communism*, 71.

(17) Keller, *To Moscow, Not Mecca*, 240.

انتشرت أمام عين الرائي طيلة ما بقي من العهد السوفييتي»^(١٨). وفي العام نفسه، بزغ فجر الخطة الخمسية الأولى، التي قالت عنها سمولكن: «سعى البلاشفة [من خلالها] إلى حشد الموارد كلها للتصنيع والتجميع (collectivization)^(١٩) والثورة الثقافية. وكانت حملةً مناهضة الدين عنصرًا مهمًا من عناصر الثورة الثقافية الأوسع؛ إذ كانت الثورة حربًا طبقية، وكان الدين / عدوًا طبقيًا»^(٢٠). وقال سائقُ جزّارات [٣٥] مسلمٌ آقاري في مقابلة أجريت معه في عهد ستالين: «كان التجميع وتصفية الدين والكنيسة عمليتين متلازمتين»^(٢٠).

وفي كازاخستان ذات الأغلبية المسلمة، التي أدى التجميع فيها إلى إحدى أفظع مجاعات القرن العشرين، قَسّمت إحدى الدراسات المحلية هذه الفترة إلى ثلاث موجاتٍ من الاضطهاد: «المصادرة العظمى» في عام ١٩٢٨ التي استهدفت الأثرياء، و«المصادرة الصغرى» في عام ١٩٢٩ التي استهدفت البدو الفقراء أو ذوي الدخل المتوسط، والتجميع الشامل والمجاعة بدءًا من عام ١٩٣٠، وهي المجاعة التي

(18) Khalid, *Islam after Communism*, 73.

(أ) التجميع (Коллективизация) هو سياسة جمع ملكية الأراضي الزراعية والعمالة كلها في يد الدولة، عوضًا عن الملكية الفردية والزراعة التعاقدية، في مزارع يديرها الجهاز البيروقراطي للدولة. وهي سياسة أدخلها النظام السوفييتي في الفترة بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٤٠ في مواجهة نقص إمدادات الغذاء وإضراب الفلاحين عن تسليم الحبوب، وبحلول أوائل الثلاثينيات كان ٩١٪ من الأراضي الزراعية في الاتحاد السوفييتي قد أُدرجت تحت سياسة التجميع. (المترجم)

(19) Smolkin, *A Sacred Space Is Never Empty*, 46.

وكان أبناء «الأنساب الشريفة» المبعّجلة من المسلمين السوفييت هم الأكثر عُرضةً للخطر بفعل ما يحملونه من عبء الإدانة المزدوجة بالدين والطبقة؛ فيصف آلن جاي فرانك، مثلًا، كيف أن نسل الولي الصوفي شاه أحمد قد أتهموا بأنهم من البايات (bays) (النخب القبلية في السهول) على نحو أدى إلى اضطهادهم أو إلى نفي العائلة كلها. ويلاحظ فرانك، مستندًا إلى تراجم العلماء المسلمين الكازاخ في عهد ستالين، أنها «تصوّر تلك الفترة بأنها فترة عنف واضطهاد وتحرش مستمر بالعائلات الكازاخية ذات الأنساب الشريفة»، انظر:

Frank, *Gulag Miracles*, 79; 81.

(20) HPSSS sched. A, vol. 13, case 159 f. 102.

بلغت ذورتها في عامي (١٩٣٢-١٩٣٣). ويستعير الكاتب الكازاخي في وصف هذه السنوات تعبيرًا شعبيًا يُقَطَّع نياط القلوب، يشير به إلى مصارع عائلاتٍ بأكملها من البدو ساكني الخيام؛ حيث قال: «وهناك خُلِّفت مداخن كثيرة مغلقة المصاريع»^(٢١).

وبعد ذلك بعام، أصدر الاتحاد السوفييتي في إبريل/ نيسان من عام ١٩٢٩ قانونًا يحوي ثمانية وستين (٦٨) مادة حول الجماعات الدينية، أو بعبارة أدق يضع قواعد سيطرة الدولة على هذه الجماعات ومراقبتها إياها. وقد خوّلت بعض هذه المواد سلطات هائلة لموسكو والمسؤولين البلديين في المناطق ذات الأغلبية المسلمة؛ فمن ذلك مثلًا أن المادة الخامسة والعشرين الشهيرة نصّت على إمكانية مصادرة أي مبنى يُستخدم في الشؤون الدينية، مما يعني في واقع الأمر تأمين كل عقار يندرج تحت هذا النوع؛ فالمباني ذات القيمة الفنية أو التاريخية ستنتقل إلى حيازة مفوضية التنوير (the Commissariat of Enlightenment). وأصبح على المسلمين عمليًا التفاوض مع لجان الحزب التنفيذية البلدية أو مع السوفييت لاستعادة الحق في استعمال ما كان ملكًا لهم. وكما هو متوقع، لم يتعاطف كثير من الموظفين البيروقراطيين البلديين مع مقدّمي الالتماسات، كما جرى في حالة سكرتير الحزب في غجدوان (Ghijduvan) الذي أكره أحد شيوخ المنطقة على التبوّل من مأذنة مسجد مهجور [بدلًا من رفع الأذان] وقت الصلاة^(٢٢).

(21) Frank, *Gulag Miracles*, 73.

يحمل التعبير الكازاخي «مدخنة» (shang'iraq) أيضًا معنى «العائلة». فتحمل هذه العبارة لدى المتحدثين الأصليين بالكازاخية معنى أكثر مباشرة وتزامنًا مفاده أنه «قد استؤصل كثير من العائلات». وأنا ممتن لأن فرانك أن وضّح لي هذا الاستعمال.

(22) Shoshanna Keller, *To Moscow, Not Mecca: The Soviet Campaign against Islam in Central Asia* (Westport, CT: Praeger, 2001), 205; Khalid, *Islam after Communism*, 73.

وكذلك تضرّرت الكنيسة الأرثوذكسية بشدة من هذه المواد، التي قضت عمليًا على أنشطتها الخيرية وأنشطة الدعم المجتمعي، ومنها الإذن بإدارة دور الأيتام والمستشفيات ومرافق العلاج النفسي ودور رعاية المعاقين والمسنين. بل إن النشاط المسموح به داخل الكنيسة نفسه تقلّص إلى حدّ كبير؛ =

على أن هناك مادة من أهم المواد التي اشتمل عليها قانون عام ١٩٢٩ كانت أشد مأساويةً عند التطبيق منها على الورق؛ إذ جعلت الترخيص الإجباري للجماعات الدينية أمرًا رسميًا (وقد بدأت هذه الممارسة قبل ذلك بسنوات^(٢٣))، ولكن على نحو غير مطرد). ثم أصبح نموذج التمييز بين النشاط الديني «القانوني» والنشاط الديني «غير القانوني» لدى المسؤولين السوفييت هو التمييز بين النشاط المرخص وغير المرخص، ومضى الأمر على ذلك بضعة عقود^(٢٤). وكانت أوراق التسجيل في

= فوفقًا للمادة السابعة عشرة (١٧) حُظر كلُّ ما كان يُعمل في الكنيسة عدا العبادة؛ فلا تعليم ديني ولا حلقات تعلُّم أو صلوات إضافية أو مكتبات أو حلقات حياة. انظر: (Davis, A: *Long Walk to Church*, 8). وقد كتبت سمولكن؛ تلخيصًا لأثر هذه المواد: «تعيًا قانون عام ١٩٢٩ وضع جميع جوانب الحياة الدينية في قبضة الدولة، وذلك من خلال إبطال كثير من القوانين التي صدرت في عام ١٩١٨. فحظر القانونُ التعليمَ الديني للأطفال، والعمل الخيري، ولم يعترف بالأديرة المغلقة، وألزم الجماعات الدينية بالتسجيل مع أجهزة الحكومة المحلية. ولضمان ألا تلقى العصبية أيَّ منافسة، أبطل البلاشفة النصَّ المتعلِّق بالحقِّ في «الدعوة الدينية» من المادة الرابعة من دستور الجمهورية الاشتراكية الروسية السوفييتية، الذي كان يضمن للمواطنين السوفييت حتى ذلك الوقت «حرية الدعوة للدين أو الإلحاد». انظر: (A: *Sacred Space Is Never Empty*, 46)، وانظر كذلك: (Beglov, V *poiskakh "bezgreshnykh"* katakomb" 103-104).

(23) GARF f.R-393, op. 43a, d.283, l.1-2 ("Proekt instruksii NKVD i Narkomprosa "O prepodavanii musul'manskogo veroucheniia sredi vostochnykh narodnostei, isповeduuiushchikh musul'manskoe verouchenie," *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/11960> [accessed April 14, 2020]); GARF,f.R1235,op.69,d.29,l.51-51ob ("Tsirkuliar Tsentral'nogo administrativnogo upravleniia Krymskoi ASSR o poriadke prepodavaniia islama," *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/21395> [accessed April 14, 2020]).

(٢٤) عن هذا الموضوع، انظر:

Eren Tasar, "Unregistered: Gray Spaces in the Soviet Regulation of Islam," in Pauline Jones, ed., *Islam, Society and Politics in Central Asia* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 2017), 127-148.

= وفي موضعٍ آخر، يدرس تاسار بعمق سداجة نظام التسجيل حين يُطبَّق على حياة المسلمين؛

بعض الأحيان تُقابل بالرفض، إلا أن الأوراق المقدّمة في حدّ ذاتها كانت أداة من أدوات المراقبة، إذ كان يُطلب من أصحاب الالتماسات تقديم بياناتٍ عن أسماء من يشكّلون نواة هذه «الجماعة» المقترحة من المسلمين وخصائصهم الديموغرافية.

وفي مايو/ أيار من عام ١٩٣٠، رثى المفتي المعتمد رسميًا رضاء الدين بن فخر الدين^(١) لحال «المنظمات الدينية الإسلامية التي كانت جميعها على شفا الهلاك الكامل»^(٢٥)، وأعرب عن مخاوفه تلك لمجلس رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية

= إذ يقول: «وكذلك كان التسجيل وسيلة غير ناجعة للسيطرة على الإسلام، وذلك لأن الكثير من الممارسات الدينية لم تتوقّف على المساجد. إذ كان المسلمون يتردّدون على آلاف الأضرحة، الكبيرة منها والصغيرة، ويعتمدون على مجموعة من الشخصيات الذين لا علاقة لأنشطتهم بالمساجد، من أمثال الملاي الجوّالين الذين يُدعون للابتهاال في احتفالات التسمية والختان، ومدّرسي العلوم الشرعية واللغة من الرجال والنساء؛ وكذلك العرّافين والمشعوذين والمطّيبين. ومن ثمّ، لم يكن لتخفيض عدد بيوت الصلاة الإسلامية المرخّصة كبير أثر على الممارسة اليومية لغالب مسلمي آسيا الوسطى». انظر:

Soviet and Muslim, 52.

(١) رضاء الدين بن فخر الدين بن سيف الدين (Ризаитдин Фахретдин Сайфетдин) إمامٌ وعالمٌ بشكيري تيري. كان أحد أقطاب الحركة الجديدة، ومفتي النظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا. وُلد في عام ١٨٥٩ في مقاطعة سمارة (Самарская) بروسيا، لعائلة من العلماء والأئمة. ودرس في مدارس الريف، وتعلّم التركية والعربية والفارسية والتركية والروسية، ودرس علوم الشريعة واللغة. وتنقّل بين أوفاء وأرنبورغ، واشتغل هناك نائبًا لرئيس تحرير جريدة وقت (Вақыт) حتى عام ١٩٠٨، ثم رئيسًا لتحرير ملحقها شورا (Шуро) حتى عام ١٩١٨ عندما حظرها الشيوعيون. وقد انتُخب الشيخ رضاء الدين مفتيًا للنظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا في عام ١٩٢٢، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته في عام ١٩٣٦. (المترجم)

(25) Dilyara Usmanova, Ilnur Minnullin, and Rafik Mukhmetshin, "Islamic Education in Soviet and Post-Soviet Tatarstan," in Michael Kemper, Raoul Motika, and Stephan Reichmuth, eds., *Islamic Education in the Soviet Union and its Successor States* (New York: Routledge, 2010), 65 n54.

انظر أيضًا:

Michael Kemper, "From 1917 to 1937: The Mufti, the Turkologist, and Stalin's Terror," *Die Welt des Islams* 57/2 (2017), 162-191.

لعموم روسيا (VTsIK) في / احتجاجه لديها على الإغلاق القسري للمساجد، [٣٦] والضرائب الباهظة التي فرضت على المنظمات الدينية، وما ينشأ عن عدم دفعها من اعتقالات وغرامات، ومصادرة الكتب والممتلكات الدينية، واعتقال «رجال الدين» المسلمين^(٢٦). وقد كتب عضو هيئة الرئاسة بيوتر سميدوفيتش (Pyotr Smidovich) -بعد سماع شهادته- تقريرًا عامًا عن حالة «المنظمات» الإسلامية إلى ميخائيل إيفانوفيتش كالينين (Mikhail Ivanovich Kalinin) رئيس الهيئة. ولا عجب في أن ما عدّه فخر الدين أمرًا فاجعًا كان عند سميدوفيتش نصرًا مؤزرًا؛ حيث قال: «لقد أشرفت المنظمات الدينية الإسلامية على الاندثار والهلاك التام؛ فحتى الآن، غُلِّق سبعةٌ وثمانون في المائة (٨٧٪) من المراكز الدينية الإسلامية، وما يزيد على عشرة آلاف (١٠.٠٠٠) من إجمالي اثني عشر ألف (١٢.٠٠٠) مسجد، وأمسى ما بين تسعين وسبعة تسعين في المائة (٩٠-٩٧٪) من الملالي والمؤذنين عاجزين عن

(٢٦) كانت الضرائب التعسفية وغير القانونية المفروضة على النخب الدينية، والتي انطوت أحيانًا على حالات احتيال، موضوعًا للشكوى والقلق منذ أوائل العشرينيات حتى منتصفها، وهو ما أثار مراجعات داخلية في الحزب والتماسات احتجاجية من جانب الزعامات الدينية السوفيتية.

GARF fR-1235, op.120, d.22, l.1-4 (“Tsirkuliar No. 463 Nalogovogo upravleniia NK finansov RSFSR ‘Ob oblozhenii nalogami i sborami tserkovnykh zdanii i sluzhitelei kul’ta’...,” *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/11944> [accessed April 14, 2020]); GARF fR-1235, op. 120, d.22, l.8 (“Dokladnaia zapiska otdela natsional’noŝtei pri Prezidiume VTsIK za podpis’iu zav. otdelom Klingera i sekretaria T. Vasil’eva . . .” *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/11945> [accessed April 14, 2020]).

ومنذ عام ١٩٢٥، تشكَّى فخر الدين مما يرتكبه «شباب الحزب» من «إهانات فجّة في حقّ المشاعر الدينية للمسلمين».

GARF f.R5263, op.2, d.4, l.119-120ob (“Pis’mo predsedatelia Tsentral’nogo dukhovnogo upravleniia musul’man R. Fakhreddinova M.I. Kalininu kak dukhovnogo glavy musul’man RSFSR, v tom chisle Kazakskoi ASSR,” *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/13015> [accessed April 14, 2020]).

مزاولة النشاط الديني»^(٢٧). وبرهن ما زعمه سميدوفيتش في ختام حديثه من استحالة العمل الديني بغير وجود المساجد على السذاجة السوفيتية الرسمية النمطية حول الإسلام، وأن إحصاءاته (أي سميدوفيتش) يجب أن تُؤخذ بحذر شديد. لكن هذه المزاعم تشير إلى حقيقة دامغة تردد صداها في عددٍ لا يُحصى من المصادر، ولم نجد ما ينفيها، ألا وهي أنه مع مطلع العقد [الثلاثينيات]، كان آلاف المساجد قد غُلقت، واعتُقل آلاف الأئمة المسلمين أو نُفوا أو قُتلوا.

وعلى الرغم مما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن معدل إغلاق المساجد والمصادر قد تراجع بين عامي ١٩٣١ و ١٩٣٥^(٢٨)، فإننا نجد بعض الأدلة على استمرار النشاط المناهض للإسلام خلال هذه الفترة؛ ففيما بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٧ مثلاً، كانت مساجد أرنبورغ (Orenburg) العشرة العامرة بالمصلين قد أُغلقت جميعها^(٢٩)، وكذلك ظل «ضرب أعناق» المساجد - كنايةً عن تخريب مآذنها - مستمرًا طوال الثلاثينيات. وفي دراسة تاريخية حديثة لريف بشكورستان، قام بها أحد أهلها، يقدم لنا إيه. إس. غايازوف (A. S. Gaiazov) عرضًا مفصلاً لحدث كهذا شهده والده^(٣٠):

(27) Yakovlev, *A Century of Violence in Soviet Russia*, 164.

بل إن النسبة كانت أعلى في بعض المناطق؛ ففي أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٤، أفاد تقرير لمجلس الشئون الدينية من جورجيا أن هناك ثمانية وعشرين (٢٨) مسجدًا «مُعطلاً» (nedeištviushchii) في منطقة آخالتسيخه (Akhaltsikhe)، ومسجدًا واحدًا مرخصًا مفتوحًا، وأغلقت مدرسة المنطقة في عام ١٩٣٣.

NatArchGE R 1880.1.1 ff. 31; 52.

(28) Keller, *To Moscow, Not Mecca*, 211.

(29) A.B. Iunusova, ed., *225 let Tsentral'nomu dukhovnomu upravleniiu musul'man Rossii: Istoricheskie ocherki*, 26.

(30) A.S. Gaiazov, *Malaia i bol'shaia rodina grazhdanina. "Rakh Kazanchi."* (Ufa: "Bashkirskaiia ensiklopediia," 2016), 228-229.

وتنقل رواية أناتولي غيناتولين (Anatolii Genatulin) التاريخية كراسنايا پوليانا (*Krasnaia poliana*) مشهدةً مشابهاً بشكلٍ لافتٍ للنظر لـ «ضرب عنق» أحد المساجد؛ إذ ينضم الراوي، الذي كان تلميذًا ساعته، إلى مجموعة من الشيوعيين الريفيين في ربطهم هلال مئذنة بحبل وسحبها إلى أسفل، =

«ومن القصص ذات الطبيعة الخاصة سياسة «ضرب أعناق» المساجد - كما يقال - في الثلاثينيات. ولسنا ندري ما الذي دعاهم إلى هذا: هل الرغبة في تنفيذ أوامر «الخطة الخمسية الملحدة»، أم الرغبة في لفت الناس عن التراث الإسلامي الذي امتدَّ به الوجود قرونًا، أم التحول الحادُّ عن أسس الأخلاق ومبادئ الخير ...

لقد اقتُلت في مطلع الثلاثينيات مئذنة أحد المساجد (في وسط القرية)، وكان والدي وأطفال آخرون شاهدين على هذه «الإجراءات» المرؤعة. كان يومًا مشمسًا مضطربًا، يساق في ذلك ما يجري من استباحة القانون. كسر بعض الرجال (ونحن وإن كنا نعرفهم فإننا لن نسميهم؛ لأن أبناءهم وأحفادهم لا لوم عليهم) أرفع عوارض المئذنة، وبدءوا من / الأرض في سحب حبلٍ طويل ألقى حول المئذنة كحبل المشنقة. انقطع الحبل غير مرة، وكان الطبيعة تقاوم الشرَّ، لكن العمل تم في النهاية، ورقدت على الأرض مئذنة جميلة رائعة، ظل هلالها سالمًا تمامًا. بكى الأطفال وصاح الشيوخ الكبار معترضين، وكان أحدهم يجأر بالدعاء ...

[٣٧]

ولك ألا تصدِّق، ولكن ما من أحدٍ من هؤلاء الذين تولوا كبر هذا العمل الشائن غير الشرعي عاش حياةً هنيئةً بعد ذلك؛ إذ قُتل بعضهم في الحرب، وقُتل آخرون في حوادث مختلفة.

كم هو مُفزع تصوُّر حال هؤلاء الذين ارتكبوا هذا الإثم، وكم هو مثير أن [نتخيل] كيف استطاعوا النوم أول ليلة بعد صنيعهم هذا؟

= وسط صيحات ازدراء من شيوخ القرية. وكذلك يتضمن حديث الراوي إشارة إلى لعنة من نوع ما ارتبطت بهذه الحوادث، فيقول: إنه ما من أحدٍ من هؤلاء الأطفال أو أحفاد هؤلاء «الملحدين» قد عاش حياةً «كاملة وسعيدة»، بل ابتلوا بالسُّكر والمرض وجميع أنواع البلاءات (Krasnaia poliana) [Ufa: Kitap, 2008], 367).

وفي مشهدٍ أكثر إزعاجًا، يجتمع بعض القرويين حول أحد الجيران من كبار السن ممن أشيع عنه أنه (Genatulin, Krasnaia poliana, 363) يمارس «سحرًا» قديمًا، وفقأوا عينه بعصا!

كيف قبلوا فعل ذلك؟ لم يدفع لهم أحد، ولم يحصلوا على شيء قطُّ
جزاء ما فعلوه. كيف يرضى أحدٌ بهذا؟ ومهما يكن من أمر، فقد كان
الدينُ لا يزال راسخًا آنذاك».

وأما على الصعيد الدولي، فقد كانت سنة ١٩٣٢ أول سنة لا يؤذَن فيها لأيِّ حاجٍ
سوفييتي بالحجِّ إلى مكة. ولم تُقابل الاستفسارات السعودية عن غياب الحجيج إلا
بمجموعة أعذارٍ واهية (وهزلية على نحو مبهم). ففي البداية، اكتفى المسئولون
السوفييت بأن زعموا أن أحدًا من المسلمين السوفييت لا يريدُ الحجَّ عامهم هذا. ثم
زعم الدبلوماسي السوفييتي نظير تيورياكولوف (Nazir Tiuriakulov) أن اللائحة تقع
على الفرنسيين والبريطانيين؛ لقطعهم الطريق على الحجَّاج السوفييت في البسفور
والدردينيل^(٣١). وحتى إن صحَّ ذلك (وهو خطأ فيما أرى)، فهو عذر واهٍ؛ لأن هناك
عدة طرق بين الاتحاد السوفييتي وشبه الجزيرة العربية، أو ربما سُقَّ طريقٌ، إن
سمحت الحكومة بذلك. وفي العام نفسه، وصل عدد الأعضاء في عصبة المناضلين
الملحدين إلى ذروته على نحو مدهش، حيث بلغ إجمالي عددهم خمسة ملايين
ومائتي ألف (٥.٢٠٠.٠٠٠) عضو^(٣٢).

وقد شهد عام ١٩٣٤ الاغتيالَ الشهير لسيرغي كيروف (Sergei Kirov) «البلشفي
القديم» الذي يتحدَّر نسبه إلى لينينغراد؛ إذ كان رمزًا شاع الاعتقادُ أنه أشعل نار
الغيرة والغضب في قلب ستالين؛ وذلك بسبب شهرته ومكانته في الحزب. ثم كان
أن انطلقت في الشهور التالية موجةٌ من «المحاكمات الصورية»، وأعمال القمع في
صفوف الحزب، وسرعان ما امتدت إلى «الأعداء الطبقيين» المتحرِّزين من أمثال
التُّخب الدينية. وكتبت سمولكن أنه: «نشأ إجماعٌ متنام بين البلاشفة على أن
المؤسسات الدينية في العموم والكنيسة الأرثوذكسية على وجه الخصوص لا تزال
خطرةً من الناحية السياسية؛ ومن هنا يجب تحييدها نهائيًا»^(٣٣).

(31) V.A. Akhmadullin, "Deiatelnoš' sovetskogo gosudarstva po organizatsii khadzha sovetskikh musul'man v 1944 g.," *Vlast'* 6 (June 2013), 161.

(32) Davis, *A Long Walk to Church*, 9.

(33) Smolkin, *A Sacred Space Is Never Empty*, 47.

/ وفي عام ١٩٣٥، بدأت منصات البروباغندا السوفييتية في الترويج لفكرة [٣٨] ستالين عن «صداقة الشعوب»، وهو مفهوم يعتمد على المقولة الماركسية التي تذهب إلى أن العداة القومي أو العرقي لا يعدو أن يكون محصلة للعداء الطبقي، وأن العداةين كليهما سيندثران في ظلال الأوضاع الاشتراكية الصحيحة. وفي اجتماع للكرملين عُقد في ديسمبر/ كانون الأول لتكريم المزارعين الجماعيين ذوي الأداء المتميز من الطاجيك والتركمان، أطلق ستالين تصريحًا شهيرًا مفاده أن ما نشأ من عداوات في العهد القيصري بين المستعمرين الروس وغيرهم من الشعوب التي أصبحت الآن سوفييتية، قد استؤصلت بأثرٍ من تقدّم مسيرة السياسة البلشفية المتعلقة بالقوميات، فقال في هذا الصدد: «إن اجتماعنا اليوم لهو حجة دامغة على حقيقة أن الارتباب السابق بين شعوب الاتحاد السوفييتي قد انقضى أجله، وحلّت محله ثقةٌ كاملةٌ متبادلةٌ. إن صداقة شعوب الاتحاد السوفييتي تنمو وتتوثق عُراها. وهذا، يا رفاق، أتمن ما حقّقته سياسة القوميات البلشفية»^(٣٤). لم يكن واضحًا أثر هذه «الصداقة» متواترة الذكر على الأديان، إن كان لها أثرٌ. وفي عام ١٩٣٦، أي: بعد ذلك بعام، تعرضت بخارى لموجة جديدة من إغلاق المساجد، وهي الموجة التي انتهت بإغلاق ٩٤٪ من مساجدها^(٣٥)، في الوقت الذي كان الاتحاد السوفييتي يَغصُّ فيه بصور ستالين ضاحكًا رفقة رضع شاخصة أبصارهم يرتدون أزياء أصلية [لقوميات مختلفة]. وكذلك في العام نفسه، زعم الدستور السوفييتي الجديد -الذي سنعود إليه بعد قليل- أنه يحفظ «حرية العبادة».

ومع ذلك، فإن الأسوأ لم يأت بعد؛ ففي عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨، استهدف الإرهابُ الستاليني الكبير -بمعدلاتٍ متفاوتة- جميع من عدّوا رؤوسًا لطوائفهم وجماعاتهم من كل لون: العسكريون والأكاديميون والمسؤولون الحكوميون وأهل الصناعة ورجال الدين. ويبدو أن جماعات الأقلية الدينية بوجه خاص قد تلقت ضرباتٍ موجعة؛ إذ اشْتُبه لفترة طويلة في أن آثار حملات التحريض ضد السوفييت

(34) Terry Martin, *The Affirmative Action Empire* (Ithaca: Cornell University Press, 2004), 439.

(35) Keller, *To Moscow, Not Mecca*, 223.

فيها أشدُّ وضوحًا منها في غيرها من الجماعات؛ ففي إحصاءٍ حديث، كان تسعة وثلاثون (٣٩) قسًا من إجمالي أربعين (٤٠) قسًا من أهل العقيدة القديمة قد اعتُقلوا بحلول عام ١٩٤١^(٣٦). وكتبت شوشانا كيلر أنه:

«يمكننا بشيء من التحفظ أن نقدر عدد من اعتُقل أو قُتل أو نُفي من وطنه أو طُرد من الاتحاد السوفيتي من رجال الدين المسلمين بأكثر من أربعة عشر ألفًا» بحلول عام ١٩٣٨^(٣٧). ولكن تظل أرقام الكنيسة الأرثوذكسية أشدَّ مأساوية، بما لديها من عددٍ أكبر من المؤمنين السوفيت ونظام رتب «كهنوتية» أوضح؛ ففي هذه السنوات، قُدِّر عددٌ من «تعرضوا للقمع» من ذوي الصلة بالكنيسة بمائة وأربعين ألف (١٤٠.٠٠٠) شخص، قُتل منهم خمسة وثمانون ألفًا وثلاثمائة (٨٥.٣٠٠). وفي عام ١٩٣٩، تناقص إجمالي عدد المعتقلين من رموز الكنيسة إلى نحو ثمانية وعشرين ألفًا وثلاثمائة (٢٨.٣٠٠) شخص، لكن نسبة من قُتل منهم ارتفعت بشدة؛ إذ يُروى أن واحدًا وعشرين ألفًا من هؤلاء الضحايا قد أُعدموا رميًا بالرصاص^(٣٨).

(36) Paert, "Memory and Survival in Stalin's Russia," 198.

(37) Keller, *To Moscow, Not Mecca*, 241.

(38) Yakovlev, *A Century of Violence in Soviet Russia*, 165; Shkarovskii, "Stalinskaia religioznaia politika i Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' v 1943-1953 godakh,"; Davis, *A Long Walk to Church*, 11.

وكذلك نجد في إحصائيات إغلاق الكنائس أرقامًا تقريبية، لكنها تعطينا صورةً عامة؛ إذ من بين سبعة وثلاثين ألف (٣٧.٠٠٠) كنيسة أرثوذكسية عاملة في عام ١٩٣٠، لم يبقَ إلا ثمانية آلاف وثلاثمائة كنيسة وكنيستين (٨.٣٠٢). إلا أن القليل من هذه الكنائس فقط كان كنائس حقا؛ إذ ظل العديد من هذه الكنائس «المفتوحة» معطلة بسبب النقص الكبير في عدد رجال الدين (Shkarovskii, *Ruskaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 98). ونجد اختلافًا في المصادر بين العدد الدقيق لأعداد المعتقلين والموتى؛ إذ يقول روغر ريس مثلًا: «أنه بين عامي ١٩٣٧ و١٩٣٩، اعتُقل مئة وخمسون ألف (١٥٠.٠٠٠) رجل دين وموظفين غير دينيين من جميع الملل، وانتهى الحال بثمانين ألفًا (٨٠.٠٠٠) منهم في معسكرات الغولاغ، ومات أو أُعدم سبعون ألفًا (٧٠.٠٠٠)، منهم عددٌ كبير من المطارنة والقساوسة. وأُغلق قرابة ثمانية آلاف كنيسة ومعبد أرثوذكسي وصدور أغلبها لتستعملها الدولة»، انظر:

لقد أجمعت الدراسات التاريخية المحلية على وصف سنوات الإرهاب الكبير بكونها فترة لا نظير لها في قسوتها على النُخب الدينية؛ فمن ذلك مثلاً أن زاريفوف (Zaripov) وسافاروف (Safarov) يصوّران في عملهما الأخير عن الإسلام في موسكو السوفييتية هذه / السنوات من خلال سرد سلسلة من الاعتقالات [٣٩] والإعدامات؛ حيث أُغلق المسجد التاريخي في حي زاموسكفاريتشيه (Zamoskvorechye) في عام ١٩٣٧ بعد إعدام عبد الله حسن شمس الدينوف (Abdullah Khasanovich Shamsutdinov) إمام المسجد وخطيبه وأحد أشهر فقهاء المدينة، وماتت زوجته؛ سليلة «عائلة» أجيث (Ageev)، التي خرّجت الكثير من أئمة موسكو، في معسكر اعتقال پوتما (Potma)، وأصبح مسجد التتر التاريخي في شارع فيبولزوفو (Vypolzovy) المسجد الأساسي العامل في المدينة، لكن سرعان ما اعتُقل إمامه وخطيبه موسى فاخيتوف (Musa Vakhitov) بدوره وأُعدم^(٣٩).

ومن بين الأئمة الخمسة الباقين الذين زاروا مكة رفقة رضاء الدين بن فخر الدين، ممثلين للاتحاد السوفييتي في مؤتمر العالم الإسلامي لعام ١٩٢٦، أُعدم ثلاثة في عام ١٩٣٧، ونُفي الرابع. وفي غضون ذلك تقريباً، أُعدم في آسيا الوسطى بحلول عام ١٩٣٨ جميع الأعضاء المنضوين تحت لواء حركة التعليم والإصلاح الثقافي «الجديدية»^(١)، التي كانت واسعة النفوذ قبل الثورة، ومن بينهم عبد الرؤوف فطرت

= The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Stalinist Regime during the Great Patriotic War," 134.

(39) I.A. Zaripov and M.A. Safarov, *Akhmetzian Mustafa: iz istorii islama v SSSR* (Moscow: Medina, 2017), 59.

(أ) الجديديون أو الحركة الجديدة (Jadidism – Джадидизм): حركة إصلاحية تجديدية قام عليها مجموعة من الإصلاحيين الحدائين المسلمين في الإمبراطورية الروسية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ حيث نادوا بالإصلاح الإسلامي الاجتماعي والثقافي، وذلك بإحياء التعاليم الإسلامية السمحة، والتفاعل مع الحداثة في الوقت عينه، وتطوير مناهج وطرق التعليم الديني. وقد ركز الجديديون على استعمال المطبوعات في الترويج لأفكارهم ودعم «أصول جديد» أو «المنهج الجديد» للتدريس في مكاتب الإمبراطورية ومدارسها، ومنه نشأ اسم الجديدة. ومن أبرز الجديديين زين الله رسولي، وعبد الرشيد إبراهيموف، وإسماعيل غاسبريلي، وغيرهم كثير. (المترجم)

(Abdurrauf Fitrat) في عام ١٩٣٨، ومنور قاري عبد الرشيد خان أوغلي (Munawwar Qari 'Abdurrashid Khan-ughli) في عام ١٩٣١، وعبد الله قادري (Abdullah Qadiri) في عام ١٩٣٨، وعبد الحميد سليمان أوغلي (Abdulhamid Sulayman-ughli) المشهور بـ «تشولبان» (Cholpan) في عام ١٩٣٨، وإسحاق خان تورا جنيد الله أوغلي (Ishaq Khan Tura Junaydullah-ughli) المشهور بـ «إبرات» (Ibrat) في عام ١٩٣٨.

أما جهانگیر أبي عز الدين - إمام المسجد الجامع الأول في أوفا الذي تشكّى في عام ١٩٢٨ من الحالة «الكارثية» التي آلت إليها أوضاع جماعة مسجده - فقد اعتقل وأُعدم في يونيو/حزيران من عام ١٩٣٨، على إثر اتهامه بالضلوع في أنشطة مناهضة للسوفييت، وهي التهمة التي وُجّهت إلى كثير من المرتبطين بدار الإفتاء السوفيتية المرخصة رسمياً^(٤٠). وفي عام ١٩٢٦، قُدّر عدد المساجد العاملة في أراضي روسيا الضخمة التي تخضع لإشراف دار إفتاء أوفا بأربعة عشر ألفاً وثمانمائة وخمسة وعشرين (١٤.٨٢٥) مسجداً. وبحلول عام ١٩٤١، كان مائة مبنى فقط من هذه المساجد قد نجا من الإغلاق أو المصادرة أو التدمير^(٤١). وبتعبير وثائق مجلس الشؤون الدينية، يبدو أن بعض هذه الأماكن الدينية قد أُغلقت تلقائياً في تلك الفترة؛ لـ «نقص رجال الدين من أهل الطائفة» (*za otsustviem sluzhitelia religioznogo kul'ta*)^(٤٢). وفي جورجيا، صنّف مسؤولو مجلس الشؤون الدينية بحلول الأربعينيات ستة وتسعين (٩٦) مبنى إسلامياً بوصفها «مباني مُعطلة»، وجرى توثيق إعادة شغلها لأغراض أخرى توثيقاً دقيقاً، فتحول ستة وثمانون (٨٦) منها إلى مخازن للمزارع الجماعية، وأربعة (٤) إلى مدارس، ومبنى واحد إلى مخزن للحبوب، وآخر إلى نادٍ، في حين ظلت المباني الأربعة الأخرى مهجورة^(٤٣).

(40) Buštanov, "Islamskii apokalipsis pri Staline," 15.

(41) B.G. Fairuzov, *Istoriia islama v Rossii* (St. Petersburg: Timoshka, 2019), 230.

(42) NatArchGE R 1880.1.1 f. 84.

(43) NatArchGE R 1880.1.1 f. 111.

وتتيح لنا هذه الأمثلة مجرد لمحة على عددٍ كبيرٍ من الشواهد التي تغطي أحلك فترات القمع الديني في الاتحاد السوفييتي. لكن هناك وجهًا آخر للقصة أدنى شهرةً من هذا؛ ففي أيام القمع الكالحة هذه، كانت هناك أنشطة دينية قائمة بلا شك؛ فكما أشار غايازوف: «في الأخير، كان الدين آنذاك لا يزال راسخًا».

فقد غُلِّقت المساجد، لكن الصلوات أُقيمت في المنازل والسراديب وبعض الأماكن الأخرى الآمنة. وكما لاحظ إيرين تاسار، كان إغلاق المساجد واعتقال [٤٠] التُّخب استراتيجيَّة قاصرة عن سحق الحياة الدينية الإسلامية؛ إذ إن «الرموز، سواء أكانوا من مشايخ الصوفية أو الملالي ممن يؤمُّون الجنائز وشعائر المناسبات الأخرى أو المناسك الدينية، أو الخاتنين، أو العرَّافين، أو المشعوذين، أو المطبِّين، أو أصحاب الممارسات الأخرى الذين ربط البيروقراطيون الشيوعيون بينهم وبين الدين؛ لا يتطلب الأمر من كل هؤلاء الرموز إلا أن تمنحهم الجماعة التي يخدمونها احترامها وتقديرها»^(٤٤) لأجل إمامتهم في شعائرهم. ويصف أحد اللاجئيين من تتر القرم - في مقابلة ترجع إلى عهد ستالين - هذه الحالة النشطة من منظور شاهد عيان^(٤٥) قائلاً:

«لقد أدَّت القيود المفروضة على الممارسات الدينية إلى هجر الناس إيَّها، ولقد تأثرت بذلك خمس ممارسات: (أ) النماز [الصلاة بالفارسية - م] (Namaz): الصلاة أربع مرات [كذا وردت] في اليوم؛ إذ بسبب إغلاق المساجد وعدم قدرة المسلمين على الصلاة في العلن، اضطرُّوا إلى الصلاة في بيوتهم سرًّا. (ب)

(44) Tasar, *Soviet and Muslim*, 7.

وحتى اليوم، يُشرك مسلمو آسيا الوسطى المشتغلين بالدين في عقد هذه الشعائر في المنازل، لا للتخفي، لكن بداعي التقاليد؛ إذ «يدعو مسلمو آسيا الوسطى المقرئين المسلمين الذكور للابتهاال في بيوتهم في مناسبات خاصة، من قبيل ذكرى أربعين الموتى، أو احتفال الختان. ويحفظ هؤلاء الملالي الأدمية العربية المناسبة، لكنهم لم يتعلموا [الدين] رسمياً ولا يحملون لقب الإمام، ناهيك عن أن يكونوا من العلماء». انظر: (Soviet and Muslim, 21-22).

(45) HPSSS sched. B, vol. 7, case 106 f. 25. (التشديد من المؤلف)

رمضان: شهر في العام مخصوص بالصيام، لا يجوز فيه الأكل من الشروق إلى الغروب. (ج) وفي حفلات الزواج، كان الزواج على يد رجل دين أمرًا محظورًا، بل يجب عقد الزواج في مكتب تسجيل الأحوال المدنية (ZAGS). (د) الختان: حُظر ووصف بأنه عمل وحشي. (هـ) الدفن الشرعي: حُظر. وقد أدى حظر هذه الشعائر إلى ممارستها وغيرها سرًا، وأصبح من حَصَل تعليمًا شرعيًا قبل الثورة (أكثرهم في پغجه سراي) أئمة؛ فالأئمة في الإسلام لا يُعَيَّنون من أعلى، بل يختارهم الأهالي. ومن هنا، يمكن لكلِّ أحد أن يصبح إمامًا.

وهكذا يتذكر مسلم قبردي^(١) -في مقابلة أُجريت في عهد ستالين أيضًا- شهوده افتتاح مسجد في قبردينو-بلقاريا، حيث يقول: «لقد افتتح الناس مسجدهم بأنفسهم، لكن لم يكن لديهم مُلأ، وقُدِّمَ مَنْ يعرفون الصلوات والأركان. وقام كبار السن على الوعظ (الإسلامي) الديني للشباب، لكنني لست على ثقة من مدى نجاح ذلك»^(٢٦). وصفوة القول أنه يمكن تجديد صفوف المشتغلين بالدين، لا من خلال أولئك «المُرَخَّص» لهم رسميًا، بل من خلال كلِّ من يريد ويستطيع ويقبله مجتمعه.

زد على ذلك أن الجماعات المختلفة لم تعرَّض للقدر نفسه من القمع والبروباغندا المناهضة للدين؛ إذ يلاحظ شامل شيخ علييف (Shamil Shikhaliev) أن جهود السوفييت المناهضة للدين في داغستان كانت أشد كثافة في المناطق التي أبدت مقاومةً أعنف للتجميع، في حين أن الجماعات التي امتلكت فيها النُخب الدينية المسلمة من الصوفية نفوذًا هائلًا، أمكن تخفيف وطأة هذه الهجمات عليها إن أبدت ولاءً للدولة. وقد اشتد نشر البروباغندا المناهضة للدين في العموم بين الشعوب الناطقة بالزرغينية جنوبي داغستان، واللاكيين، وسكان شمالي / الأراضي [٤١]

(١) القبرديون البلقار، طائفة من مسلمي جبال القفقاس. (المترجم)

(46) HPSSS sched. B, vol. 11, case 106 f. 354.

المنخفضة، في حين أن آقاربي مناطق الألب وبعض الدارغين^(أ) وقوموق^(ب) السفوح، تمكنوا من الحفاظ على ممارساتهم الإسلامية المتأثرة بالصوفية التقليدية، وكانت معاناتهم جرّاء الضغط الحكومي أقل^(٤٧). وفي الوقت نفسه، وثق الإثنوغرافيون لدى المسيحيين السوفييت نماذج موسّعة في الريف لما سمّوه «الدين الحي» (*zhivaia religiia*) و«أرثوذكسية العوام» (*narodnoe pravoslavie*) طوال العشرينيات والثلاثينيات^(٤٨).

ومن الأمور الكاشفة أن المسؤولين المنوط بهم مراقبة الحياة الدينية في هذه السنوات نقلوا في تقاريرهم «ثغرات» مستمرة في جدية العمل ومداه والالتزام به لدى زملائهم في سلطات مناهضة الدين؛ فمثلاً، اشتكى مندوبو عصبة المناضلين الملحدين المؤفدين إلى مدينة سفيردلوفسك (Sverdlovsk) في مارس/آذار من عام ١٩٣٥ من جميع أشكال «الانتهاكات» الدينية المستمرة من جانب المسلمين التتر والبشكير في المنطقة. فقد كانت «جماعة» من الخاتنين (*sunatchilar*) تتجول مروّجة لأعمالها في جوار المدينة، وظلّت النساء ترتدين البراقع في العديد من القرى، وكان رؤساء المزارع الجماعية يقومون بأنفسهم على تنظيم إجازة عيد الأضحى في أحيائهم^(ج). وفي الوقت نفسه، كان أكثر أعضاء العصبة أنفسهم في المنطقة يتهرّبون من دفع رسوم عضويتهم^(٤٩). وفي بعض الأحيان، أخذ بعض

(أ) شعب قوقازي يعيشون في جنوب القوقاز على وجه التحديد في جمهورية داغستان الروسية.

(المترجم)

(ب) أحد الشعوب التركية التي تعيش في هضبة القوموق في شمال داغستان وجنوب تيريك، والأراضي المطلة على بحر قزوين. يشكلون ١٤٪ من سكان جمهورية داغستان الروسية.

يتحدثون اللغة القوموقية. (المترجم)

(47) Sh.Sh. Shikhaliev, "Transformatsiia sufisma v svete religioznoi politiki i pereselenii gortsev v Dageštane 1930-1990-x gg.," *Pax Islamica* 2/11 (2013), 96.

(48) Smolkin, *A Sacred Space Is Never Empty*, 48.

(ج) حذفنا هنا، بالاتفاق مع المؤلف، الحاشية رقم (٤٩) من الأصل الإنكليزي، والتي عرّف فيها

المؤلف بعيد الأضحى. (المترجم)

(49) A.N. Staroštin *Islam v Sverdlovskoi oblasti* (Moscow: Logos, 2007), 75. =

المواطنين المنزعجين على عاتقهم إرسال رسائل احتجاجية إلى الصحف المحلية يشكون فيها ضعف تنفيذ المعايير المناهضة للدين؛ ففي مايو/ أيار من عام ١٩٣٧، مثلاً، أرسل مجهولٌ عريضةً اتهم عنيقةً إلى جريدة سوتسياليزم يولي (Sotsializm Iuly) بعنوان: «مجلس الملحدين الإقليمي نائم». ولم تكن هذه الخطبة العريضة تستهدف «الرجعيين» المتدينين الظلاميين - في زعمها - أساساً، بل طليعة الملحدين العقيمة^(٥٠).

وفي الوقت نفسه، خطا بعض المسلمين السوفييت خطوةً جسورةً تتغياً إلزام الدولة بدستورها، فناشدوا ستالين، في التماسٍ مقدّم من مدينة بيرم (Perm) في عام ١٩٤٠، أن يُسبغ رداء الحماية على مسجد محلي^(٥١):

«عزيزنا يوسف فيساريونوفيتش [ستالين]! في هذه اللحظة التي يبدأ العمل فيها بدستور الاتحاد السوفييتي الجديد، ثمّ أطراف بلدية

= كان اضمحلال العصبية سيرورةً طويلة الأمد منذ ذروة صعودها في أوائل الثلاثينيات؛ فبحلول عام ١٩٣٨، انخفضت نسبة من يدفع رسوم اشتراكه دورياً من الأعضاء إلى ثلاث عشرة في المائة (١٣٪) [من إجمالي الأعضاء -م]، وانخفض عدد النسخ المتداولة من جريدتها الشهيرة بيزوبونيك [الملحد] من مائتين وثلاثين ألف (٢٣٠,٠٠٠) نسخة إلى مائة وخمسة وخمسين ألفاً (١٥٥,٠٠٠) في العام التالي. وفي حين أنه من المغري أن نرى في هذه الأرقام دلالة على تزايد «الشعور الديني» حتى في نهاية الإرهاب الكبير، فإن ميخائيل فيتاليفيتش شكاروفسكي يطرح اقتراحاً معقولاً مفاده أن المواطنين السوفييت لم يتجاوزوا كونهم ستموا من العصبية فحسب، بدعايتها المكرورة وخطابها المنفّر.

(٥٠) نشر رستم بكيوف (Rustam Bikbov) هذه المادة على شبكة الإنترنت، ومعها كثير من مجموعات المخطوطات المرقمة:

<https://rbvekpros.livejournal.com/23511.html>, (accessed February 8, 2020).

- (51) G.D. Selianinova, "Musul'manskaia obshchina Prikam'ia v gody Velikoi Otechestvennoi voiny," in L.P. Markova, et al, eds., *Religioznye organizatsii verushchie Prikam'ia v gody Velikoi Otechestvennoi voiny: materialy nauchno-prakticheskoj konferentsii 12 maia 2005 g.* (Perm': Bogatyrev P.G.; Gosudarstvennyi obshchestvenno-politicheskii arkhiv Permskoi oblasti, 2005), 18; D.Z. Khairtdinov, ed., *Islam na Urale: entsiklopedicheskii slovar'* (Moscow: Medina, 2009), 172.

تنتهكه «انتهاكات صارخة، ولا سيما المادتين ١٢٤ و ١٢٥؛ فالرفيق إيمايكن (Imaikin)، رئيس مجلس قريتنا، صادر مفتاح المسجد، وشجّع على اعتقال إمامه ورئيس مجلس جماعته، وأعلن أنه في غيابهما، يُحظر على الجميع الاختلاف إلى المسجد للصلاة. إننا نرى في سلوك إيمايكن استهزاءً بنا وبالقانون، فالشهر شهر صلاتنا، ويجب علينا فيه الاستعداد يومياً للصلاة في المسجد. ولكننا مضطرون -نظرًا لإغلاقه- إلى الصلاة في بيوتنا. وما ذلك إلا أداة تهيج في يد أعداء الشعب».

/ ولم يحصل أصحاب الالتماس على المفتاح ولا على المسجد، بل بعد مدة [٤٢] قصيرة من إرسال الالتماس، حُلّت جماعة رواد المسجد عن بكرة أبيها، وحظرت عليهم السلطات التردّد عليه.

لقد ظلت حياة المسلمين التبعية قائمة، حتى في المسرح الديني المقفر في موسكو؛ فبعد اعتقال عبد الله حسن شمس الدينوف، إمام وخطيب مسجد زاموسكفاريتشيه، أُقيمت فروض الصلاة اليومية (namaz) وغيرها من الشعائر بإمامة رجلٍ من قازان، انتقل بعائلته إلى قبو قاعة الصلاة. وفي الوقت نفسه، تولى رجلٌ من مدينة پارانجا (Paranga)^(٥٢) اسمه خليل نصر الدينوف (Khalil Nasretdinov) إمامة المسجد الجامع في موسكو بعد اعتقال إمامه السابق موسى فاخيتوف. ووفقًا لزاريبوف وسافاروف، كانت الشعائر الجنائزية كلها من قبيل تغسيل الموتى والصلاة عليهم و«الإقامة الدائمة» للذكرى السنوية للموتى، «تقام بلا انقطاع» حتى في «أحلك السنوات»^(٥٣). ولكن وفقًا للكاتبين، لا شك في أن الإمام نصر الدينوف قد تجسّم

(٥٢) تسمى هذه البلدة في اللغة التتبية «بارانجا» (Baranga)، وهناك ثروة باذخة عن «التاريخ الإسلامي» لهذه البلدة (ومحيطها الديني الأوسع) محفوظة في مصدر قيم اسمه تاريخ بارانجا. فانظر عن هذا المصدر ومؤلفه:

Allen J. Frank, *Bukhara and the Muslims of Russia: Sufism, Education, and the Paradox of Islamic Prestige* (Leiden: Brill, 2012), 15-26.

(53) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 70.

خطرًا عظيمًا بإمامته المسجد بعد اعتقال الإمام السابق وكثير من جماعة رؤاد المسجد»^(٥٤). لقد نجا نصر الدينوف^(١) من هذه السنوات الحالكات، وربما كان سبب نجاته ما كان يتمتع به من علاقة خاصة منحه الأمان؛ حيث كان صديقًا قديمًا لمفتي أوقاف عبد الرحمن رسولوف الذي سيصبح أبرز زعامة سوفيتية مسلمة في عهد ستالين.

لم يبلغ رسولوف مكانته المرموقة على رأس دار الإفتاء إلا في عام ١٩٣٦، وكانت ظروف ترقيته غايةً في الحقارة؛ إذ بعد وفاة سلفه المُبجَّل رضاء الدين بن فخر الدين، ثار صراع سياسي قصير بين رسولوف وكشاف الدين ترچماني (Kashshafuddin Tardzhimani) أحد خُلفاء المفتي السابق. وكان ترچماني أرفع مكانةً، ويزعم ألفريد بوستانوف (Alfrid Buſtanov) أنه ربما كان خليفةً رضاء الدين الأوفر حظًا من رسولوف الأقل شهرةً. ولا شك في أن هذه المشاعر كانت تخالج ترچماني نفسه؛ إذ لم ينتظر انتخابه وأعلن نفسه المفتي الجديد، وأبلغ ميخائيل كالينين بهذه التطورات، وزعم أنه قد اتفق على خلافته مع فخر الدين قبل وفاته بأربعة أيام. لكنه لم يخبر زملاءه في دار الإفتاء بذلك، وسرعان ما وصلت الحكومة السوفيتية رسائل مضطربة تفيدُ اغتصابه للمنصب. ووفقًا لرواية رسولوف، أبلغ اثنان من كبار المُفتين الحكومة أن ترچماني زعم استحقاله المنصبَ بأساليب تخالف الشريعة^(٥٥).

وأما المأساة التي أعقبت ذلك وبلغت ذروتها فيوضِّحها البلاغ الرسمي شديد اللهجة الذي وجَّه رسولوف إلى السلطات السوفيتية؛ إذ تبين هذه الوثيقة - التي اكتشفها [٤٣] ألفريد بوستانوف في سجل محفوظات قازان - أن رسولوف لم يكن / عازمًا على التزلُّف إلى حكومة ستالين (كما سنرى في الفصل الثاني) فحسب، بل أزمع كذلك استعمال آليات العهد الستاليني التقليدية للقضاء على خصمه السياسي والاجتماعي.

(54) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafaſin*, 59-60.

(١) في الأصل الإنكليزي شمس الدينوف، وهو خطأ بلا شك؛ إذ المقصود نصر الدينوف. وقد أقرنا المؤلف على ذلك. (المترجم)

(55) Buſtanov, "Islamskii apokalipsis pri Staline," 15-16.

وقد زعم رسولوف في اتهامه أن «أكثر من مائة» برقية وخطاب قد انهالت من كبار المُفتين في جميع أنحاء روسيا وكازاخستان يطالبون فيها بالإطاحة بترجماني، وأن خمسة عشر «مُمثلاً» جاءوا لمجرد التشرف بتقديم استنكارهم شخصياً. ثم يصف رسولوف صعوده المفاجئ للسلطة في خضم هذا الصراع؛ إذ عُيِّن أولاً في منصب القاضي، ثم قُدِّمت ترقيته إلى «مُفتٍ مؤقت» للحكومة السوفييتية للتسجيل والتصديق. وفي الوقت نفسه، أُلغى «ممثلون» من كازاخستان وترستان وبشكورستان عضوية ترجماني رسمياً في دار الإفتاء، كما أُلغوا تسجيله. ثم ادَّعى رسولوف أن أحد المراجعين كشف أن ترجماني اختلس أموالاً من دار الإفتاء يبلغ مقدارها ألفي (٢.٠٠٠) روبل. وبعد أن قَدِّم رسولوف للحكومة السوفييتية كل ما هي في حاجة إليه لاعتقال غريمه والأمر بإعدامه، أو على الأقل للقضاء على مسيرته المهنية وتدمير سُمعته، أوضح - ببرودة تقشعرُّ لها الأبدان - أن شيئاً من ذلك لم يكن يتغيا إلقاء اللائمة على الرجل: «فاعترازي بديني وتقواي يمنعاني من إلقاء اللائمة على أحد»^(٥٦).

ومما له دلالة خاصة، كما يلاحظ بستانوف، أن وصية فخر الدين واستئناف ترجماني السابق تبخراً من السجلات السوفييتية التي توثق القضية. وبدلاً من أن يزن المسئولون السوفييت حُجج كل طرف، «قرروا استخدام الموقف لتأريث نار الصراع بين النُخب، ثم تصفية رئاسة دار الإفتاء كلها»^(٥٧)، وهو بالضبط ما فعلوه. ولكن كما سيبيِّن الفصل الثاني، سرعان ما سيرز رسولوف مرةً أخرى ويعلن انتصاره، لكن لن يشهد ترجماني ذلك؛ لأنه لم يلبث أن اعتُقل وأُعدم بعد بلاغ رسولوف.

هذه هي القصة الموجزة لبلوغ رسولوف مكائته بوصفه مسلم ستالين السوفييتي المفضل. ولكن في عام ١٩٣٦، لم يكن رسولوف يحلم قطُّ بالدور الذي سيلعبه في نهاية المطاف؛ فقد كان آنذاك رئيساً لدار إفتاء مُهمَّشة تم إفقارها، ثم سيخمل ذكره بعض الشيء في خضم إعلان دستورٍ جديد وعامين من الإرهاب الكبير، وبرز تهديد ألماني غير مسبوق من الغرب.

(56) Buštanov, "Islamskii apokalipsis pri Staline," 15-19.

(57) Buštanov, "Islamskii apokalipsis pri Staline," 20.

وفي الوقت نفسه، تكشف بعض الوثائق المتصلة بأعلى مستويات الحكومة عن المخاوف التي شاعت من تصاعد وتيرة «الانتهاكات» (narushenie) المرتكبة بحق قوانين الدين واتساع نطاقها، الأمر الذي يدلُّ على استمرار الحياة الدينية، وهو ما لا يمكن أن تُخطئه أعين المسؤولين السوفييت وعملائهم. وقد احتدم الجدل حول ما يجب فعله بعد تنصيب / دستور عام ١٩٣٦، الذي تضمَّن نصًّا حاسمًا حول حرية الاعتقاد، ورد فيه: «حرية الانتساب للطوائف الدينية وحرية الدعوة المناهضة للدين مكفولتان للمواطنين كافة»^(٥٨). لكن لكلا الحريتين حدود؛ حرية الدين وحرية البروباغندا المناهضة له. وقد عُيِّن نائب رئيس المحكمة العليا والنائب العام السابق للاتحاد السوفيتي بيوتر أنانييفيتش كراسيكوف (P.A. Krasikov) مفوضًا مسئولًا عن مناقشة سبب عدم تحقُّق التوازن المثالي بين الحريتين وتعقُّله، وهو التوازن الذي سيؤدي نظريًا إلى اندثار الدين تدريجيًا.

(٥٨) كما يفسر ناثانيل ديفيس (Nathaniel Davis)، يجب ألا يُفهم ذلك بوصفه توسعًا لانتشار الحقوق المنصوص عليها في الدساتير السابقة؛ «فدستور عام ١٩١٨ منح الملحدين والمؤمنين على حدٍّ سواء الحقَّ في الدعوة لمعتقداتهم، لكن تعديل عام ١٩٢٩ منح حقَّ الدعوة للملحدين فحسب، وقصر حقوق المؤمنين على ممارسة معتقداتهم والعبادة، ثم جاء دستور ستالين في عام ١٩٣٦ ليقتصر الأمر على حقهم في العبادة لا غير». ووفقًا لترتيب ديفيس الزمني، كان عام ١٩٣٦ علامةً على موجة مدٍّ جديدة من إغلاق الكنائس (Davis, *A Long Walk to Church*, 8-9; 10). ومبكرًا في عام ١٩٢٥، أرسل رضاء الدين بن فخر الدين شكوى لموسكو يشير فيها إلى أن الحريتين (الدعوة الدينية والدعوة للإلحاد) كان تطبيقهما العملي رجحانًا «أحاديًا كاملًا» لجانب الدعوة إلى الإلحاد، في حين كان المسلمون «محرومون من أي فرصة لنقد» مهاجميهم في الصحافة السوفيتية أو المحافل العامة الأخرى، انظر:

GARF f.R-1235, op.120, d.22, l.11-12 ("Obrashchenie Tsentral'nogo dukhovnogo upravleniia musul'man vnutrennei Rossii za podpis'iu muftiia R.Fakhreddinova k predsedateliu VTsIK M.I.Kalininu . . .," *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/11946> [accessed April 14, 2020]).

و عن دستور عام ١٩٣٦، انظر:

Samantha Lamb, *Stalin's Constitution: Soviet Participatory Politics and the Discussion of the 1936 Draft Constitution* (Milton: Routledge, 2017).

وكانت خلاصات كراسيكوف قاسية وواضحة لا لبس فيها؛ إذ وجّه انتقاداته مباشرةً للبيروقراطيين السوفييت، وشرح للنائب العام آنذاك أندريه ينواريڤيتش فيشينسكي (A.Ia. Vyshinskii) أنهم كانوا شديدي التعصب في اضطهادهم للدين، فانتهكوا القانون السوفييتي انتهاكاً ممنهجاً، وعانت الجماعات الدينية وزعاماتها من التصفية غير القانونية للممتلكات، وإغلاق «بيوت الصلاة» بذرائع باطلة (من قبيل الزعم بأنه طلبت تجديدات هيكلية ولم تُنفَّذ) وشُطب التسجيل بغير سبب أو بغير إجراءات ملائمة، والإفراط في توقيع الغرامات⁽⁵⁹⁾. وكانت عاقبة ذلك أن نمت الجماعات السرية الدينية الخطيرة بعيداً عن أعين الدولة السوفييتية.

وقد ردّد سكرتير اللجنة التنفيذية المركزية لمجلس سوفييت القوميات ألكساندر إسحاقوفيتش خاتسكيڤيتش (A.I. Khatskevich) صدى ما ذهب إليه كراسيكوف، مُعرباً عن غضب صريح في قوله: «تُظهر الوقائع ما أصبح معتاداً: تُغلق الكنائس جزّاء مكائد من كلّ لون. يرى السكان هذه المكائد غير القانونية الخادعة فيثورون غضباً. فما المنتظر من المؤمن؟ [لا ريب أنه] سيلجأ إلى زعامات المنظمات الطائفية السرية المتنوعة، وإلى المنظمات المعادية للثورة، وإلى الجماعات السرية... إن الدين يُدفع إلى السرية دفعاً»⁽⁶⁰⁾. بل إن مفوضية كراسيكوف قدّرت حجم المصادرات والإغلاقات «غير القانونية»، وإن كان ذلك في حدود أجهزة جمع المعلومات الخاصة بالدولة السوفييتية، فوصل عدد «المباني الدينية» التي صُودرت لأسباب «إدارية» أو عُطّلت لأسباب أخرى إلى تسعة آلاف وتسعمائة وأربعة وخمسين (٩٠٩٥٤) مبنى، أي ثلث المباني الدينية المسجّلة قانوناً في الاتحاد السوفييتي التي بلغ إجمالي عددها ثلاثين ألفاً وثمانمائة واثنين وستين (٣٠٨٦٢) مبنى⁽⁶¹⁾.

كيف أمكن للبيروقراطيين أنفسهم، المُوكّل إليهم في الظاهر إنفاذ قوانين ستالين الدينية، ارتكاب هذه الأفعال «غير القانونية» على نطاق واسع؟ نجد الإجابة موجزةً

(59) VRGV, 8.

(60) VRGV, 7.

(61) VRGV, 8.

كانت السجلات تضم ستمائة وثلاثة وستين (٦٦٣) «بيت صلاة ... نشطاً»، في حين سيرد ما لا يقل عن ثمانمائة واثنين وثمانين (٨٨٢) بيتاً صودرت «مصادرةً غير قانونية». وفي أذربيجان، سُجِّل تسعة وستون (٦٩) «بيت صلاة ... نشطاً»، وسيرد مائة وسبعة وثلاثون (١٣٧). وفي أرمينيا، سيضاف خمسة وأربعون (٤٥) بيتاً إلى الأربعين «النشطة». أما في بيلاروس، فسيزداد عدد الأماكن الدينية «النشطة» من مائتين وتسعة وثلاثين (٢٣٩) برّد مائتين وثمانية وثلاثين (٢٣٨) أخرى^(٦٤).

كان ذلك هو «المسلك الناعم» [في معالجة] المسألة الدينية في عام ١٩٣٦. وكان ذلك المسلك أبعد ما يكون عن الهامشية، بل كان مسلكاً طرحته ثلثة من أرفع السلطات القانونية في الاتحاد السوفييتي، وردّد صداه رئيس تنظيمه الرئيس المناهض للدين. ولكن يجب ألا يُساء فهم هذا الموقف بوصفه سياسة تسامح أو «تسوية» مع الجماعات الدينية وزعاماتها؛ إذ ظل الهدف قطعاً هو استئصال الدين من الاتحاد السوفييتي. ولم تكن نقطة الخلاف تتمحور حول ما إذا كان الدين يجب استئصاله مطلقاً أم لا، بل حول أفضل السبل المؤدية بذلك. ولقد لاحظ ميخائيل أدينتسوف (Mikhail Odintsov) أن كراسيكوف وخاتسكيتش وأشياعهم كانوا يعتقدون أن الاستراتيجية الأنجع ليست دفع الجماعات الدينية نحو السرية - بما يعنيه ذلك من دفع المواطنين إلى أحضان عملاء الثورة المضادة من المتصوفة والعناصر الهامشية تحت الأرض - بل إخراجهم جميعاً إلى النور من خلال التسجيل والمراقبة، فيمكن بذلك متابعتهم واستهدافهم بالتحريض والبروباغندا، وفرض الامتثال الكامل للقوانين عليهم بما يحدّ من أنشطتهم وتمويلهم^(٦٥).

[٤٧] / على أن ذلك لم يكن المنطلق الوحيد الذي عولجت من خلاله المسألة الدينية في أوساط كبار مسؤولي الحزب، بل كان هناك أيضاً «مسلكٌ خشنٌ»؛ فمن ذلك مثلاً

(64) VRGV, 11.

(65) VRGV, 11.

يعلق ناسار تعليقاً ناقباً حول هذه التفاعلات في فترة ما بعد الحرب، انظر مثلاً: (Soviet and Muslim, 78-102).

أن غيورغي ماكسميليانوفيتش مالينكوف (G.M. Malenkov) - موضع ثقة ستالين وسكرتيره الشخصي سابقًا - حثَّ ستالين على «التخلص من ... الأجهزة الإدارية لمرتادي الكنيسة، والهيكل الكنسي برمته»^(٦٦). ولم يكن مالينكوف وحده في ذلك، ففي النهاية، سلك ستالين نفسه المسلك الخشن، وأُلغيت مفوضية كراسيكوف في إبريل/ نيسان من عام ١٩٣٨ (وأفلت كراسيكوف نفسه بحياته فأرًا من إرهاب ستالين الكبير في عامي (١٩٣٧ - ١٩٣٨)، ليموت ميتةً طبيعية في صيف عام ١٩٣٩). وأدرجت الشؤون الدينية بالكامل تحت إشراف مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD). وبوسعنا أن نقف مع وصول عهد الإرهاب الكبير إلى ذروته الشنيعة في عام ١٩٣٨ على إشارة دالة - كما يلاحظ أدينتسوف - إلى موقف المفوضية من الدين، وهي الإشارة التي تتجسد في العنوان الذي حملته أحد أقسامها شديدة السرية، ألا وهو قسم (otdel) «محرارية الكنيسة وعملاء الثورة المضادة الطائفيين»^(٦٧).

في خضم ذلك كله، تبنى رئيس عصبة المناضلين الملحدين إيروسلافسكي «المسلك الناعم»؛ إذ ظلَّ إلى عام ١٩٣٩ يردّد قوله: حيثما لا تجد «المنظمات» الدينية الكبرى موطنًا قدم، تنتعش «الجماعات السرية» الدينية، وهي قوة أخطر وأشقُّ في التتبع والمراقبة. ولقد شدّد على رؤيته هذه في مؤتمر ملحدي موسكو في إبريل/ نيسان من عام ١٩٣٩، قائلاً: «يشتغل أعداء الاشتراكية من خلال المنظمات الدينية ... ومن المؤلف أن تجد في الرايونات التي ليس فيها منظمات دينية؛ لا كنائس ولا مساجد ولا كُنُس، «قسًا هائمًا» (brodiachii pop) أو «قسًا جوالًا» (pop-peredvizhka) يتنقل من مكانٍ إلى آخر، أو تجد رهبان الأديرة السابقين يستقرون هناك ويعملون على تشويه سمعة زعامات الطوائف الدينية ورؤوس الكنيسة السابقين وغيرهم ممن كان لهم نفوذ في الماضي»^(٦٨).

(66) VRGV, 11.

(67) VRGV, 12.

(68) VRGV, 13.

كانت هذه فكرة إيروسلافسكي عن الأثر النسبي للتيارات الدينية المنافسة، غير أن مشكلة المشاكل عند السلطات السوفيتية الملحده كانت وجود الدين ذاته في الاتحاد السوفيتي. وكثيرًا ما نجد أن المؤرّخين الذين يحتجّون لقوة الدين في هذه الحقبة يستشهدون بالإحصاء العام للاتحاد السوفيتي لعام ١٩٣٧، الذي كان أوفر جهود الدولة طموحًا في محاولتها تقدير حجم التوجّه الديني الذي يصف به مواطنوها أنفسهم. لكن ذلك لم يكن غرض الإحصاء في الأصل، فالنسخة الأصلية من استبيان الإحصاء التي أعدتها الإدارة المركزية للمحاسبة الاقتصادية القومية (TsUNKhU) لم تحتوِ أية أسئلة تتعلق بالدين، وأما فيما يتصل بموضوع الهوية، فلم تسأل مسؤدة الإحصاء الأصلية المواطنين إلا عن قوميتهم ولغتهم الأم. لكن ستالين راجع بنفسه هذا القسم؛ ليسأل المبحوثين عن قوميتهم وعن لغتهم الأم وعن دينهم^(٦٩).

[٤٨] / ولم يكن من المستغرب أن يهتم ستالين شخصيًا بأمر على صلة بالدين؛ نظرًا لخلفيته التعليمية الإكليريكية. فوفقًا لجميع الروايات، أمّل ستالين أن يكشف الإحصاء عن تحوّل هائل شطر الإلحاد، نتاج نحو عقدين من مساعي خلق الإنسان السوفيتي الجديد^(١)، أو ربما سيدلّ -على الأقل- أن الشعب السوفيتي («الجديد»

= لا بد من التذكير بأن «المسلك الناعم» في السياسة لا يتعلّق بتوسّع مساحة «الاستيعابية» لدى الأيديولوجيا الماركسية اللينينية. لقد كان إيروسلافسكي واضحًا في ذلك الشأن؛ إذ قال: «يستحيل على المرء أن يكون لينينيًا ومؤمنًا بالله في آن معًا».

Smolkin, *A Sacred Space Is Never Empty*, 43.

(٦٩) عن الإحصاء والعمل عليه، انظر:

V.B. Zhiromskaia, "Religioznost' naroda v 1937 godu," *Istoricheskii vestnik* 5/1 (2000); Tatiana Chumakova, "'Karta religii' dlia neudavsheisia Vsesoiuznoi perepisi 1937 g.: zabytaia stranitsa sovetskogo religiovedeniia," *Gosudarstvo, religiia, tserkov* 3-4/30 (2012), 106-133; Chumakova, "Podgotovka k Vsesoiuznoi perepisi 1937 g. Sozдание karty religii SSSR," *Dialog so vremenem* 41 (2012), 296-316.

(أ) كان «الإنسان/ الرجل السوفيتي الجديد» (новый советский человек) نمطًا أو طرازًا من البشر ممن يحملون صفاتٍ مشتركة تنشأ بين المواطنين السوفيت، بغض النظر عن قومياتهم =

أو غيره) مقرّر بضرورة إظهار الاحترام للتوجه الديني الرسمي للدولة الملحدة، على الأقل في محفل رسمي على شاكلة الإحصاء العام.

وقد أجاب ثمانون في المائة (٨٠٪) من المبحوثين على السؤال، حيث أعلن ستة وخمسون فاصل سبعة في المائة (٥٦.٧٪) من المواطنين ممن تجاوزوا السادسة عشرة أنهم يدينون بدين معين، في حين أجاب ثلاثة وأربعون فاصل تسعة وسبعين في المائة (٤٣.٧٩٪) من هؤلاء بأن دينهم هو المسيحية الأرثوذكسية. وكان الإسلام ثاني أبرز الديانات؛ إذ وصف من بلغت نسبتهم ثمانية فاصل تسعة وثلاثين في المائة (٨.٣٩٪) من المبحوثين أنفسهم بأنهم مسلمون^(٧٠). فما الذي يمكننا افتراضه فيما يتعلّق بالعشرين في المائة (٢٠٪) الذين أغفلوا الإجابة عن هذا السؤال؟ من المحقّق أن بعضهم أراد الإشارة إلى أنه «ليس ينتمي انتماءً دينيًا بعينه»، ولكن من الراجح أيضًا، وبنسبة مساوية، أن بعض هؤلاء المواطنين كانوا ينتمون فعلاً إلى دين معين، ولكنهم تجنّبوا ذكره لأسباب واضحة. وفي النهاية، لم تتجاوز

= أو خلفياتهم الثقافية واللغوية، فيشكّلون معاً أمةً سوفيتية متميزة. والرجل السوفيتي المثالي متفان في عمله ومتعلّم ويتمتع بصحة جيدة ولياقة بدنية عالية، وشديد الحماس لنشر الثورة الشيوعية، ويعتق الماركسية اللينينية، ويحترم الملكية العامة كأنها تخصه، ويرى هويته السوفيتية فوق أي هوية أخرى. وقد روج الحزب الشيوعي لمفهوم الإنسان السوفيتي الجديد ترويجاً كبيراً، واستغله ذريعةً لاضطهاد كثير من فئات المجتمع، مثل الفلاحين. (المترجم)

(70) E.F. Krinko, "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vermin (1941-1945)," *Bylye Gody* 29/3 (2013), 53-54.

وأما ما ذكر بشأن الانتماءات الدينية الأخرى، فقد جاء مرتباً ترتيباً تنازلياً على النحو الآتي: «المعتقدات التقليدية» ونسبتها ثلاثة فاصل اثنين وستين في المائة (٣.٦٢٪)؛ الكاثوليكية، ونسبتها صفر فاصل تسعة وأربعين في المائة (٠.٤٩٪)؛ البروتستانتية، ونسبتها صفر فاصل سبعة وأربعين في المائة (٠.٤٧٪)؛ أهل العقيدة القديمة، ونسبتها صفر فاصل أربعين في المائة (٠.٤٠٪)؛ الغريغورية، ونسبتها صفر فاصل أربعة عشر في المائة (٠.١٤٪)؛ اليهودية، ونسبتها صفر فاصل تسعة وعشرين (٠.٢٩٪)؛ البوذية، ونسبتها صفر فاصل ثمانية في المائة (٠.٠٨٪). ويمكننا افتراض أن تلك الفئة الأولى تضم مثلاً أديان سيبيريا والدائرة القطبية، رغم أنه ربما أجاب بعض المواطنين هكذا للإفصاح عن اعتقادهم الشخصي دون الاعتراف بانتماء معين.

نسبة من وصف نفسه بالإلحاد من المواطنين ثلاثة وأربعين فاصل ثلاثة في المائة (٤٣.٣٪) من المبحوثين^(٧١). لقد ظل الإلحاد في أول دولة ملحدة متشددة في العالم، وبعد عقدين من الحكم البلشفي، مذهبًا تتبناه الأقلية.

ونظرًا لما شاع عن موظفي الدولة السوفييتية من سُمعة هم جديرون بها فيما يتعلّق بالتلاعب الدائم بالبيانات وتزويرها والمناقشة الساذجة لبيانات غير موثوقة والإفساد العام (سواء أكان متعمدًا أم عفويًا) للتحقيقات المعتمدة على البيانات، فلا يجوز استنباط كثير من النتائج من هذا الإحصاء، أو قبول نتائجه بادي الرأي؛ ذلك أن بيانات ذاتية عن الانتماء الديني تجمعها حكومة ملحدة متشددة لا يمكن أن تلي أدنى معايير الدقة العلمية، على أقل تقدير.

على أنه ليس من الصواب أيضًا إهمال هذه البيانات؛ إذ لا يشكُّ أحدٌ في أن ملايين المواطنين السوفييت قد شاركوا بالفعل في هذا الإحصاء. وعلى الرغم من أن الغالب على البيانات التي تجمعها أجهزة أية حكومة شمولية أنها تصل إلى النتائج التي تريدها هذه الحكومة، فإن الإحصاء العام للاتحاد السوفييتي لعام ١٩٣٧ لم يكن من هذا النوع. فالنتائج التي من الواضح أنها أغضبت ستالين غضبًا شديدًا، سرعان ما ضرب حولها بسياج من السرية ودُفنت في المحفوظات، وأُدينت بوصفها

(71) Krinko, "Vera i sueveria na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941-1945)," 54.

ارتفعت نسبة الملحدين ارتفاعًا ملحوظًا بين الشباب من المبحوثين، وإن لم يكن ارتفاعًا حادًا؛ فالمبحوثون بين سنّ العشرين والتاسعة والعشرين (٢٠-٢٩) كانوا في المجمل ملحدين بأغلبية بسيطة (٥٥.٣٪). لكن الاتجاه نحو الإلحاد كان أوضح لدى المراهقين ممن تراوحت أعمارهم بين ستة عشر وتسعة عشر عامًا (١٦-١٩)؛ إذ وصلت نسبة من أعلن منهم إلحاده إلى اثنين وستين فاصل ثلاثة في المائة (٦٢.٣٪). وفي الوقت نفسه، كان المبحوثون من الشرائح السنيّة الأكبر منتسبين في غالبهم إلى دين معين؛ فنجد أن نسبة من أفصح عن انتسابه إلى دين بعينه بلغت ثمانية وسبعين في المائة (٧٨٪) ممن كانوا في الخمسينيات من عمرهم (قارن: Krinko, "Vera i sueveria na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941-1945)," 54; Miner, *Stalin's Holy War*, 33). وتدعم هذه الأرقام الزعم الذي رددته السلطات السوفييتية المناهضة للدين طوال الأربعينيات والخمسينيات، بأن الدين كان ظاهرة مقصورة على المواطنين الأكبر سنًا، لكنها تقوِّض في الوقت نفسه إصرار بعضهم على أن الدين ما زال منتشرًا بين «الشيوخ» فحسب.

«انتهاكًا صارخًا لأبسط أسس العلوم الإحصائية». وفي غضون ثلاثة أشهر، اعتقل رئيس مكتب الإحصاء أليمبي أريستارخوفيتش كويتكن (O.A. Kvitkin)، والباحث الذي أعدَّ تعليمات السؤال المتعلق بالدين لازار سليمانوفيتش براندغيندلر (L.S. Brandgendler)، رفقة ما لا يقل عن عشرة إحصائيين ومعالجي بيانات. وامتدَّ اللوم ليتجاوز القائمين على الإحصاء إلى الكنيسة الأرثوذكسية نفسها؛ حيث ليمت على «تحريف» نتائج الإحصاء^(٧٢). ووفقًا لملفات محفوظة عن الإحصاء كُشف / عنها [٤٩] بعد الحقبة السوفييتية، كان ستالين يؤمِّل أن يبيِّن الإحصاء على نحو جلي التحول الشامل للدولة السوفييتية نحو الإلحاد^(٧٣)، لكنه بيَّن عكس ذلك تمامًا. وفي الإحصاء التالي في عام ١٩٣٩، حُذف سؤال الدين.

على أن الإحصاءات لا تعدو أن تقدِّم نظرة عامة مبهمة. ولكن حين يتعلَّق الأمر بالدلالة على التديُّن عشية الحرب العالمية الثانية، كان من حُسن حظنا أن لدينا مصادرَ أوضح وأقرب؛ فنجد في سجلَّات المحفوظات مثلًا مئات الرسائل التي أرسلها جنودُ الجيش الأحمر أو أسرى الحرب واستقبلوها في أثناء «حرب الشتاء» السوفييتية الفنلندية في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠، وهي تفيض إجمالاً بمشاعر وعبارات دينية صريحة. فنجد في خمسمائة واثنتين وأربعين (٥٤٢) رسالةً فحصها فلاديمير ميخائيلوفيتش زينزينوفا (V.M. Zenzinova) أدعيةً واستغاثات بالله، والتماسًا للبركة من الوالدين^(٧٤). وستظلُّ القرائنُ الدالَّةُ على التدين لدى الجنود - كما سنرى في الفصول التالية - قائمةً طوال الحرب العالمية الثانية.

(72) Chumakova, " 'Karta religii' dlia neudavsheisia Vsesoiuznoi perepisi 1937 g.," 108.

كان الباحثون المنخرطون في إجراء الإحصاء على وعي كامل بهذه الإشكاليات، وقد سجَّلوا مواطن قلقهم من تلكؤ المبحوثين في الإقرار بانتمائهم الديني، وأعطوا تعليمات واضحة للقائمين على الإحصاء بإعلام المبحوث أنه إن كان «غير مؤمن» (neveruiushchii)، فيجب عليه كتابة تلك الكلمة، وإن كان مؤمنًا، فعليه إثبات انتمائه الديني المحدد، انظر:

Chumakova, " 'Karta religii' dlia neudavsheisia Vsesoiuznoi perepisi 1937 g.," 110.

(73) Chumakova, " 'Karta religii' dlia neudavsheisia Vsesoiuznoi perepisi 1937 g.," 106-110.

(74) Krinko, "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941-1945)," 55.

لقد اجتاحت جيوش هتلر أراضي الاتحاد السوفيتي في الثاني والعشرين من يونيو/ حزيران في عام ١٩٤١، فيما عُدَّ أضخم غزو برّي في التاريخ. وعلى مدار السنوات الأربع التالية، واجه الجيش الأحمر في الميدان ما بلغ سبعين في المائة (٧٠٪) من إجمالي قوات ألمانيا المقاتلة. وسيخلف القتال، مع ما أعقبه من وباء ومجاعات، قرابة خمسة وعشرين مليون قتيل.

لكن هتلر لم يأتِ خالي الوفاض من الهدايا؛ ففي يوم الغزو الألماني ذاته، بثت الإذاعة الألمانية في التُّخوم السوفيتية أن «استعادة الحرية الدينية ستكون أولى إجراءات الإدارة الألمانية ... سنأذن لكم بتأسيس إبراشياتكم الدينية، وسيعبد الجميعُ الله حرًّا؛ كلُّ على دينه»^(٧٥). وحتى عندما كانت القوات النازية في التُّخوم السوفيتية تُحرِّق المدنيين في حظائر مغلقة وتدفعهم أحياءً في مقابر جماعية، كان الأمل يحدوهم في كسب تعاطف بعض المدنيين السوفيت لتجنيدهم في قوة التحرير، من خلال منحهم ما حرّمهم منه ستالين من الحريات. وقد حققت هذه الاستراتيجية نجاحًا ملموسًا وإن كان محدودًا؛ حيث أعلن عشرات الآلاف من المسيحيين والمسلمين مشايعتهم جيشَ المحور، بل والانضمام إليه. وفي أول صيف بعد الغزو، امتدح أربعة أساقفة ينتسبون إلى منطقة البلطيق هتلر في خطاب ترحيب^(٧٦). وفي مقابلة أعقبت الحرب بمدّة وجيزة، استذكر عامل أوكراني يعمل بالسكك الحديدية التباين بين الحكم السوفيتي والاحتلال النازي، فقال^(٧٧):

«كان أبويّ شديديّ التدين، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تقع على بعد ثلاثة كيلومترات من قريتنا، وكانا يذهبان إليها دائمًا، ويصطحبانني معهما. لقد علّمني كيف أصلي وأحيا طائعتًا لأوامر الرب. ولكن ستالين لم تزقه هذه الأوامر، فخرّب الشيوعيون كنيستنا تخريبًا تامًا في عام ١٩٢٩، واغتصب / الدجالون مكانها. إلا أنني لم أهجر الإيمان

[٥٠]

(75) Miner, *Stalin's Holy War*, 53.

(76) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov' nakanune i v epokhu stalinskogo sotsializma*, 1917-1953 gg., 258.

(77) HPSSS sched. A, vol. 34, case 148/(NY)1398 f. 23.

بالله قُطُّ ولم أَدع الصلاة قُطُّ، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من الذهاب إلى الكنيسة، فقد صليتُ في البيت وعلّمت أولادي الإيمان بالرب والصلاة، ولا سيما ابنتي التي تبعتني وصلت في البيت. وأما في أثناء الاحتلال الألماني في عام ١٩٤٢ و١٩٤٣، فقد فُتحت الكنيسة مرةً أخرى، وكنتُ سعيدًا أيّما سعادة».

كان ستالين يعي تمامًا ما لقضية الدين من حساسية خاصة في التُخوم السوفيتية؛ فكان استهداف القمع السوفيتي المناهض للدين لهذه المناطق أقلَّ حدّة من غيرها، حتى إنه بحلول عام ١٩٤١، اشتملت هذه المناطق على ما تُقدّر نسبته سبعين في المائة (٧٠٪) مما بقي من الكنائس السوفيتية كلّها^(٧٨). وشهدت هذه المنطقة أيضًا «استعادة» -محدودة لكنها ملحوظة- مدعومة من السوفيت للكنائس التي أُغلقت في الفترة ما بين عام ١٩٣٩ وبداية الغزو النازي، وهي خطة عدّها ستيفن مريت ماينر (Stephen Merritt Miner) نموذجًا لما سيأتي من عمليات الاستعادة الدينية المتزايدة الأكثر طموحًا^(٧٩).

وفي يوم الغزو النازي، انطلق بعض رؤوس الكنيسة الروسية الأرثوذكسية كأنما نشطوا من عقال. والحقُّ أن المطران سيرغي كان أسرع إفاقةً من ستالين نفسه؛ إذ في

(78) Miner, *Stalin's Holy War*, 47.

(79) Miner, *Stalin's Holy War*, 50.

على أن البروپاغندا الإلحادية ظلت في الوقت نفسه تُنشر وتُوزع على نطاق واسع في الاتحاد السوفيتي حتى قبل أيام قلائل من الغزو الألماني؛ ففي مقالة نُشرت في جريدة بيزبوجنيك [الملحد]-اللسان الناطق باسم عصبة المناضلين الملحدين - في يونيو / حزيران من عام ١٩٤١ عنوانها: «الوطنية والدين»، لُقن القراء أن «الدين أعدى أعداء الوطنية السوفيتية... وأنه لا شيء في التاريخ يصدّق ما تتميز به الكنيسة في تطوير الوطنية الحقة». وكان المطران سيرغي قد أعرب قبل ذلك بشهرين عن انفعاله من القمع الديني القائم، رغم أعمال الكنيسة الوطنية في التُخوم السوفيتية المحتملة. ووفقًا لشكاروفسكي (Shkarovskii)، ظلت الكنائس مغلقة، واستمر اعتقال القساوسة حتى أغسطس / آب من عام ١٩٤١، عندما توقفت الاعتقالات فجأةً ونهائيًا، انظر:

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov pri Staline i Khrushcheve*, 112-113; 115-116; 196.

حين انكفأ هذا الأخير إلى بيته الريفي «الداشة» (dacha) مبهوتاً، ثم خرج لقيادة البلاد بعد يومين من الصمت، ألقى سيرغي عظاته في الدفاع عن أرض الأجداد، ملقناً المؤمنين الأرثوذكس كلهم أن مقاومة الألمان فرضٌ عليهم. ويُروى أن هذا القدّاس قد احتشد فيه نحو اثني عشر ألف شخص في الكاتدرائية، سوى الآلاف خارجها^(٨٠). وكذلك في السادس والعشرين من يونيو/ حزيران -أي بعد أربعة أيام من الغزو- اجتمعت حشود هائلة في قدّاس ابتهاج بالنصر للجيش الأحمر في كاتدرائية يلوخوفيه (Yelokhovo) بموسكو. وفيه، حذّر سيرغي من أن العدو لا يستهدف الاتحاد السوفييتي وحده، بل المسيحية ذاتها، لقد جاء النازيون بالوثنية والعبودية وتدمير المقدسات الأرثوذكسية، وتدمير دين الأرثوذكسية نفسه في النهاية^(٨١). وسيلقي سيرغي على مدار سنوات الحرب خطاباً عامة كهذه في أربعة وعشرين مناسبة^(٨٢). وقد حذا حذوه آخرون من رؤوس الكنيسة، كالمطران أليكسي مطران لينينغراد ونوفغورود، والمطران نيقولاي مطران كييف، وفيليب كبير أساقفة أستراخان (Astrakhan)^(٨٣).

وقد استدلّ بعضُ المؤرخين بمبادرة رؤوس الكنيسة في أيام الحرب الأولى على استقلالية الجهود الوطنية التي بذلتها النخب الكنسية، وأنها لم تحظْ بأي دعمٍ صريح من الدولة السوفييتية، وذلك حتى خريف عام ١٩٤٣ الحاسم (الذي سنعود إليه لاحقاً) عندما أبرم ستالين «صفقته الجديدة» مؤسساً لتحالف رسمي مع رؤوس الكنيسة، ومانحاً إياهم حقَّ انتخاب بطريك جديد. وتتمثل السردية الأوسع التي تطرحها هذه المقاربة في أن الوطنية المخلصة لرؤوس الكنيسة وأتباعهم المؤمنين هي وحدها ما فتّح عيون ستالين / على قيمة «التسامح» الديني. بيد أن لدينا في [٥١] حقيقة الأمر ما يثير شكوكنا في هذا السردية التاريخية؛ ففي غضون أسبوعين من

(80) Reese, "The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Stalinist Regime during the Great Patriotic War," 135.

(81) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 252; Alekseev, *Illuzii i dogmy*, 333-334.

(82) Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 121.

(83) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 253.

الغزو، نُشرت مقالةٌ تزعم للمواطنين السوفيت أن هناك إجماعًا بين الزعامات الدينية على أن هتلر يتهدّد الدّين نفسه بالبوار، وأن مُدافَعته واجبةٌ على كل مؤمن. والواقع أن مقالة «لماذا يعارض رموزُ الدين هتلر» أوجزت الرّؤى التي عبّر عنها سيرغي وغيره من رؤوس الكنيسة الآخرين في عظاتهم، ورُوّجت لها^(٨٤)، وكان الكاتب اسمًا مغمورًا هو كاتسي أدامياني (Katsii Adamiani). فمن هو أدامياني هذا، المجهول حتى اليوم، الذي سمح لنفسه بالحديث نيابةً عن جميع الزعامات الدينية في الاتحاد السوفيتي، وتمكّن من نشر تصريحاته فورًا وعلى نطاق واسع؟

لم يكن أدامياني هذا إلا اسمًا مستعارًا لإيروسلافسكي، رئيس عصبة المناضلين الملحدين، والمنظر الأوّل لمناهضة الدين في الاتحاد السوفيتي. وبعبارة أخرى، يمكننا تتبع أصول هذا التوحّد المصيري بين المسؤولين الملاحدة والبروباغندا الوطنية الدينية إلى بداية الحرب ذاتها.

وسرعان ما شقّت النداءاتُ الوطنية المبكرة التي أطلقها رؤوس الكنيسة الأرثوذكسية طريقها إلى الإعلام الجماهيري السوفيتي؛ فنُشر أولها في جريدة البرافدا (Pravda) في السادس عشر من أغسطس/ آب ١٩٤١، ثم شاعت إلى حدّ كبير في الجرائد الكبرى^(٨٥). وفي الوقت نفسه، عرضت بعض أشرطة الأفلام الإخبارية للجنود في الجبهة قساوسةً يحملون صورًا ويجتمعون بالجنود، ويشجّعون الجيش الأحمر في العظات، ويُقيمون الصلوات^(٨٦). وفي فيلم دعائي صدر في إبان الحرب بعنوان: أمين لجنة المنطقة (District Committee Secretary) يظهر قسٌّ باسل يساعد البارتيزان السوفيت، وقرب نهاية الفيلم، تدقُّ أجراس الكنائس داعيةً المواطنين إلى الدفاع عن الوطن^(٨٧).

(84) PDDUM, 15.

(85) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 260; VRGV, 64.

(86) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 260-261; VRGV, 64.

(87) Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 123. Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 264-265.

وقد قُلِّصت في الوقت نفسه -على نحو ما سنرى- أنشطة الدولة السوفيتية المناهضة للدين تقليصًا شديدًا، وتوقفت عصبة إيروسلافسكي عن إصدار جريدتها الأثرية بيزبوجنيك [الملحد]، وأعدت توجيه مواردها كلها نحو التحريض ضد الألمان والبروپاغندا الوطنية. وأما موجة إغلاق الكنائس والمعابد والمساجد التي كانت قد بلغت ذروتها في غضون السنوات الثلاث السابقة، فقد توقفت فجأة في الاتحاد السوفيتي كله. ولقد لاحظ الألمان ذلك، وتُفصح الوثائق الداخلية النازية عن نبرة مشوبة بشيء من الحذر؛ إذ سيفقد الوعد الألماني بالحفاظ على الحرية الدينية الشيء الكثير من مفعوله، إن جرت استعادة الحرية الدينية بالفعل. وحذر تقرير ألماني داخلي في مايو/ أيار من عام ١٩٤٢ من أنه: «في الشهور الأخيرة الماضية، اشتدَّ حظر الحكومة السوفيتية لأي نشاطٍ معادٍ للكنيسة، بل إن حرية الكنيسة قد أُعلنت [من قبل الحكومة] مؤخرًا. جميع دور العبادة الباقية مفتوحة [الآن]، ويزورها كثيرٌ من الناس، وتقام الشعائر الدينية على نحو منتظم، / ويُسمع فيها الدعاء لتحرير روسيا»^(٨٨). والحقُّ أننا نجد -إلى جانب التخفيف الملموس للقيود المفروضة على النشاط الديني- موجةً من إعادة افتتاح الكنائس في المناطق التي يوشك أن يهددها تقدمُ القوات الألمانية^(٨٩).

(88) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 264-265.

(89) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 260.

يشير روغر ريس إلى ما يبدو توزيعًا ديموغرافيًا متفاونًا للكنائس، وذلك عند مقارنة التُخوم السوفيتية بروسيا. «ففي جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية، خلى خمسة وعشرون أوبلاست من أوبلاستاتها من الكنائس مطلقًا، وهوى عدد الكنائس في عشرين أوبلاست أخرى إلى كنيستين أو ثلاث. وأما أوكرانيا فكانت سبعة من أوبلاستاتها بلا كنائس أرثوذكسية قط، وكنيسة واحدة في كل أوبلاست من الأوبلاستات الثلاثة المتبقية. وأما الكنيسة التجديدية، فقد أُغلق لها مئات الكنائس هي الأخرى، إلا في مناطق غرب أوكرانيا ودول البلطيق التي احتلت في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠، فقد ظل بها عددٌ كبير من الكنائس؛ إذ إن ستالين قد ارعوى عن إغلاق كثير منها خشية ارتماء السكان في أحضان الألمان في أثناء الحرب». انظر:

“The Russian Orthodox Church and ‘Patriotic’ Support for the Stalinist Regime during the Great Patriotic War,” 134.

لقد أصبح سكان التُّخوم السوفيتية الآن هدفًا لحملتين مزدوجتين من البروپاغاندا؛ إذ يدّعي هتلر تحرير المقدسات من ستالين، ويزعم ستالين حمايتها من هتلر. لكن حرب البروپاغاندا لم تقتصر على مناطق المواجهة فحسب، ففي السادس من سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤١، استهدفت البرامج الإذاعية المبنوثة من برلين وروما المسلمين السوفيت لتحدّثهم من خطط الدولة السوفيتية الرامية إلى فرض مزيد من القمع عليهم. فكما أشرنا في مدخل هذا الكتاب، كان من مزاعمهم الكاذبة التي روّجتها بعض البرامج الإذاعية أن المساجد الروسية كلها ستحوّل إلى دور سينما، على أن زعمًا آخر، صدّفته الأيام بعد حين، كان في حقيقته استبصارًا مخيفًا، إذ زعموا أن مسلمي القرم سيُهجرون قسرًا، وهو كابوس تحقق على أرض الواقع بعد ذلك^(٩١).

وفي غضون أسبوع، احتشدت الدوائر العليا في الدولة السوفيتية لصياغة ردّ على ذلك؛ حيث أزمع وزير خارجية ستالين فيتشسلاف مولوتوف أن يردّ بنفسه، مستعينًا بمشورة ألكساندر سيرغييفيتش شيرباكوف (Aleksandr Sergeevich Shcherbakov) رئيس مكتب المعلومات السوفيتي (Sovinformburo) وغريغوري فيليپوفيتش ساكسين (Georgy Filippovich Saksin) رئيس الشؤون الدولية في المكتب. وقد عرض هذا الأخير على رفيقيه مسودات لنداءٍ موجّه لمسلمي العالم أجمع، يلقيه عبد الرحمن رسولوف، الذي كان رئيسًا للنظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا في الاتحاد السوفيتي، محدودة النشاط آنذاك. وارتأى المسؤولون الثلاثة تفعيل نداء رسولوف بطريقتين: الأولى: بثّه عبر الإذاعة على المسلمين السوفيت، والثانية: إرساله إلى وزارة الاستعلامات البريطانية مع توجيهات بتعميمه على مسلمي الشرق الأوسط^(٩٢). وفي الشهور التالية سُبّثُ نداءات مسيحية مماثلة

(٩١) فيما يتعلّق بتفاصيل هذا التهجير ومآسيه، انظر: ديفيد معتدل، في سبيل الله والفوهرر (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠٢١)، ص ٤٠٢-٤٠٣. (المترجم)

(90) PDDUM, 17-18.

وفي الوقت نفسه، كان سيرغي واعيًا تمام الوعي بأن التعقد الديني في التُّخوم السوفيتية قد يغدو مصدر قوة وتميز للكنيسة الأرثوذكسية في مقابل حكومة ستالين؛ ففي مذكرة كتبها =

لقد أصبح سكان التُّخوم السوفيتية الآن هدفًا لحمليتين مزدوجتين من البروپاغندا؛ إذ يدّعي هتلر تحرير المقدسات من ستالين، ويزعم ستالين حمايتها من هتلر. لكن حرب البروپاغندا لم تقتصر على مناطق المواجهة فحسب، ففي السادس من سبتمبر/أيلول من عام ١٩٤١، استهدفت البرامج الإذاعية المبنوثة من برلين وروما المسلمين السوفيت لتحدّثهم من خطط الدولة السوفيتية الرامية إلى فرض مزيد من القمع عليهم. فكما أشرنا في مدخل هذا الكتاب، كان من مزاعمهم الكاذبة التي روجتها بعض البرامج الإذاعية أن المساجد الروسية كلها ستحوّل إلى دور سينما، على أن زعمًا آخر، صدّقه الأيام بعد حين، كان في حقيقته استبصارًا مخيفًا، إذ زعموا أن مسلمي القرم سيُهَجَّرون قسرًا، وهو كابوس تحقّق على أرض الواقع بعد ذلك^(٩١).

وفي غضون أسبوع، احتشدت الدوائر العليا في الدولة السوفيتية لصياغة ردّ على ذلك؛ حيث أزمع وزير خارجية ستالين فيتشسلاف مولوتوف أن يرّد بنفسه، مستعينًا بمشورة ألكساندر سيرغييفيتش شيرباكوف (Aleksandr Sergeevich Shcherbakov) رئيس مكتب المعلومات السوفيتي (Sovinformburo) وغريغوري فيليپوفيتش ساكسين (Georgy Filippovich Saksin) رئيس الشؤون الدولية في المكتب. وقد عرض هذا الأخير على رفيقه مسودات لنداءٍ موجّه لمسلمي العالم أجمع، يلقيه عبد الرحمن رسولوف، الذي كان رئيسًا للنظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا في الاتحاد السوفيتي، محدودة النشاط آنذاك. وارتأى المسؤولون الثلاثة تفعيل نداء رسولوف بطريقتين: الأولى: بثّه عبر الإذاعة على المسلمين السوفيت، والثانية: إرساله إلى وزارة الاستعلامات البريطانية مع توجيهات بتعميمه على مسلمي الشرق الأوسط^(٩٠). وفي الشهور التالية سنُبتُّ نداءات مسيحية مماثلة

(٩١) فيما يتعلّق بتفاصيل هذا التهجير ومآسيه، انظر: ديفيد معتدل، في سبيل الله والفوهرر (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠٢١)، ص ٤٠٢-٤٠٣. (المترجم)

(90) PDDUM, 17-18.

وفي الوقت نفسه، كان سيرغي واعيًا تمام الوعي بأن التعقد الديني في التُّخوم السوفيتية قد يغدو مصدر قوة وتميز للكنيسة الأرثوذكسية في مقابل حكومة ستالين؛ ففي مذكرة كتبها =

وُنقل للخارج؛ إذ سيرُوج سيرغي لدعوته بخوض غمار الحرب بين الجنود في رومانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان^(٩١).

وسوف نعود إلى موضوع «النداءات الوطنية» الدينية لدى السوفييت في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ولكن حسبنا [في هذا المقام] الإشارة إلى أن اللحظة الفارقة في السياسة الدينية السوفييتية لم تَجِن إلا في العام الثالث من الحرب؛ حين أشرف ستالين شخصيًا، في أغسطس/ آب وسبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٣، على تأسيس «نظارات» دينية سوفييتية رسمية، تقوم عليها الزعامات الدينية الموقرة، وتعمل بتنسيق كامل مع أجهزة الأمن الحكومية. ولكن على الرغم من أنه لا جدال في أن الخوف من البروباغندا في التُخوم السوفييتية والحاجة الماسة لدفع جماعاتٍ متنوعة من السُكان إلى الانخراط في المجهود الحربي، قد حفّز حملات البروباغندا الدينية السوفييتية في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢، فإننا لم نقف -على وجه اليقين- على السبب المباشر الذي حوّل السياسة الدينية السوفييتية هذا التحول الجذري في عام ١٩٤٣

= في ريغا (Riga) بتاريخ الثاني عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٤١، بيّن المطران سيرغي لجمهور ألماني (!) أن ثمة حياة دينية «سرية» قوية وحيوية ما زالت قائمة في روسيا، وأن التحريض والبروباغندا الإلحادية قد فشلا فشلًا ذريعًا، وأن تدمير الكنيسة البطريركية الأرثوذكسية ونُخبها لن يزيد الحركات السرية التي لا يمكن السيطرة عليها إلا قوة. ولذلك، استنتج سيرغي بحصافة أن الحكومة السوفييتية لا تميل إلى تدمير كنيسة البارزة، وأضمر حديثه أنها لن تميل إلى ذلك مطلقًا في المستقبل. ثم إن تفاؤل سيرغي عزّزته واقعةٌ أخرى مفادها أنه عندما كان في البلطيق رأى آلاف الكنائس التي ظلت قائمة تحت الاحتلال السوفييتي في الفترة بين ١٩٣٩ و ١٩٤١. لقد اعتُقل سيرغي لدى الألمان أربعة أيام في ريغا (Rīga)، وكان دافعه في مخاطبتهم مخاطبة مباشرة أنه سيكون من صميم مصلحتهم دعم الكنيسة الأرثوذكسية، مهما كانت علاقتها مع روسيا، بدلًا من منافستها الكنيسة المسكونية (Ecumenical Church) التي يتمتع بطريركها بعلاقاتٍ وطيدة مع الحكومة البريطانية ويقطن لندن. (Shkarovskii, 1948) و*Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 100; 148) وسابقًا في عام ١٩٤٠، تعاون سيرغي مع الحكومة السوفييتية في مصادرة أراضي وكنائس من الكنيسة الموحدة [الكاثوليكية] (Uniate Church) في أوكرانيا (Dunn, *The Catholic Church and Russia*, 105).

(91) VRGV, 69.

أو دفعها إليه دفعًا. وربما يكون استعمار نار الحرب سببًا من الأسباب، كما سنرى في الفصل الثاني؛ / إذ كان النصف الثاني من عام ١٩٤٣ هو المرحلة الأكثر دموية في [٥٣] الحرب بالنسبة للسوفييت، على الرغم من أن الهجمة ارتدّت [بعد ذلك] على الألمان. ولعلّ الانسحاب النازي - من جهة أخرى - ألهم ستالين أيضًا التفكير في العلاقة طويلة الأمد بين الدولة والدين. لكن المنهج «المنفتح» نحو الدين الذي اتسمت به سنوات الحرب، لم يتمكن من الصمود طويلًا.

فوفق ستالين، لم يكن أيضًا بمقدور السوفييت الارتداد إلى السياسة الدينية السابقة على الإرهاب الكبير، أي تشكيل أقسام للشئون الدينية يُشرف عليها مجلس السوفييت الأعلى. فنظام «رخو» كهذا يستحيل الركون إليه في ظروف الحرب؛ إذ يحتاج النظام الجديد إلى أن يكون أوسع وأكثر شمولًا من زاوية قدرته على الوصول إلى الجماعات الدينية، وفي الوقت نفسه، أحكم مراقبةً (تقليلاً لإفلات حوادث النشاط الديني المستقل من المراقبة)^(٩٢). وقد نقل ستالين هذا الأمر إلى غريغوري غريغوريفيتش كاربوف (Georgiy Grigorievich Karpov) المسئول المساعد في أمن الدولة الذي استدعي للقاء الطاغية ليلة الرابع من سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٣^(٩٣)، ليكون ذلك أخطر اجتماع في تاريخ الدين في الاتحاد السوفييتي.

لم يكن كاربوف وجهًا معروفًا في الحكومة السوفييتية، لكنه كان من زمرة مسؤلي أجهزة الأمن المخضرمين، وكانت له خبرة واسعة في مراقبة النشاط الديني؛ فقد تولى خلال العشرينيات مراقبة النشاط الديني في شمال غربي روسيا لحساب

(٩٢) «أثار [ستالين] مسألة تطبيع العلاقات مع الكنيسة في مجلس مفوضي الشعب مبكرًا في عام ١٩٤٣». Reese, "The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Stalinist Regime during the Great Patriotic War," 141.

(٩٣) وانظر عن هذا الاجتماع أيضًا:

Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 15-16; Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 203-205.

يورد بعض المؤرخين - خطأ - أن تاريخ الاجتماع كان في الخامس من سبتمبر/ أيلول. ولكن كما سنرى، على الرغم من أن الاجتماع بدأ في مساء يوم الرابع، فإنه لم ينته إلا في صباح اليوم التالي.

هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب «التشيكا» (Cheka)، ثم لحساب إدارة الدولة السياسية (GPU) ومفوضية الشعب للشئون الداخلية (NKVD). وحصل كاربوف على وسام النجمة الحمراء في عام ١٩٣٨، ورُقّي لينضمَّ إلى الإدارة الرئيسية لأمن الدولة في موسكو، التابعة لمفوضية الشعب للشئون الداخلية، ثم حصل على ترقية أخرى في سنوات الحرب، أولاً إلى رتبة رائد في عام ١٩٤١، ثم إلى رتبة كولونيل^(٩٤).

وعلى الرغم من أن الكثير مما يتعلّق بالسياسة السوفييتية في عهد ستالين لا يزال مشوبًا بالغموض، فإننا فيما يتعلّق بهذا الاجتماع المصيري بين ستالين وكاربوف أسعدُ حطًّا بما لا يُقاس؛ إذ ترك لنا كاربوف عرضًا شديد التفصيل لما جرى. وكان من بين الحضور مالينكوف، الذي يُحتمل أن يكون موقفه المتشدّد من الدين قد عزّز من قسوة ستالين في حقبة الإرهاب الكبير، ولاقرينتي بيريا (Lavrentii Beria) وزير الشئون الداخلية، ورئيس مفوضية الشعب للشئون الداخلية.

يقول كاربوف: «في الرابع من سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٣، استُدعيت إلى [مكتب] الرفيق ستالين، حيث طُلب مني الإجابة عن الأسئلة التالية»^(٩٥):

أ) ماذا عن المطران سيرغي (السّن، والسّمات الجُسمانية، وسلطته في الكنيسة، وعلاقته بالحكومة)؟

ب) وصفٌ مختصر للمطرانين أليكسي ونيقولاي؟

ج) متى انتُخب تيوخون بطريركًا وكيف كان انتخابه؟

د) ما طبيعة العلاقة بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية و[الكنايس في] [٥٤] الخارج؟

هـ) من هم بطاركة القسطنطينية والقدس وغيرهما؟

و) ما الذي أعرفه عن قيادات الكنيسة الأرثوذكسية في بلغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا؟

(94) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 272.

(95) *VRGV*, 306.

ز) ما الحالة المادية الحالية للمطارنة سيرغي وأليكسي ونيقولاي؟
ح) ما عدد الأبرشيات والأسقفيات التابعة للكنيسة الأرثوذكسية في الاتحاد السوفييتي؟

ويبدو أن هذا «الاختبار» قد حَقَّقَ غرضًا مزدوجًا: إيفاء ستالين بخلاصات حول القضايا الراهنة ذات الصلة بالكنيسة، وتقييم عمق معرفة كاربوف. أما إن كان كاربوف آنذاك لديه أدنى فكرة عن أنه تُجرى معه في حقيقة الأمر مقابلة ابتغاء توظيفه، فليس ثمة دليل في روايته على ذلك. وبعد تجاوز هذه الأسئلة الأولية، انتقل ستالين إلى صلب الموضوع: «يجب إنشاء جهاز لإدارة العلاقات مع رؤوس الكنيسة، فماذا تقترح؟»

ذكر كاربوف أنه لم يكن مستعدًا للسؤال، وإن كانت لديه إجابة جاهزة؛ إذ اقترح «قسمًا للشئون الدينية» (otdel po delam kul'tov) يتبع مجلس السوفييت الأعلى، ثم تعقبه مفوضية دائمة، يمكننا افتراض أنها تشبه تلك التي ألغيت قبلها بخمس سنوات^(٩٦). وقد رفض ستالين الاقتراح، وقدم آخر، أوجزه كاربوف على النحو الآتي، والنقطة الثالثة فيه هي الأشد إثارة للاهتمام^(٩٧):

- ١) إننا في حاجة إلى تنظيم مجلس يتبع حكومة الاتحاد السوفييتي، أي مجلس مفوضي الشعب (Sovnarkom)، ولنُسَمِّه مجلس شئون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية؛
- ٢) وسيوكل إلى المجلس إدارة العلاقات بين الحكومة السوفييتية والبطريرك؛
- ٣) ولا يُصدر المجلس قرارات مستقلة، بل يرفع تقاريره للحكومة ويتلقى منها التعليمات.

وهنا شاور ستالين مالينكوف وبيريا حول إمكانية عقد لقاء مع الرموز الثلاثة الكبار في الكنيسة الأرثوذكسية، سيرغي ونيقولاي وأليكسي (سيخلف أليكسي هذا

(96) VRGV, 306.

(97) VRGV, 306.

[٥٥] سيرغي في رئاسة الكنيسة بعد وفاة الأخير في مايو/ أيار من عام ١٩٤٤)، واتفق الثلاثة على قبول الفكرة. / ولكن لا نعلم إن كان كاربوف قد فهم أن ستالين يقصد وقوع ذلك في هذه الليلة نفسها أم لا؛ حيث قال: «وبعد ذلك، تلقيتُ حينئذ في مكتب الرفيق ستالين الأمر بالاتصال بالمطران سيرغي، وإبلاغه الرسالة التالية باسم الحكومة: «يُحدِّثك ممثل مجلس مفوضي الشعب^(١): يريد رئيس المجلس [ستالين] لقاءك والمطرانين أليكسي ونيقولاوي؛ للاستماع إلى رغباتكم والإجابة على أي تساؤلاتٍ لديكم»، فإن ناسب ذلك المطارنة، أمكن عقد الاجتماع الليلة، بعد ساعة ونصف»^(٩٨).

وبعد ساعتين، كان المطارنة الثلاثة قد اجتمعوا قبالة ستالين، ويبدو أن بيريا ومالينكوف قد غادرا، وانضم مولوتوف -وزير خارجية ستالين الذي شارك في جهود البروباغندا الدينية منذ شهور الحرب الأولى- إلى كاربوف وستالين والقساوسة الثلاثة في اجتماع استمر ساعةً وخمسة وخمسين دقيقة، وفقاً لساعة كاربوف. وقد استهلَّ ستالين الاجتماع بالثناء على الأعمال الوطنية التي اضطلعت بها الكنيسة إبان الحرب، مُقرِّاً بجهودها في جمع التبرعات، و«مكانتها التي شغلتها في الدولة». ثم سأل المطارنة إن كانت لديهم استفسارات ملحة ظلت حتى هذه اللحظة «محظورة»^(٩٩).

بدأ سيرغي الحديث أولاً، وأثار على نحو صريح قضية جمع الأساقفة لانتخاب بطريرك للكنيسة. فلمدة ثمانية عشر عاماً تقريباً، ظل سيرغي بطريركاً مؤقتاً -أي

(١) ورد هنا في الأصل الإنكليزي ما ترجمته: «سيحدِّثك [ستالين] رئيس مجلس السوفييت الأعلى»، وهو غير مناسب للسياق، فراجعنا المؤلف فيه وعدنا للنص الروسي لسجلات المحفوظات المترجمة وأبلغناه به، فوافقنا على أنه أخطأ الترجمة عن النصِّ الروسي، ووافق على التعديل الذي أثبتناه في المتن. لترجمة أخرى لوقائع الاجتماع، انظر:

STALIN: Transcripts from the Soviet Archives, ed. A. Erdogan, tr. M. Svitlana, Publisher: Erdogan A, 2021, p. 257.

(المترجم)

(98) VRGV, 307.

(99) VRGV, 307.

بطيريكًا «بديلاً» أو «مسير أعمال» - وظلت الكنيسة في الواقع بلا رأس شرعي. وكما توقع ستالين، أيد أليكسي نيقولاوي الطلب، فأجاب غير مقتصر على الموافقة على انعقاد مَجْمَع (sobor)⁽¹⁾ الأساقفة وانتخاب بطيريك، بل عرض دعمًا لوجستيًا يؤمّن به المكان والانتقالات والتمويل. ثم سأل أيضًا عن اللقب الذي سيحمله البطيريك الجديد، فالبطيريك السابق تيوخون سمّى نفسه «بطيريك موسكو وروسيا كلها». فعرض سيرغي خيارًا أشمل، يلمح ربما إلى بلوغ الثخوم السوفيتية من قبيل «بطيريك موسكو والروس أجمعين»، فوافقه ستالين على أنه لقب «ملائم». وأما فيما يتصل بعقد المَجْمَع، فقد اعترض ستالين على ردّ سيرغي بأن ينعقد خلال شهر؛ حيث ابتسم قائلاً: «ألا يمكن أن نعقدَه بنشاط بلشفي؟» وبضماناتٍ من كاربوف، حُدّد الثامن من سبتمبر/ أيلول، أي بعد أربعة أيامٍ فقط، موعدًا لانعقاد المَجْمَع⁽¹⁰⁰⁾.

ثم تساءل سيرغي وأليكسي عن إمكانية تنظيم دروس دينية لتأهيل طاقم جديد من رجال الدين. وافق ستالين على ذلك أيضًا، بل إنه مضى أبعد من ذلك فأذن بافتتاح «معاهد دينية» إلى جانب «كليات لللاهوت في جميع الأبرشيات التي تحتاج إلى ذلك». لكن المطارنة رفضوا؛ لأن الكنيسة لا تتوفر على القدرات البشرية الكافية لمشروع طموح كهذا. فرّد ستالين: «كما تريدون / ... هذا شأنكم. إن أردتم عقد [٥٦] الدروس الدينية، فابدأوا بها. لكن الحكومة لن تعترض على افتتاح معاهد أو كليات»⁽¹⁰¹⁾. واقتضت نوبة كرم ستالين تلبية المطلب التالي أيضًا المتمثل في إصدار مجلة شهرية تعرض «أشياء من قبيل وقائع الكنيسة والمقالات والخطب ذات الطابع الديني والوطني»، فأجاب ستالين مكتفيًا بقوله: «يمكنكم إصدار المجلة وينبغي عليكم ذلك».

هنا، وبعد أن كان الاجتماع يسير على ما يرام لدى المطارنة، طرّق سيرغي منطقة حساسة، ألا وهي إعادة فتح الكنائس التي أُغلقت في عقود القمع الديني، وأشار

(أ) السُوْبُر (съборъ) هو مجمع كنسي في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ينعقد لمناقشة الأمور المهمة المتعلقة بالعقيدة المسيحية وإدارة الكنيسة وشعبها. (المترجم)

(100) VRGV, 307.

(101) VRGV, 307.

أليكسي ونيقولاوي، تعضيدًا لرفيقهما، إلى التوزيع غير المتكافئ للكنائس في أنحاء الاتحاد السوفيتي. جاء ردُّ ستالين كذبًا صُراحًا، كما سيُتبين بعد ذلك؛ إذ وعد بأن الدولة لن تضع أي عراقيل^(١٠٢) أمام عملية إعادة فتح الكنائس.

انتقل أليكسي، راضيًا بما سمع، إلى مسألة أشدَّ حساسية، فطالب بتحرير الأساقفة المنفيين أو المعتقلين في السجن أو معسكرات الاعتقال (الغولاغ)^(١). لكن ستالين لم يتعهد بشيء، وإنما ردَّ قائلًا: «فلتعدَّ قائمةً بهم وسأنظر في الأمر». وبإبهام وعدم إلزام مماثلين، ردَّ ستالين على مطلب المطارنة التالي (الذي عرضه سيرغي) فيما يتعلّق بحرية حركة الأساقفة ووضع «نظام جوازات» حرَّ لهم^(١٠٣).

(102) *VRGV*, 309.

ومع ذلك، أُعيد افتتاح الكنائس بإذن ستالين وبغير إذنه؛ حيث ذكر ريس: «في الشهور السابقة على الاجتماع مع الأساقفة، نقلت تقارير مفوضية الشعب لأمن الدولة أنه في أعقاب معركة ستالينغراد في ربيع وصيف عام ١٩٤٣، بدأ الأساقفة في تحريض المؤمنين وتشجيعهم على المطالبة بفتح الكنائس المحلية. وفي الفترة ما بين عام ١٩٤٢ ومنتصف عام ١٩٤٣، فتح رعية أبرشية أوبلاست براسلافل ('Jaroslavl')، بالمخالفة للقانون، إحدى وخمسين كنيسة في القرى. وفي الوقت نفسه، رضخت السلطات السوفيتية في كراسنيارسك (Krasnoiarisk) لضغط الأهالي وأذنت بفتح كنيستين».

"The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Stalinist Regime during the Great Patriotic War," 142-143

(أ) كانت الإدارة العامة للمعسكرات، الغولاغ (ГУЛАГ - Gulag - Главное управление лагерей)، هي الجهاز الحكومي الرئيسي المسئول عن إدارة شبكة معسكرات السخرة السوفيتية، التي كانت ذراعًا أساسيًا من أذرع الاستبداد السوفيتي، الذي نشأ مع لينين وتعاضم حتى بلغ ذروته في عهد ستالين، ثم بدأ في التفكك في عهد خروشوف حتى ألغي تمامًا في عام ١٩٦٠. ويقدر بعض المؤرخين أن عدد السجناء في معسكرات الغولاغ وصل في الفترة بين عامي ١٩٢٩ و١٩٥٣ إلى أربعة عشر مليون (١٤,٠٠٠,٠٠٠) سجين، وتصل بعض التقديرات إلى خمسة وعشرين مليونًا (٢٥,٠٠٠,٠٠٠)، فيما يقرب من أربعمئة وثلاثة وعشرين (٤٢٣) معسكرًا موزعين في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي، وخاصة في سيبيريا. ومات من هؤلاء نحو مليون وستمئة ألف (١,٦٠٠,٠٠٠) سجين. وقد اشتهر تعبير الغولاغ عالميًا بأثر من رواية الكاتب ألكسندر سولجنيتسين أرخبيل الغولاغ. (المترجم)

(103) *VRGV*, 310.

وسرعان ما حوّل ستالين دفّة الحديث، فانتقل إلى الظروف الشخصية للمطارنة الثلاثة، قائلاً: «أبلغني الرفيق كاربوف أنكم في شظفٍ من العيش (*vy ochen' plokho*)؛ إذ تسكنون شققاً ضيقة، وتبتاعون حاجياتكم من السوق، وليست لديكم وسائل نقل؛ ولذا ترغب الحكومة في معرفة احتياجاتكم الحالية، وما الذي تريدون الحصول عليه منها»^(١٠٤). ردّ سيرغي بأن شراء الحاجيات من السوق لا يُعنيهم في شيء، لكن تقديم المساعدة في وسائل النقل سيكون أمراً مرحّباً به. ثم تبع ذلك مطلبٌ أكبر، وهو مطلب ربما شعر المطران في أثناء طلبه إياه أنه يصلي لمريم العذراء، إن جاز التعبير، ألا وهو أن يُعيد ستالين للكنيسة دير نوفاديقتشي (Novodevichii) الرائع في موسكو، وهو الدّير الذي يرجع تاريخه إلى القرن السادس

(١٠٤) وهنا صدق ستالين؛ فأليكسي على وجه الخصوص أصابته في السنوات السابقة فاقة شديدة؛ إذ يصف أحد الشهود أحواله في أثناء حصار لينينغراد الرهيب، حيث كان المطران يعقد القدّاسات بالأيقونات خارج الكنيسة، حتى في أثناء الغارات الألمانية، فيقول: «إن شماسي الكنيسة يتساقطون واحداً تلو الآخر، حتى كبيرهم نفسه انهار ومات في منتصف أحد القدّاسات... وأما الشماسات الثلاثة الباقيات فقد وهنّ حتى أنهن لم يتمكنّ من اعتلاء شرفة الكنيسة، إلا أنهن ظللن يرثمن قدر استطاعتهن من على منصة منخفضة في هيكل الكنيسة... بل إن أليكسي نفسه كان ينمحق شيئاً فشيئاً، ويكسوه الشحوب يوماً بعد يوم... وظل آخر شماس في لينينغراد يخدم في الكنيسة حتى مات بدوره. وهنا أقام أليكسي الطقوس وحيداً». كان الحال في لينينغراد قبل الحرب أكثر بهجةً من ذلك، فنجد مذكراتٍ لهذه الفترة تصف الكنائس وهي تغصُّ بالرواد في العطل والأعياد، وقد احتشد الآلاف في إحدى أعياد الفصح، لا يبالون بالشرطة التي تدعوهم إلى التفرق.

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 109.

أما سيرغي فيمكننا استخلاص لمحة عن ظروفه السابقة من قصة إجلائه من بحر البلطيق إلى روسيا؛ إذ عند غزو النازيين، سُجن سيرغي في عربة قطار مع الأعرور كبير أساقفة أهل العقيدة القديمة في موسكو وروسيا كلها، وبعض الرؤوس المعمدانيين، وقساوسة الكنيسة التجديدية. وقد أُصيب سيرغي في أثناء الرحلة بالحمى ووصلت درجة حرارته إلى ١٠٤ درجة فهرنهايت (٤٠ درجة مئوية) وبدأ يهذي. ثم حدث أن تشاجر اثنان من المعمدانيين شجاراً عنيفاً، فاخْتبأ سيرغي في زاوية في مقصورة القطار. وعندما بلغوا محطة وصولهم في أوليانوفسك (Ulyanovsk)، لم يكن هناك محلٌّ مرتب لإقامة سيرغي، ولم يستقبله للتحية إلا رئيس رعية الأبرشية المحلية؛ فنام في عربة القطار لعدة أيامٍ أخرى.

Davis, *A Long Walk to Church*, 13-14; 16.

عشر. وقد اشتمل هذا المجمع الضخم على كاتدرائية وعددٍ من الكنائس، ومباني للرهبان والراهبات وبعض المساكن، وجبَّانة تحوي مقابر تشيخوف (Chekhov) وغوغول (Gogol) وغيرهما من الوجهاء. بيد أن ما صودر من مبانيها كان قد تحول منذ العشرينيات إلى متاحف للفن والتاريخ، وفيها متحفٌ لتحرير النساء. وأوضح ستالين أنه لا يصلح قطُّ لأن يكون مقرًّا للكنيسة، وعرض عليهم بدلًا منه قصرًا مؤثنا من ثلاثة أدوار، يكون رهن إشارتهم. ويمكننا أن نفترض مطمئنين أن هذا القصر لا بد أنه كان رغم فخامته موبوءًا بالبق؛ بقِّ المراقبة. فحتى عام ١٩٤١، كان القصر / [٥٧] مسكنًا للسفير الألماني فريدرش فيرنر غراف فون در شويلنبرغ (Friedrich-Werner Graf von der Shulenburg)، ولا عجب أنه شاغر الآن. وقد عرض ستالين على المطارنة زيارةً خاصة للمسكن في اليوم التالي مباشرة^(١٠٥).

لم يسجّل كاربوف ردَّ المطارنة على عرض ستالين، إذ لم يكن هناك داعٍ لذلك؛ فالاجتماع لم يكن جلسة تفاوض، رغم كل المظاهر. وكان ستالين يلقنهم الشروط، بعضها كان مناسبًا للمطارنة، وبعضها غير متوقع؛ فهم لن يتابعوا حاجياتهم من السوق بعد اليوم، معلنًا ذلك بأن الأسواق هذه الأيام مرهقة ومكلفة ولا يزودها فلاحو المزارع الجماعية بالبضائع بصورة مناسبة؛ ومن هنا فسبحصلون بدلًا من ذلك على البضائع بـ «سعر الدولة» (*po gosudarstvennym tsenam*) مع وضع سيارتين تحت تصرفهم^(١٠٦).

لكن لمَ كل ذلك؟ فقد حظي ستالين فعلاً بولاء المطارنة، وظفر بجهودهم في تعبئة الجماهير للمشاركة في أعمال الحرب، وتحويلهم المستمر للتبرعات إلى الحكومة. وأما ما أذن به حديثًا من انتخاب البطريك فقد كان ذا أهمية رمزية كبيرة بالنسبة للكنيسة، لكن لم يتبيّن على الفور كيف سيغيّر ذلك أنشطة الكنيسة تغييرًا جذريًا، أو كيف سيتمنحها استقلالًا أكبر. فهل طلب ستالين ثلاثة من أوسع الزعامات الدينية نفوذًا في أوراسيا في منتصف الليل، ليقدم لهم -إلى جانب هذا التنازل

(105) VRGV, 311.

(106) VRGV, 311.

الرمزي المهم وإن كان محدودًا في جوهره - حاجياتٍ مخفّضة السعر ومساكن مشحونة بأجهزة التنصت؟

لم يكشف ستالين عن الغرض الأساسي من اللقاء إلا قرب الثانية صباحًا؛ فبعد أن تأكد من أن المطارنة لم يعد لديهم ما يطلبونه، أصدر إعلانه الكبير قائلاً: «حسنًا، إن لم يكن لديكم [الآن] ما تطلبونه من الحكومة بخلاف ما طلب، فربما سيكون لديكم مستقبلًا. وتقرّح الحكومة إذن تشكيل جهاز حكومي خاص يُسمّى مجلس شئون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وتعيين الرفيق كاربوف رئيسًا للمجلس. فماذا ترون؟».

يروى كاربوف أن المطارنة الثلاثة «أعلنوا أنهم يميلون كل الميل إلى تعيين الرفيق كاربوف في هذا المنصب»، ثم غادروا، ليمرّ بعد ذلك نحو نصف قرن قبل أن يجتمع أي رئيس آخر للحزب الشيوعي السوفييتي برؤوس الكنيسة الأرثوذكسية اجتماعًا رسميًا^(١٠٧).

وقع الاتفاق الآن على تأسيس جهازٍ جديد وسيطٍ بين الكنيسة والدولة، يكون على رأسه مسئولٌ ذو خلفية أمنية، وحصل ستالين على موافقة رؤوس الكنيسة المبرزين. وكان ذلك / لبّ «الصفقة الجديدة». والراجح أن المطارنة لم يكونوا على [٥٨] علم بخلفية كاربوف ولا مهاراته، ولكن ستالين حدّره في حضورهم قائلاً: «لكن تذكر: أولاً، أنت لست مدّعيًا عامًا (*ober-prokuror*)، وثانيًا، يجب أن تركز أنشطة المجلس تركيزًا كبيرًا على استقلالية (*samosoiatel'nosti*) الكنيسة»^(١٠٨).

ثم طلب ستالين من مولوتوف إعداد بيانٍ رسمي للجرائد والإذاعة «أدخل في أثناء إعداده ما كان مناسبًا من تعليقات وتعديلات وإضافاتٍ من الرفيق ستالين والمُطرانين سيرغي وأليكسي». وكان البيان الصادر، المنشور بجريدة إزفيستيا

(١٠٧) كانت المرة التالية في إبريل / نيسان من عام ١٩٨٨، عندما اجتمع ميخائيل غورباتشوف (Mikhail Gorbachev) مع البطريرك پيمن (Pimen). انظر:

Smolkin, *A Sacred Space Is Never Empty*, 1.

(108) *VRGV*, 311.

[الأخبار] (*Izvestiia*) في اليوم التالي مباشرة، بلا شك، أهم إعلان رسمي أصدرته الحكومة السوفيتية حول المسألة الدينية. ولكن على الرغم من ذلك كله، لم يحدث الإعلان ضجة كتلك التي أحدثها إعلان الدولة مراجعة سعر شراء الحنطة السوداء^(١٠٩):

«التقى رئيس مجلس مفوضي شعب الاتحاد السوفيتي، الرفيق يوسف فيساريونوفيتش ستالين، في الرابع من سبتمبر/ أيلول هذا العام، البطريرك المؤقت المطران سيرغي، ومطران لينينغراد أليكسي، والمطران نيقولاي أسقف أوكرانيا وكيف وغاليسيا.

وقد لفت المطران سيرغي في أثناء النقاش انتباه رئيس مجلس المفوضين إلى أن رؤوس الكنيسة الأرثوذكسية يعتزمون عقد مجمع للأساقفة؛ لانتخاب بطريرك لموسكو والروس أجمعين، ثم عقد سينودس^(١) مقدس برئاسة هذا البطريرك.

ولقد تعاطف رئيس الحكومة يوسف ستالين مع هذا المقترح، وتعهد بأنه لن يكون هناك أي عائق يعترضه من جانب الحكومة. وكان الرفيق فييتشسلاف ميخايلوفيتش مولوتوف، نائب رئيس مجلس مفوضي الشعب، من بين الحضور».

وبطبيعة الحال، كان التركيز على دور سيرغي في المفاوضات مراوفاً بعض الشيء؛ فقد جاء إلى ستالين لا ليخبره بقرار قد اتخذه رؤوس الكنيسة، بل لأنه استُدعي وطلب منه أن يطلب. ومهما يكن من أمر، فإن عرض البيان للعلاقة بين الكنيسة والدولة واضح في مراميه: الكنيسة حرة في اتخاذ قرار حيوي كهذا بمفردها، ولا يعدو دور ستالين (ممثّل الحكومة كلها في هذه الحالة) الإشراف النهائي على

(109) *VRGV*, 311.

(أ) السينودس هو اجتماع للأساقفة تُناقش فيه الشؤون اللاهوتية والعقائدية، وأحياناً الجوانب الاجتماعية لمؤمني الكنيسة، وهي كلمة مشتقة من اليونانية (*σύννοδος*)، والتي تعني التجمع أو الاجتماع. (المترجم)

القرارات التي ستتخذها الكنيسة مستقلة عن أي تدخل. ولا شك في أن اللغة الهادئة التي اتسم بها البيان كانت متعمدة ومدروسة، فعكست التسامح مع الدين، دون الإعلان عن أي دعم بعينه، دع عنك الحماس له.

/ وبعد أن تبادل ستالين والمطارنة المجاملات الختامية، انتهى اجتماعهم [٥٩] التاريخي دون التقاط صورة؛ إذ لما سأل مولوتوف ستالين: «ألا نطلب مصورًا؟» أجابه قائلاً: «لا، لقد تأخر الوقت، فنحن في الثانية صباحًا، ليكن التقاط الصور في اجتماع آخر»^(١١٠)، وهو الاجتماع الذي لم ينعقد قط. لكن هذا الاجتماع، كما يذكر كاربوف: «كان حدثًا تاريخيًا للكنيسة، وترك انطباعات عميقة على المطارنة سيرغي وأليكسي ونيقولاي، كما تجلّى لكل من عرف سيرغي ورآه في هذه الأيام وما تلاها»^(١١١).

وقد صدّق مجلس مفوضي الشعب على قرار تأسيس مجلس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية (CAROC) بعد عشرة أيام، في الرابع عشر من سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٣. ووفقًا لوثيقة تأسيس المجلس، تدعم سلطات المجلس ما ذكر أدينتسوف أنه من الآن فصاعدًا «ما من أمر مهم في الكنيسة سيُتخذ فيه قرار» إلا بعد مناقشة المجلس وموافقته^(١١٢). وإلى جانب «الدراسة الأولية» لأي أمر تطرحه الكنيسة، فإن

(110) *VRGV*, 312.

(111) *VRGV*, 312;

انظر أيضًا:

Odintsov, *Russkaiappravoslavnaia tserkov'*, 275-277.

(112) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 277; Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 17-18.

تقول شوماتشكو: إنه «في الشهور الأولى من عمره، عانى مجلس شئون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من نقص أشياء بسيطة من قبيل الصمغ والورق والأظرف وحافظات الأوراق. وظلت مشكلة الحافظات هذه قائمة حتى نهاية عام ١٩٤٥، عندما أشار المفتش الكبير ف. سبيريدونوف (V. Spiridonov) في اجتماع مع رئيس المجلس، إلى أن قرابة الثلاثمائة ملف يطلب افتتاح الكنائس لم تُرتب ترتيبًا مناسبًا بسبب نقص الحافظات». وكذلك كانت هناك مشكلة توظيف عاملين مناسبين؛ إذ لم يوجد إلا عدد قليل من الموظفين الحاصلين على تعليم ثانوي.

المجلس سيتلقى، نظريًا، بياناتٍ شاملة عن أنشطة الكنيسة، ويُشرف على تسجيل الكنائس المحلية، ويراقب تنفيذ قوانين الدولة المتعلقة بالدين^(١١٣). على أن وظيفة المجلس الأهم كانت الوساطة؛ إذ لم يكن من صلاحياته صياغة القوانين أو إنفاذها، وإنما الإذعان إلى السلطات الحكومية العليا، وهو ما يعني ضمناً اطلاع المجلس أجهزة الدولة -مفوضية الشعب للشؤون الداخلية مثلاً- على المعلومات باستمرار، وذلك بوصفها الأقدر على التأثير المباشر. وبعبارة أخرى، كان المجلس جهازًا بيروقراطيًا لمراقبة أنشطة الكنيسة، لكنه لم يكن جهازًا إشرافيًا. فرغم كل ما قاله ستالين للمطارنة، لم يكن غرض المجلس الأساسي مساعدة الكنيسة أو دعمها، بل كان مساعدة أجهزة الأمن على مراقبة الكنيسة.

وبخلاف عقد مَجْمَع الأساقفة وانتخاب بطيريكٍ جديد، فإننا لا نعلم حقوقًا أو حريات جديدة منحها تأسيس مجلس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إياها، بل إنه منح الدولة طبقة جديدة من المراقبة على كنيسة أفادت نحو عامين من حريات زمن الحرب، ومنَح الدولة أيضًا آليةً جديدةً تُجبر بها الكنيسة على الشفافية والإذعان والمشاركة. ومن هنا، فليس من اليسير قبول أطروحات المؤرخين التي تصف خريفَ عام ١٩٤٣ بأنه العلامة الأولى على طريق بناء «التسامح الديني» لدى الحكومة السوفيتية.

ولا شك في أن أوجه الالتباس في سياسة ستالين الدينية زمن الحرب قد أربكت العديد من الشيوعيين. ويقدم لنا يفغيني فيدروفيتش كرينكو (E. F. Krinko) ثلاث صورٍ موحية^(١١٤):

[٦٠] / «لقد تساءل دزيابشينكو (Dziabchenko) وماشونكه (Mashchenko)، وهما شيوعيان يعملان في «تصنيع الآلات» قائلين: «ماذا نحن فاعلون؟ كنا نُلَقَّن قبل ذلك أن الدين أفيون الشعوب، أما

Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 18-19.

(113) Odintsov, *Russkaia pravoslavnaia tserkov'*, 305.

(114) Krinko, "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941-1945),"

الآن فالحكومة هي التي تتقرب إلى رجال الدين». وقد خلص كانيشكين (Koniashkin) وزايتسيف (Zaitsev) وكولباكوف (Kolpakov) -الأعضاء في الحزب الشيوعي وعمال مصنع «كومترن» في موسكو- في حوار بينهم إلى استنتاج مفاده أن «الشيوعيين يمكنهم الآن ارتياد الكنيسة دون قيد، والصلاة للرب، وتعميد أبنائهم، والزواج». لكن [ثمة منظورًا] ثالثًا رأى في ذلك كله إمعانًا في الخداع من قبل الحكومة. فبتعبير شاپيرو (Shapiro) أحد مهندسي معهد صناعة النيتروچين: «لا يمكن لأحد أن يقرأ خطاب الرفيق كاربوف إلا بعين التهكم والسخرية؛ فكلماته تفيد أن الحكومة تتعاطف مع الدين ورجاله، لكن هذا التعاطف في حقيقة أمره ليس إلا نفاقًا (obman)»

وكذلك، لم يتمكن هذا التحول المفاجئ من التغلب على شكوك بعض المؤمنين السوفييت الأكثر سوادًا وازدراءهم، بل ولم تحظ الكنيسة «المرخصة» حتى بثقتهم؛ إذ حذر محاسب روسي، في مقابلة أجريت معه أواخر عهد ستالين، من أن «الكنيسة القائمة اليوم في روسيا ما هي إلا ذراعٌ خبيثٌ من أذرع مفوضية الشعب للشئون الداخلية، وتعمل لصالح الحكومة، وغالب القساوسة أعضاءً عاملون في المفوضية»⁽¹¹⁵⁾. كما قالت طبيبةٌ نفسية لاجئة لمحاورها: «لا أعترف بأي قسٍّ أو بطريك يعمل اليوم في الاتحاد السوفيتي... لأنهم يدعون في صلواتهم لستالين، وأمسى كلُّ ما وقع من فظائع السنوات الماضية عندهم في طيِّ النسيان»⁽¹¹⁶⁾.

ظل شعور كثير من المواطنين السوفييت بأنهم يتلقون رسائل متناقضة قائمًا طوال ما بقي من سنوات الحرب (وما بعدها)، ومن أهم الأسباب التي تقف وراء هذا الشعور أن الأجهزة الحكومية الأساسية المسؤولة عن مراقبتهم بعد عام ١٩٤٣ -مجلس شئون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية للكنيسة الأرثوذكسية، ومجلس الشئون الدينية للديانات الأخرى- عانت نقصًا حادًا في العاملين والتمويل (وهي

(115) HPSSS sched. A, vol. 35, case 355/(NY)1498 ff. 27-28.

(116) HPSSS sched. A, vol. 11, case 139 f. 35.

مشكلة سنعود إليها في الفصل الخامس). فخلال ما بقي من عام ١٩٤٣ وطوال عام ١٩٤٤، كان عدد العاملين في «الجهاز» المركزي لمجلس شئون الكنيسة يتراوح بين خمسة وعشرين (٢٥) وسبعة وعشرين (٢٧) موظفًا، في حين أن العدد الضروري للتشغيل الأساسي للجهاز كان أربعين عاملاً. ولم يتحقق هدف الأربعين عاملاً هذا حتى عام ١٩٤٥، وظلت مشكلة العثور على «مؤهلين» للقيام بمهمة مراقبة الدين عبئًا دائمًا لفترة طويلة في سنوات ما بعد الحرب^(١١٧).

وفي الوقت نفسه، كان مولوتوف عائقًا أمام إحدى أهم الوظائف الأساسية للمجلس، على الرغم من أنه كان أحد مؤسسيه في الظاهر؛ حيث قال مولوتوف ردًا على استشارة كاربوف حول قضية تأسيس كنائس جديدة - وهو / أمر أمّلت فيه بشدة [٦١] جموع واسعة من الأرثوذكس الذين شرعوا في تقديم مئات الالتماسات للحكومة بهذا الصدد: «لا تأذن لهم بفتح الكنائس مطلقًا»^(١١٨). لقد كانت الحكومة المركزية هي الجهة المخوّلة حصراً بالسماح بفتح الكنائس، لا اللجان التنفيذية البلدية المسؤولة أمام المجالس. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٤٣، حاول المجلس، مستخدمًا وسائل أكثر رسمية، دفع مجلس مفوضي الشعب نحو تيسير فتح مزيد من الكنائس. وفي مسوِّدة قرار عنوانه: «حول نظام فتح الكنائس»، عُرض أن يكون أساقفة الأبرشيات بمنزلة الوسطاء في تقديم الالتماسات المتعلقة بفتح الكنائس، فينظرون فيها أولاً، ليقرروا قبولها أو رفضها، والالتماسات المقبولة تنتقل إلى المجلس، ويصبح القول الفصل فيها لكاربوف وسيرغي (البطريك حاليًا)^(١١٩).

(117) *VRGV*, 84.

(118) *VRGV*, 89 (التشديد من عندنا).

(119) *VRGV*, 90; Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 57.

وقد تعاون رؤوس الكنيسة الأرثوذكسية آنذاك مع مجلس شئون الكنيسة وستالين في القضاء على ما تبقى الكنيسة التجديدية، غريمتهم السابقة. ففي السابع من أكتوبر/ تشرين الثاني، وقع ستالين بعد إتمامه «صفقته الجديدة» مع المطارنة الثلاثة على مذكرة مشثومة كتبها كاربوف، قال فيها: «اضطلعت الحركة التجديدية في السنوات الأخيرة بدور بناء، لكنها فقدت مؤخرًا أهميتها، وأساس دعمها. وعلى ذلك، وأخذًا في الاعتبار الموقف الوطني الذي تقوم عليه الكنيسة السيرغية، فإن المجلس ... قرر عدم معارضة حل الكنيسة التجديدية، ولا نقل القساوسة ورعايا الأبرشيات إلى الكنيسة =

وعلى الرغم مما بذله كاربوف من جهود وافرة، فإنه لم يُدبَّ إلا عددٌ قليل من آلاف الالتماسات التي قُدمت؛ ففي عام ١٩٤٤، قُدم ما لا يقل عن ستة آلاف واثنتين وأربعمائة التماس (٦٤٠٢)، ولم يُفتح في هذا العام إلا مائتان وسبع (٢٠٧) كنائس. وفي عام ١٩٤٥ بعدها، تضاعف عدد الكنائس المفتحة ليصل إلى خمسمائة وتسع (٥٠٩) كنائس، في مقابل عدد الالتماسات التي وصلت بنهاية العام إلى ستة آلاف وخمس وعشرين (٦٠٢٥) كنيسة. وفي عام ١٩٤٦، انخفض عدد الالتماسات إلى خمسة آلاف وواحد ومائة التماس (٥١٠١)، وكذلك انخفض عدد الكنائس التي أُعيد افتتاحها إلى ثلاثمائة وتسع وستين (٣٦٩) كنيسة^(١٢٠).

والواقع أن هناك طريقتين مختلفتين لتفسير هذه البيانات؛ فمن ناحية، يمكننا الإشارة إلى أن أكثر من ألف (١٠٠٠) كنيسة جرى افتتاحها تحت عين الحكومة السوفيتية الملحده المدققة في أقل من ثلاث سنوات. ولا يمكن التهوين قطُّ من شأن أمر كهذا، ويمكن عدُّه ثورةً حقيقية في الحياة الدينية السوفيتية.

بيد أنه من ناحية أخرى، لم يتحقق من هذه الالتماسات إلا ستة في المائة (٦٪) طوال هذه السنوات الثلاث، ورُفض ما نسبته أربعة وتسعون في المائة (٩٤٪) من

= السيرغية البطريركية». فردَّ ستالين بملاحظة على هامش هذه الفقرة قائلاً: «الرفيق كاربوف، أنفق معك». وبذلك، زلزلت الأرض من تحت أقدام التجديدين، فلم تنجُ إلا كنيسة واحدة من الكنائس التجديدية الست في موسكو، ووفق كاربوف، انهالت الشكاوى من قساوستها بأنهم «يقومون على الطقوس الكنسية وهم بالغو السكر ويقولون البذاءات ويسبيون الفضائح».

Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 37-38;

انظر أيضًا: (Dunn, *The Catholic Church and Russia*, 109).

(120) *VRGV*, 93;

انظر أيضًا:

Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 58-60; Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 215.

لكن شكاروفسكي قال: إن عدد الالتماسات كان ستة آلاف واثنتين وسبعمائة التماس (٦٠٢)، وليس ستة آلاف واثنتين وأربعمائة التماس (٦٠٢).

وعلى الرغم مما بذله كاربوف من جهود وافرة، فإنه لم يُلبَّ إلا عددٌ قليل من آلاف الالتماسات التي قُدِّمت؛ ففي عام ١٩٤٤، قُدِّم ما لا يقل عن ستة آلاف واثنين وأربعمائة التماس (٦٤٠٢)، ولم يُفتح في هذا العام إلا مائتان وسبع (٢٠٧) كنائس. وفي عام ١٩٤٥ بعدها، تضاعف عدد الكنائس المفتوحة ليصل إلى خمسمائة وتسع (٥٠٩) كنائس، في مقابل عدد الالتماسات التي وصلت بنهاية العام إلى ستة آلاف وخمس وعشرين (٦٠٢٥) كنيسة. وفي عام ١٩٤٦، انخفض عدد الالتماسات إلى خمسة آلاف وواحد ومائة التماس (٥١٠١)، وكذلك انخفض عدد الكنائس التي أُعيد افتتاحها إلى ثلاثمائة وتسع وستين (٣٦٩) كنيسة^(١٢٠).

والواقع أن هناك طريقتين مختلفتين لتفسير هذه البيانات؛ فمن ناحية، يمكننا الإشارة إلى أن أكثر من ألف (١٠٠٠) كنيسة جرى افتتاحها تحت عين الحكومة السوفيتية الملحدة المدققة في أقل من ثلاث سنوات. ولا يمكن التهوين قطُّ من شأن أمر كهذا، ويمكن عدُّه ثورةً حقيقية في الحياة الدينية السوفيتية.

بيد أنه من ناحية أخرى، لم يتحقق من هذه الالتماسات إلا ستة في المائة (٦٪) طوال هذه السنوات الثلاث، ورُفض ما نسبته أربعة وتسعون في المائة (٩٤٪) من

= السيرغية البطريركية». فردَّ ستالين بملاحظة على هامش هذه الفقرة قائلاً: «الرفيق كاربوف، أنفق معك». وبذلك، زلزلت الأرض من تحت أقدام التجديديين، فلم تنجُ إلا كنيسة واحدة من الكنائس التجديدية الست في موسكو، ووفق كاربوف، انهالت الشكاوى من قساوستها بأنهم «يقومون على الطقوس الكنسية وهم بالغو الشكر ويقولون البذاءات ويسبون الفضائح».

Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 37-38;

انظر أيضًا: (Dunn, *The Catholic Church and Russia*, 109).

(120) *VRGV*, 93;

انظر أيضًا:

Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 58-60; Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 215.

لكن شكاروفسكي قال: إن عدد الالتماسات كان ستة آلاف واثنين وسبعمائة التماس (٦٠٢٥)، وليس ستة آلاف واثنين وأربعمائة التماس (٦٤٠٢).

جهود الأهالي لتأسيس كنائس جديدة من خلال القنوات الرسمية^(١٢١). فاحتمال نجاة المواطن السوفيتي دون إصابة من حصاري ستالينغراد أو لينينغراد أكبر بكثير من احتمالات نجاحه في الحصول على إذن بفتح كنيسة. فكيف يمكن للمواطن السوفيتي العادي أن يفسر هذا النوع المبهّم من «التسامح»؟

لا علم لنا بذلك، ولكننا على الأقل نعلم كيف فسّره كاربوف؛ ففي خطاب كاشف لمولوتوف، أبرز كاربوف النجاح الذي حقّقه التحالف الجديد بين الكنيسة الأرثوذكسية والدولة، لكنه حذّر من نمو «الحركات السرية» الدينية الكبيرة والمُنذرة بالخطر في الأماكن التي تتسم سلطة الكنيسة فيها بالضعف، وتفتقر إلى الكنائس^(١٢٢):

«في الأوبلاستات والرايونات التي يقوم فيها عدد ضئيل من الكنائس، نجد أن النشاط من رجال الدين والجماعات الدينية غير المسجّلة يُناهضون في مُجملهم الكنائس / الأرثوذكسية البطريركية الرسمية، ويؤاخذونها بعلاقتها الرسمية مع الحكومة السوفيتية، وما لأنشطتها من موقفٍ وطني.

[٦٢]

ونجد أن المؤمنين المتعصّبين الخاضعين لتأثير هذه الجماعات بسبب نقص الكنائس النشطة في رايوناتها، يختلفون غاية الاختلاف في توجُّههم عن جماعات المؤمنين الخاضعين لتأثير رجال الدين ذوي الميول الوطنية في الكنائس الرسمية. وقد أثارَت هذه الظروفُ

(١٢١) كان مشهد أماكن العبادة المقدسة المرخصّة رسميًا في تبليسي، التي كانت من أكثر عواصم أوراسيا تنوعًا دينيًا، في يناير / كانون الثاني من عام ١٩٤٤ مشهدًا هزيلًا؛ إذ روى أحد تقارير مجلس الشئون الدينية في ذلك الشهر أن المباني الدينية «النشطة» وفق كل أقلية دينية هي كما يلي: الإسلامية: صفر (٠)؛ اليهودية: اثنان (٢)؛ «الأرمنية-الجورجية»: واحد (١)؛ «الكاثوليكية اليونانية»: أربعة (٤)؛ الإنجيلية: ثلاثة (٣). وأما قائمة المواقع «غير النشطة» (nedeistvuiushchii)، فتتضمن مثلًا سبع عشرة كنيسة «أرمنية-جورجية» (NatArchGE R) (1880.1.1 ff. 3-4). وبحلول نوفمبر / تشرين الثاني، كان هناك مسجدان عاملان في تبليسي، سنّي وشيعي، على الرغم من أن كليهما لم يكن به، وفق وثائق مجلس الشئون الدينية، أي مسئولين يمكن أن يقال عنهم: إنهم من الملالي ("mulla mechet' ne imeet").

كل أنواع «الانتكاس» فيما يتعلق بإحياء المشاعر الدينية، في شكل «تجديد» الأيقونات، وتوزيع «رسائل دينية»، وعقد صلوات علنية في الحقول والآبار، وأنواع مختلفة من قراءة الطالع، والتحريض ضد اضطهاد الدين والكنيسة في الاتحاد السوفيتي.

أما لدى غالب رجال الدين في الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية في المدينة والقرية، فلا نجد دليلاً واضحاً على هذا النوع من انحراف الأنشطة الدينية.

إن محاربة هذه الظاهرة تمثل عقبة كبرى، بسبب القيود الإدارية وعدم تلبية التماسات افتتاح الكنائس، على نحو يدفع المؤمنين إلى إشباع حاجاتهم الدينية (zaproxy) سرّاً (v podpol'e)، وإنشاء كنائس «الغابات» و«الكهوف» و«السراديب».

وهكذا تكتمل الدائرة رجوعاً إلى «المسلك الناعم» نحو الدين الذي ساد منذ منتصف الثلاثينيات حتى أواخرها عندما انقلب عليه ستالين عشية الإرهاب الكبير. ولكن الآن بعد تراجع الاعتقالات الجماعية وحملات إغلاق الكنائس التي لاحت دوماً في الأفق أواخر العشرينيات وحتى الثلاثينيات، لم يعد هناك ما يمنع انتشار النشاط الديني «السري» انتشاراً سريعاً. وذهب كاربوف إلى أن التوقف في منتصف طريق تسخير كنائس «موالية» تخضع لمراقبة مجلس الكنيسة إنما يعظم الخطر ويضاعفه.

لكن افتتاح الكنائس لن يصل قطُّ إلى الدرجة التي أوما إليها كاربوف؛ ففي غضون بضعة شهور، ستوسع «الصفقة الجديدة» بين ستالين والنُخب الدينية السوفيتية لتشمل جميع الأديان الكبرى في البلاد، وهو ما سنبينه في الفصل الثاني. وستشكّل هذه «الصفقة» أساس السياسة الدينية السوفيتية خلال الخمسين عاماً التالية، وحتى سقوط الاتحاد السوفيتي، وستكون أيضاً نموذجاً للسياسة الحكومية نحو الدين لفترة ما بعد السوفيت في جميع أراضي الاتحاد السوفيتي سابقاً، وحتى يوم الناس هذا. وسنتقل في الفصل الثاني إلى المؤسسات الإسلامية التي أنشئت في هذا الإطار، وإلى الأئمة المسلمين الذين وثبوا إلى هذه المساحة السانحة حديثاً بين المؤمنين المسلمين والحكومة السوفيتية.

(٢)

ستالين إماماً:

البروباغندا السوفيتية الإسلامية في الحرب العالمية الثانية



/ تحكي إحدى القصص الشعبية البشكيرية أن ستالين استدعى أحد شيوخ [٦٣] الصوفية إلى موسكو وسأله عمّن سيكون النصر حليفه في الحرب العالمية الثانية؟ فأجابه الشيخ: «سأصلي لأعلم». فلما فرغ الشيخ من صلاته أخبره قائلاً: «سنتصر»، لكنه استدرك موضحاً أنه لكي يقع ذلك، يجب على ستالين فعل أمرين: «صل، ولا تأمر بالانسحاب!». وتبعاً لهذه الحكاية، ساعد الشيخ الصوفي ستالين على الوضوء ولقنه الشهادتين: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وبذلك أسلم ستالين، ودعا الله أن ينصر الجيش الأحمر في الحرب. وبعد سنواتٍ معدودة، تحققت نبوءة الشيخ، وتوجه إليه ستالين ممتنّاً، حيث سأله: «ماذا أفعل لأكافئك؟»، فردّ الشيخ بأنه لا قيمة لما عسى أن يقدمه له ستالين؛ لأنه ليس بحاجة إلى شيء. ثم طلب منه بلسان أمته: «عليك بتوطيد أركان الدين، وأن تأذن للمسلمين بالحجّ إلى مكة!»^(١).

(1) S.A. Kildin, S.Sh. Yarmullin, and F.F. Ghaysina, eds., *Bashkortostan— aulialar ile* (Ufa: Kitap, 2012), 225.

الراجع أن «الأمر بعدم الانسحاب» يشير إلى أمر ستالين الشهير رقم ٢٧ لشهر يوليو/ تموز من عام ١٩٤٢، الذي حظر فيه على الجنود التراجع تحت أي ظرف، أمراً للجيش الأحمر «الآ يتراجع خطوة واحدة». لكن الشيخ الصوفي في هذه القصة الشعبية هو من نُسب له الفضل في هذه الصيغة الشهيرة، ثم في الثبات الشهير (والدرامي) للعسكرية السوفيتية، وليس لستالين. وكذلك ربما تشير القصة ضمناً إلى الآية القرآنية الشهيرة عن الثبات في القتال، والتي نقلها إيشان باباخان في ثنايا هذا الفصل. وثمّ قصص شعبية مسيحية أرثوذكسية تعود إلى زمن الحرب أيضاً عن شخصية مشابهة. وفي قصة منها، تدور أحداثها في أثناء حصار موسكو، يتذكّر ستالين ما تلقاه من نصف تعليم ديني في شبابه، =

تنطوي هذه القصة العجيبة على شيء من الحقيقة؛ فهذا شيخ حقيقي، وقد مرَّ بنا فيما تقدّم، واسمه عبد الرحمن رسولوف، وقد استدعاه ستالين إلى موسكو ليستعين به على الانتصار في الحرب. ويسعنا أن نفترض أن ستالين قد امتنع عن الدخول في الإسلام، لكنه كان بحاجة حقًا إلى مساعدة الشيخ، فحصل عليها. والواقع أن مساعدة رسولوف لستالين لم تقتصر على الدعاء للجيش الأحمر، بل شملت أيضًا تعبئة مجتمعه [للمشاركة] في المجهود الحربي. وفي المقابل، لم يقتصر ما اكتسبه رسولوف والنخب الدينية الأخرى على تعزيز موقفهم في التفاوض مع النظام السوفييتي فحسب، ولكنهم اكتسبوا أيضًا قوةً ونفوذًا داخل المجتمع المسلم السوفييتي.

وسوف نتوفر في هذا الفصل على دراسة كيف استُدعي رسولوف ونظيره إيشان باباخان وغيرهما من زعماء المسلمين السوفييت من آسيا الوسطى، بغية تعبئة مجتمعاتهم في زمن الحرب، وكيف أسبغوا على الحرب ضد هتلر طابعًا إسلاميًا، وكيف حاولوا إرساء قاعدة للقيم / والمصالح المشتركة مع الدولة السوفييتية، وكيف أنهم استعملوا هذه الفرصة الجديدة في مخاطبة أتباعهم لبناء هوية دينية جماعية، بنبرة كانت كقيلة قبل سنوات بأن تزجَّ بهم في معسكرات الغولاغ أو تفضي بهم إلى القتل.

ويشتمل هذا الفصل على بعض الخطابات اللافتة مترجمةً عن الأوزبكية والبشكيرية والفارسية والروسية، وكلها دعوات لشنِّ الحرب على هتلر أطلقها المُفتون المسلمون السوفييت، بلغة تمزج بين البروباغندا السوفييتية في زمن الحرب والخطاب الإسلامي التقليدي حول «الجهاد»^(٢).

= ويدعو بعض القساوسة إلى الكرملين لعقد قداسٍ للنصر. وهنا، حلقت طائرة حول موسكو وهي تحمل أيقونةً إعجازية، ونجت المدينة من النازيين.

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 125-126.

(٢) لم تقف جهود البروباغندا الدينية عند استهداف الجماعتين المسلمة والمسيحية فحسب؛ إذ تقدّم في الملحق نموذجين من نداءات زمن الحرب لجماعتين آخرين؛ البوذيين الناطقين بالبورياتية واليهود السوفييت.

صعود نجم رسولوف

ينتسب عبد الرحمن رسولوف إلى أسرة عريقة من الزعامات الدينية البشكيرية في منطقة القولغا-أورال. وكان أبوه الشيخ زين الله رسولي شيخاً صوفياً من أهل الطريقة النقشبندية الخالدية، وأحد الرموز الأساسية لما يُعرف في الغالب بالحركة «الجديدية»، التي كانت تدعو إلى إصلاح التعليم التقليدي ونشر القراءة والكتابة^(٣). وقد لقي بعض مريدي زين الله مصارعهم في معسكرات الغولاغ، وهو مصيرٌ كان زين الله سيلقاه لولا أن أجله قد وافاه في عام ١٩١٧، قبل سنوات من بدء حملات التطهير المناهضة للإسلام. ويبدو أن زين الله قد اختار ابنه عبد الرحمن من بين أبنائه السبعة، ليكون خليفته على الطريقة النقشبندية الخالدية. وعلى الرغم من أن رسولوف معدودٌ من الزعامات المسلمة^(٤)، فإنه لم يعد خافياً على أحد كيف تجنّب الاعتقالات التي تعرّض لها كثيرٌ من معاصريه. فقد أصبح رسولوف -كما أسلفنا في الفصل الأول- متعاوناً مع البلاشفة، ووشى بنظرائه من النُخب الإسلامية، وقد آل أمر واحد منهم على الأقل إلى الموت بسبب بلاغات رسولوف. وفي عام ١٩٣٧، وبعد هذه الحوادث الفظيعة، عُيّن مفتياً أعلى للنظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا.

ولا نعلم بالضبط متى استدعي رسولوف للقاء ستالين أول مرة، وما إذا كان أول مُفتٍ يلتقي به أم لا، لكن الراجح أن أول لقاءٍ بينهما أيام الحرب وقع بُعيد الغزو الألماني. فقد التقى المطران سيرغي ستالين بعد انطلاق العملية ببروسا مباشرة في أواخر يونيو/حزيران من عام ١٩٤١، وتعهّد بحشد الأتباع من النصارى للمشاركة في أعمال الحرب. ويبدو أن لقاء رسولوف وقع بعده بمدة وجيزة؛ لأنه في الثامن

(٣) انظر:

Hamid Algar, "Shaykh Zaynullah Rasulev: The Last Great Naqshbandi Shaykh of the Volga-Urals Region," in Jo-Ann Gross, ed., *Muslims in Central Asia: Expressions of Identity and Change* (Durham, NC: Duke University Press, 1992), 112-133.

(٤) استعمل عبد الرحمن رسولوف نسبه الصوفي ليعمل وسيطاً بين جماعات المسلمين في منطقة القولغا-أورال وبين الدولة الروسية القيصرية، فساعد بصفته عضواً في المؤتمر الإسلامي الثالث للروس كلهم، المنعقد في عام ١٩٠٦، على إعادة تنظيم الإدارة القيصرية لشئون المسلمين.

عشر من يوليو/ تموز من عام ١٩٤١، عندما سقطت سمولنسك (Smolensk) في أيدي القوات النازية، نشر رسولوف أول نداء إلى المسلمين السوفيت في الحرب^(٥). وفي الشهر التالي، استقبل زائراً جاء لينقل إليه رسالة مفاجئة (تسرد هذه الحوادث إحدى بنات المفتي في سيرة عائلية مذهشة -شديدة التملق- ألفتها بعد الحقبة السوفيتية)^(٦):

[٦٥] / «وفي أغسطس/ آب من عام ١٩٤١، زارنا في بيتنا أحد كبار ممثلي الحكومة البشكيرية، وتجاوز مع أبي طويلاً. وقد روى هذا الضيف أن الحكومة السوفيتية قررت منح أتباع الإسلام حريتهم، والتوقف عن قمع أنشطة الجماعات الدينية، وفتح ما غُلق من المساجد. وهنا بدأت مرحلة جديدة في أنشطة النظارة الدينية المركزية لمسلمي الاتحاد السوفيتي؛ إذ تحولت من مؤسسة لا قيمة لها بالنسبة للحكومة السوفيتية إلى مؤسسة عظيمة النفع».

وفي الوقت نفسه، شرع أعضاء البيروقراطية المنوط بها شنُّ الحرب على الدين في تأييد نهج أكثر اعتدالاً في فرض الإلحاد، وإن لم يتحدثوا كثيراً في ذلك؛ ففي السابع والعشرين من يونيو/ حزيران من عام ١٩٤١، أي بعد انطلاق الغزو النازي بخمسة أيام، عُيِّن قرار إداري على المجلس المركزي لعصبة المناضلين الملحدين يحثُّ على إعادة هيكلة جهود العُصبة في وقت الحرب، بحيث تركز على أوروبا وغندا المناهضة للفاشية وتقديم المعونة للجبهات، وهو ما اشتمل على جمع النفايات المعدنية للمصانع الحربية والملابس للجيش الأحمر والتبرعات للمستشفيات والتمويل لأعمال الدفاع بشكل عام. وبعبارة أخرى، كان من المقرر

(5) Ro'i, *Islam in the Soviet Union*, 103n15; Tasar, "Soviet and Muslim," 101-105; Kolarz, *Religion in the Soviet Union*, 426.

(6) S.G. Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva* (Cheliabinsk, 2000), 121.

أن تُجرّد أنشطة الملحدين المناضلين في الوقت الحالي من المحتوى الإلحادي الصريح^(٧).

على أن ذلك لم يكن يعني قطُّ أن العصبة ستتوقف عن كونها «حركة جماهيرية»؛ ففي خطاب موجّه لمسئول حزبي بلدي في السادس والعشرين من مارس/ آذار من عام ١٩٤٢، أوضح إيروسلافسكي رئيس العصبة أن تغيّر توجّهها لا يعني حلّها، ولا يعني حتى تحوّلًا دائمًا في سياستها، ولكنه مجرد استراتيجية للتكيّف مع ظرف الحرب^(٨). فمهمة القضاء على الدين ما زالت هدفًا طويل المدى؛ ومن هنا ليس ثمة تغيّر جوهري مطلوب في أيديولوجيا الملحدين المناضلين.

وفي الثاني من سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤١، أي: بعد مرور ثلاثة أشهر من الغزو النازي، ألقى رسولوف خطبةً ملتهبة جاء فيها^(٩):

(7) R.Sh. Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvenno-religioznoi politiki SSSR," *Veštnik Cheliabinskogo Gosudarstvennogo Universiteta* 22/237 (2011), 94.

لا نجد كثيرًا من الأدلة على استمرار البروباغندا المناهضة للدين في الصحافة السوفييتية في زمن الحرب، مثل مقالة دعائية من شهر مايو/ أيار من عام ١٩٤٤، في جريدة قِزِل عسكر حقيقيتي [حقيقة الجندي الأحمر] الناطقة بالأوزبكية، كتبها ضابط أوزبكي يزعم زعمًا عابِرًا أن العرب قد أكرهوا سكان وسط آسيا على الإسلام.

انظر:

"O'zbek xalqining qahramonona o'tmishi," *Ikkinchi jahon urushi va front gazetolari. Birinchi kitob* ed. Ruštam Shamsutdinov (Tashkent: Akademnashr, 2017), 438.

(8) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvenno-religioznoi politiki v SSSR," 94.

(9) R.A. Raev and R.I. Jaqubov, eds., *Islam iuldarynda: Sufyisylyk habaqtary ham shaiekh Zainulla Rasulev shazharane. Islam dine tarikhy, atharhar ham khalyq izhady* (Ufa: MUDN RF, 2011), 65-68. On this appeal, cf. also: Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—šarshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 122; S. Evans, *The Churches of the USSR* (London: Cobbett, 1943), 158-159; Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 174; Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e. 1940- e gg.*, 33.

إخواني المسلمون الكرام!

لا يخفى على أحد أن الحرب قد أشعلها عدوٌ خبيث متجبر لا تعرف الرحمة إليه سبيلاً، هاجم وطننا الحبيب دون إنذار، في اعتداء لم تعرف له الإنسانية نظيراً. إن الوطن يعاني اليوم من مقتل أصدقائنا وإخواننا على جبهات القتال، فترملت النساء وذاق الأبناء مرارة اليتيم. إنه ذنب المعتدين، فبهجومهم على وطننا، حكموا على الأخوات والأبناء بالمصائب؛ ولذلك جُمعنا هذه (*dukhovnoe sobranie*) تدعوكم للدفاع عن الوطن باسم الدين (*vo imia religii*)، وأن تدعوا إخوانكم / المسلمين للدفاع عنه. ولا مناص من دعاء الله في المساجد والمصليات لنصرة الجيش الأحمر على العدو.

[٦٦]

أيها المسلمون الكرام!

إنها حربٌ [في سبيل الحق]؛ حربٌ في سبيل الوطن. والقتال حتى إخزاء العدو فرضٌ على المسلمين (*s tochki zreniia religii obiazany*) على الخطوط الأمامية للقتال وفي الجبهة الداخلية؛ فلقد قال الله في القرآن: قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ وَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَارِينَ^(١). إن الانتقام شرٌّ من الموت، والعدو ينتقم منّا، فلن يعاقبنا الله على تدميره^(١٠). وَلَا تَفْتَرُوا. ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا

(١) لا نعلم حديثاً أو آيةً تحمل هذا المعنى ولو ضمناً، فالفرار يوم الزحف من الموبقات حقاً، لكن لم يرد في القرآن ولا في حديث رسول الله ﷺ، فيما نعلم، بغضُ الله للفارين من الزحف. وقد وافقنا المؤلف على ذلك في مراسلاتٍ بيننا قال فيها: «أظن أن هذه الآية هي إشارة محرّفة أو غير صحيحة للآية الخامسة عشر من سورة الأنفال، والجزء «المحرّف» هو الحديث عن «بُغْضِ» الله للفارين، وهو ما يبدو إشارةً خاطئةً للآية التسعين بعد المائة من سورة البقرة التي نصّها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. ومن المؤسي أن رأساً دينياً أو ذا مكانة عالية يخلط في نصّ كهذا، لكن لا غرابة في ذلك؛ إذ تجد في الصفحة نفسها إشارة لـ «حديث» يقول: «حب الوطن من الإيمان»، لكنني أعتقد أنه ليس بحديث حقيقي! والظاهر أنه شاع في العصور الحديثة بين العثمانيين». (المترجم)

(١٠) تبدو فكرة أن الألمان «ينتقمون» مجازاً شائعاً في أوروبا وغندا السوفيتية أيام الحرب؛ إذ تصوّر أن الشعوب السوفيتية قد أوقفت المحاولات الألمانية السابقة للهيمنة الاستعمارية [عليها - م].

مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
 الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ . إنكم تحاربون من اعتدى عليكم دون إنذار بالحرب،
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿٦٧﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ
 أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ . وقد قال رسول الله ﷺ: «حب الوطن
 من الإيمان».

وقد ذكرت ابنة رسولوف أن هذه الخطبة لم تُلَق في المساجد فحسب، وإنما في
 المصانع واجتماعات النقابات التجارية أيضًا. وقد تلقى المفتي رسائل امتنان لا
 حصر لها، لا لمشاركته في المجهود الحربي فحسب، ولكن لما يحمله خطابه أيضًا
 من معنى مستتر لا تخطئه العين، وهو بتعبير ابنته أن «الإسلام لن يُقمع بعد اليوم»^(١١).

والراجح في واقع الأمر أن الجماهير استقبلت أولى نماذج البروباغندا السوفييتية
 الإسلامية بمزيج من الحيرة والشك. وكذلك كان من المربك استدعاء رسولوف
 إلى مساجد ومصليات أُغلق كثير منها، أو خُرِّبت خلال العقدين السابقين،
 واستشهاداته من القرآن التي كان مجرد الإلماح إليها يستلفت انتباه الشرطة
 ويستوجب تحقيقها، ودعوته المسلمين إلى القتال في سبيل وطنهم، ولكن بوازع
 من دينهم، ونصوصهم الشرعية المتعلقة بطبيعة الحرب؛ كل هذه أفكار استهزئ بها
 طويلًا بوصفها أفكارًا ظلامية في أحسن الأحوال، ورجعية في أسوأها. ومهما يكن
 من أمر، فإن أهمية ما لم تقله هذه الخطبة يوازي أهمية ما قالت؛ ففي حين أن
 المضمون المتعلق بالهجوم النازي الجبان والخيانة والفضائح التي ارتكبت ضد
 المدنيين يمكن الوقوف عليه بسهولة في البروباغندا «العلمانية» التي عُممت في
 جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي في آنٍ واحد، وكانت في غالبها / باللغة الروسية، لا [٦٧]
 نجد كثيرًا من دوافع هذه البروباغندا الأساسية هنا؛ فلا نجد مقابلة (ضمنية أو
 صريحة) بين الاشتراكية والفاشية، ولا نجد ذكرًا للكادحين أو للاستعمار أو مناهضته
 أو الأبطال («القوميين» أو غير ذلك)، ولا نجد إشارة إلى صداقة الشعوب. وكذلك

(11) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*,

لا تُنفى في هذا المقام الرؤية السوفييتية الواضحة للتاريخ، التي أكثرت پروباغندا زمن الحرب من اجترارها، والتي فيها أن البلاشفة حرروا مختلف شعوب أوراسيا وأسبغوا عليهم رداء الحماية من عدوان الاستعمار، لنجد مكانها نوعاً «أعمق» وأقل تحديداً من التاريخ، فالنازيون هم «العدو» المجهول المذكور في القرآن، وشرٌّ عظيم سيدفعه أهل الإيمان. ولكن پروباغندا الموجهة للمسلمين السوفييت ستحتمل بعد ذلك في أثناء الحرب مزيداً من السمات التي اتسم بها نمط پروباغندا الحرب السوفييتية الموجهة إلى «عموم» الجماهير، وخاصةً محتواها السياسي. ولكن المبالغة في تكرار كلمة «الوطن» (Rodina) خلال الأيام الأولى، وهي الكلمة التي تعني الاتحاد السوفييتي بلا نزاع، تشير إلى وجود مجتمع آخر غير المجتمع المسلم.

ولكن يبدو أن الجمع بين جهود رسولوف المحدودة والطموحة في پروباغندا والدعم الرسمي «السليبي» للإسلام (عن طريق إرخاء حبل مساعي القمع المناهض للدين) لم يكن له خلال شهور الحرب الأولى إلا أثر ضعيف في الروح القتالية لدى الجنود المسلمين السوفييت؛ فقد كشف تقرير داخلي في الإدارة السياسية الرئيسية للجيش الأحمر أن ثمانين في المائة (٨٠٪) من الجنود الفارّين من مواقعهم في الفترة ما بين فبراير/ شباط وإبريل/ نيسان من عام ١٩٤٢ إنما يتحدّرون إلى أصول «غير روسية» (أي غير سلافية)^(١٢). وأصبحت كلمتا «يوسُپ» (Yusup) (النطق الروسي لاسم إسلامي شائع [يوسف]) و«يولدوش» (Yoldosh) (المقابل التركي لكلمة رفيق) تُستعملان في تعبير الجنود من غير السلاف والسخرية منهم^(١٣)، وكان بعض القادة يمزحون قائلين: إن الجنود غير السلاف لا يمكنهم إلا التأوه بلفظتي: «معدتي تؤلمني» (Korsak bolit)^(١٤). لقد خدم غالب الجنود غير الروس في كتائب مختلطة وتحت إمرة قيادات سلافية، ولا بد أن حنينهم إلى الوطن وشعورهم

(12) Shin, "Red Army Propaganda for Uzbek Soldiers and Localised Soviet Internationalism during World War II," 46.

(13) Schechter, "The People's Instructions," 112.

(14) Shin, "Red Army Propaganda for Uzbek Soldiers and Localised Soviet Internationalism during World War II," 46.

بالاغتراب كان عميقًا. فيُروى أن أحد الجنود الأوزبك بكى وانتحب عندما سمع لغته الأم^(١٥)، وتحسّر جنديٌّ كازاخي أصبح بطلاً في [معركة] الدفاع عن موسكو قائلاً: «إنني أرى في عدم تخصيص ما يكفي من اللغة والأدب والموسيقى الأصليين للمقاتلين الكازاخ على الجبهة جريمة نكراء»^(١٦). وفي الوقت نفسه، كان القادة السلاف يشعرون بالإحباط عند التواصل مع الجنود المسلمين الذين ينتسبون إلى القوقاز وآسيا الوسطى؛ إذ كانوا في كثيرٍ من الحالات لا يتكلمون الروسية. ويُروى أن أحد هؤلاء القادة قال: «دعهم لتدهسهم الدبابات ويضربهم العدو بالنار... وبذلك سنُستدعى إلى المؤخرة لإبدال القتلى من الجنود. يجب علينا إنقاذ القوزاق والروس، ففيهم نفعٌ [عن هؤلاء -م]»^(١٧).

[٦٨] / وفي موسكو، رأى البعض أن المشكلة بسيطة، فجهود أوروبا عندما الموجهة لغير السلاف محدودة للغاية. وكانت هذه الجهود تُمنى بالفشل؛ لأن غالبها ظل خلال مراحل الحرب الأولى باللغة الروسية، ولم يتناول إلا المخاوف «الروسية». بل إن أوروبا عندما التي ذكرت الشعوب المتنوعة في الاتحاد السوفييتي، اتسحت بمسحة شوفينية أكدت على مكانة السلاف بوصفهم «الأخ الأكبر»؛ فـ «إيفان»^(١) يقود و«يوسپ» يتبعه. والأنكى من ذلك أنه في الوقت الذي عجزت فيه الحكومة السوفييتية عن تقديم أوروبا عندما للجنود غير السلاف، كان النازيون على تواصلٍ مباشر مع المواطنين المسلمين السوفييت من خلال نداءات التشجيع التي وجَّهوها إليهم رجاء تشجيعهم على الانضمام إلى حملة «التحرير».

(15) Shin, "Red Army Propaganda for Uzbek Soldiers and Localised Soviet Internationalism during World War II," 46.

(16) Schechter, "The People's Instructions," 116.

(17) Shechter, "The People's Instructions," 112.

(أ) إيفان (Ivan - Иван) اسم ذكر سلافي، واسع الانتشار في روسيا وأوكرانيا و صربيا وجميع الدول السلافية، وهو تحوير للاسم اليوناني «إيونس» (Ιωννης) المحوّر بدوره عن الاسم العبري التوراتي «يوهانن» نظير الأسماء (Johannes) اللاتيني و (John) الإنكليزي و«يوحنا» العبراني، و«يحيى» العربي، والتي تعني «حنَّ الله وترحم وتكرَّم» أو «الله الكريم».. وكان الاسم علمًا على السوفييت في الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

ولقد صدرت هذه الملحوظات عن سُلطة لها وزنها، أعني لا فرينتي بيريا الرئيس سيئ السُّمعة لمفوضيَّة الشعب للشؤون الداخليَّة؛ ففي أوائل مارس/ آذار من عام ١٩٤٢، عندما ترأس بيريا معسكرات الغولاغ التي تغطُّ بالمعتقلين المسلمين المتدينين، لاحظ أن النازيين قد حققوا تقدماً في حرب أوروبا عندما الرامية إلى السيطرة على عقول المسلمين^(١٨)، وأن هناك حاجة ماسَّة إلى إجراءات مضادة أقوى. وكان تواصل رسولوف مع المسلمين السوفييت هو الشيء الذي بحث عنه بيريا.

وفي الوقت نفسه، وضعت الإدارة السياسيَّة للجيش الأحمر (PURKKA) -المصدر الرئيس للبروباغندا في زمن الحرب- نصب أعينها بلورة خطة عمل طوال خريف عام ١٩٤٢ وشتائه. وفي حين عُنّف بعض ضباط الجيش بسبب غلظتهم في التعامل مع مرؤوسيه من غير السلاف، فإن انخفاض معنويات هؤلاء الجنود أثارت في الغالب الاتهامات والنقد الذاتي بين صفوف مسؤولي الحزب، وعُدَّ «ضعف النشاط السياسي والتعليمي للحزب» سبباً في «[حالات] التمرد وإيذاء النفس والفرار والخيانة لدى بعض رجال الجيش الأحمر من المنتسبين إلى القوميات غير الروسيَّة»^(١٩).

ويمكننا معاينة شيء من الغطرسة في قناعة هؤلاء الدعاييين بأن رفع الروح المعنويَّة للمسلمين يتوقَّف فحسب على إدارة حملة بروباغندا أفضل. ولكن لا شك أن المسؤولين كانوا على شيء وكان فيما ذهبوا إليه شيء من الحقيقة: فلماذا يقاتل المسلمون تحت إمرة ستالين في نهاية المطاف؟ ويمكننا تخيل الأسئلة التي ربما دارت على موائد العشاء في آسيا الوسطى في العام الأول للحرب: هل يكره هتلر المواطنين السوفييت أم النظام السوفييتي؟ هل سيقسو في معاملتنا؟ هل تفوق قسوته قسوة ستالين؟ هل يكره هتلر الإسلام؟ وهل يكرهه بمقدار كره ستالين له؟ ربما كان

(18) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvenno-religioznoi politiki v SSSR," 93.

(19) Schechter, "The People's Instructions," 114.

لهذه الأسئلة وجاهة، وستظل كذلك، وخاصةً لأنه يبدو، كما يبيّن [ديفيد] معتدل، أن هتلر أنزل الإسلام منزلة سامية بين أديان العالم^(٢٠)، وأنه لم يُفصح قطُّ عمّا وضعه من خطط طويلة المدى لشعوب آسيا الوسطى المسلمة (أو نظريات عرقية عنهم).

/وبغض النظر عن خطط هتلر، فقد أمّل الدعائيون السوفييت في إثارة انطباع [٦٩] واضح وقوي لدى المسلمين بأن الجيش الأحمر جيشهم، وأن الاتحاد السوفيتي وطنهم، وأنهم يمكنهم أن يكونوا أبطالاً في الكفاح، ويجب عليهم ذلك. ولقد وضع شيرباكوف في أمرٍ صادر بتاريخ السابع عشر من سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٢ بياناً من ثمانية بنود ستنتقل منها الموجة الجديدة من البروباغندا الموجهة إلى «غير الروس»^(٢١):

(أ) الجيش الأحمر جيشُ الأخوة بين شعوب بلادنا. (ب) ما الذي منحتهُ السُلطة السوفيتية لشعوب الاتحاد السوفيتي؟ (ج) ما الذي سيجلبه الهتلريون على شعوب الاتحاد السوفيتي؟ (د) نافحوا عن استقلال الجمهوريات القومية كلها على جبهات الحرب الوطنية الكبرى. (هـ) الالتزام الصارم لدى المقاتلين السوفييت وصمودهم هو السبيل إلى الانتصار. (و) أبطال الاتحاد السوفيتي ميلزيدكوف (Mil'dzikov) وقربان ديربي (Kurban-Derby) وغيرهما. (ز) دور الشعب الروسي العظيم في الكفاح في سبيل حرية شعوب الاتحاد السوفيتي واستقلالهم وبناء الاشتراكية في الجمهوريات السوفيتية الشقيقة. (ح) دور الشعب الروسي العظيم في الحرب الوطنية لشعوب الاتحاد السوفيتي ضد ألمانيا الهتلرية.

كان رسولوف سابقاً لشيرباكوف في كل هذه المضامير؛ فقد فصّل في هذه النقاط -ونقاط أخرى غيرها وأكثر أصالةً منها- في نداءٍ نشره في مايو/ أيار من عام ١٩٤٢

(20) Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 25-28.

[في سبيل الله والفوهرر، ص ٥٩-٦٤].

(21) Schechter, "The People's Instructions," 115n27.

في جريدة ترود [العمل] (Trud)، وهي جريدة رسمية بارزة تصدر في موسكو. وقد تُرجم الخطاب -الذي كان في ظاهر الأمر موجَّهًا لأعضاء النظارة الدينية المركزية- فورًا إلى اللغات التترية والبشكيرية والكازاخية والأوزبكية والعربية والتركية والفارسية والهندية، وجرى تعميمه على نطاق واسع داخليًا وخارجيًا⁽²²⁾:

«إخواني المسلمون الكرام!

إن تعاليم الله ورسوله محمد ﷺ تحضُّ المسلمين على القتال في الميدان بلا هوادة؛ في سبيل تحرير وطننا العظيم والعالم الإسلامي والإنسانية كلها من قبضة الفجرة الفاشيين. يا رجال جبهة الداخل ونساءها، لا تستسلموا للجبين والهلع، واشتدُّوا في فعل كل واجبٍ للانتصار في معركة الوطن وأمن الناس وحياتهم.

ويئنوا للعالم أجمع في هذا الجهاد المقدس دفاعًا عن أرض الأجداد (*v etoi sviatoi Otechestvennoi voiny*) ضد ألمانيا الفاشية وأتباعها، / ولاءكم لوطنكم، وبرهنوا على استقامتكم، وادعوا في المساجد والمصليات أن ينصر الله الجيش الأحمر.

[٧٠]

إننا نحن علماء الإسلام (*uchenye islama*) وأئمة الدين القاطنين في الاتحاد السوفييتي ندعو المسلمين جميعًا للدفاع الشامل عن وطننا الحبيب وعن العالم الإسلامي من الفاشيين الألمان وأذئابهم. ادعوا الله الرحيم عز وجل أن يعجِّل بخلص البشرية والعالم الإسلامي

(22) Raev and Iaclubov, eds., *Islam iuldarynda*, 65-68.

انظر أيضًا:

Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvenno-religioznoi politiki v SSSR," 94; Guseva, *Rossiiskii musul'manin v XX veke (na materialakh Srednego Povolzh'ia)*, 153; Iunusova, ed., *225 let Tsentral'nomu dukhovnomu upravleniiu musul'man rossii: Istoricheskie ocherki*, 262; Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e. 1940- e gg.*, 34.

كله من طغيان الفاشيين أعداء الإنسان (*chelovekonenavistnikov-fashistov*)

ما من مؤمن حقيقي (*pravovernyi*) اليوم إلا وله ابنٌ أو أخ أو أب يقاتل الألمان، وما من مؤمن حقيقي يتلصق في حمل السلاح للدفاع عن وطننا المشترك. وما من أحدٍ في الجبهة الداخلية إلا ويشارك في تحقيق النصر من خلال عمله في المصانع والمزارع. ونحن، المسلمون، نتذكر حديث رسول الله محمد ﷺ: «حب الوطن من الإيمان».

وكما كانت الحال في نداء رسولوف العام السابق والمنشور بعد عدة أيام من اندلاع الحرب، تشير دعوة الحشد هذه في ثناياها إلى أنه ليست الحكومة وحدها هي التي تدعو المسلمين إلى خوض غمار القتال، بل إن الله ذاته ورسوله ﷺ يدعوانهم إلى ذلك. وكذلك كانت الدعوة إلى «الحرب دفاعاً عن أرض الأجداد» موضع إجماع بين المسلمين السوفييت، ووجه المسلمون مرةً أخرى إلى القليل الذي بقي من المساجد ليدعوا للجيش الأحمر، واختتم رسولوف الخطاب بصيغة شهيرة ساوى فيها بين الوطن بالعربية -الذي يفهم في الأساس بوصفه البلد أو الأمة أو مسقط الرأس- وكلمة (*Rodina*) الروسية (التي تعني الوطن، أي الاتحاد السوفيتي كله).

لكن الجديد والمثير هنا أن رسالة رسولوف في جريدة ترود -خلافًا لخُبطته في صيف عام ١٩٤١- تعرض للحرب بوصفها كفاحًا إسلاميًا عالميًا. ولم يمرَّ رسولوف على هذه النقطة مرور الكرام، بل على الرغم من أن تركيز خطبة الحشد الأولى كان على مسلمي الاتحاد السوفيتي، فإن رسولوف يُكرّر في هذا النداء ما لا يقل عن ثلاث مرات أنه ليس «الوطن» القريب فحسب الذي تمسُّ حاجته إلى الإنقاذ، بل «العالم الإسلامي» (*musul'manskii mir*) كله. ونظرًا لأن أوروبا عندما السوفيتية العلمانية أمعنت في التركيز على «صداقة الشعوب [السوفيتية]»، وظلَّت على ذلك سنوات بعدها، فإن مناشدة رسولوف شعور المسلمين بانتسابهم إلى

رابطة أممية تبدو مباينةً صادمةً [لهذه السردية السوفيتية -م]؛ إذ كانت المجاهرة بهذا النوع من «الأممية البرجوازية» قبل ذلك بأربع سنوات أو خمس، وهي الأممية المغلفة بالدين أيضًا، قد يُفضي إلى الزجّ برسولوف في معسكرات الغولاغ أو ربما تعريضه لما هو أسوأ من ذلك، والآن نجد هذه اللغة متداولة بموافقة ضمنية من الحزب في واحدة من أهم الجرائد الرسمية.

[٧١] / لقد كان أساتذة البيروباغندا السوفيت، كما يذكر ششتر وغيره، حاذقين في فنّ تحوير الرسالة ذاتها لتلائم احتياجات بعض الجماعات، فيكيّفوا الرسالة من خلال استخدام أسماء أبطال الأساطير والتراث والجيش الأحمر من أبناء القومية المستهدفة. بيد أن مسؤولي البيروباغندا المحترفين في الإدارة السياسية للجيش الأحمر لم يكونوا وحدهم هم النخبة التي برعت في فنّ تعديل الرسالة لتناسب الحشود المخاطبة؛ ففي الشهر ذاته، مايو/ أيار من عام ١٩٤٢، خاطب رسولوف مسلمي أوفا بما سمّاه «نداءً مخلص للمسلمين» (*nāsikhāt bān musulmānlarḡha*) (*murāja'at*) في مؤتمر (قرولتاي) كبير لبعض النخب المسلمة^(٢٣)، وفيه زاد رسولوف من جرعة الرسالة «الأممية» التي انطوى عليها نداء تروود، وأسهب في بيان ما يتشاركه المسلمون من تاريخ. وباللغة البشكيرية، خاطب رسولوف جماعته الأم من مسلمي منطقة القولغا-أورال، وصوّر الحرب على أنها كفاحٌ إسلامي أممي ضد الإمبريالية في المقام الأول، أما «صداقة الشعوب [السوفيتية]»، بل «الوطن» السوفيتي نفسه، ليسا إلا أمورًا ثانوية.

وفي هذا النداء، صوّر رسولوف النازيين وحلفاءهم؛ فذكر أنهم الحفّدة المباشرون لـ «الحكومات الإمبريالية وأعداء الإسلام» (*islām dushpandari imperyalist*)

(23) AkadNkTat MS 4046: fol. 1. This conference is mentioned in Ro'i, *Islam in the Soviet Union*, 103 and T.S. Saidbaev, *Islam i obshche.slvo* (Moscow: Nauka, 1984), 188. Cf. also Walter Kolarz, *Religion in the Soviet Union* (New York: St. Martin's, 1961), 427; V.A. Akhmadullin, "Deiatel'nost' organov gosudarstvennogo upravleniia SSSR i rukovoditelei dukhovnykh upravlenii musul'man po sozdaniiu vsesoiuznogo musul'manskogo tsentra," *Vlast'*8 (2015), 2-3.

(*ükumattar*) في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا، الذين محوا في العصور الوسطى تلك الثقافة الإسلامية الرفيعة التي سادت جنوب إسبانيا (الأندلس)، وأنهم حفدة الصليبيين «الإمبرياليين» الذين هاجموا الشرق الأوسط، معبراً عنهم في الحاليتين بحكومات (*ükumattar*) ألمانيا وإيطاليا وفرنسا. وذكر رسولوف أن هؤلاء «الفاشيين الألمان وأذناهم الأوروبيين» (*german fashištar va ularning qurshaqlari*) إنما انطلقوا بعد ذلك خلال الحقب التالية يغزون العالم كله، ويمحون الأديان والثقافات والعادات والتقاليد، ويسعون إلى تقديم «القانون الألماني النقي» والذين «البروتستانتية» على ما سواهما^(٢٤)؛ فخرّبوا في طريقهم الكتاتيب «المدارس الابتدائية» (*maktabs*) والمساجد.

وأشار رسولوف بعد ذلك إلى أن الألمان والطلّيان دمروا مؤخرًا الثقافة الإسلامية في «أرض الإسلام» طرابلس الليبية، وتجبروا على السكان، وفيهم الشيوخ والنساء والأطفال^(٢٥). وبعد أن أوما المفتي إلى الدمار الذي لحق بالمسلمين في الحبشة وألبانيا، حذر من أن الألمان و«أذناهم» قد يّمّموا وجوههم الآن شطر أرض التتر، يدمرون المكاتب ويروّعون الناس. ففي القرم، خرّب الفاشيون الألمان كثيرًا من المساجد، وأحلّوا رمزهم الفاشي «الصليب الأسود» (*qara karas*) محل الهلال الإسلامي أعلى المساجد^(٢٦). لقد حرّموا المسلمين من الصلاة (*namaz*)، واستهزؤوا بالعادات والتقاليد الإسلامية، وافتضؤوا بكارة الفتيات، وغلقوا الكتاتيب، وأتلفوا عددًا لا يحصى من المؤلفات والمباني؛ بغية محو / التقاليد «التتيرية التركية»- (*tatar-turk adattarin*). وزعم رسولوف أن الأطفال المسلمين حُظر عليهم ارتداء الملابس «الشعبية» التتيرية، وحُرّم عليهم التسمّي بأسماء المسلمين، وكانوا يؤخذون في المقابل إلى «قساوسة ألمان» (*nemis pöpdar*) ويُسمّون أسماء ألمانية. وقال المفتي: إن شوارع القرم تَغصُّ بالمسلمين الجوعى المعدمين^(٢٧).

(24) AkadNkTat MS 4046: fol. 2.

(25) AkadNkTat MS 4046: fol. 3.

(26) AkadNkTat MS 4046: fol. 4.

إنني شديد الامتنان لألفريد بوستانوف على تفسيره لي هذا السطر من النص.

(27) AkadNkTat MS 4046, fol. 4.

وبعد أن تلا رسولوف بعض الآيات القرآنية^(٢٨)، ناشد مسلمي العالم أجمع (لا مسلمي الاتحاد السوفيتي فحسب) الانخراط في «الكفاح المقدس» (*muqaddas kürašh*) ضد الألمان وحلفائهم، وسألهم الدعاء للجيش الأحمر في المساجد ودور العبادة (*ibadat jāylar*)، وحذّر من أن العدو يتهدّد البلاد بالخراب التام؛ والقضاء على علوم المسلمين وثقافتهم ودينهم وبلادهم ولغاتهم وعاداتهم، ثم ختم حديثه بدعوة المسلمين جميعاً إلى المشاركة في الكفاح، والمشاركة إلى التصدي للعدو في ميدان المعركة، سائلين الله الرحمة ومستعينين به^(٢٩).

وفي الوقت الذي رسم فيه رسولوف صورةً قاتمةً لهجوم الألمان على القرم، كان الرايخ يفعل العكس تماماً في الواقع، منفذاً في المنطقة ما سمّاه [ديفيد] معتدل «سياسة دعم جذرية للمسلمين»، وكانت له مسوغاته في ذلك^(٣٠)؛ إذ أعيد افتتاح المساجد، ورُدّت المدارس إلى ملكية المسلمين وإدارتهم، وأُذن بالاحتفال بالأعياد الإسلامية بعد أن كانت من المحظورات، بل وشجّع عليها. وتأسست إدارة بيروقراطية يقوم عليها الألمان للإشراف على شئون المسلمين في القرم، وخطّط لأمرٍ مماثل في القوقاز. ووصف أحد المراسلين في القوقاز المشهد قائلاً: «إلى

(28) AkadNkTat MS 4046, fols. 5-6.

تلا رسولوف هذه الآيات: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴿ [البقرة، ١٩٠-١٩١]؛ ﴿ أَلَنْ حَقَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿ [الأنفال، ٦٦]؛ ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿ [محمد، ٣٤]؛ ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿ [سورة الأنفال، ٦٠]؛ ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ [التوبة، ٤١].

(29) AkadNkTat MS 4046, fols. 7-8.

(30) Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 52.

[في سبيل الله والفوهرر، ص ٩٤].

جانب علم الرايخ، ترفرف الراية الخضراء ذات الهلال والنجمة، والتي انتصر تحتها محمد [ﷺ] ذات مرة على اليهود»⁽³¹⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن التوجه الأممي المناهض للاستعمار في تعليق رسولوف يبدو بارزًا جليًا، فالعالم ما قبل السوفييت انقسم إلى «إمبرياليين» أوروبيين وضحاياهم، وكان مسلمو العالم هم أبرز هؤلاء الضحايا⁽³²⁾. وكانت مناهضة الاستعمار لغة احتجاج رائجة آنذاك في أوراسيا، وفي الاتحاد السوفييتي بلا ريب. لكنها كانت أيضًا لغة استعمالها الألمان في شمال إفريقيا وعلى الجبهة الشرقية، في محاولة منهم تعبئة المسلمين لشنّ الجهاد مصطفين مع الرايخ⁽³³⁾.

لكن المفاجئ والجديد في سياق الروايات السوفييتية هو أن رسولوف لم يذكر الاتحاد السوفييتي نفسه مطلقًا، اللهم إلا من خلال الإشارة إلى الجيش الأحمر. وقد أسلفنا الإشارة إلى تواتر ذكر فكرة «الوطن»، ودعاوى التشارك في الأهداف بين

(31) Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 139-140; 149-150.

[سبيل الله والفوهرر، ص ١٩٦-١٩٨، ٢٠٧-٢٠٩]. لم يتردد رسولوف في إظهار الاشمئزاز من الأئمة المسلمين الداعمين للنازيين، من أمثال أمين الحسيني، المسمّى «مفتي القدس الأكبر»، الذي دعا العرب لمؤازرة هتلر، فقال [أي رسولوف -م]: «الحق أن الفاشيين الألمان والطيّان يبذلون قصارى جهدهم ليضمنوا الشرق الأدنى في صفّهم قاعدة استراتيجية مهمة. والمفتي الأكبر... خائنٌ وعميلٌ للغيستابو، وما يفعل إلا خدمة أسياده».

(32) إن رؤية الاستعمار بوصفه حملة صليبية على الإسلام لها تراث طويل في خطابات المنطقه المناهضة للاستعمار، وتستدعي تعليقات رسولوف على الطليان في ليبيا ما كتبه الفقيه البخاري المشهور صدري ضياء عن الموضوع نفسه في يومياته. وهاك ما يقوله هذا الأخير عن أقوال جندي إيطالي (متخيل) في طريقه إلى طرابلس: «آه يا أماه! ... إنها حرب على الإسلام، وتناسب الفتيات العذراوات أيضًا. سأقاتل لأمحو القرآن، وسأقتل في سبيل وطني».

Şadr-i Ziya, *The Personal History of a Bukharan Intellectual: The Diary of Muhammad Sharif-i Şadr-i Ziyā*, ed. Edward A. Allworth et al. (Leiden: Brill, 2003), 289.

وأنا مدين لباولو سارتوري أن لفت انتباهي لهذه الفقرة.

(33) Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 83, 157-158.

[في سبيل الله والفوهرر، ص ١٣١؛ ص ٢١٦-٢١٩].

المسلمين وغيرهم من المواطنين السوفييت، وما إلى ذلك من إشارات واضحة تُفيد [٧٣] أن التهديد النازي يحقق أيضًا بغير المسلمين. / صفوة القول إذن أن رسولوف حضَّ المسلمون على القتال مع الجيش الأحمر، لكن لصالح العالم الإسلامي أجمع.

وهكذا، اختطَّ رسولوف مساحةً متميزة لنفسه ولقومه من مسلمي الثولغا-أورال. فالجمهور السوفييتي العام من قراء جريدة ترود وصلتهم رسالةً معينةً من رسولوف في هيئة نداء «عام» للمسلمين، لكن جماعات أتباعه من المسلمين المجتمعين أمامه مباشرةً وصلتهم رسالةً مختلفةً تمام الاختلاف. إن كلماته لهذه الجماعة إنما تؤكد على مشروعية هوية إسلامية أممية تسمو -على الأقل في تقدير رسولوف- فوق أية هوية سوفييتية أو تضامنٍ مع الشعوب السوفييتية غير المسلمة. وانظر مثلاً إلى سرد رسولوف شديد التكثيف للعملية ببروسا، لم يكن هناك مواطنون سوفييت هاجمهم النازيون، بل كان هناك مسلمون لا غير. وبعبارة موجزة يمكن القول: إن مجالاً عامًا جديدًا قد نشأ، أمكن فيه لزعامه مسلمة أن تُعبّر مطمئنًا عن التمايز الجماعي لطائفتها إلى حدٍّ لم يكن متصورًا في أي وقتٍ مضى منذ ما قبل العهد السوفييتي. ولا شك أن خطاب رسولوف كان مفاجئًا حقًا للمسلمين الذين لم تكن لديهم الجرأة على التعبير عن هذه المشاعر حتلا خلف الأبواب المغلقة منذ العشرينيات.

ولا بد أن الأمر كان شديد الإرباك، فهل هذا هو توجه الحزب الرسمي؟ من المؤكد أن الأمر كان كذلك إلى حدٍّ ما؛ لأنه لم يكن لرسولوف قطُّ أن يصعد المنبر إلا بمباركة الحزب. وأما النظرة الدينية المركزية لمسلمي روسيا، فكانت تتلقَّى بالفعل مخاوف المسلمين وتنظر فيها، لكنها كانت -بلا موارد- ذراعًا من أذرع الدولة، وما كان لها أن تتنكب الصراط وحدها دون بقية البيروقراطية الستالينية المرؤعة كلها.

ولكن الحقيقة التي لم تتغير هي أن رسالة رسولوف كانت مختلفةً في جوهرها عن تلك التي تعممها السلطات «العلمانية»؛ فهذه الأخيرة حضَّت المسلمين على القتال في سبيل بلادهم، وحضهم رسولوف على القتال في سبيل دينهم؛ حضتهم هي على القتال في سبيل إخوانهم السوفييت، وحضهم هو على القتال في سبيل العالم الإسلامي كله. وقد تناقضت الرسالتان على صعيدين؛ أحدهما: أن الرسالة العلمانية كانت «وحدوية»

بدرجة كبيرة، في حين كانت رسالة رسولوف «أممية» بوضوح. والآخر: أن الرسالة العلمانية بدا أنها تسعى جاهدة لنزع أي معنى ديني عن المعايير الثقافية الإسلامية (أبطال الإسلام قتلة الكفار، وآثار العمارة الإسلامية المتميزة)، ونشّدت رسالة رسولوف استعادة حُرمة الأرض وتاريخها⁽¹⁾. هل يمكن لهذه الشخصية المرجعية أن تخرج فجأة وبشجاعة، فتتحدث - ولو باللغة البشكيرية فحسب - بغير موافقة رؤسائها؟

إن التفسير الأرجح هو أن الحكومة السوفييتية المركزية تغاضت عن الانحراف الخطابي الجذري لرسولوف وأعانت عليه. وثمة / أدلة على ذلك من ثلاث جهات: [٧٤] الأولى: أن سجلات محفوظات الحزب تحوي بعض المسودات الخاصة بخطب رسولوف، وهي تبيّن بوضوح أن المسئولين السوفييت راقبوا خطاباته الأساسية ونالت موافقتهم. وقد كان الحزب في نهاية المطاف هو المشرف على ترجمتها وطباعتها وتصديرها. الجهة الثانية: أن نظارة رسولوف الدينية لم تنجح فحسب في الإفلات من الرقابة (واعتقال رسولوف)، بل إن مسئول الحزب، بدل أن يغلقوا دار الإفتاء، أقاموا مؤسسات مناظرة لها في مناطق أخرى من الاتحاد السوفييتي. وأما الجهة الثالثة فهي أنه على الرغم من مشاركة مسئول الحزب في صياغة مسودات البروباغندا الدينية، فإن أجهزة الأمن الحكومية لم تغض الطرف عن أنشطة رسولوف، بل على العكس، ثبت مرارًا أن عملاء مفوضية الشعب لأمن الدولة التابعة لستالين (ثم مفوضية الشعب للشئون الداخلية) دأبوا على حضور محافله الوطنية.

معركة إيشان باباخان

في مايو/ أيار من عام ١٩٤٣، طرح سيفولود ميركولف (Vsevolod Merkulov)، رئيس مفوضية أمن الدولة ذات السُمعة المفزعة، اقتراحًا جريئًا على ستالين. وكان اهتمامه الأساسي آنذاك ينصبُّ على «إفشال محاولات المخابرات الأجنبية والعناصر المعادية للسوفييت داخل الاتحاد السوفييتي، وهي المحاولات الرامية إلى استغلال

(١) يعني استعادة التصور الديني لآسيا الوسطى بوصفها أرضًا مسلمة، لا مجرد جزء من الاتحاد السوفييتي. (المترجم)

رجال الدين المسلمين ضد الحكومة السوفيتية»، وكان ميركولف يعتقد أن من بين الطرق الواجب سلوكها لتحقيق ذلك «تمكين العناصر الوطنية من رجال الدين المسلمين في آسيا الوسطى وكازاخستان من تنظيم أعمال وطنية بين المسلمين»؛ ولذلك فقد طلب من ستالين «تكليف المفوضية بتنفيذ ما هو مناسب من أعمال لتأسيس النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان»⁽³⁴⁾. ومهما يكن من أمر، فقد كانت هناك سابقة لذلك؛ إذ تأسست نظارة رسولوف الدينية المركزية في عام ١٩٢٣ تحت إشراف مباشر من جهاز أمن الدولة (مفوضية الشؤون الداخلية آنذاك)⁽³⁵⁾.

وفي غضون الشهرين التاليين، بادرت موسكو إلى تنفيذ اقتراح ميركولف. وفي العاشر من يونيو/ حزيران، أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي مرسومًا يُهيب فيه بالمسؤولين «الإجازة بتأسيس النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان»⁽³⁶⁾. وبعدها بيومين، استلمت مجموعة من الأئمة المسلمين في آسيا الوسطى رسالة من ميخائيل إيغانوفيتش كالينين، رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى في الاتحاد السوفيتي، يرسم فيها ما يُنتظر منهم. فكتب قائلاً: «إن ممثلي رجال الدين الإسلامي الكرام لم يتوانوا طوال مدة الحرب الكبرى، في سبيل أرض الأجداد، عن اتخاذ موقفٍ شديدٍ الوطنية، فحَضُّوا المؤمنين المسلمين على النهوض دفاعًا عن وطنهم، والمشاركة في أعمال الحرب. وسوف تُكْرَسُ / النظارة الدينية الإسلامية [لآسيا الوسطى وكازاخستان] كلَّ جهودها؛ بغية القضاء على العدو بغير إبطاء». وهنا قال كالينين: إن «عدم وجود مركزٍ ديني واحد للمسلمين في آسيا الوسطى أعجز رجال الدين المسلمين عن تقديم مزيد من الدعم المؤسسي لحكومتنا

(34) Nabiev, *Islam i gosudarstvo*, 99.

(35) Nabiev, *Islam i gosudarstvo*, 99.

يرجَّح تاسار أن غاية الدولة من إنشاء «دور الإفتاء» هذه إنما كانت إرساءً بنيةً تحتيةً لإسلام أكثر «مأسسة» تسهل مراقبته ودمجه في هيكل بيروقراطي مهيمن: «فوق كل شيء»، كانت السلطات الاستعمارية تسعى إلى وضع الإسلام في هيئات وأشخاص ومؤسسات يمكن مركزتها أو مراقبتها أو كلا الأمرين معًا، من قبيل المساجد والمدارس والمكتبات، ومجمَّعات الأضرحة الكبرى التي تجمع بين المسجد والمدرسة والمكتبة» (32) *(Soviet and Muslim)*.

(36) Nabiev, *Islam i gosudarstvo*, 99.

في جهودها على الخطوط الأمامية والجبهة الداخلية»^(٣٧). ويبدو حديث كالينين واضحًا لا لبس فيه: إن الغرض الأساسي مما حصلت عليه التَّخْب الإسلامية في الآونة الأخيرة من سُلطة ومنبر للدعاية هو خدمة الجهود الحربية، ولا علاقة له مطلقًا بأي تحولٍ أيديولوجي من جانب موسكو ناحية التسامح الديني. نعم، لدى «رجال الدين» دارٌ إفتائهم، لكن لديهم أيضًا أوامر محددة يتبعونها.

وقد استدعى يولداش أخوناباييف (Yoldash Akhunbabayev) رئيس مجلس السوفييت الأعلى في أوزبكستان إيشان باباخان - عقب إطلاق سراحه من الغولاغ- وحثه على الكتابة إلى كالينين، ليطلب بالطبع تأسيس النظارة الدينية المقترحة^(٣٨). ونجد محفوظًا في السجلات آنذاك التماسًا قدّمه باباخان وثلاثة من الأئمة المسلمين في آسيا الوسطى لستالين^(٣٩). وأخيرًا، قررت هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي «تلبية» الطلب وتأسيس نظارة دينية مقرها طشقند، «والدعوة إلى مؤتمر في المدينة يحضره ممثلو رجال الدين المسلمين وعموم المؤمنين من الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الأوزبكية والطاجيكية والتركمانية والكازاخية والقرغيزية»^(٤٠). وقد استدعى إيشان باباخان -شأن رسولوف- إلى موسكو؛ لمقابلة ستالين نفسه. وقد سردت صوفيا، ابنة المفتي [باباخان -م]، وقائع هذه الزيارة التاريخية لاحقًا؛ فقالت^(٤١):

(37) I.Kh. Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi Voine 1941-1945 gg.," *Voенno-istoricheskii zhurnal* 5 (2007), 25.

(38) Tasar, "Soviet and Muslim," 26.

(39) GARF, f.6991s, op.3s, d.6, 1.34-36 ("Prvetstvie dukhovnogo s'ezda predstavitelei musul'manskogo dukhovenstva I veruiushchikh Uzbekistana, Tadzhikistana, Turkmenistana, Kirgizstana i Kazakhstana I.V. Stalinu s vyrazheniem gotovnosti musul'manskogo dukhovenstva prizyvat' v propovediakh veruiushchikh k bor'be s Germaniei," *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/19566> [accessed April 14, 2020]).

(40) Nabiev, , 99.

(41) Tasar, *Soviet and Muslim*, 49. M.A. Alibaev, *Islam v sovetskoi Kazakhstane: strategii vyzhivaniia* (Aštana: ENU im. L.N. Gumileva, 2015), 28-29.

«عقد يوسف فيساريونوفيتش ستالين اجتماعاً في موسكو مع والدي بمفردهما. وعندما عاد والدي إلى المنزل، أخبرنا أن اللقاء جرى في مكتب ستالين بمساعدة أحد المترجمين. وأنه تساءل بكل احترام وصدق عن مزاج المسلمين وحياتهم، واقترح تنظيم مؤتمر (قرولتاي) للمسلمين، ومجلساً دينياً يدعوهم إلى تقديم العون للمقاتلين على الجبهة ومكافحة الغزاة بكل قوة. قدّموا الشاي والعنب. ولقد لاحظ أن مكتب الزعيم كان غايةً في التواضع.»

ولا شك أن هذا اللقاء أثار مشاعر مختلطة لدى إيشان باباخان. ومهما يكن من أمر، كان إيشان [في هذا الموقف] يحصل على ترقية من مستبدّ كان عهده وبالأعلى عليه؛ إذ اعتقل في عام ١٩٣٧، ثم اعتقل مرةً أخرى في عام ١٩٤٠، وكان في الثالثة والسبعين عند اعتقاله أول مرة، وبلغ الثمانين عند تعيينه على رأس دار الإفتاء. وكان إيشان - وهو سليل عددٍ من مشايخ الصوفية الكرام - قد درس في مدرسة «بركة خان» بطشقند ومدرسة «سراي طاش» ببخارى، ثم حجّ عام ١٩١٢. وكان من اليسير أن يجد ستالين شاباً مسلماً موالياً من أعضاء الحزب ليكون / مسئولاً عن دار الإفتاء، ولكنه ما أراده كان بخلاف ذلك تمامًا. وعلى الرغم من أننا لا نجد أي وثيقة خرجت إلى النور تبين كيف وقع الاختيار على باباخان، فإن بوسعنا التخمين بأن سابق زعامته وما تقدّم له من القطيعة مع النظام السوفييتي كانا مما رغب فيه، فمن ذا الذي يمكنه تعبئة المسلمين للقتال أكثر من رمزٍ جليل «موثوق» ربما سيميل حتى المسلمون المناهضون للسوفييت إلى احترامه؟

وقد ذكر باباخان مرةً أن أحد المحققين إبان سجنه صرخ فيه غاضباً: «ستعفن في هذا السجن!»، فردّ عليه قائلاً: «لا شيء يقع في هذا الكون إلا بقدر الله، وقد أسلمت نفسي له عز وجل ولقضائه الذي كتبه عليّ»^(٤٢). هل تخيل أحدهما قط أن باباخان سيكون بعد أعوام قلائل ضيفاً يشارك ستالين الشاي والعنب؟^(٤٣).

(42) *Tasar, Soviet and Muslim*, 49.

(٤٣) وبالفعل، يشكك بعض المؤرخين في صحة هذه الواقعة، فمثلاً، كتب زاريفوف وسافاروف

أنه «من غير المرجح» أن ستالين وباباخان قد التقيا. لكنهما لم يحددا أسباب شكوكهما

. (*Akhmetzian Mustafin*, 64).

عُقد المؤتمر التأسيسي للنظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، في العشرين من شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٣، في لحظة فارقة؛ حيث كانت موجة الحرب على الجبهة الشرقية آنذاك قد ارتدت بقوة على قوات المحور، فقبلها بثمانية أشهر، انتهت معركة ستالينغراد باستسلام القادة الألمان استسلاماً رسمياً، وهو ما سمّاه ونستون تشرشل (Winston Churchill) «نهاية البداية»^(٤٤) للنازيين. وكانت المنطقة المحيطة بمدينتي بيلغورُد (Belgorod) وخاركوف (Kharkov) التي احتلها الألمان في الأسابيع التالية آخرَ غزوٍ يؤبه له في الأراضي السوفييتية. وقد تكبّد الألمان طيلة شهري يوليو/ تموز وأغسطس/ آب خسائر فادحة في الأرواح والأراضي في معركة كورسك، وخسروا مدينتي بيلغورُد وخاركوف. ذلكم هو ما وصفه تشرشل بأنه «بداية النهاية»^(٤٤).

قُدِّرَ عددُ القتلى والجرحى من الجنود السوفييت في الربعين الأول والثاني من عام ١٩٤٣ بمليونين وثمانمائة وأربعة وثلاثين ألفاً وتسعمائة وسبعة وأربعين (٢.٨٣٤.٩٤٧) جندياً^(٤٥). وكان هناك المزيد من الأراضي التي سُتُردُّ، ولكنها لم تُستردَّ إلا بمزيد من الخسائر في الأرواح. فـ «بداية النهاية» للنازيين كانت عند الجندي السوفييتي بدايةً أشدَّ مراحل الحرب فتكاً؛ إذ كانت حصيلة القتلى والجرحى في الربع الثالث وحده أكبر من الربعين الأول والثاني مجتمعين، وقُدِّرت بمليون وثمانمائة وأربعة وستين ألفاً وستمائة وواحد وستين (٢.٨٦٤.٦٦١) جندياً سوفييتياً قُتِلَ أو جُرح في الفترة ما بين يوليو/ تموز وسبتمبر/ أيلول، أي في هذه الشهور الثلاثة التي كانت الأكثر فتكاً بالجيش الأحمر خلال سنوات الحرب كلها. ثم قُتِلَ أو جرح مليونان ومائة وخمسة وسبعون ألفاً وثمانمائة وخمسة وتسعون

(أ) هذه عبارة شهيرة لتشرشل يقول فيها: «هذه ليست النهاية؛ إنها ليست حتى بداية النهاية، لكنها ربما تكون نهاية البداية»، ويعني بذلك أن النازيين قد بلغوا ذروة ما يمكنهم بلوغه في انطلاقتهم الأولى، وأن الكثرة عليهم الآن. (المترجم)

(44) Jeremy Black, ed., *The Second World War, Volume II: The German War, 1943–1945* (Burlington, VT: Ashgate: 2007), 65.

(45) G.F. Krivosheev, *Soviet Casualties and Combat Losses in the Twentieth Century* (London: Greenhill, 1997).

(٢٠١٧٥.٨٩٥) جنديًا آخرون من أكتوبر/ تشرين الأول إلى نهاية العام. فكان الجيش الأحمر في ذلك الخريف في أمس الحاجة إلى الموارد والمجندين أكثر من أي وقت مضى.

كان ذلك هو السياق الذي وجّه فيه إيشان باباخان خطابه إلى مسلمي آسيا الوسطى في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٣. وكان مقصوده من دعوته إياهم للمشاركة في أعمال الحرب مخاطبة أكبر شريحة ممكنة من السكان؛ ولهذا السبب كانت إشارات الافتتاحية مذهلة للغاية. فخلافاً لرسولوف الذي خاطب مسلمي منطقة الفولغا-أورال على أسس إسلامية جامعة و«أممية»، اكتسى خطاب باباخان طابعاً محلياً / جلياً. وقد شدّد على حُرمة أحد جوانب إسلام آسيا الوسطى [٧٧] وأهميته، ألا وهو تعظيم أضرحة المنطقة وأولياؤها، وهو جانب تغياً المسؤولون السوفييت القضاء عليه لفترة طويلة. وكانت هذه العادات التي يمتدُّ تاريخها قرونًا هدفًا للتشويه نحو عقدين من الزمان، سواء في الأدبيات السوفييتية المناهضة للدين أو في البيانات الرسمية، بوصفها ممارسات خبيثة وبدائية، وبوصفها «بقايا ما قبل إسلامية» رجعية من بقايا الوثنية، وآفات مفسدة ينبغي اقتلاعها من جذورها. ومن المفارقات اللافتة أن باباخان نفسه لم يكن من أنصار هذه الأعراف الصوفية؛ فقد انتسب طويلاً للتيارات الإسلامية الإصلاحية المناوئة لممارسات من قبيل تعظيم الأضرحة^(٦٤)، ولعل هذه الصفة هي إحدى الصفات التي قرّبت من الحكومة السوفييتية. ولكن على أية حال، عندما خاطب باباخان جمهوره آنذاك، بدا أنه يعلن عهدًا جديدًا للإسلام في المنطقة. فبعد بيان موجز سرّد فيه الكيفية التي غزا الأراضي السوفييتية بها «ذئاب هتلر الأعداء»، و«أغرقوا أوروبا كلها في الدماء»، واقتحموا شمال القوقاز وهاجموا كراسنودار (Krasnodar)، قال لجمهوره إن النازيين، الذين سمّاهم الهتلريين (gitlerchilar)، يخطّطون لمواصلة المسير إلى آسيا الوسطى، بحيث لا يهددون سكانها فحسب، وإنما يهددون أضرحتها الصوفية النفيسة أيضًا:

(46) Frank, *Gulag Miracles*, 106.

«إنهم يريدون تخريب سمرقند، تلك المدينة التاريخية الشهيرة، التي دُفن بها علماء الإسلام، مثل: قثم بن العباس^(٤٧) وخواجه أحرار^(٤٨) (رحمهما الله)، ففيها عاشا وفي أرضها دُفنا، [وأولهما] في ضريح شاه زنده. إنهم يعتزمون تحريق مدينتنا بخارى، تلك المدينة التي تضم مزارات (mazārlar) الأولياء؛ كالمحدّث محمد بن إسماعيل البخاري^(٤٩)، وولي الأولياء بهاء الدين نقشبند^(٥٠)، والسيد أمير كلال^(٥١)، والشيخ العالم البخارزي^(٥٢)، وآغاي بزرك (Agha-yi Buzurg)^(٥٣). إنهم يخطّطون لتدمير فرغانة الطاهرة وتخریبها، تلك

(٤٧) ابن عم النبي محمد [ﷺ]، وضريحه في مجمع شاه زنده، وسُمّي المجمع باسمه تكريمًا له. [تعني شاه زنده بالفارسية «الملك الحي»، وهي إشارة إلى الصحابي قثم بن العباس رضي الله عنه؛ إذ يظن أهل سمرقند أنه بعدما دُبح، سقطت رأسه في بئر هناك، وما زال حيًا (المترجم)].

(٤٨) خواجه عبيد الله أحرار (ت. ١٤٩٠م)، شيخ «بير» (pīr) ومرشد نقشبندي من أهل القرن الخامس عشر ينتسب إلى آسيا الوسطى، وكان من بين أبرز الشخصيات في عصره في المنطقة، وإليه يُنسب الفضل في الانتشار الهائل للنقشبندية في حياته. وما زال يحظى بمكانة رفيعة في آسيا الوسطى وجنوب آسيا.

(٤٩) البخاري (ت. ٨٧٠م) صاحب الصحيح، أحد جوامع الحديث الستة في التراث السني.
(٥٠) بهاء الدين نقشبند (ت. ١٣٨٩م)، الذي تنتسب إليه الطريقة النقشبندية، ويعدُّ طريقة صوفية جديدة عندما افترق عن شيوخه وسابقه (من أمثال أمير كلال) في تفضيله الذكر سرًا عن الذكر جهريًا. وما زال للنقشبندي أثر كبير في جميع أنحاء العالم الإسلامي، من آسيا الوسطى وجنوب آسيا وحتى الشرق الأوسط وما وراءه.

(٥١) أمير كلال (توفي قرابة عام ١٣٧٠م)، يُذكر كثيرًا بوصفه شيخ بهاء الدين نقشبند.
(٥٢) سيف الدين البخارزي (ت. ١٢٦٠م)، كان من مريدي نجم الدين كبرى [مؤسس الطريقة الصوفية الكبرى - م]، وتُنسب إليه أمور كثيرة، أبرزها تأثيره على بركة خان، شيخ القبيلة الذهبية، الذي اشتهر باعتناقه الإسلام.

(٥٣) آغاي بزرك شيخة صوفية من القرن السادس عشر، من بلاد ما وراء القوقاز. انظر:

Aziza Shanazarova, "A Female Saint in Muslim Polemics: Aghā-yi Buzurg and Her Legacy in Early Modern Central Asia," PhD diss. (Indiana University, 2019); Gulnora Aminova, "Removing the Veil of *Taqiyya*: Dimensions of the Biography of Agha-yi Buzurg," PhD diss. (Harvard University, 2009).

المدينة التي تضم ضريح علي رضي الله عنه، صاحب النبي محمد ﷺ حبيب الله، في قرية شاهي ماردان (Shahimardan) الشهيرة^(٥٤). كما أنهم يعتزمون كذلك تخريب مدينة تركستان التي تضم أضرحة النور للمشايخ خواجه أحمد يسوي^(٥٥)، وأبي عبيدة بن الجراح، وخواجه ترابي^(٥٦)، وخواجه غازي^(٥٧). ويسعون أيضًا إلى الاستيلاء على مدينة طشقند؛ حتى يحيلوها رمادًا ينثرونه مع الريح، تلك المدينة التي تضم أضرحة بعض الأولياء المقربين والرجال المكرمين من أمثال الإمام أبي بكر محمد القفال الشاشي^(٥٨)، والشيخ هوفاندي طهور^(٥٩)،

(٥٤) المقصود هنا علي بن أبي طالب، لكن ضريحه المقصود هذا كائن في أرضٍ معزولة من أوزبكستان، ولا يختلط عليك الأمر بأن المقصود هو مجمع الأضرحة الشهير في مزار شريف شمالي أفغانستان.

(٥٥) [أحمد] يسوي شيخ صوفي شهير من القرن الثاني عشر الميلادي، وإليه تُنسب الطريقة اليسوية.

(٥٦) لم أتمكن من التوصل لمعلومات مناسبة عن حياة هذا الولي. [يميل المؤلف في مراسلات بيننا إلى أنه خواجه محمود تارابي (Махмуд Тараби) قائد انتفاضة دينية وسياسية كبرى في القرن الثالث عشر الميلادي ضد الحكام المغول والنخبة المحلية في مدينة بخارى في عام

١٢٣٨ م. -م]

(٥٧) لم أتمكن من التوصل لمعلومات مناسبة عن حياة هذا الولي. [يميل المؤلف إلى أن الشخصية

الأقرب هو خواجه غازي السنجفيني أحد علماء الفلك من قرية سنجفين قرب مدينة سمرقند. -م]

(٥٨) الإمام القفال الشاشي (ت. ٩٧٦ م) عالم وشاعر مبرز كان لكتاباتة أثر واسع، خاصة بين الفقهاء الشافعية. وزعم خواجه أحرار أنه ينتسب إلى أحد أصحاب هذا العالم. انظر:

J.A. Gross and A. Urunbaev, eds., *The Letters of Khwāja 'Ubayd Allāh Ahrār and His Associates* (Leiden: Brill, 2002), 11.

وكذلك زعمت أسرة باباخان أنها من نسله، وكان مقر النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى

وكازاخستان قريبًا من ضريحه المسمى بـ «حضرة الإمام».

(٥٩) هوفاندي طهور (ت. ١٣٥٤ م) ولي مشهور من أولياء طشقند، وجد من أجداد خواجه أحرار لأمه.

انظر:

Devin DeWeese, "Spiritual Practice and Corporate Identity in Medieval Sufi Communities of Iran, Central Asia, and India: The Khalvatī/ Ishqī/ Shattārī Continuum," in Stephen E. Lindquist, ed., *Religion and Identity in South Asia and Beyond: Essays in Honor of Patrick Olivelle* (London: Anthem Press, 2011), 264.

والشيخ زين الدين^(٦٠)، وفيها يرقد جسد عكاشة الكريم المعظم^(٦١)،
أحد أقرب صحابة النبي [ﷺ] إليه^(٦٢).

وفي هذا المؤتمر الافتتاحي الذي عقده أرفع مؤسسة إسلامية «رسمية»، نجد أن الحياة الدينية للمنطقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأضرحتها المحلية. / فالإسلام في آسيا [٧٨] الوسطى، وفقاً لتعبير باباخان، يتجسد في الأضرحة التي تشكل كوكبة منها المشهد الديني في المنطقة.

ثم يحذر باباخان بعدها من أن الألمان «يعتزمون إحالة كتاتيبنا زنازين، ومعاهدنا مباغي، ومساجدنا ومزاراتنا المقدسة (*muqaddas ziyaratgāhlarimiz*)، وأضرحة أوليائنا مادةً للسخرية والاستهزاء». وهنا جاءت الأضرحة إلى جانب المساجد والمكاتب بوصفها وحدة أساسية من وحدات الحياة الدينية في المنطقة.

ثم يحذر من أن الألمان سيقتلون «الثقافات القومية» (*milli madanyatlar*) لشعوب تركستان وكازاخستان، وسيلقون في النيران «أعمال العلماء القيّمة» و«كنوز المعارف» الأخرى المحفوظة في مكاتب بخارى وأورغنش (جرجانية) وسمرقند وطشقند وعشق آباد وخچند (خُچنده) وأوليا آتا (*Awliya Ata*) وفرونزه (بيشكك). وعند هذه النقطة، بعد الإسهاب في ذكر ما يتهدّد به الألمان الحياة الدينية في آسيا الوسطى، انتقل إلى ذكر المعاناة المنتظرة لسكان المنطقة؛ إذ يقول باباخان أن الألمان: «سيهتكون أعراض نساتنا المصونات وفتياتنا البريئات، وسيهزأون بأحلام أطفالنا السعيدة وحيوات شيوخنا الهادئة ومنابع سكينتنا، ويحيلون كل ذلك حزناً وأسى».

(٦٠) تزعم شجرة من أشجار النسب أن الشيخ زين الدين هو ابن شهاب الدين عمر السهروردي (ت. ١٢٣٤م)، الذي أرسل ابنه لطشقند لينشر مذهبه هناك.

(٦١) عكاشة بن محصن (المعروف في آسيا الوسطى بعكاشة آتا) من صحابة النبي محمد [ﷺ] والمذكور في الحديث. لا أعلم ضريحاً لهذا الولي قرب طشقند، رغم أن له ضريحاً قرب مدينة تركستان (في كازاخستان) وآخر في بلخ (في أفغانستان).

(62) AkadNkKaz MS 123 VII, 4-5.

ثم يتحول المفتي إلى موضوع القوميات السوفيتية، ليردّد أخيراً صدى بعض نعمات أوروبا عندما القريبة من المنشورات «العلمانية»^(٦٣)، فيقول:

«لقد ظلت تركستان على مدار ألف عام وطنًا مقدّسًا (*muqaddas vatanlar*) لشعوب الأوزبك والطاجيك والتركمان والكازاخ والقيرغيز والقاراكولباك، وستظل كذلك. لقد اتّحدت شعوب تركستان، بمشورة شيوخ (*ata va bābālar*) أوطانهم وتكليفهم، لصالح الحرية والترقي (*hurriyat va taraqiyāt*) والدين والقانون والضمير والمكانة؛ اتحدت مع شعوب الاتحاد السوفيتي، وهي الآن تشنُّ حربًا عظمى على القتلة الفاشيين».

ووفقًا لصياغة باباخان المعهودة، تحفظ الدولة السوفيتية للجماعات المسلمة القائمة حقّها في تقرير مصيرها (ومن الأدلة على ذلك أن «الشيوخ» هم الذين اتخذوا القرار بالمشاركة في أعمال الحرب، دون تدخّل المسؤولين البلديين والقوميين الذين عينهم السوفيت، وكانوا في الواقع شبابًا في غالبهم). ثم يتلو المفتي آية قرآنية، ويذهب في تفسيرها إلى أنها تشرع للمسلمين شنّ حربٍ دفاعية على من يقاتلونهم^(٦٤)، / ثم يعود أدراجه إلى موضوع القوميات قائلاً: «منذ اليوم الأول الذي وُلدت فيه الدولة السوفيتية لتكون وطنًا لشعوب الاتحاد السوفيتي كلها... تحرر الجميع من الطغيان وغياب القانون والفقر والعوز، من التخلف والظلامية. ويقطع النظر عن اختلاف مللهم (*millat*) وأديانهم وعاداتهم، فقد وضعوا التشريعات الحاكمة لهم بصورة مستقلة، وانفتح أمامهم سبيلٌ واسع نحو الترقّي القومي (*millī taraqiyāt*) والسعادة والرخاء»^(٦٥).

(63) AkadNkKaz MS 123 VII, 6.

(٦٤) ﴿ وَإِنْ نَكَوْا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُونَ ﴾ [التوبة، ١٢]. وبعد أن تلا بابا خان هذه الآية وما بعدها من آيات القرآن بالعربية، فسرها بالتركية قائلاً: «أي أن الله يقول للمسلمين: إن عاهدوكم ثم نقضوا عهدهم واستهزأوا بدينكم، فحاربوهم ونكّلوا برؤوس من عارض دينكم وحرّيتكم؛ لأنهم لا عهد لهم ولا وعد. وبفعلكم ذلك، قد ينتهي هذا العدو الغادر عن أعماله القذرة».

(65) AkadNkKaz MS 123 VII, 6-7.

ثم يضيف باباخان عبارته المشهورة: «حب الوطن من الإيمان». وفحوى هذه الكلمات فيما يبدو أن الدولة السوفييتية قد هيأت للمسلمين الظروف التي يمكنهم فيها حسن اتباع سنة النبي [ﷺ]، وهي في هذه الحالة القتال ببسالة دفاعاً عن الاتحاد السوفييتي. ثم يتجه باباخان مباشرة إلى إبراز ما ينطوي عليه ذلك من تناقض مع الأيديولوجيا الهتلرية: «لقد وضع هتلر نظرية نقاء العرق الألماني (*nemets irqi*) وهيمنته، التي يذهب فيها إلى أن شعوب العالم [الأخرى] كلها أدنى مرتبة من الناحية العرقية، ويُنزل الشعوب الشرقية منزلة القروء (*maymūnlar*). وعلى وفق هذه النظرية، يخطّط الألمان غزو غيرهم من الشعوب وإبادة بلدانهم».

ثم يشدّد باباخان على سلمية الشعب السوفييتي قبل هجوم هتلر، ويعرض تقييمه المتفائل للجهود الحربية الجارية، فيؤكد لمستمعيه أن «هتلر والمتعاطفين (*fikrdāshlar*) معه أوردوا أنفسهم موارد التهلكة». وكان ما يلي أكثر مقاطع الخطبة إثارةً للانتباه (وقد أوردناه كذلك في مدخل هذا الكتاب)^(٦٦):

«لقد أرسل مسلمو تركستان وكازاخستان بفلذات أكبادهم، رفقة الشعوب السوفييتية كلها، إلى هذا الجهاد العمومي المقدس (*umūmī va muqaddas jihād*) وهذه الغزاة. وطفقوا كأبائهم يقرأون لهم الفاتحة الشريفة ويودّعونهم، أملين انتصارهم ومحق عدوهم ... فمن جادّ من المسلمين بنفسه في سبيل الله والدّين فهو شهيد، ومن ذبح الأعداء، أهل الفتن الملعونين، فهو من الغزاة والمجاهدين المقاتلين في سبيل الله».

هنالك أطلق باباخان أصرح دعواته للاحتشاد، وأصرح إعلاناته عن الانفصام العميق بين المسلمين وغيرهم من المواطنين السوفييت؛ إذ ما الذي يعنيه شنّ الجهاد «متحدين» مع غير المسلمين؟ بالطبع لا يمكن لغير المسلمين في الاتحاد السوفييتي أن يكونوا ممن يجودون بأنفسهم «في / سبيل الدّين»، ولا يمكن لقتلاهم أن يكونوا [٨٠] «شهداء» كقتلى المسلمين. فمهما كان دافع المواطنين السوفييت من غير المسلمين

(66) AkadNkKaz MS 123 VII, 7-8.

نحو القتال، فلا شك -بعبارة باباخان- في أن نجاة مسلمي آسيا الوسطى وهويتهم الجماعية مرتبطان ارتباطاً لا ينفك بالإسلام، وبالاتحاد السوفييتي.

يُكمل باباخان حديثه، بعد أن تلا آية قرآنية أخرى تُجوز القتال للدفاع عن النفس^(٦٧)، في موضوع الغزاة في صفوف الجيش الأحمر؛ فيروي أولاً حديثاً عن النبي [ﷺ] يقول: «حق على كل كريم يحب بلده أن يقاتل عدوه ويستأصل شأفته. شدَّ الله أزر غزاتنا فلا يولون الأدبار عند الزحف»^(١). ثم يذكر تسعة من «أبناء تركستان وبناتها المخلصين» ممن حاربوا مع الجيش الأحمر، و«مُنحوا مكانة أبطال الاتحاد السوفييتي السامية». وفي النهاية، وبعد أن مهَّد سبيل الكلام، وصل باباخان إلى الغرض الأساسي من خطبته؛ حيث طفق يحضُّ المسلمين على المشاركة في أعمال الحرب^(٦٨):

«تكاتفوا مع إخوانكم من شعوب بلدنا (mamlakat)، وجاهدوا [جيش] هتلر الملعون بتكاتف تامٍّ وبحميَّة الأسود وشدَّتتها. أبيدوا الفاشيين اللئام بلا رحمة، وامحوهم من على وجه الأرض. احموا كل شبرٍ من الأرض السوفييتية بآخر قطرة من دمائكم، وقاتلوا بولاءٍ كامل، واستبسلاوا فلا يأسرکم عدوكم. اجعلوا صفوفكم كالحديد لا تنخرم، وانضباطكم العسكري كالصخر لا ينكسر. أطيعوا قادتكم ولا تتخاذلوا [عن أداء واجبكم]، وافعلوا ما تؤمرون سريعاً وبولاء تام».

وبعد أن ساق باباخان حديثاً يحذّر من التولّي يوم الزحف^(٦٩)، انتقل إلى من هم

(٦٧) ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [١٩٠-١٩١]. وفسرها باباخان قائلاً: «أي قاتلوا في سبيل الله من يبدأكم بالقتال، ولا تعتدوا أو تبدأوا الحرب. فإن الله لا يحب المعتدين ولا المسرفين. اقتلوهم حيث ثقتموهم واقضوا عليهم، وأخرجوهم من وطنكم كما أخرجوكم منه. فالفتنة قبيحة وأشد من القتل».

(١) لا نعلم حديثاً يحمل هذا المعنى من قريبٍ أو بعيد. (المترجم).

(68) AkadNkKaz MS 123 VII, 9.

(٦٩) «ومن يتولى يوم الزحف فقد باء بعقابٍ شديدٍ من الله، ومأواه جهنم»

في الداخل بعيدًا عن جبهة القتال، حاضًا إياهم على أن «يُجزلوا العطاء؛ ليكون لدى جنود الجيش الأحمر أزواد نيئة ووجبات مطبوخة، وأن يعملوا بصدق وتفانٍ في المزارع الجماعية، كولخوز (kolkhoz)، ومزارع الدولة، سوفخوز (sovkhoz)، وفي المصانع والشركات»^(٧٠). وبعد أن تلا آية قرآنية عن رص الصفوف^(٧١)، ساق حديثًا نبويًا يمدح من يجهزون الغزاة، نصّه: «من جهّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا». بعبارة أخرى يمكن القول: إن أصحاب الجبهة الداخلية يسعهم أيضًا المشاركة في الجهاد، ما داموا يضطلعون بدور حيوي في دعم المقاتلين في الجبهة الأمامية.

/ وهنا، يختتم باباخان خطبته، فيوجّه حديثه مباشرةً ولأول مرة إلى أئمة المسلمين [٨١] في المنطقة الذين أصبح الآن مُقدّمهم؛ حيث يقول: «أئمة المسلمين وزعماءهم الكرام، عجلوا بساعة النصر بتفانيكم ومساعدتكم المخلصة، وبـ [تأجيج] شجاعة المسلمين والمؤمنين على الجبهة وإشعال الحماسة في نفوسهم».

= (*dushman bilän küräsh zamānida urushdan qachqan kishi khudāning qattiq jazāsiga mustahiq bolip uning jāyi ākhiratda dūzakhdur*)

[لا نعلم حديثًا بهذا اللفظ، لكنه قريب من لفظ آية الأنفال (١٦) في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١١)، ولعلّ الخطأ من المؤلف. (المترجم)].

(٧٠) والحق أن ضغط الدولة على المزارع الجماعية قد تجاوز قدراتها في كثير من أنحاء المنطقة؛ ففي كازاخستان، لم تُوفَّ الحصص غير المعقولة [المطلوبة] أيام الحرب، مما دفع الدولة لمعاينة عمال الكولخوز «المتكاسلين» بأجور وأسعار شراء أقل، وهو ما أدى بدوره إلى رفض بعض العمال تخزين أي بذور للمواسم المقبلة. وكان حصاد عام ١٩٤٣ قد تبين فعلاً أنه هزيل بشكل كارثي حين ألقى باباخان خطبته. انظر:

Olcott, *The Kazakhs*, 189–190.

(٧١) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال، ٦٠]. ثم فسرها باباخان قائلاً: «أي أنه لكي تنتصروا على العدو، شدوا صفوفكم بكل قوتكم، وأعدوا قوات مشاركتكم وفرسانكم للمعركة. هكذا ستنتصرون وترهبون عدوكم وعدو الله فيرتد على أعقابها خائبًا، ومعهم آخرون لا تعلمونهم، الله يعلمهم. وسيكافئكم الله على جهدكم في سبيله، ولن تُظلموا».

في الداخل بعيداً عن جبهة القتال، حاضاً إياهم على أن «يُجزلوا العطاء؛ ليكون لدى جنود الجيش الأحمر أزواد نيئة ووجبات مطبوخة، وأن يعملوا بصدق وتفان في المزارع الجماعية، كولخوز (kolkhoz)، ومزارع الدولة، سوفخوز (sovkhoz)، وفي المصانع والشركات»^(٧٠). وبعد أن تلا آية قرآنية عن رص الصفوف^(٧١)، ساق حديثاً نبوياً يمدح من يجهزون الغزاة، نصه: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا». بعبارة أخرى يمكن القول: إن أصحاب الجبهة الداخلية يسعهم أيضاً المشاركة في الجهاد، ما داموا يضطلعون بدور حيوي في دعم المقاتلين في الجبهة الأمامية.

/ وهنا، يختتم باباخان خطبته، فيوجه حديثه مباشرةً ولأول مرة إلى أئمة المسلمين [٨١] في المنطقة الذين أصبح الآن مُقدّمهم؛ حيث يقول: «أئمة المسلمين وزعماءهم الكرام، عجلوا بساعة النصر بتفانيكم ومساعدتكم المخلصة، وبـ [تأجيج] شجاعة المسلمين والمؤمنين على الجبهة وإشعال الحماسة في نفوسهم».

= (*dushman bilän küräsh zamānida urushdan qachqan kishi khudāning qattiq jazāsiga mustahiq bolip uning jāyi ākhiratda dūzakhdur*)

[لا نعلم حديثاً بهذا اللفظ، لكنه قريب من لفظ آية الأنفال (١٦) في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَاءَهُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾^(٧٠)، ولعل الخطأ من المؤلف. (المترجم)].

(٧٠) والحق أن ضغط الدولة على المزارع الجماعية قد تجاوز قدراتها في كثير من أنحاء المنطقة؛ ففي كازاخستان، لم تُوفَّ الحصص غير المعقولة [المطلوبة] أيام الحرب، مما دفع الدولة لمعاينة عمال الكولخوز «المتكاسلين» بأجور وأسعار شراء أقل، وهو ما أدى بدوره إلى رفض بعض العمال تخزين أي بذور للمواسم المقبلة. وكان حصاد عام ١٩٤٣ قد تبين فعلاً أنه هزيل بشكل كارثي حين ألقى باباخان خطبته. انظر:

Olcott, *The Kazakhs*, 189–190.

(٧١) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال، ٦٠]. ثم فسرها باباخان قائلاً: «أي أنه لكي تنتصروا على العدو، شدوا صفوفكم بكل قوتكم، وأعدوا قوات مشاركتكم وفرسانكم للمعركة. هكذا ستتصرون وتُرهبون عدوكم وعدو الله فيرتد على أعقابها خائباً، ومعهم آخرون لا تعلمونهم، الله يعلمهم. وسيكافئكم الله على جهدكم في سبيله، ولن تُظلموا».

ثم يناشد الجماعة المسلمة في مجملها بدرجة أكبر من التفصيل، وبواقعية أشد،
قائلًا^(٧٢):

«أيها المسلمون والمسلمات، أدوا الفروض الخمسة كل يوم بلا
تفريط، واسألوا الله [عز وجل] النصر لجنودنا، وصلُّوا. اسألوا النصر
والعون لأبنائكم، وقدّموا المساعدة الجادة من خلال ممتلكاتكم
وأعمالكم وخدماتكم المخلصة التي لا تفتري، ذلك لكي تعود بلدنا،
التي منحتكم السُّلم والأمان، مستقرةً ومزدهرةً».

وقد ختم باباخان خطبته بالإشارة إلى الانتصار، فوعدهم بأن النصر قريب، وأكد
للحضور أن تضحياتهم لن تذهب سدى؛ حيث قال:

«الحمد والشكر لله عز وجل أن بدأنا نلمس ثمار دعائنا وسعيينا. إننا
نسمع أخبار النصر، واليوم أصبحت هزيمة العدو الرجيم والقتلة
الملعونين [التي لا مرء فيها] ساطعةً كالشمس في نظر العالم. فكل يوم،
يحرّر جنودنا من الجيش الأحمر، وهم بالعشرات والمئات، القرى
والمدن، ولن يركنوا إلى الراحة أبدًا. ولئن كان العدو يُزعم اللجوء إلى
الغرب، فإننا سندفعهم عن كل شبرٍ من أرضنا، وسنكون على أهبة
الاستعداد للمخاطرة بحياتنا، وسنقف لهم بالمرصاد. وسيقصف
حلفاؤنا [أي نحن السوفييت] الأعزّاء (*shuhratliittifāqchilarimiz*)
مراكز تصنيع ألمانيا من الجو، وسنطرد نحن جنودها حتى الحدود
الإيطالية. على أن النصر لا يأتي من تلقاء نفسه؛ فلنعجّل به، علينا
مضاعفة معوناتنا للجبهة، وعلى جنودنا إظهار مزيد من عظمتهم
وشجاعتهم. فاللهم أغثنا وخلصنا من الجرائم الوضيعة للعدو الوحشي
الملعون آكل بني آدم ورذائله^(٧٣)؛ آمين يا رب العالمين»^(٧٤).

(72) AkadNkKaz MS 123 VII, 11.

(73) *Ay khudā azzawajall, ādamkhar razīl wahshī dushmanning qabīh jināyatlaridan ādam
balalarini āzād wa khalāş qil.*

(74) AkadNkKaz MS 123 VII, 11.

ولئن كانت غاية الدولة السوفيتية أن تختار مرجعيةً إسلاميةً يمكنها إقامة دعوة الحشد للحرب على أسس يألّفها الأهالي، فقد كان اختيارها حكيماً. لكن هل اعتقدت جماهير آسيا الوسطى حقاً أن هتلر يمثل خطراً مباشراً على أضرحة سمرقند؟ الراجح أنها لم تكن تعتقد ذلك. وعلى أية حال، لم يكن القول بأن النازيين قد جاءوا لتدمير الاتحاد السوفيتي كله / قولاً جديداً على مسامع جمهور خطبة [٨٢] باباخان، بل الجديد في الأمر هو الرسالة الكامنة بين السطور؛ إذ يُعلي باباخان [في خطبته] من شأن الأضرحة ذاتها التي ظلّت الحكومة السوفيتية طوال عقدين تحوّلها إلى حظائر ومخازن ومتاحف لـ «الإلحاد العلمي الماركسي اللينيني». بيد أن اختيار مُفّتٍ اعتُقِل سابقاً مرتين، لنقل رسالة مفادها أن النازيين، لا السوفيت، هم الخطر الوجودي على الإسلام، إنما كان لدى البعض أمراً ينطوي على شيءٍ من المفارقة وعدم التمييز، بل السُخف. والحقُّ أن هذا الاختيار كان ضربةً عبقريةً؛ فباباخان، الذي يمثّل تلك الرابطة الحية بالتراث الصوفي السابق على السوفيت، جاء ليعلن قطيعةً مع الماضي. والأرض المباركة عادت مباركةً بموافقة ستالين.

نداءٌ للشعبة الإسماعيلية

سُرّت موسكو بما نتج عن عمل باباخان ورسولوف. وفي أقل من عام، نشأ على غرار النظارتين الدينيتين نظارتان جديدتان؛ حيث انتُخب خضري غيبكوف (Khizri Gebekov) رئيساً للنظارة الدينية لمسلمي شمال القوقاز (DUMSK)، وترأس شيخ الإسلام الشيعي آخوند أغا محمد جعفر أوغلي علي زاده (علي زاده آخوند) النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز (DUMZAK). وسرعان ما أكد أئمة نظارة ما وراء القوقاز لستالين، في خطابٍ أرسلوه إليه، أنهم «يباركون عمل إخوانهم المسلمين في الحرب، ويدعونهم إلى الدفاع عن أرض أسلافهم الطاهرة، متكاتفين مع بقية شعوب الأرض السوفيتية»^(٧٥).

(75) "Mohammedans Greet Marshall Stalin," *Soviet War News*, May 31, 1944.

وفي هذه الرسالة نفسها، مجدّوا ستالين بأنه «القائد الحكيم للحكومة السوفيتية والمرسل من قبل الله، والقائد الأعلى للقوات المسلحة المدافع العظيم عن الشعوب من الفجرة الفاشيين!» وانظر أيضاً:

وقد تعرض غيبكوف وعلي زاده - شأنهم شأن إيشان باباخان - للاضطهاد في حملات السوفييت المناهضة للدين، قبل أن «يُرَدَّ لهما اعتبارهما». ونجد في المؤتمر التأسيسي لنظارة ما وراء القوقاز الرسالة التي ألفناها الآن، وإن جاءت هذه المرة خلواً من إسلامية رسولوف الجامعة وثناء باباخان على التقاليد الصوفية^(٧٦):

«من اليوم الأول الذي بيّنت فيه الحربُ الوطنية للمسلمين المؤمنين أن الدفاع عن وطنهم فريضة واجبةٌ عليهم ... دَعَوْنَا وما زلنا ندعو كلَّ المؤمنين والمؤمنات إلى الخدمة في الجيش والعمل في الجبهة الداخلية على قتال العدو، وعدم العودة إلى الحياة الخاصة إلا بعد إزالته من على وجه الأرض، ودعوناهم ليعملوا في الداخل وألا يتركوا شيئاً من العمل المُفضي إلى مضاعفة قوة جيشنا وبلادنا ... ومن الآن، أكثروا من دعواتكم بأن يعجّل الله الساعة التي تطوي فيها الريح الدولة الهتلرية المجرمة وحرّبها الآثمة، / وأن [يعجّل] بنصر دولتنا السوفيتية وحلفائها المجيدين».

[٨٣]

ومن الواضح أن الدولة السوفيتية كانت تؤمّل من تأسيسها أربع نظارات دينية مستقلة في أربع مناطق مختلفة في الوصول إلى أكبر عددٍ ممكن من السكان المسلمين^(٧٧). لكن ماذا عن الفرق الإسلامية الخارجة عن التيار العام؟ ومن هذه

= Kolarz, *Religion in the Soviet Union*, 428; Ro'i, *Islam in the Soviet Union*, 105; Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 175.

وقد نُشر أول ما وضعته دار إفتاء شمال القوقاز من «نداءات وطنية» للمسلمين بلغاتٍ عدة تبين التنوع الذي اتسمت به المنطقة؛ باللغات الآقارية والقوموقية والدارغينية واللزغينية، ولغة الألك، واللغات التبسارانية والقبردية والأوسيتية والأديغية والشركسية والنوغاية، (PDDUM) .44)

(76) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi Voine 1941-1945 gg.," 25.

(٧٧) وُضعت بعض الخطط لجمع النظارات في «مركز إسلامي يشمل الاتحاد السوفيتي كله» يشبه الفاتيكان لكن للإسلام السوفيتي، وقد وافق رؤوس دور الإفتاء على هذه الخطط في عام ١٩٤٥، لكنها لم تتحقق قط. انظر:

=

الفرق طائفة الشيعة الإسماعيلية النزارية في طاجيكستان، وهي الطائفة التي يبلغ عدد أبنائها نحو بضعة آلاف يتركزون في غالبهم في المنطقة الجبلية المسماة أحياناً بـ «بدخشان شرق النهر» (وهي حالياً ضمن مقاطعة غورنو-بدخشان ذاتية الحكم)، إحدى أفقر مناطق الاتحاد السوفيتي. ويتخذ هؤلاء الإسماعيلية -الذين يشكلون اليوم ثلاثة في المائة (٣٪) من إجمالي سكان طاجيكستان- الأغا خان -ذلك اللقب المتوارث- رأس الطائفة الروحي. وفي إبان الحرب العالمية الثانية، كان السلطان محمد شاه (١٨٧٧-١٩٥٧) هو الأغا خان الثالث الذي لم يكن له كبير تواصل مع الحكومة السوفيتية، رغم سلطته الروحية السامية على آلاف من مواطنيها، في حين أن ملكة بريطانيا منحته لقب الفارس، واشتهر في الغرب بما كان يحوزه من إسطبلات خيل السباق. بل إن المسئولين السوفيت سيطرت على أذهانهم، قبل بضع سنين، بعض الشكوك والرّيب السخيفة؛ حيث تخيلوا أن ثمة مؤامرة يحيك خيوطها الأغا خان؛ لإشعال انتفاضة بين أتباعه في بدخشان^(٧٨). وقد أعرب العملاء السوفيت في مطلع عشرينيات القرن المنصرم عن قلقهم من أن الإسماعيلية «يخضعون لنفوذ حكومات معادية تقوم بتمويلهم»^(٧٩). ولم تكن هذه الشكوك والمخاوف كلها بلا أساس طبعاً؛ ففي يونيو/حزيران من عام ١٩٢٧، نقل أحد العملاء أن الأغا خان قد ألقى بعض الخطب التي يتهم فيها البلاشفة بأمورٍ منها أنهم يُزعمون «تقويض أقدس

= R.I. Bekkin, "Muftiatiy i gosudarstvo v sovetskuiu epokhu: evolutsiia otnoshenii / The Muftiates and the State in the Soviet Times: The Evolution of the Relationship," in *Rossiiskii islam v transformatsionnykh protsessakh sovremennoṣti: novye vyzovy i tendentsii razvitiia v XXI veke*, ed. Z.R. Khabibullina (Ufa: Dialog, 2017), 64.

(78) Tasar, *Soviet and Muslim*, 44.

وقد زعم لاجئٌ من طاجيكستان في حوارٍ أُجري معه أواخر عهد ستالين أن إسماعيلي بدخشان كانوا مشهورين بالسفر سراً عبر الحدود السوفيتية ذهاباً وعودة، لأداء فريضة الحج في مكة.

HPSSS sched. B, vol. 9, case 448 ff. 20-21

(79) RGASPI, f.62, op.2, d.1145, l.83 ("Poṣtanovlenie Plenuma Sredazbiuro o musdukhovenṣtve," *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/11079> [accessed April 14, 2020])

مبادئ الدين والطبيعة»، وأنه (أي الأغا خان) قد حضر مؤتمرًا واحدًا على الأقل اختتم بقرار لعددٍ من النُخب الدولية بمحاربة الشيوعية^(٨٠).

وكانت هناك شكوك أخرى أيضًا؛ إذ تزعم يوليا غوزيفا أن من أبرز الدوافع وراء تأسيس النظارات الدينية الأربع مواجهةً پروباغندا «الجامعة الإسلامية» التي افترض أنها تدخل الاتحاد السوفييتي من جنوب آسيا والعالم العربي، رغم خلو الاتحاد السوفييتي في واقع الأمر من أي قدر ملموس من هذه البروباغندا^(٨١). فإن صحَّ أن تهديد «الأممية» الإسلامية كان على هذه الدرجة من الحدّة التي تُصوِّرها غوزيفا، فإن الإسماعيلية، الذين يقطنون منطقةً حدوديةً يصعب الوصول إليها ويخضعون الخضوع الأتمّ لسُلطان زعيم أجنبي شديد الارتباط بالحكومات الرأسمالية، بدوا لا شكَّ عرضةً للتأثر بها أكثر من غيرهم. ويجب أن يحرص أي نداء ديني موجّه لهذه الطائفة نيابةً عن الاتحاد السوفييتي على تحقيق توازن بين الولاء للدولة السوفييتية والولاء / [٨٤]

لزعيم غير سوفييتي. وفي حين كانت صورة المسلم التقي في البروباغندا الدينية تعني آنذاك دعم جيش ستالين الأحمر، فكون الإنسان مسلمًا إسماعيليًا تقيًا يعني دائمًا تأييد رجلٍ يخبرنا مجموعُ إسطبالاته وقصوره بالكثير عن مشاعره نحو البلشفية.

لكن هناك محاولة جرت للتواصل مع هؤلاء الإسماعيلية؛ ففي وثيقة مثيرة اكتشفتها كواهارا يايوي (Kawahara Yayoi) ويوميد مَمادشيرزودوشيف (Umed Mamadsherzodoshev) في إطار استكشافاتهما الأخيرة في جبال پامير، نجد نداءً باللغة الفارسية يعود إلى زمن الحرب، يحاول الجمع بين النداءات السابقة والتأكيد القاطع على إخلاص الطائفة للأغا خان^(٨٢)؛ إذ حيّت الوثيقة الإمام حتى قبل التسمية

(80) RGASPI, f.62, op.2, d.1145, l.35–68 (“Musul’manskoe dukhovenstvo Srednei Azii v 1927 g. [po dokladu polnomochnogo predstavitelia OGPU v Srednei Azii] [4 iunia 1927 g.],” *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/16797> [accessed April 14, 2020]).

(81) Guseva, *Rossiiskii musul’manin v XX veke (na materialakh Srednego Povolzh’ia)*, 156.

(82) Yayoi Kawahara and Umed Mamadsherzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan* (Tokyo: University of Tokyo, TIAS Central Eurasian Research Series, 2015).

المعتادة لله («بسم الله الرحمن الرحيم»)، فقالت: «أيها المَلَأ، مولانا المعظم السلطان محمد شاه!»، ثم يبدو أن واضعي الوثيقة^(٨٣) يتحدثون إلى طيفٍ واسع من المسلمين؛ إذ خاطبت رسالتهم «جميع مسلمي قوهستان وبدخشان وتركستان وبخارى، وأفغانستان نعمة الله، وإيران والصين وسوريا والعراق وغيرها من البلدان». لكن السطور التالية تكشف عن أن طائفةً بعينها من المسلمين كانت هي المقصودة، وهم «المؤمنون من الإسماعيلية في جميع أنحاء العالم». ثم تستكمل الوثيقة قائلة: «إلى إخواننا المؤمنين كلهم... نؤكد لكم أننا أتباع دين الإسماعيلية الصافي، ويجب أن نكون وحدنا ولا نديد لنا في ظل نعمة مولانا صاحب السعادة [الأغا خان]. ونحن نعلم أن حينا له فرضٌ علينا، وكلنا قد أدينا دورنا في معونة مولانا في الپامير وقوهستان وبدخشان». وبعبارة أخرى، تُخاطب الطائفة الإسماعيلية [هنا] بوصفها جماعةً أممية مستقلة عن غيرها من المسلمين. ثم تبدأ الرسالة في الأمر الجاد بتلخيصٍ مألوف عن الفظائع النازية^(٨٤):

«لقد نهب جلاّد الشعوب هتلر وأنصاره أوروبا كلها، وأغرقها في الدماء والدموع، وصبّ الموت صبّاً على آلاف المساكين.

فأينما حلّت أقدامُ الفاشية، تكدّست جثث القتلى بعضها فوق بعض، ولم تلق آهات الأطفال والشيوخ ممن رُزئوا وفقدوا حياتهم آذاناً رحيمة، ولا سُمع عويلُ النساء والفتيات ونحيبهن على تلويث شرفهن وتعذيبهن. إن الفاشيين يُجوّعون الناس حتى الموت ثم يفرون من مسرح الجريمة».

ولم يكن عنف النازيين وحده ما هو حقيقٌ بالمقت، بل أيديولوجيتهم التي تهدّد

(٨٣) تحمل الوثيقة توقيع عددٍ من أئمة الإسماعيلية هم: السيد كاظم سيد شاهد زاده، وشاهنام سيد مرسل زاده، ومذهب شاه، والسيد مراد علي سيد ميرزا، والسيد شريف سيد عاشور، وشاه نزار أتالغ شاه زاده، ومحرم بك رضا زاده.

(84) Kawahara and Mamadsherzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*.

المبادئ السوفييتية الأساسية، كما يقول النداء (كصنيع خطبة باباخان قبله على وجه الدقة)^(٨٥):

[٨٥] / «يُعلي هتلر من «أيديولوجيا» نقاوة العرق الألماني وهيمنته؛ مما يعني أن كل شعوب العالم [الأخرى] عرقٌ واحدٌ، وأن مسلمي الشرق ما هم إلا قروء (maymūn). ولتحويل هذه «الأيديولوجيا» إلى واقع، يتغيّر الألمان استعباد الشعوب الأخرى والقضاء على حكمهم [لأنفسهم]. لقد فضح هتلر وحلفاؤه أنفسهم بوصفهم أعداءً للعلم والثقافة، وأعداءً لحرية العقيدة (azādī-yi vijdān)».

ويبدو أن السطور التالية قد أخذت مباشرة بدورها من خطاب باباخان، أو ربما من قالبٍ مشترك^(٨٦):

«لقد نقضت الدولة النازية عهدتها مع الاتحاد السوفييتي، و[هاجمت] دون إعلان الحرب، وهي تنوي بذلك استعباد رجالنا ونسائنا، وإلحاق اليتم وألم الوحدة بأطفالنا، وتخريب بيوتنا وملئها بالفسق والفجور، ووطء قوانيننا، وإبطال ديننا وإهانتته، وإحالة بساتيننا إلى أرضٍ قفر وبلادنا إلى رماد، وإلى نقض عهودهم بالهجوم على بلادنا».

على أن زعماء الإسماعيلية لم يترسّموا خطى باباخان في وصف المشهد الديني في آسيا الوسطى، ولكنهم استعاروا صفحةً كاملةً (بنصها تقريبًا) من رسولوف، تصفُ عمليات النهب التي قام بها النازيون في القوقاز والقرم، وتشبه للغاية ما نجده في خطبة رسولوف قبلها بعام^(٨٧):

(85) Kawahara and Mamadsheerzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*.

(86) Kawahara and Mamadsheerzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*.

(87) Kawahara and Mamadsheerzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*.

«لقد ارتكب النازيون في شمال القوقاز جرائم مُفزعة، تلك المنطقة التي كان المؤمنون والغزاة في الأيام الخوالي يبلغون المجد فيها. لقد نهبوا الناس، وحرّقوا بيوت سكان الجبال ونسفوها، وأسروا الآلاف من الرجال والنساء واستعبدوهم. وخنق الآلاف من الناس - وفيهم المريض والشيخ الكبير والنساء والأطفال - بالغاز وقتلوا بالشّم في مدينة كراسنادار وضواحيها وفي مدينة خاركوف وغيرها من المدن بأوامر من القادة الألمان. إن الألمان يريدون أن تسيل الدماء ودموع اليتامى بدل المياه في القنوات والجداول العظيمة التي بناها شعبنا بيده. وإن هذه الكلاب تتعطش لدماء الأبرياء من الناس. فمن إلههم هذا، وما كتابهم ذاك اللذان لا يحزّمان هذا الطغيان وهذه القسوة والتعطش للدماء؟».

/ لكن في هذه اللحظة، وعلى النمط المعتاد لبروفاغندا زمن الحرب (العلمانية [٨٦] وغيرها)، يتحول المنظور فجأةً من موقع الضحية إلى موقع البطولة، ويؤكد على الكفاح السوفييتي المشترك: «لقد هبَّ شعب الاتحاد السوفييتي - الطاجيك والأوزبك والتركمان والتتر والروس والأوكران وغيرهم - دفاعاً عن وطننا الغالي، متحدين في وجه عدوهم المشترك». ولكن في تحولٍ مثير للبروفاغندا «العلمانية»، لا يتكاتف السكان المسلمون مع المواطنين السوفييت الآخرين في كفاح «علماني»، ولكن غير المسلمين هم من اشتركوا في جهادٍ يبدو أن المسلمين هنا هم قادته^(٨٨):

«إن شعوب أوروبا المقهورة الآن أو التي سيقهرها الفاشيون، مسلمين أو غير مسلمين، لم يطبقوا الطغيان والتجبر، فخرجوا للجهاد المقدس ضد الفاشية المتعطشة للدماء، مادّين يد العون إلى بعضهم البعض، روحًا واحدة وجسدًا واحدًا. وأما الإخوة المسلمون المفعمون بأعظم مشاعر الجنس البشري - شعور الوطنية (vaṭan-

(88) Kawahara and Mamadsheerzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*.

dūstī) - فقد اجتمعوا معاً لإشعال ثورة حقيقية ضد الفاشية، ومثدوا يد العون إلى شعوب أوروبا المقهورة.

إن الإخوة المسلمين يسلكون وفق أساس تراثهم الطاهر، مدركين أن بلوغ الحرية والنجاة لا يتحقق إلا بالكفاح الصادق المخلص.

إننا، نحن المؤمنون من جبال الپامير وقوهستان وبدخشان والاتحاد السوفيتي، معظمي الملا [أي معظمو الأغاخان]، ندعو مسلمي العالم أجمع وندعو الله بالكفاح الصادق ضد الفاشية الألمانية عدو بني آدم الغادر. وندعو الله أن يحل السلام بدفاعنا عن بلدنا الطاهر.

وبعد سطور قليلة تشدد على التزام الإسماعيلية بالقضاء على النازيين («لا محيىص عن أن يُمحو من على وجه الأرض!»)، متحدين الآن مع «مسلمي العالم أجمع» و«بعون الدين الحنيف»^(٨٩)، ينظر النداء أخيراً في المشكلة التي طالما تجاهلها، ألا وهي علاقة الأغاخان الوثيقة والقديمة بالغرب الرأسمالي، وخاصة إنكلترا، ويفعل ذلك بلا تردد، ثم يتحول فجأة إلى الشناء على صداقة الشعوب السوفيتية كلها وتحالفها^(٩٠):

«اعلموا أن مولانا المعظم [الأغاخان] قد دخل بلد الشعب الإنكليزي المضيفة واختارها مقاماً له، عطفاً منه عليهم. إنه يعيش في بلدٍ تحارب الفاشية متحدةً مع أمريكا وروسيا؛ ولذلك مغزى مهم للغاية.

/ يقول الكتاب العزيز: «إن الله لا يحب المعتدين».

[٨٧]

إننا، نحن الشعب المسلم المعظم للملا في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الاشتراكية، قمنا عازمين على أداء واجب المؤمن الديني، وندعوكم دعاء الإخوة للعمل.

(89) Kawahara and Mamadsherzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*.

(90) Kawahara and Mamadsherzodoshev, *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*.

هُبُوا وناضلوا هتلر الدموي وادفعوا جيوش سلبه ونهبه. عاونوا
أشقاءكم من شعوب الاتحاد السوفيتي، الذين يقفون ويقاتلون ببسالة
على كل جبهة لتحرير بلادهم والإنسانية كلها من الفاشيين الجهال».

هنا صوّرت علاقة الأغا خان الدافئة والطويلة بالملكية والنُخب الإنكليزية على
أنها إقامة مؤقتة لحساب المجهود الحربي. ويشير النداء إلى أن الزعيم نفسه قد تكرم
بمنح عطفه لإنكلترا؛ لأنها آثرت الانحياز إلى الحلفاء. ولا نجد تعبيراً صريحاً عن
هذا المعنى، لكنه واضح بما يكفي: لقد انضم الأغا خان إلى الحرب لصالح الحلفاء
(والواقع أن علاقة الأغا خان بأعمال الحرب لا تزال مبهمّة ومثار جدلٍ وخلافٍ
حتى الآن).

ويلوح أن النداء الإسماعيلي للحرب يشترك في أمور كثيرة مع خطبتي رسولوف
وباباخان السابقتين عليه، بل تبدو بعض مقاطع هاتين الخطبتين كأنما ألحقت بالنداء
دون أي تغيير. ولكن هناك من الأمور الواضحات ما يميّز هذا النداء؛ فرؤية رسولوف
للنضال الإسلامي كانت أمميةً في توجُّهها، فلم يُذكر مسلمو منطقته القولغا-أورال
لا بعرقيتهم ولا منطقتهم. وفي الوقت نفسه، نجد أن الأمة الإسلامية في خطاب
باباخان فكرة لاحقة؛ إذ تُهيمن الحالة الدينية المحلية والتاريخ الديني والتراث
الصوفي لآسيا الوسطى على الخطبة، لكن لا بوصفها تخصُّ جماعة عرقية خاصة
تتنسب إلى آسيا الوسطى، بل بوصفها إرثاً يتشاركه مسلمو المنطقة جميعاً. وأما
الزعماء الإسماعيلية، فقد فصلوا خلافاً لذلك في أسباب تميّز جماعتهم، وأسكتوا
[صوت] الانتماء الإسلامي الجامع، واستهدفوا جمهوراً بعينه في الأقاليم السوفيتية
التي يقطنها الإسماعيليون. ويمكننا القول: إن هذا البيان قد شدّد على كل سمة
يمكن أن تثير شكوك الدولة السوفيتية في الإسماعيلية من قبيل ما يُفترض من
انتماءاتهم المنقسمة، وتوجههم «الأممي»، وعلاقاتهم شبه المؤكدة مع الغرب
الرأسمالي، وأولوية هوية دينهم الطائفية على التصنيفات العرقية «العلمانية»، مثل
الطاجيكية أو الأوزبكية.

/ لكن الدولة السوفيتية لم ترفع عين الريبة عن الطائفة الإسماعيلية؛ ففي يوليو / [٨٨]
تموز من عام ١٩٤٢، وصل إنذار لمالينكوف وبعض المسؤولين السوفيت الكبار

عن ادعاءات مفادها أن «الطائفة الإسماعيلية قد تصاعدت وتيرة أنشطتها في القيام ببعض الأعمال المناهضة للثورة في أثناء الحرب، في الپامير ومناطق حدودية أخرى، وأن الإسماعيليين مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بأبناء دينهم في أفغانستان، ويعقدون اجتماعاتٍ دورية يحضرها عادةً أعضاء في الكومسمول بل يحضرها بعض الشيوعيين»^(٩١). وبعد ذلك بعامين، نجد مذكرةً سرية للحزب تصل إلى مالينكوف، تنتقد خطابًا ألقاه أمين الحزب في طاجيكستان، وتنقل عنه أنه «تجاوز بصمتٍ مطبق ما يبرز للعيان من أنشطة الإسماعيلية المناهضة للثورة، وهي الأنشطة التي تملك شبكةً واسعة في الپامير، وتضطلع بأعمالٍ مخبرية للأفغان»^(٩٢).

لقد كانت دعوات التعبئة الإسلامية السوفيتية للحرب على هتلر في الجملة فرصةً لزعماء الطوائف الإسلامية المختلفة ليحدّدوا طبيعة هذه الطوائف ومواضع اهتمامهم، حتى وإن كانت هذه المخاوف تتناقض تناقضًا صارخًا مع الموقف الظاهر للدولة. لقد كرّرت موضوعات الپروپاغاندا الشائعة تكرارًا البيغاوات، وتحقّقت المهمة الأساسية بتعبئة المسلمين للحرب، لكن الزعامات المسلمة بلغوا ما هو أبعد مما بلّغتهم القوالب الجاهزة إيّاه. فقد شدّدوا على أولية الهوية الإسلامية (الصوفية أو الإسماعيلية أو غيرهما)، وحاولوا إعادة ربط المسلمين السوفيت، على مستوى الخطاب، بالعالم الإسلامي الأوسع الذي ظلّت عزلتهم عنه تامّة. وطرخوا مواقف

(91) RGASPI, f.17, op.127, d.163, l.63 ("Zapiska zam. nachal'nika Upravleniia kadrov TsK VKP(b) N.V. Kiseleva sekretariam TsK VKP(b) A.A. Andreevu, G.M. Malenkovu, A.S. Shcherbakovu o rabote partiinoi organizatsii Tadjikištana (o vliianiia islama v prigranichnykh raionakh," *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/17798> [accessed April 14, 2020]).

(92) RGASPI, f.17, op.88, d.632, l. 73 ("Dokladnaia zapiska zameštitelja zaveduiushchego Organizatsionno-instruktorskim otdelom TsK VKP(b) L.A. Slepova sekretariu TsK VKP(b) G.M. Malenkovu o vystuplenii sekretaria TsK KP(b) Tadjikištana D.Z. Protopopova na plenum TsK KP(b) Tadjikištana o roli musul'manskogo dukhovenštva v gody Velikoi Otečestvennoi voiny," *Russian Perspectives on Islam*, <https://islamperspectives.org/rpi/items/show/16169> [accessed April 12, 2020]).

-إسلامية جامعة وأممية وتركز على الأضرحة- خرجت عن نطاق المحظورات الحكومية السابقة، بل استهزأت بها استهزاءً بالغاً، أي أنه سُمح للزعماء المسلمين، من أمثال باباخان ورسولوف، بشبر، فوضعوا أيديهم على قدر فرسخ.

وبعد بضعة عقود، شاعت بين البشكير قصةٌ شعبيةٌ حول اللقاء الأول بين ستالين ورسولوف، استنصح فيها ستالين رسولوف حول الحرب، وسأله: لماذا لا يبدو النصرُ على النازيين من نصيب السوفييت؟

فقال رسولوف: «لأننا لا نصلي لله».

فردَّ ستالين: «إذن، فلنصل!»^(٩٣).

(93) Kildin, Yarmullin, and Ghaysina, eds, *Bashkortostan—aulialar ile*, 226.

(٣)

التفاوض بشأن التسامح الستاليني: المؤسسات الإسلامية في زمن الحرب



[٨٩] / «إني، وباسم مسلمي الاتحاد السوفييتي، أقرؤك «السلام»،
وقلبي يغمره الرضا!»

هكذا استهلَّ عبد الرحمن رسولوف «برقية» علنية أرسلها إلى ستالين، نُشرت في جريدة إزفيستيا الحكومية في الثالث من مارس/ آذار من عام ١٩٤٣. وكان السبب الذي أشاع الرضا في نفسه هو النجاح الساحق الذي حقَّته جهودُ جمع التبرعات بين مسلمي القولغا-أورال؛ حيث قال: «إني مستهديًا بنجاح جيشنا الأحمر المجيد أتبرع بمبلغ وقدره خمسون ألف (٥٠.٠٠٠) روبل، من حرٍّ مالي، لصالح بناء رتلٍ من الدبابات، وأدعو في رسالة خاصة أهل الإيمان من المسلمين إلى التبرع لبناء أرتالٍ [أخرى] من الدبابات». وأنهى المفتي رسالته قائلاً: «أدعو الله وأتمنى لك صادقًا الصحة والعافية، والنصرَ المعجَّل على العدو»^(١).

وإذا أردنا أن نتبيَّن حجم ما تبرع به المفتي، فلنضع في اعتبارنا أن متوسط الأجر السنوي للعامل السوفييتي في عام ١٩٤٤ كان يتراوح بين أربعمئة وخمسة وثلاثين (٤٣٥) وثمانمئة واثنين وعشرين (٨٢٢) روبلاً^(٢). والحظُّ أن إسهام المفتي

(1) Raev and Iaubov eds., *Islam yuldarynda: Sufiysilik habaqtari häm shäyekh Zäynulla Räsülev shäjärähe*, 68–69.

(2) Franklyn D. Holzman, "Soviet Inflationary Pressures, 1928–1957: Causes and Cures," *The Quarterly Journal of Economics* 74/2 (May, 1960), 168; *PDDUM*, 66.

كانت التبرعات النقدية التي تحصل عليها المساجد المسجَّلة لدى دار الإفتاء تُحوَّل عادةً إلى البنوك التي تقدِّم عنها إيصالات استلام، انظر:

«الشخصي» لم يكن يشكّل إلا نسبة ضئيلة من إجمالي التبرعات التي جمعتها نظارته الدينية لرتل الدبابات الجديد في الجيش الأحمر، وهي التبرعات التي قُدّرت بما لا يقل عن عشرة ملايين روبل، وهو مبلغ كان يساوي تقريبًا آنذاك الدخل السنوي الكامل لاثني عشر ألفًا ومائة وخمسة وستين (١٢.١٦٥) عاملاً. وقد وجّه ستالين إلى رسولوف الشكر بنفسه في برقية ردّ على صفحات الجريدة نفسها^(٣).

ويزعم البعض أن دار إفتاء إيشان باباخان (النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان) جمعت تبرعًا مماثلاً حتى لا يسبقها سابق^(٤). وفي الوقت نفسه، قدّمت النُخب المسلمة في القوقاز وآسيا الوسطى تبرعات «شخصية» بدا معها تبرع رسولوف المقدر بخمسين ألف روبل أضحوكة؛ فالأمير الأذري كارا-أوغلي سليمانوف (Kara-Ogly Suleimanov) تبرع بمائتين وخمسين ألف (٢٥٠.٠٠٠) روبل، ودفع الكازاخي كولاش بايماغامبيتوف (Kulash Baymagambetov) مبلغًا مذهلاً قدره ثلاثمائة وخمسة وعشرون ألف (٣٢٥.٠٠٠) روبل^(٥). وكان التبرع بالحيوانات أمرًا جائزًا أيضًا؛ ففي أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٣ كان هناك مسلمون مسجّلون في الدفاتر [أي دفاتر المتبرعين -م] تبرعوا بسبعمئة دجاجة

= Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945)," 147.

ومن الجدير بالذكر أن جمع التبرعات في زمن الحرب كان من وظائف المجلس الديني لمسلمي أرنبروغ، وهي وظيفة أداها بقوة في الحرب العالمية الأولى. وأنا ممتن لأنّ چاي فرانك على هذه الملحوظة.

(3) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 94; cf. also D.N. Denisov and K.A. Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga* (Orenburg: OGAU, 2009; "Etnoregional'nye issledovaniia" v. 6), 26-27.

(4) A.A. Nurullaev, "Musul'mane Sovetskogo Soiuz v Velikoi Otechestvennoi voine," in N.A. Trofimchuk ed., *Religioznye organizatsii Sovetskogo Soiuz v gody Velikoi Otechestvennoi voiny 1941-1945 gg.* (Moscow: RAGS, 1995), 61.

(5) Nurullaev, "Musul'mane Sovetskogo Soiuz v Velikoi Otechestvennoi voine," 61.

وثمانين كبشًا وعشرة رؤوس من «الماشية الكبيرة»^(٦). ويُقال: إن تركمانستان تبرعت في مجملها بمائة وعشرة ملايين روبل وأكثر من سبعة أطنان من «الحُلِيِّ الفضية الشعبية»^(٧).

/ وعلى الرغم من أن بعض «التبرعات» كانت غطاءً للرّشا والابتزاز، وأن مقادير [٩٠] المبالغ الكلية قد بُولغ فيها (مبالغٍ هزلية في بعض الأحيان)، فإن الأرقام الواضحة للتبرعات الموثّقة التي مرّت من خلال المؤسسات الإسلامية تُبيّن أن مساعي ستالين في حشد الدعم الإسلامي لم تذهب هباءً. بل إن تدفق التبرعات الصادرة عن المسلمين السوفييت بدأ عملياً منذ اللحظة التي عقد فيها ستالين تحالفه الجديد مع الزعامات المسلمة، وظل على تدفّقه حتى نهاية الحرب. وكانت المساجد الجديدة أو المُعاد افتتاحها، والمؤسسات الإسلامية التي تعرضت للاضطهاد فيما مضى، قنواتٍ تمر فيها هذه التبرعات. ولا شك أن بعض هذه التبرعات كان إجبارياً، وأن الأرقام قد ضُخمت إلى حدٍّ ما، بل إلى حدٍّ هزلي. ولكن لا شك أيضاً في أن بعض المواطنين السوفييت المتدينين اعتقدوا أنهم سيُكافئون على كرمهم^(٨).

(6) PDDUM, 28–29.

(7) PDDUM, 48;

انظر أيضاً:

Akhmadullin, "Deiatel'nost' organov gosudarstvennogo upravleniia SSSR i rukovoditelei dukhovnykh upravlenii musul'man po sozdaniiu vsesoiuznogo musul'manskogo tsentra," 3–4.

وعن التبرعات التي مرّت من خلال الكنيسة الأرثوذكسية، انظر:

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 129–131; Alekseev, *Illuzii i dogmy*, 335; Reese, "The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for the Staliništ Regime during the Great Patriotic War," 138.

(٨) كتب دانييل بيرس: «في مثال عام [على الالتماسات] من منتصف عام ١٩٤٣، نجد بعض الفلاحين في إحدى المناطق الريفية في أوبلاست إيفانوفه (Ivanovo) يشتكون من صعوبة تسجيل أبراشيتهم. وقد كتبوا في التماسهم أنهم تمنوا لو ساعدوا بلدهم في الأوقات الصعبة، وأنهم تبرعوا فعلاً باثني عشر ألفاً وخمسمائة (١٢.٥٠٠) روبل لصندوق الدفاع، وستة آلاف ومائة وخمسة عشر (٦.١١٥) روبلاً على هيئة أذون خزانة باسم رتل دبابات دميتري =

وكما سيبين هذا الفصل، لم تنشأ وطنيةُ زمن الحرب بين السكان المتدينين بفضل الخطب التحريضية والتنازلات [من طرف الدولة] فحسب، بل نشأت كذلك بفضل الجمع بين الأنشطة الوطنية (من قبيل التبرعات) والشعائر الدينية، وقد بلغ هذا الجمع حدًّا يصعب معه التمييز بين هذه الأنشطة وتلك الشعائر؛ فمثلاً، أدى تحويل وجهة الزكاة الشرعية نحو المجهود الحربي، إلى أن يصبح إيتاء الزكاة عملاً دينياً ووطنياً معاً. وأدى دمج الوطنية في نسيج خطب الجمعة إلى أن يغدو ارتياد المساجد الجديدة سبيلاً يسمح للمسلمين بتمثُّل الحديث الذي طالما ردَّده كبار المُفتين: «حب الوطن من الإيمان» وتجسيده. وصفوة القول أن عهد الحرب كان عهداً أمكن فيه للإيمان الإسلامي نفسه أن يكون - عند البعض - تعبيراً عن الوطنية السوفييتية.

وقد بدأت التبرعاتُ في التدفق فور انتهاء رسولوف من خطبته الأولى التي ألقاها في المسلمين السوفييت في صيف عام ١٩٤١؛ فوفقاً لابنته، «أودعت التبرعات نقداً في البنوك لمعاونة الجبهة، وأرسل المتبرعون الإيصالات التي استلموها إلى النظارة الدينية المركزية. وفي أعقاب ذلك، جاء أشخاص مكلفون من الحكومة البشكيرية وأحصوا مجموع هذه الإيصالات، فكان أن جُمع كثير من المال باسم مسلمي الاتحاد السوفييتي حتى أن الحكومة السوفييتية أخذتها الدهشة»^(٩).

= دِنسكوي (Dmitrii Donskoi)، وربما لو كان لدينا قسٌّ راعٍ لتمكنا من دفع المزيد «God is Now on Our Side, 106».

(9) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 122.

يقدم إرين تاسار تقييماً رصيناً لأهمية التبرعات الخيرية في سياق التراث الإسلامي في آسيا الوسطى، فيقول: «كان للصدقات، وخاصةً في عيدي المسلمين السنويين الأساسيين، أهمية رمزية كبرى؛ ففي آسيا الوسطى، كان إخراج الزكاة يتمركز تقليدياً حول المسجد، ويجري في جوٍّ يتسم بشعائرية كبيرة. فكثيراً ما كان ربُّ الأسرة الذكر يصطحب أولاده ليدفع الزكاة للإمام نيابةً عن عائلته، فيدعو الإمام بدعاءٍ عربي ثابت، ثم بآخر باللغة الأصلية (بالقيرغيزية أو الطاجيكية أو الأوزبكية... إلخ)، ثم يختم بالبسملة ويضع كلتا يديه على وجهه. ولم يكن تصور الناس العاديين عن الزكاة أنها مجرد دعمٍ للمسجد (لفقراء المسلمين في المجتمع من قبيل من رُمِلتْهن الحرب أو يَتَمْتهم، من خلال مكاتب المسجد)، بل عدُّوا أن إحسانهم هذا

ولئن كان من الواضح تمامًا أن النُخب يمكنها أن تحظى برضا ستالين (وربما حمايته أيضًا) من خلال التبرع بالأموال الطائلة، فإننا لم نتبيّن ما الذي يمكن أن يعود على المسلمين من «العامة»، خارج إطار النُخب، من مظاهر الولاء والدعم الباذخة هذه للدولة السوفييتية. فمع وجود كلِّ القنوات «العلمانية» المتاحة لدعم الجيش الأحمر، ما الذي يعود على العامل المسلم في مزرعة جماعية أو الخيَّاط أو البناّء من التبرع بالمال لمسجد محلي؟ سنرى أن هؤلاء المسلمين، الذين أنزلوا مساجدهم / [٩١] وأكابر ديانتهم أسمى المنازل، كان أمامهم الكثير ليجنوه من وراء هذا المسلك؛ إذ خلق النجاح الأوّلي لحملة جمع التبرعات تفاعلاً متسلسلاً؛ فالنُخب الإسلامية التي تحرّرت حديثاً من معسكرات الغولاغ - من أمثال بابا خان - جمعت المزيد من التمويل بفضل التبرعات، فبدأ الأهالي من المسلمين السوفييت وأئمتهم الجدد الذين اكتسبوا سُلطة وحظوة مؤخرًا في التفاوض من أجل فتح مزيد من المساجد، ومع افتتاح المساجد الجديدة (وإن كانت محدودة العدد) رُقي كثير من أهل العلم من المسلمين أو أُطلق سراحهم من السجن؛ لتشغيل هذه المساجد، وهكذا دواليك. وقد حصلت الدولة السوفييتية على التبرعات وانتزعت لها موطئًا دعائيًا جديدًا، وحصلت النُخب الإسلامية وجماهيرها على إمكانية متواضعة - وإن كانت غير مسبوقة - للمساومة على السماح بأمورٍ كانت فيما مضى محظورةً.

لا بد من التدبر في الأثر الاجتماعي والنفسي لهذه التغيرات، وإن كان قياسه أصعب من قياس عدد المساجد التي أعيد افتتاحها أو عدد الدبابات التي مُولت. فقبل الحرب، كان تلقّي تعليم ديني تقليدي أو العمل بالإمامة أو الأذان أو القضاء [العُرفي] قد يفضي بالمواطن إلى معسكرات الغولاغ، أو إلى ما هو أسوأ. لكن اعتقال النُخب الدينية توقف في زمن الحرب توفقًا حقيقيًا^(١٠). فهذه النُخب، التي

= وسيلة لاستنزال رحمت الله عز وجل على أجداده (هم ajdodlar أو eski bobolar بالأوزبكية) وأبويه على الأخص (ota-onalar). فكانت الصدقات تُحمّل بطبقاتٍ متعددة من المعاني»
(Soviet and Muslim, 64).

(10) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 94.

تلقى كثير من أفرادها تعليمهم في العهد القيصري، سُمح لها بالبروز مرةً أخرى في صورة علماء دين متخصصين، فأعيد بشكلٍ فعّال بناء مجالٍ عامٍّ إسلامي، كان مضيئًا عليه قبل سنوات حتى أصبح على شفير الاندثار.

ولننظر مثلًا إلى أحوال الجماعة المسلمة في أرنبورغ؛ حيث قام على أرض هذه المدينة -التي كانت لفترة طويلة مركزًا كبيرًا للتجارة والمواصلات بين موسكو وآسيا الوسطى- ما لا يقل عن عشرة مساجد في عهد القيصرية. لكن نشاط هذه المساجد انحسر انحسارًا كبيرًا خلال العشرينيات، وكما ذكرنا في الفصل الأول، غلقت المساجد العشرة كلها بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٧^(١١). ونجد قصة عودة الحياة العامة الإسلامية إلى أرنبورغ، في سنوات الحرب، محفوظةً في [كتب] تواريخ جماعات المساجد التي نُشرت في أرنبورغ في أعقاب الحقبة السوفييتية. وقد روت هذه الدراسات التاريخية سير حياة بعض الأئمة المسلمين الذين عُيّنوا في المساجد التي أُعيد افتتاحها زمن الحرب، وسلّطت عليها بعض الضوء. وحلّت أيضًا لغزًا محيّرًا، خلاصته أنه على الرغم من أن كثيرًا من التّخب الدينية قد اعتُقلت أو قُتلت في أوائل الفترة السوفييتية، فإن الكثيرين منهم -بل الأغلبية على الراجح- قد نجوا واحتفظوا بحريتهم. وتقدم لنا هذه المصادر لمحةً نادرة عن نشاط هؤلاء في فترة ما بين الحربين، وتكشف عما كانوا يفعلونه وكيف كانوا يُعولون أنفسهم في العقدين الذين حُرّم عليهم فيهما العملُ في رفع الأذان والإمامة. لقد حظي أفراد التّخب الدينية ممن اعتُقلوا أو أُعدموا في عهد ستالين بكثير من الاهتمام، في حين أن هناك كثيرين اكتفوا بالانسحاب من العمل الديني الرسمي ليعملوا بنّاءين ونحّالين وموظفين مكتبيين إلى جانب وظائف أخرى كثيرة^(١٢).

(11) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 26.

(١٢) ويكفي ذكر القليل من الأمثلة، التي تتعلّق كلها بأفراد مسجدٍ واحد، لبيان تنوع الوظائف التي اشتغلت بها النخب الدينية السابقة عندما عزّ العمل الديني (ونجد مزيدًا منهم في: Ghilmani, *Biographies of the Islamic Scholars of Our Times*، الذي يفصّل في عرض حيوات كبار الشخصيات الإسلامية في السهول، من أمثال موماقن علييف (Momaqan Äliyev): وكان عبد العزيز صبغة الله أوفيتش مُرتزَن (Abdulgaziz Sibagatulloviç Murtazin)، الذي عُيّن في الخامس والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٥٢ إمامًا لمسجد أرنبورغ =

/ على أنه يجب أن يُعاد افتتاح المساجد قبل تعيين الشخصيات الدينية فيها. وقد [٩٢]

= (التي كان اسمها آنذاك إتشكالف)، شخصية تحمّلت الكثير لتعود إلى عملها الديني الرسمي. وُلد مرتزن في عام ١٨٨٥ لمؤذنٍ من قرية سيزما (Shishma)، وأصبح إمامًا لمسجد أهلي عندما كان شابًا في السادسة والعشرين، لكن المسجد أُغلق في عام ١٩٣٠، وعمل لخمسَ عشر عامًا ببناءً متجوّلًا. ثم استقر مع ابنه في قازان في عام ١٩٤٥، وعَمِلَ نَحْلاً وبنَاءً في مزرعة جماعية بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٢، وذلك قبل أن يُعاد إلى الإمامة مرةً أخرى، ثم يُمنع من استلام الوظيفة لأسبابٍ غير معلومة

Denisov and Morgunov, 130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga, 36.

أما فاروق شرف الدينوفيتش شرف الدينوف (Faruk Sharafutdinovich Sharafutdinov) الذي استلم الوظيفة في مسجد أرنبورغ (إتشكالف) بدل مرتزن، فقد خاض رحلة أشق؛ إذ وُلد لعائلة شريفة من الأئمة في منطقة تولياتشنسكي (Tyulyachinsky) في تترستان في عام ١٨٩١، وبعد أن أتمَّ تعليمه في المدرسة في عام ١٩٢٠، عُيِّنَ إمامًا في قرية مجاورة اسمها كفالي (Kovali). ثم اعتقل في أكتوبر/ تشرين الأول؛ لكونه -وفق الادعاء- دافع عن أحد زملائه من الأئمة، وأتهم رسميًا في فبراير من العام التالي بـ «التهيج الديني»، وحُكِمَ عليه بخمس سنوات من الأشغال الشاقة في مدينة كوتلس (Kotlas)، الشهيرة بمعسكرات الاحتطاب الوحشية. ولم يعد فاروق إلى العمل في المساجد إلا بعد الحرب، وأصبح إمامًا في شيسْتُوْبُل (Chistopol)، وقازان، وترويتسك، قبل تعيينه في إتشكالف.

Denisov and Morgunov, 130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga, 38

ويدوره خاض عامل المسجد الثالث رحلة شاقة في العقود السابقة. نشأ إبراهيم ظريف أوفيتش إسحاقوف (Ibragim Zarifovich Iskhakov)، الذي أصبح مؤذّنًا (azancha) لمسجد إتشكالف بأرنبورغ بعد افتتاحه، في قرية صغيرة بأوبلاست أرنبورغ، ودرس في كتابيها طفلًا بين عامي ١٨٩١ و١٨٩٤، ثم عمل خادمًا في منازل الأثرياء لعقدٍ كامل، قبل أن يُستدعى إلى الخدمة العسكرية في عام ١٩٠٤، ويعمل لثلاث سنوات في فيلق قوزاق أرنبورغ الثاني، المتمركز في وارسو. سُرِّحَ إبراهيم من الخدمة في عام ١٩٠٧، وعمل لسبع سنوات فلاحًا في مزرعة والده، ثم استُدعي للخدمة مرةً أخرى في عام ١٩١٤، وانضم حُدَادًا إلى فيلق قوزاق أرنبورغ الرابع عشر المنتشر في الجبهة الغربية، ثم سُرِّحَ في عام ١٩١٧ وعاد إلى مزرعة والده، قبل أن يُجنَّد في الجيش الأبيض ويُصاب في أكتوبر (Aktobe)، ليعود بعد فترة علاج لخمسَ أشهر في أومسك (Omsk) إلى الزراعة. وفي عام ١٩٢٠، سيجد إسحاقوف فرصةً للعمل حارسًا للمسجد الثامن في أرنبورغ، وظل في عمله هذا خمسَ عشر عامًا حتى إغلاق المسجد في عام ١٩٣٥، فعمل راعيًا في تعاونية محلية. ثم انتقل في عام ١٩٣٩ بدعوة من أقرباء زوجته إلى قرية أنغرين (Angren) في أوزبكستان، وعَمِلَ هناك حارسَ عيادة في منجم للفحم، واصطنع دخلًا إضافيًا من خلال عملٍ حر في معسكر اعتقال. وبعد ثلاث سنوات، عاد إلى موطنه في أوبلاست أرنبورغ واشتغل في تعاونية في قرية إتشكالف المجاورة. وعندما أُعيد =

أشارت ابنة رسولوف إلى أن والدها اضطلع بدورٍ فاعل في هذه العملية؛ فكان وسيطًا وحاجبًا للدولة في آن معًا؛ حيث كتبت^(١٣):

«لقد تواصل أبي مع من سبق لهم العمل بالإمامة، ثم اضطروا إلى ترك العمل عندما أغلقت المساجد. فأعرب كثير منهم عن رغبتهم في العودة إلى الإمامة مرةً أخرى عندما علموا أن المساجد المغلقة ستُبعث من جديد. وجاء بعضهم للنظارة الدينية المركزية مباشرةً، فأصدر لهم والدي وثائق مختومة وموقعةً منه، فتقدّموا بها إلى الإدارات البلدية واجتهدوا في استعادة المساجد المغلقة».

وكانت مقرّات النظارة الدينية مزدحمةً بالزوار تلك الأيام، ولم تُغلق أبوابها، وكان من بين الزوار الكبار والصغار جنودٌ جرحى عادوا لتوهم من الجبهة. وكذلك جاء صحفيون ومراسلون أجنبان للزيارة، وتذكر ابنة رسولوف أن واحدًا من الزوار على الأقل عبّر عن دهشته من أن المفتي الأكبر في بلدة كبيرة كهذه يعمل من هذا المقرّ الضيق؛ إذ كان المقرُّ غرفةً واحدةً صغيرةً، ولا مكان لشيءٍ نسمّيه «مكتبًا»، ولم

= افتتاح مسجد إتكشالف في إبريل / نيسان من عام ١٩٤٥، عاد أخيرًا إلى وظيفته التي شغلها خمسة عشر عامًا؛ حيث عمل هناك حارسًا، ثم أثار صوته الإعجاب فترقى إلى وظيفة المؤذن. Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 39-40
وثمّ مؤذن آخر في المسجد اسمه مشنوي آخونديانوفيتش أمينوف (Masnavi Ahunzyanovich Aminov)، عمل سابقًا «عملاً غير رسمي»، وربما غير قانوني، في مسجدٍ آخر من مساجد المدينة بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣١. وبعد أن أغلقت الحكومة ذلك المسجد، عمِل فنيًا ميكانيكيًا في ورشة لتصنيع الأقفال، وعمِل أيضًا في بيتٍ للمعاقين من سكان أرنبورغ. ومع افتتاح المسجد ورحمنكولوف على رأسه، وافقت النظارة الدينية المركزية مباشرةً على تعيين أمينوف مؤذنًا، ليعود إلى الخدمة العامة الرسمية في الجماعة الدينية لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا. ثم سرعان ما وجد نفسه محمّلًا بأعباء عملٍ آخر، فعلى الرغم من افتقاره إلى أي خبرة سابقة في إدارة الحسابات أو تدقيقها، فقد نيط به إدارة حسابات جماعة المسجد، وحل محل رحمنكولوف حين غيابه، واشتغل أيضًا بالمهمة الكريمة المتمثلة في تغسيل الموتى.

Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 29

(13) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 122.

يكن هناك ما يشبه حاجبًا من أي نوع عند الباب الأمامي الكبير المفتوح. ويبدو أن رسولوف رأى في تواضع المكان مدعاةً للفخر، مما يوحي للزائر بأن العيش وفقًا للإسلام هو العيش البسيط^(١٤). لكن التفسير الأرجح لهذه المساحة المحدودة يكمن ببساطة في عدم وجود التمويل، وهي مشكلة شاعت بين المؤسسات الدينية التي أقامت الدولة حديثًا، كما سنرى في الفصل الخامس.

وأما عن افتتاح المساجد، فقد كان عمليةً تدريجية حساسة، ولم يكن من نوع العمليات الذي اعتادته أجهزة الأمن كمفوضية أمن الدولة، أو مفوضية الشؤون الداخلية، فتأسس جهازٌ جديدٌ تمامًا للإشراف على هذا العمل. فكما رأينا، أسس مجلس مفوضي الشعب في التاسع عشر من مايو/ أيار من عام ١٩٤٤ مجلس الشؤون الدينية الذي قام على رئاسته إيثنان پوليانسكي. وكان الغرض منه، وفقًا لمرسوم تأسيسه، «إدارة العلاقة بين حكومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وزعامات الجماعات الدينية من الأرمن الجورجيين، وأهل العقيدة القديمة، والكاثوليك [الروم]، والكاثوليك اليونان، والكنائس اللوثرية، والديانات الإسلامية واليهودية والبوذية وديانات الطوائف، وذلك فيما يخص الأمور التي تتطلب قرارًا من / حكومة الاتحاد السوفيتي في مسائل هذه الأديان»^(١٥). وقد فصلت اللائحة [٩٣] التأسيسية للمجلس فيما يتمتع به من صلاحيات واسعة، ولا سيما الحق في صياغة مشاريع قوانين حول هذه الأديان، ومراقبة تنفيذها إن وافقت عليها الحكومة، وكذلك إيفاء الحكومة بمعلومات عن الأنشطة والقضايا الدينية، والاحتفاظ بـ «تقارير إحصائية» عن الطوائف الدينية في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي^(١٦).

وكان من المقرر أن تمنح الدولة السوفيتية أنشطة الجماعات الدينية حرية غير مسبقة، لكنها ستخضع أيضًا لمراقبة غير مسبقة. وفي قلب نظام المراقبة هذا كان ثمة نظام التسجيل العتيق. فلكي يُسمح للمؤسسات الإسلامية والعاملين فيها أن

(14) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 124.

(15) Ro'i, *Islam in the Soviet Union*, 11.

(16) Ro'i, *Islam in the Soviet Union*, 12.

يعملوا وفقاً لقوانين الاتحاد السوفيتي، يجب عليهم التسجيل مع مجلس الشؤون الدينية. فمن الناحية النظرية، حُظر على جميع «رجال الدين» غير المسجلين ممارسة أعمالهم، وكذلك فإن المساجد غير المسجلة جميعها عُدت خارجة عن القانون. وأما من الناحية العملية، فقد كان الأفراد غير المسجلين يعملون في الغالب إلى جانب الزعامات الدينية «الرسمية» المسجلة دون أن يتعرضوا لاعتقال أو تعنيف^(١٧). ورغم ذلك، يبدو أن مراقبة التسجيل ومتابعة أنشطة المواطنين المسجلين كان يمثل جانباً كبيراً من أعمال مجلس الشؤون الدينية؛ ففي كتاب يعقوب روثي المعنون: الإسلام في الاتحاد السوفيتي (*Islam in the Soviet Union*)، الذي يقدم تاريخاً شاملاً لأعمال مجلس الشؤون الدينية فيما يتعلق بالإسلام، معتمداً على مراسلات المجلس الداخلية، نجد أن موضوع التسجيل ورد في كل صفحات الكتاب تقريباً، وأكثر من مرة في الغالب^(١٨). وسيلعب مجلس الشؤون الدينية دور الوساطة بين الأئمة المسلمين والدولة السوفيتية، ففي حين أنه كان مسؤولاً عن مراقبة أنشطتهم، فإنه كان مسؤولاً كذلك عن استلام الطلبات منهم وتحويلها إلى سلسلة القيادة.

(١٧) لاحظ سيرغي أباشين (Sergey Abashin) أن هذا النوع من التشارك بين السلطات الدينية «الرسمية» و«غير الرسمية» كان القاعدة وليس الاستثناء، وهي علاقة سمّاها «اللعبة المزدوجة» للسياسة الدينية الانتهازية؛ إذ كانت إحدى نتائج هذه «اللعبة» استمرار بعض الشعائر التقليدية (بأشكال متغيرة إلى حد ما أحياناً) بتعاون كامل من المؤسسات «الرسمية» ذاتها التي أدانتها في بعض الحالات. ويقول أباشين: إن ذلك لم يتحقق إلا لأن «النمط السوفيتي ليس موحداً ولا هيئته هرمية التراتب تتحرك فيها الأوامر من أعلى لأسفل فحسب، بل تضمّن عملية تفاوضية دائمة تنعقد فيها الاتفاقات بين الجماعات المختلفة وتنفض. ولم تبعد الرموز والممارسات المحلية كثيراً عن هذه المفاوضات، وأمكن للإداريين إما أن يُسبغوا عليها (أي الرموز والممارسات) الطابع السوفيتي (أو القومي)، ويستعملوها لغاياتهم الخاصة، وإما أن يُسكتوها ويُخرسوها، أو يستنكروها ويقهروها. ويعتمد اختيار أيٍّ من هذه الاستراتيجيات على العديد من العوامل المتغيرة دوماً»، انظر:

Sergei Abashin, "Prayer for Rain: Practicing being Soviet and Muslim," *Journal of Islamic Studies* 25/2 (2014), 199.

(١٨) وكما لاحظ تاسار، «لم يكن لكون المسجد مسجلاً أو غير مسجّل أي أثر على صحة الصلاة المقامة فيه... بل إنه رغم أن المسلمين يصلون صلاة الجماعة غالباً في المسجد، فإنهم غير ملزمين بذلك. ومثل التسجيل أيضاً وسيلة غير فعالة في التحكم بالإسلام؛ لأن كثيراً من الممارسات الدينية لا تتوقف على المساجد» (*Soviet and Muslim*, 52).

وأحياناً آتت طلبات الجماعات المسلمة المحلية أكلها بشكلٍ مثيرٍ للاهتمام؛ ففي السادس من أغسطس / آب من عام ١٩٤٤، نجد أمين النظارة الدينية المركزية باي محمد توغزبايوف (Baymukhamet Tuguzbaev) وهو يخطب في حشد في الجبّانة المركزية في أرنبورغ (كان اسمها إتشكالوف (Chkalov) آنذاك) في صلاة عيد الفطر إيداناً بانتهاء شهر رمضان، فيعرّف مستمعيه بأنشطة دار الإفتاء، ويدعوهم إلى التبرع للجيش الأحمر («دفاعاً عن بلدنا وللتعجيل بهزيمة عدونا جميعاً»). وبعد الانتهاء من هذه الأمور المعتادة، انتقل إلى منطقة أكثر حساسية، فأعرب عن رغبته في رؤية مزيد من المساجد المفتحة في المدينة^(١٩). ولم يكن لدى باي محمد إذن رسمي بفتح أي مساجد جديدة، ولا أشار أدنى إشارة إلى كيفية فعل ذلك، لكن المؤكد أن الأهالي المسلمين عدّوا الخطبة دعوةً للعمل. فمع تبرّعهم بخمسة آلاف وسبعمائة (٥.٧٠٠) روبل للجيش الأحمر، وشرائهم سندات حرب بما قيمته عشرون ألفاً وأربعمائة وستون (٢٠.٤٦٠) روبلاً، جمعوا توقيعات لتقديم التماس؛ فطالب نحو ثمانية آلاف (٨.٠٠٠) مسلم نواب مجلس المدينة بفتح مسجدٍ جديد^(٢٠). وقد وافقت السلطات البلدية على تمرير الالتماس / إلى مجلس الشئون [٩٤] الدينية في غضون سبعة أشهر، وبعد شهر واحد (في مارس / آذار من عام ١٩٤٥) وافق المجلس على الالتماس^(٢١). ومن اللافت للنظر أن الالتماس -مقارنة بالمعايير السوفييتية- سار من خلال القنوات البيروقراطية في سرعة البرق، ودُرست حالة

(19) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 96.

(20) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 96.

(21) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 28.

كان مجلس مفوضي الشعب قد أصدر مرسوماً سابقاً مهّد الطريق لذلك، ففي الثلاثين من يوليو / تموز من عام ١٩٤٤، رخص المجلس في الحالات الموافقة عليها نقل المباني والممتلكات والأشياء التي «أُمتت» إلى الجماعات الدينية المسجلة لتستخدمها هذه الجماعات دائماً.

Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 95.

المساجد القديمة المغلقة، ووقع الاختيار على أنسبها، وعُيِّن ضياء الدين محمد چانوفيتش رحمنكولوف (Ziyatdin Mukhamedzhanovich Rakhmankulov) (المولود في عام ١٨٨١) إمامًا أكبر للمسجد في إبريل/ نيسان.

لقد شهدت الحياة العملية لرحمنكولوف الكثير من التقلبات، شأنه في ذلك شأن جميع الشخصيات الدينية التي ترقّت في زمن الحرب تقريبًا؛ فقد بدأت حياته العملية بدايةً مبشرة؛ إذ كان سليل إحدى أجمل العائلات الإسلامية في المنطقة، وكان أبوه وأخوه وعمّه أئمة في مسقط رأسه ترويتسك (Troitsk)، وكان اثنان من أبناء عمّه أئمة أيضًا. وقد تلقى رحمنكولوف تعليمه في ترويتسك وشغل في مسجدها الثالث، بدءًا من عام ١٩٠٦، مناصب عدّة، فكان «ملاً ثانٍ»، وإمامًا خطيبًا، ومدرّسًا. ويقال: إنه كان خطيبًا مفوّهًا وعالمًا مبجلًا، وكان يلقى اللسان في العربية والفارسية والتركية والروسية والترية، مع الإمام بالإنكليزية والألمانية. وكان كثيرًا من المسلمين، الذين لا يأتون المساجد إلا نادرًا، يحضرون الجُمع خصيصًا لسماع خطبه. ولكن بعدما أغلقت الحكومة السوفييتية مسجد رحمنكولوف، انتقل إلى طشقند وعمل مترجمًا حكوميًّا في الإدارة البلدية. لكنه لم يستمر في الوظيفة طويلًا، وأمسى عاطلاً يعوله ابنه بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٧، وعاد بعدها إلى خدمة الحكومة في وظيفة مكتبية متواضعة^(٢٣). ولهذا كانت ترقيته من موظفٍ إلى إمام مسجد أرنبورغ مفاجأة سارة له^(٢٣)، لولا أنه عانى في سنين الحرب معاناةً مريرةً بفقدان ثلاثة من أبنائه في الحرب^(٢٤).

(22) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 28–29.

(٢٣) لكنها لم تكن وظيفة سهلة؛ ففي العهد القيصري، كانت إتشكالف (أرنبورغ ساعتها والآن أيضًا) تضم عدة مساجد، وكل إمام قد يصلي بالناس مرتين أو ثلاث مرات في اليوم الواحد. لكن في مسجد إتشكالف الجديد، وجب على رحمنكولوف حضور المسجد خمس مرات في اليوم. ففي صلاة الظهر، يحضر إلى المسجد عادةً ما بين أربعين وخمسين شخصًا، لكن العدد قد يصل في أيام الجُمع إلى قرابة المائتين وخمسين. وفي صلاتي عيد الفطر وعيد الأضحى، يمتلئ المسجد بثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مسلم، فيصلون في فناء المسجد الخارجي.

Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 33.

(24) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941–1945),"

إن بين رحمنكولوف ورسولوف، وبين غيرهما أيضًا من الأئمة الذين «بُعث» عملهم الديني في أثناء الحرب أو بعدها، سميتين مشتركتين، هما تلقّيهم التعليم الديني في العهد القيصري، ونسب عائلاتهم الأصيل في التراتبية الدينية في عصر ما قبل السوفييت. فلقد أدى تخريب التعليم الديني خلال العقدين السابقين، إلى ندرة الأئمة المدربين خلال العهد السوفييتي الذين يمكن «الاستعاضة بهم» عن هؤلاء العلماء حقًا، أو على الأقل الذين يمكن عدّهم بديلًا كافيًا لدى الأجيال الأكبر سنًا من المواطنين المسلمين السوفييت. ومهما يكن من أمر، فقد كان لتعيين النُخب «التقليدية» أثر عارض، لكنه بعيد الغور، فلقد أعاد التأكيد على سمو مكانة بعض عائلات النُخب التي تضرب بجذورها في تاريخ المنطقة^(٢٥). فبعودة آل رسولوف وباباخان ورحمنكولوف مرة أخرى إلى مواقعهم في مركز التراتيبات الدينية، أُعيد وصل العلاقات الممتدة إلى الفترة القيصرية مرة أخرى، بعد أن جرى تقطيع أو اصرها عمدًا. وربما كان السبب في ذلك أن المسئولين السوفييت رغبوا في / الاتكاء على [٩٥] ما لهذه الرموز من منزلة وحظوة وتوظيف شرعيتهم، ولكن من المؤكد أيضًا أن من ضمن الأسباب أنهم لم يكن لديهم كثير من البدائل المقنعة.

فمثلًا، حظي رسولوف «بمعاملة كبار الشخصيات»؛ إذ تذكر ابنته^(٢٦):

«حتى بداية الحرب، كانت الحكومة البشكيرية تنظر إلى الصعوبات التي تواجهها النظارة الدينية المركزية بنوع من اللامبالاة؛ فقد أثقلتها الضرائب وأزرت بها، وطُردت من مبنائها ذي الطابقين. وفجأة، أصبحت [الحكومة] الآن مهتمةً بوالدي، وعينوا طبيبًا خاصًا لمتابعة صحته وصحة أمي، وهو الطبيب ظريف چان زاغدولن (Zarifzhan Zagidulin)، الذي زارنا مرةً في الأسبوع ليفحص والدي ويأتي بالأدوية الضرورية».

(٢٥) عن أصل إيشان باباخان الكريم وأهميته، انظر:

Tasar, *Soviet and Muslim*, 49.

(26) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—Starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 124.

ومن المؤكد أن الرعاية الطبية الدقيقة لم تكن خلواً من الدوافع؛ فقد كان للحرب أثر شديد على رسولوف وزوجته؛ إذ تذكر ابنته أنهما عانياً حالة قلق مستمر، وأصابهما المرض غير مرة في أثناء الحرب. فابنتهما عبد الرؤوف أُرسِلَ بعد تجنيده بمدة قصيرة إلى سيفاستوبول (Sevastopol)، وانقطعت أخباره عنهما بعد حصار المدينة. ومرَّ عام ونصف دون ورود أي خبر عنه، حتى جاء الخبر بأنه ضمن الجرحى^(٢٧)، وكذلك اختفى زوج ابنتهما في الخطوط الأمامية شهوراً دون أي خبر عنه^(٢٨).

وكان رسولوف آنذاك يدفن أبناء الآخرين ويصلي مع الجرحى؛ فكان يؤمُّ الناس في الصلوات الخمس يومياً في مسجدٍ قرب مقر دار الإفتاء، وعندما يجتمع الكثيرون كان لا بد من إقامة الصلاة في الفناء الخارجي، وفي الطقس المعتدل، وكان كثير من المُصلِّين يأتون من المستشفى العسكري الكائنة آخر الشارع، بأردية المستشفى ونعالها^(٢٩).

وكان رسولوف كثيراً ما يتمسَّى بين الصلوات مع أحد رفاقه بين القبور التي دُفن فيها الجنود الذين وافاهم أجلهم في المستشفى، ويدوّن أسماءهم ويحاول تتبُّع عائلات المسلمين الذين لقوا مصارعهم على الجبهة، ليُرسل لمن يجدهم خطابات يُعلمهم فيها بأنه قد صُلِّيت عليهم صلاة الجنازة. وأحياناً تكون وثيقة التعريف بالميت شحيحة المعلومات، فلا تبيِّن إلا مكتب تجنيدهم، وفي هذه الحالة، لا مناص من إرسال الخطابات إلى هذه المكاتب. وكثيراً ما تسلَّموا إشارات تفيد التأكيد بأن موظفي مكاتب التجنيد تتبَّعوا عائلات الموتى وسلَّموهم خطاب المفتي^(٣٠).

(27) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voyny (1941–1945)," 150.

(28) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 124.

(29) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 124.

(30) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 125

/ وبعبارة أخرى، فإن رسولوف الحزين العليل، نصير ستالين القديم ومُخبره، لم [٩٦] يكن مجرد بوقاً للبروفاغندا، بل كان على ما يبدو زعيماً نشطاً وعطوفاً.

ولكن بقطع النظر عن الأنشطة الدينية اليومية لرجال من أمثال رسولوف، كان تعبئة الجنود وتمويل المجهود الحربي أعجل ما تريده الدولة منهم من مهام. ولا شك أن موجة التسامح الديني «المصطنع» قد آتت أكلها على هذا الصَّعيد. فالمواطنون المسلمون لم يقفوا عند حدِّ التبرع بالعملة الصعبة وشراء أذون الخزانة بتحريضٍ من القائمين على المساجد المحلية كما رأينا، بل تبرعوا أيضاً بالملابس والمؤن والأزواد لدعم الجيش الأحمر وعائلات الجنود المتعسرة^(٣١). وكان من أبواب الحاجة إعالة أرامل الحرب اللأئي زادت أعدادهن يومياً في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي. فأسست النظارة الدينية لشمال القوقاز برئاسة المفتي خضري غيبكوف صندوقاً خاصاً للأرامل في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٤٤، وسرعان ما جمعت تبرعات يبلغ مقدارها خمسين ألف (٥٠.٠٠٠) روبل. واستحقَّ المفتي لأجل هذه الجهود برقية شكر من ستالين^(٣٢).

وكانت البرقيات التي على هذه الشاكلة سبباً للاحتفال على الدوام؛ فمثلاً، أقام سكان قرية أكوش (Akush) بداغستان احتفالاً برقية امتنان أرسلها ستالين بعد أن جمعوا بعض التبرعات لجنود الجبهة واسترداد سيفاستوپول. واستغلَّت المناسبة لتعيين مؤذّنٍ جديدٍ لمسجد القرية، ومدح هذا المؤذّن، ماغوميد عمر وف (Magomed Omarov)^(١)، ستالين؛ لترخيصه بفتح المسجد، ودعا جيرانه للعمل بجِدِّ في المزارع الجماعية والتبرع بسخاء لصالح المجهود الحربي، وضرب مثلاً بنفسه؛ فتبرع بثلاثة

(31) *Islam yuldarynda*, 69; Guseva, *Rossiiskii musul'manin v XX veke (na materialakh Srednego Povolzh'ia)*, 153.

(32) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941–1945 gg.," 26.

(أ) ماغوميد (Магомед) هو تحويرٌ في اللغات السلاوية لاسم محمد العربي، وهو واسع الانتشار بين مسلمي القوقاز، وآثرنا تركه على نطقه الأصلي لتكراره في أكثر من موضع شعري في الكتاب. (المترجم)

آلاف (٣.٠٠٠) روبل لصندوق سيفاستوپول. وقد جُمع من أهالي أكوش في هذا اليوم وحده خمسون ألف (٥٠.٠٠٠) روبل^(٣٣).

لقد كان امتداح ستالين وما شابه ذلك من الأعمال «الوطنية» حاضرًا دومًا في تجمُّعات المساجد؛ إذ افتُتح بعد شهر مسجد دربند (Derbent) التاريخي في داغستان، وهو المسجد الذي يقال: إنه أقدم مسجد في روسيا كلها. والواقع أن هذا المسجد افتُتح حتى قبل الحصول على الإذن الرسمي. لكن بغض النظر عن ذلك، أبان الإمام مير أحمد سيدوف (Mirakhmed Seidov) عن وعي كبيرٍ بمهامه الجديدة؛ فدعا المسلمين في خطبته الأولى إلى الدعاء للرفيق ستالين «مارشال الاتحاد السوفييتي» بالعمر المديد، وللجيش الأحمر بالنصر المعجَّل، واستمطار اللعنات على النازيين. وأصبحت هذه الموضوعات عنصرًا ثابتًا في مواعظ سيدوف، فبعد أربعة أيام، سيلهب خطبة الجمعة بدعاء يسأل الله فيه «العمر المديد لزعيم الشعوب الحكيم والقائد العظيم؛ الرفيق ستالين»^(٣٤).

وعلى الرغم من أن التبرعات التي تجمعها المساجد المفتحة حديثًا كانت تُحوَّل إلى صناديق الحكومة المركزية أو يُعاد توزيعها على عائلات الأهالي الفقيرة، فإن الأئمة المحليين كانوا يتدخلون أحيانًا في حالات احتياج الأهالي، / ويبادرون إلى توجيه التبرعات بأنفسهم. فبالقرب من أوف، حيث مقرُّ نظارة رسولوف الدينية المركزية، عمل جنود آسيا الوسطى في ظروفٍ مروِّعة لبناء مصانع جديدة للصناعات الدفاعية؛ إذ لم يكن كثير منهم يتحدث الروسية، وتغطِّي أجسامهم الملابس التقليدية لشعوب آسيا الوسطى، والتي لا تناسب مناخ جبال الأورال القارس البرودة، ولم يكن ثمَّ مستشفيات للمرضى، وقد سقط كثير منهم صرعى. علم رسولوف بحالهم، وبعد أن زار معسكرات العمل، طلب ورفيقه إيشان باباخان المساعدة من الأهالي البشكير؛ فتدفقت التبرعات من ملابس وأحذية وأطعمة وحتى العسل. وجاء إمام

(33) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gg."

(34) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gg."

من أوفاء ليؤمَّ العمَّال في صلاة الجمعة، في راحة نادرًا ما حصلوا عليها في منتصف اليوم، وذلك بإذنٍ من ضباط المعسكر، وبناءً على طلبٍ من رسولوف^(٣٥).

على أن جنود الجيش الأحمر على الجبهة أو عائلاتهم في الداخل أو «وحدات العمال» المنوط بها إعادة بناء القطاع الصناعي السوفييتي لم يكونوا جميعًا خارج نطاق الهجوم الألماني، ولم يكن هؤلاء وحدهم هم من يحتاجون المساعدة؛ فبعد أن استُدعي ملايين العمال من المزارع الجماعية إلى الجبهة، أصبحت هناك حاجة ماسةً للأيدي العاملة في الزراعة، وهنا كان للمساجد أيضًا دورها؛ فمثلًا، في سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٤، حشد قاضي أحد المساجد بقرية بوتليخ (Botlikh) الجبلية في داغستان، واسمه صخرة الله ميرزايف (Sakhratullah Mirzaev)، جماعة [مسجده] كلها، ومعهم أطفال المدارس؛ للمساعدة في الحصاد السنوي للفاكهة. وحتى بعد الحصاد، أثمرت جهود القاضي في الدعوة لحسن الخلق تقليل السرقات من المزارع الجماعية، وتضاعف وتيرة ارتياد أطفال الأهالي للمدارس^(٣٦). وكانت هذه المشاهد هي بالضبط الصورة التي عرضتها أفلام البروباغندا الستالينية، مع بعض الاختلافات الجوهرية التي تمثلت في أن (١) الحوادث لم تكن مُصطنعةً بغرض التصوير، وأن (٢) قاضيًا شرعيًا مسلمًا موقرًا هو من اتخذ زمام المبادرة، وليس موظفًا حزبيًا نضرَ الوجه. وفي لحظة لا تُنسى، قام رجلٌ تسعيني اسمه ماغوميد يعقوبوف ماغوميد علي (Magomed-Yakubov Magomed-Ali) ليدعو للجيش الأحمر بالنصر، وللحكومة السوفييتية بالعافية^(٣٧).

(35) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 125.

(36) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941–1945 gg.," 26.

(37) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941–1945 gg.," 26.

ويرسم لنا إرين تاسار مشهدين قريبين من ذلك في آسيا الوسطى، قائلًا: «وفي حدثٍ ملهم بعد هزيمة ألمانيا مباشرة، حضر أحد الملالي غير المسجلين، واسمه بوكولييف (Bokoleev)، اجتماعات عامة لمناقشة يوم النصر في مزرعتين من المزارع الجماعية. وبمبادرة منه، وافق الحاضرون على إضافة =

ويُلَمَع ما جرى في قرية بوتليخ إلى أن التغيرات التي وقعت لم تكن جارية في المدن الكبيرة والجماعات الدينية الكبيرة فحسب، بل امتدَّت لتشمل القرى. وبعض هذه الجماعات الصغيرة قدّمت بالفعل إسهامات هائلة في الحرب؛ فيُروى مثلاً أنه في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٥، جمعت قرية فيرخنيه تشبنيكي (Verkhnie Chebenki) في مقاطعة إتشكالف (أرنبورغ حالياً) ما قيمته اثنان وعشرون ألفاً وسبعمائة وثمانون (٢٢.٧٨٠) روبلاً من أذون الخزانة، إلى جانب ألفٍ وستمائة وثمانين (١.٦٨٠) روبلاً نقدًا. (بل إن مبيعات أذون الخزانة في جماعة المسلمين في هذه القرية ازدادت بعد نهاية الحرب، ليصل ما اشتروه من الأذون في عام ١٩٤٦ إلى ما قيمته ثلاثون ألف (٣٠.٠٠٠) روبل)^(٣٨).

[٩٨] / ويجب أن نقرّ بأن هذه المبالغ وأذون الخزانة لا تدفعنا إلى قراءة متسرّعة، لكنّ إدراك ما قدّمه مسلمو الداخل لجهود الحرب الجماعية أمر ضروري لفهم الجانب الآخر من القصة، أي ما حصلت عليه المؤسسات الإسلامية من سياسات التسامح الجديدة؛ فقد اعترف الأئمة المسلمون بهذه الطبيعة التبادلية للظاهرتين اعترافاً صريحاً في مخاطبتهم للجماهير؛ فمثلاً أعلن مفتي مجلس النظارة الدينية لمسلمي شمال القوقاز خضري غيبكوف على مواطني قرية نيچنييه كازانش (Nizhni Kazanishcha) أنه «يجب علينا، ردّاً لجميل حكومتنا في رعايتها للدين الإسلامي، أن نشدّ أزر الجيش الأحمر؛ كي نعجّل بلحظة النصر على العدو، وهي اللحظة التي لا

= قرار إلى محضر الاجتماع يشدّد على الطابع المفيد للبشرية في الدين. وقد مرّت هذه المحاضر على لجنة الحزب الشيوعي في المنطقة، ولم تُوقفها إلا اللجنة الإقليمية في الحزب؛ إذ أشار المسؤولون فيها إلى أنه «من غير المناسب الإشارة إلى البروباغندا الدينية في قرار يتعلق بيوم النصر». أما المشهد الثاني فيصوّر أحد الملالي غير المسجّلين وهو يضطلع بأكثر من دور، إن جاز التعبير: «وفي الوقت نفسه، ألقى زين الدين سليمانوف أحد الملالي غير المسجّلين في منطقة أوش (Osh) الريفية، محاضرة بعنوان: «استعادة الاقتصاد القومي للاتحاد السوفيتي وتطويره» على جمع من سوفييت القرية بطلبٍ من لجنة الحزب في المنطقة. وما كان متصوّراً دعوة مثل تلك في عهد الإرهاب الكبير قبل أقل من عقدٍ مضى». انظر: (Soviet and Muslim, 53-54).

(38) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 95.

شك أنها ستدخل البهجة على الإنسانية كلها. ويجب علينا أن نحسن عملنا وننظمه في حقول المزارع الجماعية، ونرفع إنتاجية العامل، ونصل بالمنتجات الزراعية للجيش الأحمر والبلد [كلها]^(٣٩).

وقد أُشيدَ بكفاءة هذه العلاقة التبادلية الجديدة بين جماعات المسلمين والدولة، لا في برقيات ستالين الموجزة فحسب، بل أيضًا على ألسن مسئولى الحزب المحليين ورؤساء المناطق في أجهزة الأمن، ومنهم ملحدون راسخو الإلحاد (لكن ربما صرّح هؤلاء بذلك على مضمض)^(٤٠). فقد أرسل ميخائيل كالينينسكي (M. Kalininskii)، مفوض الشعب لأمن الدولة في داغستان، رسالة خاصة لأمين لجنة الحزب القطرية في الجمهورية في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٥، يبيّن فيها أن تأسيس النظارة الدينية قد أتى ثمارًا طيبة، لا على صعيد تعبئة الموارد فحسب، بل أيضًا على مجمل الحياة الاجتماعية في داغستان. وأثنى كالينينسكي على الأئمة لتوجيههم الأهالي المسلمين إلى الأعمال الوطنية، وتقديمهم المساعدة للمزارع الجماعية من قلب الحقول، والدعاء للجيش الأحمر^(٤١). وعلى الرغم من أن رأي كالينينسكي الإيجابي لم يكن محلّ إجماع المسئولين المحليين، فإنه يساعدنا على الأقل في تفسير السبب الذي دفع جماعات المسلمين في مناطق عدة من الاتحاد السوفييتي إلى افتتاح المساجد والمصليات في شجاعة دون التعني بتسجيلها^(٤٢).

على أنه كيف يمكن للدولة - إلى جانب إعادة فتح المساجد - أن تكافئ الأئمة المسلمين على العمل العظيم الذي نهضوا به؟ بالطبع كان لدى الأئمة أنفسهم بعض

(39) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gg.," 25. (التشديد من المؤلف)

(40) R.A. Nabiev, *Islam i gosudarstvo: Kul'turno-istoricheskaiia evoliutsiia musul'manskoi religii na Evropeiskom Voštoke* (Kazan: Kazanskii Gos. Universitet, 2002), 98.

(41) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gg.," 25.

(٤٢) انظر مثلاً:

Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gg.," 26.

الأفكار؛ إذ اقترح إيشان باباخان على رئيس مجلس الشؤون الدينية إيثان پوليانسكي أن يحصل عددٌ من الأئمة المميزين على جائزة من جوائز الدولة (*gosudarstvennyi nagrad*)؛ تقديرًا لمساهماتهم في الجهود الحربية، (ولا مناص من أن يغرينا ذلك بتخيل المفتي وهو يومئ إيماءة صريحةً نحو لحيته). ولقد رُفض الاقتراح في البداية، ولكن في فبراير/ شباط من عام ١٩٤٥ أهدت الدولة الزعامات المسلمة هديةً أعظم؛ إذ أمرت مفوضيةً خاصةً منبثقةً عن مجلس مفوضي الشعب بعقد / «العمّال المسلمين» (*sluzhiteli musulmanskogo kul'ta*) - ورجال الدين في الأديان الكبرى الأخرى - من إيسار التجنيد في الجيش الأحمر، وذلك في الوقت الذي لم يكن القتال الشرس قد انتهى بعد، وقبل شهرين فحسب من معركة برلين. ثم حصلوا بعد الحرب أيضًا على ميدالياتهم^(٤٣).

وأحيانًا نجد أن دوافع التسامح الديني (من جهة) والتمويل المؤسسي الإسلامي (من جهة أخرى) وآثارهما، تتداخلان على نحوٍ مثير؛ حيث كانت الزكاة الشرعية من الاستراتيجيات التقليدية التي اتبعتها المساجد في جمع التبرعات والصدقات، وهي نوع من الصدقات يعدّها المسلمون ركنًا من أركان الدين، وتُحسب الزكاة السنوية بمقدار ربع العُشر من إجمالي ما يملكه الفرد. وكان جمع هذه الصدقات وتوزيعها من مهام السُلطات الدينية البلدية عادةً. ولا غرابة في أن هذه الممارسة قُمعت في أثناء حملات الدولة السوفييتية المناهضة للدين خلال العشرينيات والثلاثينيات. لكن في زمن الحرب، وعندما استُنهضت المساجد لجمع التبرعات، بدت الفائدة

(43) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gg.," 25.

وفي مايو/ أيار من عام ١٩٤٧، وافق پوليانسكي على تقليدهم أوسمةً على «عملهم الباسل في الحرب الوطنية الكبرى» (انظر أيضًا: *Tasar, Soviet and Muslim*, 55). وحصل كذلك رؤوس الكنيسة الأرثوذكسية على نصيبهم، فقلّد البطريك (المطران سابقًا) أليكسي ميداليةً لـ «الدفاع عن لينينغراد».

PDDUM, 87; Akhmadullin, "Deiatel'nost' organov gosudarstvennogo upravleniia SSSR i rukovoditelei dukhovnykh upravlenii musul'man po sozdaniiu vsesoiuznogo musul'manskogo tsentra," 5-6; Alekseev, *Illuzii i dogmy*, 334

من وراء الزكاة واضحةً جليّةً، فتفاعلت نظارة رسولوف الدينية تفاعلاً سريعاً، وأصدرت فتويين تشدّدان على أهمية إخراج الزكاة لكل مسلم. ويُستشفّ مما بين السطور أن الدولة قنّنت جمع الزكاة^(٤٤). ووفقاً لهذه الفتاوى، كان عبء التبرع يقع على عاتق العائلات الأوفر ثراءً بوجه خاص، ولا شك أن الهدف كان تجنب الضغط على موارد الناس المُعسرة بالفعل^(١). فأبي عائلة تفوق ممتلكاتها ستة عشر ألف (١٦.٠٠٠) روبل - بعد استثناء قيمة كسوة الشتاء والصيف والفُرُش وماشية التجارة وقيمة عشرة أيام من طعام الكفاف - تدفع روبلاً واحداً في العام عن كل أربعين (٤٠) روبلاً من النقد والممتلكات^(٤٥). وسرعان ما حذت نظارة باباخان الدينية حذو نظارة رسولوف، وأصدرت فتوى مشابهة^(٤٦).

وكذلك كانت الأعياد الدينية، كعيد الأضحى (المعروف عامةً في آسيا الوسطى والثولغا-أورال بقربان بايرام (Kurban Bayram)، نقاط تقارب وانسجام بين مصالح الحكومة في تعبئة الموارد وجهود النُخب الإسلامية المحلية في إيجاد مساحات جديدة للحياة الدينية العامة وتوطيدها؛ إذ أعادت الحكومة توزيع بعض الصدقات التي أخرجها الأهالي المسلمون، ووضعتها في شراء ماشية للأضاحي، ووزّعت اللحوم على العائلات المعوزة بعد التضحية^(٤٧). ويرى أ. أ. نور الله إييف (A.A. Nurullaev)، أن المسجد أصبح بهذه المساعي المصدر الأول للصدقات

(44) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gg.," 24.

(أ) جانب المؤلف الصواب في استنتاجه هذا؛ إذ الأمر هنا لا علاقة له باختيار من النظارة الدينية أو مفتيها، لأن فرض الزكاة نفسه هو ما يميل إلى رفع العبء عن الفقراء، والتركيز على الأغنياء، فيتناسب حجم ما يُفرض على المرء من زكاة مع حجم ثروته. (المترجم)

(45) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 95.

(46) PDDUM, 30; A.A. Nurullaev, "Musul'mane Sovetskogo Soiuz v Velikoi Otechestvennoi voine," 64.

(47) A.A. Nurullaev, "Musul'mane Sovetskogo Soiuz v Velikoi Otechestvennoi voine," 64-65.

الموجَّهة للعائلات المسلمة الفقيرة، الذين غاب عائلوها على جبهات الخطوط
الأمامية^(٤٨).

ومع ثبوت عائدة المؤسسات الإسلامية على المجهود الحربي مرةً بعد مرة،
[١٠٠] زادت المساحة التي أوجدتها النُخب الإسلامية للأعمال الدينية المرخَّص بها /
زيادةً مطردة. وكما ذكرنا في المدخل، تضمن ذلك بعض أنشطة التوعية والنشر في
مساحات كانت محظورةً حظرًا باتًا؛ فمثلًا، سمحت إحدى الوثائق المتعلقة بـ
«الأنشطة الخاصة»، وهي الوثيقة الصادرة في فبراير/ شباط من عام ١٩٤٤ عن نظارة
باباخان الدينية بما يلي^(٤٩):

(١) إصدار مجلة إسلامية شهرية في ورقتين مطبوعتين، بإجمالي
خمسة آلاف (٥.٠٠٠) نسخة: ألفٌ وخمسمائة (١.٥٠٠) نسخة
باللغة الأوزبكية، ومثلها بالكازاخية، وألفٌ وأربعمائة نسخة (١.٤٠٠)
بالتاجيكية، وسبعمائة نسخة (٧٠٠) بالتركمانية والقيرغيزية.

(٢) إصدار تقويم إسلامي لعام ١٩٤٤ (من خمسة آلاف نسخة)
باللغات الخمس السابقة.

عاد النشر الإسلامي إلى المنطقة بعد أن غاب عنها نحو عقدين، وإن كانت عودةً
مُكَبَّلةً بالقيود^(٥٠)؛ ففي غضون عام واحد، نشر رسولوف كتابه (*Islam Dine*)
[بالعربية: دين الإسلام]، الذي كان مَعْلَمًا فارقًا؛ لكونه أول نصٍّ إسلامي أصيل
جامع يُنشر نشرةً شرعيةً في الاتحاد السوفييتي^(٥١).

(48) A.A. Nurullaev, "Musul'mane Sovetskogo Soiuza v Velikoi Otechestvennoi voine,"
65.

(49) Nabiev, *Islam i gosudarstvo*, 99–100.

(٥٠) ستصبح المجلة المذكورة مجلةً البروباغندا الرسمية للمسلمون في الشرق السوفييتي، التي
صدرت لفترة وجيزة في عام ١٩٤٦، ثم بُعثت في عام ١٩٦٨ لتصل في النهاية إلى حجم
تداول عالمي مقداره ثلاثون ألف (٣٠,٠٠٠) نسخةً للعدد الواحد، انظر:

Tasar, *Soviet and Muslim*, 259.

(51) Raev, and Iaqubov, eds., *Islam yuldarynda*, 70.

لكن الأكثر لفتًا للانتباه من عودة النشر الإسلامي (المحدود) هو الإذن الثالث الصادر في المرسوم نفسه عام ١٩٤٤ (٥٢):

(٣) افتتاح مدرسة دينية في طشقند تَسَعُ ستين (٦٠) طالبًا، وأخرى في بخارى تَسَعُ أربعين (٤٠) طالبًا؛ لتعليم رجال الدين المسلمين، شريطة أن يكون ما لا يقل عن خمسين في المائة (٥٠٪) منهم من عملاء مفوضية الشعب لأمن الدولة (kuda vkliuchit' ne menee 50% agentury NKGB)؛ بغية تعزيز توظيفهم لحساب الجمهوريات السوفيتية.

كان حجم هذه المدرسة الجديدة صغيرًا بلا شك، ولا بد أن كثرة «العملاء» بين

= لكن رسولوف لم يكتب النص إلا بوصفه خطةً بديلة؛ إذ أراد في الأصل وضع برنامج تعليمي كامل للأئمة. ولكن مع إغلاق مدارس أوفا، طلب رسولوف من الإدارة المحلية عقد دوراتٍ تعليمية في كنيسة كاثوليكية قريبة، ووضع منهج الدراسة بنفسه، وفيه وحدات عن أحكام الإسلام الأساسية وشعائره وقواعده، ودراسة القرآن والحديث، وأضاف يائسًا نوعًا ما، دستور الاتحاد السوفيتي، لكن الإدارة المحلية في أوفا لم تقنع. فحاول رسولوف مجددًا في عام ١٩٤٦، مقدّمًا مقترحه ومنهجه لموسكو، لكن الباب أُغلق في وجهه مرةً أخرى. فغامر بكتابة مدخله هذا للإسلام بدلًا عن البرنامج التعليمي. لكن الغريب أن الكتاب نُشر بعد انتهاء الحرب بالخطّ العربي لا غير، ووفقًا لابنته، لم يكن يعرف هذا الخطّ إلا شيوخ المنطقة. لكن امرأة اسمها رابطة خانم (Rabita-Khanum)، كانت مسئولةً عن نشر التقويم الإسلامي المذكور في القرار، طبعت نسخةً كيريلية من الكتاب، وخلال بضعة أشهر، طبعت منه ثمانية وعشرين نسخة؛ فسُرّ رسولوف بذلك، وأرسل هذه النسخ لبعض من اختارهم. وتحسبًا للظروف، أرسل نسخًا للإدارة المحلية، ولمجلس الشئون الدينية في أوفا، ولپوليانسكي (رأس البيروقراطية في مجلس الشئون الدينية). لكن لماذا طبعه رسولوف بالخطّ العربي منذ البداية؟ لقد كان يؤمّل في إعادة الاعتبار للخطّ القديم بين الأجيال الشابة من المسلمين، أو على الأقل بين الأئمة الدارسين، أو ربما شعر بأن المادة المدوّنة يناسبها الخطّ العربي بدرجة أكبر، وهو الخطّ الذي كثيرًا ما كانت المراسلات والوثائق الداخلية الأخرى في النظارات تدوّن به حتى ذلك الحين. أو هل فوّض رسولوف كتابة النسخة الكيريلية لزميلته على أمل تقليل مسؤوليته الشخصية، إن عدّ المسئولون ذلك زيادةً في نشر الكتابات الدينية؟ ومهما يكن من أمر، فما زالت رسالة رسولوف عن أصول الإيمان تُطبع حتى اليوم.

(52) Nabiev, *Islam i gosudarstvo*, 100.

طلابها قد خلق في حرم المدرسة «سرًا مكشوفًا» هزليًا ومرؤعًا في آن معًا. بيد أن إحياء متواضعًا خبيثًا للتعليم الإسلامي التقليدي تحت نظر الدولة السوفيتية الملحدة المتشددة كان مع ذلك لحظة مفصلية، سريرية ومثيرة للذكريات في آن معًا.

إذن، هناك الآن أربعة من أصل خمسة أركان للإسلام السني -ألا وهي الشهادة والزكاة وصوم رمضان وإقام الصلاة وحج البيت - صارت ممارسات مُقننة في الاتحاد السوفيتي. بيد أن رُكن الحج إلى مكة ظل محظورًا. وقد ذكر أحد اللاجئين الطاجيك في مقابلة أُجريت معه أواخر عهد ستالين، أنه لم يتمكن من أداء الحج إلا قليل من الناس، لكن سرًا وفي ظروف شديدة الخطورة؛ حيث «كان [الحُجَّاج المخالفون للقانون] يجلبون معهم مياهًا مباركة من بئر في مكة مع بعض تراب / [١٠١] الجزيرة العربية. فإن أمسك بهم حرسُ الحدود التابعون لمفوضية الشعب للشئون الداخلية عند عودتهم، طُبِّقت عليهم الفقرة السادسة من المادة الثامنة والخمسين (٥٨)، وربما أُعدموا رميًا بالرصاص أو أُرسِلوا إلى معسكرات عمل، وتُريق المفوضية هذه المياه التي سافروا آلاف الكيلومترات لأجلها»^(٥٣).

إن حظر الحج على المسلمين ليس بالأمر الهين، فأكثر من قَضوا فريضة الحج يعدُّونها أسمى لحظات حياتهم، والبعض يعدُّل اسمه ليضيف إليه لقب حاج (Hajji) التشريفي. وفي أوائل العشرينيات، انقطع الحج من الاتحاد السوفيتي. وكان العملاء البريطانيون في شبه الجزيرة العربية آنذاك يتابعون عن كثب حركة المبعوث السوفيتي كريم حكيموف (Karim Khakimov)^(١) الذي حاول من وقتٍ لآخر ضمَّ حاكم

(53) HPSSS sched. B, vol. 9, case 448 ff. 20-21.

(١) كريم عبد الرؤوفيتش حكيموف (Карим Абдрауфович Хакимов) دبلوماسي سوفيتي، وأول قنصل للاتحاد في المملكة العربية السعودية، وكان له دورٌ كبير في إقامة علاقات قوية بين الجمهورية السوفيتية الفتية والعالم العربي والفارسي، وبجهوده، كان الاتحاد السوفيتي أول دولة غير عربية تعترف بالمملكة. وكان حكيموف صديقًا شخصيًا للملك عبد العزيز آل سعود، وحاز ثقته وثقة العائلة المالكة كلها، ولُقِّب بالباشا الأحمر. ثم طالت موجة الإرهاب الكبير حكيموف، وأُتهم في عام ١٩٣٧ بالضلوع في مؤامرة ضد الدولة السوفيتية، واستُدعي عاجلاً إلى بلاده، وأُعدم هناك، وهو ما دفع الملك عبد العزيز إلى قطع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي حتى سقوطه في عام ١٩٩٠. (المترجم)

الحجاز المتمتعثر والمدعوم من بريطانيا الشريف حسين إلى جانب السوفييت. لكن الأمور لم تسر على ما يُرام؛ ففي «تقرير جُدَّة» البريطاني السري الصادر في الحادي والثلاثين من يوليو/ تموز من عام ١٩٢٤، الذي ذُكرت فيه زيارة حكيموف وركبه، قال الكاتب: «لا بدَّ أن معلوماتهم عن جُدَّة لم تكن جيدة بحال؛ إذ لم يجدوا بيتًا يذهبون إليه، ولا أثاثًا من أي نوع (فلا شيء في جُدَّة يمكنهم الحصول عليه)، ليس إلا الملابس البريطانية التي لا يمكن ارتداؤها في جُدَّة إلا لخمسة أيام في العام كله»^(٥٤). وقد كان هؤلاء الزوار المبالغون في تأنيقهم من بين السوفييت القلائل الذين رأوا مكة منذ وقتٍ طويل^(٥٥):

«كان السيد حكيموف يفوق أقرانه الأجانب بميزة كونه مسلمًا، فأصبح بإمكانه دخول مكة. وبعد وصوله بوقت قصير، ذهب إلى هناك بسيارة أمر له بها الملك^(١)... وعلى حد علمنا، لم يأت منذ الحرب أيُّ حُجَّاج (روس) بخاريين [كذا وردت] أو غيرهم من الروس. ويبدو أن السيد حكيموف لا ينتظر وصول الكثير منهم؛ إذ يقول: إن قلَّة من الروس الآن، إن وُجدوا، لديهم من المال ما يمكنهم من ابتياع تذكرة لجُدَّة، وإن كان لديهم فسيفنقونه على شيءٍ آخر».

لكن العملاء البريطانيين لم ينقلوا إلا نصف الحقيقة فقط؛ فبعد أن طرد متمردو ابن سعود الشريف حسين من الحجاز، جاء حكيموف بنفسه متنكرًا في زي حاجٍ، في تنكرٍ غير مُقنع يبدو أنه أثار ما يستحقه من شكوك^(٥٦):

(54) Consul R. W. Bullard to Mr. MacDonald, "Jeddah Report. July 31–August 30, 1924," *Political Diaries of the Arab World: Saudi Arabia: The Jeddah Diaries, 1919–1940* (Vol. 2: 1922–1927), ed. Robert L. Jarman (Oxford: Archive Editions, 1990), 231 (henceforth "Jeddah Diaries").

(55) Bullard to MacDonald, "Jeddah Report. July 31–August 30, 1924," *Jeddah Diaries*, 231.

(أ) هو الملك عبد العزيز آل سعود الذي كان قد استولى على مكة في وقت سابق من هذا العام نفسه. (المترجم)

(56) R.W. Bullard to Austen Chamberlain, "Report for the Period March 20–April 11, 1925," *Jeddah Diaries*, 297.

«إن المبعوث السوفييتي إلى جُدَّة السيد حكيموف يزور مكة بصفته مسلماً يرغب في أداء العمرة، ولأنه يستهزئ علانيةً بالدين الإسلامي، يمكننا الافتراض بأن سبب الزيارة ليس مجرد الوازع الديني. وقد اصطحب معه شاباً فارسياً من أبناء التجار، هو المسئول حالياً عن المصالح الفارسية. وقد سلب السيد حكيموف عقل هذا الشاب سلماً؛ فهو يرُدُّ / الإفك البلشفي عن إنقاذ الحكومة السوفييتية النبيلة لبلاد فارس من مخالب بريطانيا العظمى الإمبريالية. وقد واجه الاثنان صعوبةً في الحصول على إذن حكومة الحجاز لزيارة مكة، لكن ابن سعود وافق على طلبهما في غضون ساعات».

[١٠٢]

ويبدو أن تكلف الورع هذا كان له أثره على السفير؛ إذ يذكر «تقرير جُدَّة» أن «الممثلين: السوفييتي والفارسي عادا إلى جُدَّة بعد خمسة أو ستة أيام في قضاياها في مكة، وكان لهذه المدة الطويلة من الاستقامة أثرٌ قاس على السيد حكيموف، فطفق يشرب طيلة أربع وعشرين ساعة، وظلَّ غائباً عن الوعي نوعاً ما مدَّة ثمانية وأربعين ساعة»^(٥٧).

لكن أين كان بقية الحجاج السوفييت؟ فزعمُ حكيموف بأن المسلمين السوفييت يفضلون إنفاق ما لديهم من أموال قليلة على أشياء أخرى، لا يقلُّ سداجَةً عن تفسير خلفه نظير تيراكولوف (N. Tiuriakulov) الذي عمل قنصلاً عاماً في الحجاز بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ (ثم سفيراً للاتحاد السوفييتي إلى السعودية من عام ١٩٣٢ إلى ١٩٣٦). فوفق تيراكولوف، كان البريطانيون والفرنسيون هم من يتحملون وزر قطع تدفق الحجيج؛ وذلك لمنعهم عبور السفن عبر [مضيق] البوسفور والدرديل^(٥٨). وبصرف النظر عن هذا التفسير (الذي يغضُّ الطرف عن كثير من الأمور، ومنها وجود السفر جواً، ناهيك عن حقيقة أن البريطانيين والفرنسيين لم

(57) R.W. Bullard to Austen Chamberlain, "Report for the Period April 12-30, 1925," *Jeddah Diaries*, 300.

(58) V.A. Akhmadullin, *Patrioticheskaia deiatel'nost' dukhovnykh upravlenii musul'man v gody velikoi otechestvennoi voiny* (Moscow: Islamskaia kniga, 2015), 161.

يمنعوا عبور البوسفور والدردينيل)، فلا شك في أن حجَّ المسلمين السوفيت إلى مكة قد قمع تدفقه النظام السوفيتي، كغيره من ألوان السفر التي عُدت «غير ضرورية».

ولكن في أغسطس/ آب من عام ١٩٤٤، تجرأ إيشان باباخان فبعث برسالة إلى رئيس مجلس الشئون الدينية پوليانسكي يطلب فيها الإذن للمسلمين باستئناف الحج. ويبدو أن پوليانسكي انجذب إلى الفكرة، لأسباب مختلفة عن أسباب باباخان؛ فرفع المقترح لرئيسه مولوتوف، وزير الخارجية آنذاك، ويُن له أن يفاد بعض الحجَّاج سيحسنُ سمعة السوفيت في الشرق الأوسط، ويُعزِّز سُلطة النظارة الدينية^(٥٩). ومما يثير الرِّيب أنه مضى أبعد من ذلك، فذكر أن إرسال عددٍ قليل من الحجَّاج، يُقدَّر بستة حُجَّاج، قد يُثبت للشرق الأوسط المسلم أن الاتحاد السوفيتي قد هبَّ بالفعل متسعاً لحرية العقيدة^(٦٠). وربما كان مقصود پوليانسكي من ذلك كلُّه أن يطرح مسوِّغاً جديداً لقلَّة عدد الحجَّاج السوفيت أكثر لباقةً من ذلك الذي كان

(٥٩) جاء في أحد خطابات پوليانسكي لمولوتوف ما يلي: «عند الأخذ في الاعتبار حقيقة أن الحج الإسلامي لم يخرج من الاتحاد السوفيتي لأكثر من عشرين عاماً مضت، فإن مجلس الشئون الدينية التابع لمجلس مفوضي الشعب يرى أن الموافقة على التماس النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان قد تكون له قيمةٌ حسنةٌ، وخاصةً داخل الاتحاد السوفيتي؛ إذ يعزِّز من سُلطة النظارة الدينية بين المسلمين. ومن ناحية أخرى، سيعدُّ إقبال قوافل الحجَّاج من الاتحاد السوفيتي لدى البلدان المسلمة في الشرق الأدنى أمراً حسناً؛ إذ سيشير ذلك إلى أن هناك حرية للدين في الاتحاد السوفيتي. وأخذاً بما سبق في الاعتبار، ومع عدم وجود أي بياناتٍ من أي نوع [تدعم] رفض التماس النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، فإن مجلس الشئون الدينية يرى من المناسب تأييد الالتماس المذكور» (ISG3, 34-35). ووفقاً لأحمدلن (Akhmadullin)، فإن بعض موظفي مجلس الشئون الدينية أنفسهم تعجَّبوا من الإذن بالحج؛ لأنهم اعتقدوا أن التساهل وتقديم التنازلات لم يعد أمراً ضرورياً بعد الانتصار في الحرب!

V.A. Akhmadullin, "Kharakternye oshibki issledovatelei pri analize khadzha sovetskikh musul'man v 1945 g.," *Vlast'* 7 [2013], 156.

(60) Akhmadullin, *Patrioticheskaiia deiatel'nost' dukhovnykh upravlenii musul'man v gody velikoi otechestvennoi voiny*, 162.

حكيموف قد طرحه قبل عشرين عامًا؛ ففي الحالتين كليهما، كان مضمون ما زعماه أن ضعف الإقبال مرجعه إلى زهد المسلمين السوفييت [في الحج] لا أكثر.

على أية حال، انطلق ستّة حجّاج صوب مكة في السابع من نوفمبر/ تشرين الثاني [١٠٣] من عام ١٩٤٤، أربعة من أوزبكستان رفقة طاجيكي وكازاخي. / وقد استمتع الحُجّاج برحلة برية في سيارة عبر مشهد وطهران وبغداد ومكة والمدينة وجُدّة، ثم استقلُّوا الطائرة لزيارة القاهرة (في نزهة قصيرة بمعونة الدبلوماسيين البريطانيين)^(٦١). وفي حين أنه من المشكوك فيه أن تكون الرحلة قد أثارت الانطباع لدى مضيّفيهم في الشرق الأوسط بسيادة حرية العقيدة في الاتحاد السوفييتي، فإنّ الراجح أن هؤلاء العلماء البارزين الذين وقع عليهم الاختيار لخوض هذه الرحلة قد تركوا انطباعًا جيدًا لدى نظرائهم الأجانب.

وفي العام التالي، عام ١٩٤٥، ركب للحجّ سبعة عشر مسلمًا سوفييتيًا، كان من بينهم عبد الرحمن رسولوف، الذي تستعيد ابنته هذه الذكرى قائلة^(٦٢):

«وفّرت الحكومة السوفييتية طائرة خاصة لنقل الحُجّاج إلى شبه الجزيرة العربية ومنها. وكان على الطائرة أن تهبط في أنقرة للتزود بالوقود، لكن الحكومة التركية رفضت استقبال طائرة تحمل حُجّاجًا قادمين من الاتحاد السوفييتي، فهبطت الطائرة في طهران. وقد رحّب ممثلو علماء إيران المسلمين بالحُجّاج السوفييت وقابلوهم بودّ واحترام، وأقام شاه پهلوي حفل استقبال كبير على شرف الحُجّاج. وبعد زيارة مكة والمدينة، طاف الحُجّاج ببعض المدن السعودية الأخرى.

(61) Akhmadullin, *Patrioticheskaia deiatel'nost' dukhovnykh upravlenii musul'man v gody velikoi otechestvennoi voiny*, 162; Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e. 1940-e gg.*, 47

(62) Rakhmankulova, *Muftii Gabdrakhman Rasulev—starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*, 127–128.

وقد استُقبل الحُجَّاج السوفييت في إيران والسعودية بوصفهم مبعوثين من الاتحاد السوفييتي، هذه الدولة العظيمة التي اضطلعت بدورٍ كبيرٍ في هزيمة ألمانيا الفاشية. وفي طهران، عُقد حفل تأبينٍ خاص في ميدانٍ كبيرٍ لذكرى مسلمي الاتحاد السوفييتي الذين قُضوا في محاربة الفاشية».

لكن مراحل التخطيط للرحلة لم تكن سهلةً ميسرة؛ فوفقَ سجلات طيب الرحلة م. س. كريموف (M.S. Karimov)، غار رسولوف من تعيين باباخان رئيسًا للوفد، وهو الذي حاز هذا المنصب على ما يبدو لإجادته العربية والفارسية. ولغيرته هذه، ضغَط رسولوف على كريموف للتصريح بـ «عدم لياقة باباخان طيبًا» لهذا المنصب، وتُظهر القائمة الرسمية للزوّار، الذين استقبلهم ملك السعودية، باباخان في مرتبة أدنى. وعلى الرغم من خطة رسولوف المُحكّمة، فقد ذُكر أن باباخان لفت الأنظار إليه في المملكة بفضل عربيته الجزلة^(٦٣).

وفي عام ١٩٤٦، وقع الاختيار على ثلاثين حاجًا، على أن أن رحلتهم أُلغيت بذريعة سوء الأحوال الجوية. وفي اجتماع عقده مجلس الشؤون الدينية في الصيف التالي، قيل: إن الحجّ في السنوات السابقة «ساعد على فضح الافتراءات المناهضة للسوفييت في بلدان الشرق»، ومن نافلة القول ذكر أن ذلك الرأي كان محلّ اجتماع الحاضرين^(٦٤). ولا شك أن السماح بالحجّ المقيّد يمكن عدّه تنازلًا / في إطار التوجه [١٠٤] الأوسع لمزيد من التسامح الديني، وكان كذلك حيلةً دعائيةً صفيقة، لكن المراقبين الخارجيين لم يروا منها إلا الوجه الثاني.

وقد استمرت الرحلات إلى مكة، واختيرَ أربعون حاجًا في عام ١٩٤٧، كان منهم إمام إتشكالُف المُجد ضياء الدين رحمنكولوف. ولكن لسوء حظّ الحُجَّاج، أُلغي الحج مرةً أخرى بذريعة الحجر الصحي للكوليرا في الشرق الأوسط^(٦٥).

(63) Akhmadullin, "Kharakternye oshibki issledovatelei pri analize khadzha sovetskikh musul'man v 1945 g.," 157–158.

(64) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 32.

(65) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 31; =

ولو كان الدافع الوحيد لتوسيع نطاق الامتيازات الدينية في الدولة السوفيتية هو جمع الأموال والقوات ورفع الروح المعنوية للمجهود الحربي عاجلاً، لا أكثر من ذلك، لكان لنا أن نتوقع تلاشي هذه الامتيازات سريعاً بعد انتهاء الحرب. وكان من الممكن أن يعزم ستالين على موجة جديدة من إغلاق المساجد والاعتقالات. فباباخان اعتُقل مرتين قبل ذلك، ولا عائق ألبتة أمام اعتقاله مرة ثالثة. وما إن اعتلت المطرقة والمنجل الرايخستاغ المدمر في برلين، بدا للكثيرين أن وقوع تراجع سريع في السياسة الدينية أمرٌ مرجح تماماً، بل ربما أمرٌ لا مناص منه.

لكن مع توجُّه المواطنين السوفيت للمشاركة في جهود إعادة الإعمار المضنية، لم تحدث موجة التطهير المنتظرة للنخب الدينية، ومضى عام ١٩٤٥ ودخل العام التالي له، وظلت المساجد مفتوحة، بل افتُتح غيرها؛ ففي مقاطعة إتشكالف وحدها، افتتح رحمنكولوف بعض المساجد في قرى ستارو-كولشاريوفه (Staro-Kul'sharylovo) في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٥، وسولتاكاي (Sultakay) في ديسمبر/ كانون الأول، وسول-إليتسك (Sol'-Iletsk) في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٦، وكارغالا (Kargala) وستاريغوميروفه (Starogumerovo) في ديسمبر/ كانون الأول، ونوفوميسنه (Novomusino) في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٧^(٦٦). وكذلك افتُتحت بعض المساجد الجديدة في آسيا الوسطى؛ إذ لم يُلغَ قطُّ القرار الصادر في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٥ بناءً على طلب باباخان الإذن باستخدام سبعة مزارات كانت مُغلقة، وكذلك في أكتوبر/ تشرين الأول من العام نفسه، وبعد نهاية الحرب، سُمح بافتتاح بعض المدارس في طشقند وبخارى^(٦٧).

= انظر أيضاً:

Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*. 1940-e gg., 48.

وقد لفت كوروليفا وكوروليف الانتباه إلى أنه طُلب من الحُجاج، في رحلة واحدة على الأقل، دفع ثروة صغيرة قوامها ثلاثة آلاف وخمسمائة (٣.٥٠٠) روبل لخزانة النظارة الدينية.

(66) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligiozni politiki v SSSR," 97; Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 30.

(67) Nabiev, *Islam i gosudarstvo*, 100.

=

وعلى الرغم من أن الحاجة إلى دعوة الناس إلى الانخراط في أعمال الحرب من على المنابر قد انقضت، فقد ظل الأئمة المسلمون يؤدون واجبهم الوطني؛ فيجمعون التبرعات لصندوق الدفاع الوطني، ويثنون في خطبهم على الله وستالين معاً^(٦٨). وكذلك، فقد ارتبطت الأوضاع المالية للمساجد بالدولة؛ ففي عام ١٩٤٦، حصلت الجماعة المسلمة في إتشكالف على قرض حكومي قيمته نحو ثلاثين ألف (٣٠.٠٠٠) روبل، وأحياناً كان جزءاً معتبراً من الزكوات يُوجّه لضمان بعض القروض الحكومية^(٦٩). وفي الوقت نفسه، حضّت السلطات الدينية المحلية المسلمين بكلّ إخلاص ألا تشغلهم صلاتهم ومحافلهم عن واجبات أعمالهم، وألا يعقدوا احتفالات دينية بغير الحصول أولاً على إذن كتابي من مكاتب التسجيل^(٧٠). وكذلك مُنحت بعض الامتيازات الجديدة الواضحة للعيان؛ ففي عام ١٩٤٦، وافقت اللجنة التنفيذية لمجلس مدينة أرنبورغ على تخصيص / مبانٍ منفصلة لبيع لحوم الأبقار [١٠٥] والضأن والأحصنة والخنازير، وجاء هذا التنازل تلبيةً لرغبة المسلمين في فصل لحم الخنزير عن اللحوم الجائز أكلها^(٧١).

ولكن مع نهاية عام ١٩٤٦، كانت هناك أدلة على تغير التوجهات؛ ففي الربع الأول من العام، تسلّمت الحكومة السوفيتية مائة وخمسة وعشرين (١٢٥) طلباً رسمياً بفتح مساجد ومصليات. ولم يُراجع من هذه الطلبات إلا قرابة النصف (سبعة وخمسين طلباً)، وقبّل منها ثمانية عشر طلباً (أي أربعة عشر في المائة ١٤٪ من إجمالي الطلبات) فقط. وفي الربع الثاني، قفزت الطلبات إلى مائة وخمسين (١٥٠)

= في ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٤٧، مُنح الإذن مبدئياً بفتح مدرسة في باكو تسع أربعين طالباً، لكن الخطط تبخّرت، وكان السبب الرسمي هو «قلة الأماكن» و«قلة عدد من أعربوا عن رغبتهم في الدراسة».

Damir, Mukhetdinov, *Istoriia islama v Rossii* [Moscow: Medina, 2019], 239

(68) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 30–31.

(69) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 30.

(70) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 30.

(71) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 97.

طلبًا، لم يُراجع منها إلا نحو الثلثين (أربعة وتسعون طلبًا)، لكن الطلبات المقبولة زادت لتصل إلى أربعين في المائة (٤٠٪) من إجمالي الطلبات (أي واحد وستين طلبًا). لكن في الربع الرابع، تراجعت هذه الأرقام جميعها؛ فلم يُستلم إلا خمسة عشر طلبًا، روجع ستة منها، ورُفضت جميعها^(٧٢). وعلى الجملة، كان باب فتح المساجد والمصليات يُغلق.

وطوال عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨، تداولت مكاتب مجلس الشئون الدينية بعض الأدلة المحفوظة في الوثائق الداخلية على هذا التحول؛ إذ تشدّد إحدى هذه الوثائق على ضرورة وقف تسجيل مزيد من الجماعات المسلمة^(٧٣). وقد تحولت حالة إحدى الجماعات المسلمة في أوبلاست تيومين ('Tiumen oblast')، تمكّنت بطريقة ما من تسجيل مسجد في عام ١٩٤٧، إلى مثار قلق كبير في مجلس الشئون الدينية؛ فعلى الرغم من أن المسلمين الذين أفادوا من هذا التسجيل قُدّر عددهم بسبعة آلاف شخص، فقد خشي مسئولو المجلس من زيادة مضاعفة في عدد المسلمين «النشطين» في المنطقة المحيطة بالمسجد (بقطع النظر عن دلالة هذه الزيادة)، وثار قلقهم من أن أبناء افتتاح المسجد وتوسعته ستغذي المزيد من الطلبات^(٧٤).

(72) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 97;

وحتى في عامي السخاء ١٩٤٤ و١٩٤٥، لم يكن لدى النخب المسلمة المحلية تفويض مطلق بافتتاح المساجد؛ ففي كل مرة، كان التفاوض حتميًا وأمكن رفض الالتماسات لذرائع مريبة؛ فمثلًا، قد يأتي الرد على مقدّمي الالتماس بأن المباني المتوافرة للتجمعات الدينية غير مناسبة؛ لأنها لا تسع المصلين. وفي عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧، رُفضت الالتماسات العشرة كلها المقدمة من أوبلاست سفردلوفسك بناءً على هذه التحفظات المريبة.

V.P. Kliueva, "Zhizn' v ateisticheskom gosudarstve: musul'manskie obshchiny Tiumenskoi oblasti [1940–1960-e gg.]," *Veštnik arkheologii, antropologii i etnografii* 10 [2009], 117.

[كان هناك جملة غير متسقة في النسخة الأجنبية في أوّل هذه الحاشية تم تعديلها بالاتفاق مع المؤلف -م]

(73) Denisov and Morgunov, *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 33; Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 97.

(74) Kliueva, "Zhizn' v ateisticheskom gosudarstve: musul'manskie obshchiny Tiumenskoi oblasti [1940-1960-e gg.]," 117.

لكن المساجد التي افتتحت في فترة الحرب ظلت قائمة، والنُخب الدينية التي تحرّرت من أسر معسكرات الاعتقال ظلّت حرّة، وكانت القيود الجديدة [مجرد] تضيق لا تطهيرًا جديدًا؛ فقد كانت الحريات التي منحها الدولة زمن الحرب راسخةً القدم رسوخًا يثير الدهشة، ويصدق الأمر كذلك على التنازلات التي اكتسبها الأئمة المسلمون وطوائفهم. وكما سنرى في الفصل الخامس، يمكننا تفسير استمرار بعض هذه الحريات من خلال استراتيجية «المسلك الناعم» الذي سلكته الدولة السوفيتية، في حين يمكن تفسير بعضها الآخر تفسيرًا أفضل بالتخبط الرسمي، بل والألمبالة في بعض الأحيان، التي ضربت أطناب السياسة الدينية السوفيتية في أثناء الحرب وبعدها. بيد أننا سنرتحل أولاً، بعيدًا عن المساجد والنُخب والالتماسات، لنطلّ إطلالة سريعة على الحياة الدينية للمسلمين السوفيت في زمن الحرب.

(٤)

صلوات الجيش الأحمر وقصائد الجبهة الداخلية: لمحات من حياة المسلمين السوفييت في زمن الحرب



/ كان حارث صالح أولي صالحوف (Kharis Salikh uly Salikhov)، أحد رجال [١٠٦] مفوضية الشعب للشئون الداخلية، تترياً ينتسب إلى إحدى القرى الصغيرة. وقد شهد القتال في المجر وقيينا، وذهب إلى الخطوط الأمامية مُعلّقاً في معطفه شيئاً من الذكر حاكته جدّته، وهو سورة من القرآن، أشار إليها صالحوف بعد ذلك قائلاً: «قالت لي جدتي: لقد حكّت سورة ياسين في بطانة معطفك، فلا تفقدها. والحقّ أنني لم أفقدها، واحتفظتُ بها حتى يومنا هذا»^(١). والحقّ أن صالحوف كان قاب قوسين أو أدنى من الموت أو الأسر غير مرّة، لكنه ينسب الفضل في نجاته إلى الذكر بشكل قاطع، وكان ذلك عنده الدرس الأهم في تجربة الحرب، وتُبرز مرويّاته عن الحرب جهوده في نشر هذا الدرس بين رفاقه في خضم القتال. ولا يلفت صالحوف الانتباه إلى تلك المفارقة البارزة التي يلاحظها المراقب الأجنبي، وهي أن رجلاً ينتسب إلى مفوضية الشئون الداخلية يعلم الجنود الدين في قلب المعركة، بيد أنه لا يصحّ أن نقول: إنه لم يدركها؛ حيث يرى أنه في سنوات الحرب، لم يكن ثمّ تعارض بين الإيمان وخدمة الدولة، فيقول: «لم يكن الدين في الحرب محظوراً؛ ففي خلال المدة بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥، لم يُمسّ قطُّ أحدٌ من أي فرع من أفرع الدولة [لأسبابٍ دينية]، (وكنْتُ أنا أنتمي إلى فرع مفوضية الشئون الداخلية آنذاك)»^(٢).

(1) Nuriia Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda* (Kazan: KhozurSpokoistvie, 1436/2015), 100.

(2) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 100.

إن ما رُوِيَ لأحد الصحفيين بعد أعوام من ذكريات صالحوف عن الحرب يقدم لنا شهادات حيّة عن التدين لدى الجنود السوفييت؛ شهادات بلغت من حيويتها أن رفضها البعض بوصفها أوهاماً محضة. ولمّا كان رجال مفوضية الشئون الداخلية موضع إزدراء جنود الجيش الأحمر، فربما كان «التاريخ الجدير بالإجلال» الذي رواه هذا المحارب القديم عن تجربته أيام الحرب مجهوداً قام به للتصالح مع ذنبه، من خلال إعادة تصوير نفسه (كما سنرى) بوصفه «رجلاً طاهر الذيل» يُجلّه رفاقه في ميادين المعارك. ولكن شهادة صالحوف أصبحت من جهة أخرى أكثر مصداقية بفعل تعضيد العديد من الشهادات المشابهة، التي قدّمها بعض المحاربين القدامى في الجيش الأحمر، إياها. وبالفعل، لم ينفرد صالحوف بوصف مناخ الممارسات التعبدية المتكررة والشائعة في الميدان، وإنما كانت هذه الممارسات فيما يبدو [١٠٧] تجربة أيام الحرب التي يستدعيها كثير من / قدامى المحاربين (حتى لو كان شيء من هذه الممارسات يقوم عليه بعض عملاء مفوضية الشئون الداخلية!).

ويقدّم هذا الفصل لمحةً عن الحياة التعبدية الإسلامية إبان الحرب والسنوات التالية لها مباشرة، معتمداً على مصادر من قبيل مذكرات بعض قدامى المحاربين من أمثال صالحوف، والقصائد الإسلامية في الحرب، وتقارير شهود العيان، وبرقيات العملاء السوفييت، والرسائل الواردة للجنود المسلمين في الجيش الأحمر والصادرة عنهم. وأزعم هنا أنه لا يمكن إعادة بناء بعض جوانب التغير الديني الذي خُصّ به زمن الحرب فحسب، بل يمكن أيضاً اقتفاء أثر هذه التغيرات لسنوات ما بعد الحرب. ويعني ذلك أن هذا الفصل يرى أن الحرب تمثل نقطة تحول، لا في السياسة الدينية السوفيتية فحسب، ولكن في مجمل الحياة الإسلامية السوفيتية أيضاً. وتشمل هذه التغيرات ازدهار الشعر الإسلامي السوفيتي (الذي ارتبط كثير منه بتجارب الحرب)، وتزايد انخراط النساء في الحياة الدينية وقيادتهن لها. ويمثّل صالحوف، الذي وصف نفسه بأنه «إمام» من مفوضية الشئون الداخلية، مدخلاً لطيفاً لعالم من المصادر يمزج في غالبه بين الإيمان الإسلامي والوطنية السوفيتية في زمن الحرب. ووفقاً لصالحوف، كان التدين في زمن الحرب قاسماً مشتركاً بين رفاقه

المسلمين والمسيحيين وانعكس بينهم بالسوية، وأحياناً بتشجيع منه. ويصف لحظة مفصلية لكتيبته عندما كانت تحت القصف في المجر قائلاً^(٣):

«قَصَفْنَا النازيون بلا هوادة، فقال لي رفيقٌ شاب اسمه ساجدٌ لله «سورة الموت؛ هيا اقرأها علينا!» (üterälär bit, äydä, uky äle!) فقرأتها؛ قرأت سورة «الحمد لله»^(٤). فقال ساجدٌ لله الثانية: «اقرأ»، فقرأت ... فقال: «اقرأ، اقرأ!» مرت الأزمة، وظللت أقرأ حتى النهاية. والحمد لله لم يُقتل أحدٌ من سريرتنا، ولم يُصَب إلا جندي واحد في ساقه، اسمه نورغيان كريموف (Nurgaian Karimov). وكان عدد القتلى [إجمالاً] لا يُحصى، فشعر الفتيةُ التتر بعد هذه الواقعة بأنه عندما تقرأ، لا تُصَب بأذى. وحتى من لم يكن مؤمناً آنذاك [شرع يؤمن]. وبعد هذه الحادثة، أثار كثير منهم ملازمتي. وقبل كل معركة، يقول ساجدٌ لله أو نورغالي أو غيرهما: «اقرأ!».

ويذكر صالحوف أنه سرعان ما أصبح وكأنه إمام وحدته؛ إذ كان يؤمُّ إخوانه المسلمين من الجنود في الصلاة. وكان هناك نحو ثلاثين تترياً في الكتيبة، وجدوا أنفسهم تحت نيران القصف العنيف مرةً أخرى في الهجوم على قيينا (من الثاني إلى الخامس عشر من إبريل/ نيسان من عام ١٩٤٥)، عندما تقدّم الجيش الأحمر نحو قيينا من الجنوب وحاصر فيالق مدرعات الپانزر التي تدافع عن المدينة. ويروي صالحوف أنه ليلة المعركة، طلب منه الجنود التتر / أن يؤمّهم في الصلاة: «لكل [١٠٨] جندي واقٍ من المطر، فاستعملناه عوضاً عن المصليات. وكنت الإمام، فما أفعله يفعلُه الفتية. وسألوني: «إن صلينا، هل ننجو؟» قلت: «سننجو إن أخلصتم، واسألوا الله النجاة». فسارع الفتية إلى مصلياتهم مستصرخين: «يا الله، يا الله»^(٥).

ولم يكن إمام مفوضية الشؤون الداخلية هذا ليجرؤ على إقامة الصلاة علناً، وإنما

(3) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 101.

(٤) الإشارة هنا إلى سورة الفاتحة، التي كثيراً ما تُتلى وحدها بوصفها دعاءً قائماً بذاته.

(5) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 102.

كان ذلك كله يتم بعيدًا عن الأنظار في الغابات، ولكن سرعان ما سيكتشف أحد الضباط القادة غير المسلمين، واسمه سوروكين (Sorokin)، الأمر ويطلبهم بتفسير. وقد صاغ صالحوف المحادثة الغريبة التي وقعت بينهما على النحو الآتي:

- «ماذا تفعلون؟»

- «أين؟»

- «هل كنتم تتمتمون بشيء في الغابة؟»

- «كنا نؤدي النماز».

- «ماذا يعني تؤدون النماز؟»

- «إنها صلاة» ('morazhegat')

- «صلاة لمن؟»

هنالك «فكر [صالحوف] أن يقول: يوسف فيساريونوفيتش ستالين». لكن لنا أن نتخيل أن هذا التفسير لم يكن ليقنع الضابط، لكن صالحوف استجمع شجاعته ليعترف: لقد خشيتُ أن أقول: إنها توسلٌ لله، وواقفًا لا أعلم ماذا أقول، رفعتُ إصبعي للسماء قائلاً:

- «هناك، لمن بالأعلى»

فردَّ الضابط: «الله، أم لمن؟»

- «نعم، الله»⁽⁶⁾.

ومما هدئ من روع صالحوف أن فضول الضابط كان أكبر من غضبه، فثار جدل عقدي ودود⁽⁷⁾:

(6) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 102.

كان أحد جنود المشاة في كيف أقل تسامحًا مع رغبة رفاقه المسلمين في إقامة صلاة الجماعة، فاشتكى قائلاً: «كل هؤلاء الرجال الذين يعتزون إلى آسيا الوسطى عندما يحين موعد غدائهم، أو بعده بقليل، يرتمون جميعًا على الأرض ويبدأون في ترديد كلمتهم «يا الله!».

Catherine Merridale, *Ivan's War: Life and Death in the Red Army, 1939-1945* [New York: Picador, 2006], 154

(7) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 103.

«والحمد لله أنه قال لي بعد ذلك:

ماذا تسأله؟

أسأله ألا نموت نحن -الرفيق سوروكن وجندي الجيش الأحمر صالحوف- في العملية.

- وماذا تسأله بعد؟

ذكرت أسماء الفتية التتر كلهم، ثم قلت: «وأسأله أيضًا ألا يموت باشكا (Pashka)، رغم أن له إلهاً آخر». فرد وقد أخذته المفاجأة: «آخر كيف؟» ففسرتُ له قولي بأن للروس إلههم، ونحن التتر لنا إلهنا. فقال لي: «اعلم أن لا إله لك وحدك! فالله وإلهنا (bog) واحد، وأؤكد لك ذلك» أوليس ذلك الحق؟! هذا رقيب أول وشيوعي!

ويمكن لمذكرات صالحوف الحية -شأنها في ذلك شأن مذكرات الحرب كلها (بل شأن المذكرات جميعًا) - أن تثير شيئًا من الريبة، بل إنها ينبغي أن تثير هذه الريبة التي تعدُّ أمرًا صحيًا. إلا أن كل عنصر من عناصر هذه السردية نجده متكررًا في مذكرات غيره من الجنود المسلمين الذين حاربوا على جبهات / مختلفة^(٨). فمن [١٠٩]

(٨) وكذلك يستذكر المحاربون القدامى المسيحيون والملحدون رؤيتهم تضرعات المسلمين على الجبهة؛ فنجد المدفعي إيفان غروبوف (Ivan Grubov) يذكر أن الأوزبك والكازاخ والتركمانيون يقفون في منتصف المعركة للصلاة على رفاقهم القتلى، متماسكين حتى تنتهي الصلاة وهم تحت القصف الألماني (حوار مع إيفان فلاديميروفيتش غروبوف:

<https://iremember.ru/memoirs/artilleristi/grubov-ivanvladimirovich/> [accessed April 10, 2020]).

وذكر المهندس العسكري غيورغي ستيرلكوف (Georgii Strelkov) أنه كان لديه جندي أوزبكي في فصيلته يؤدي فروض الصلاة اليومية، حتى أنهم ترددوا في تعيينه حارسًا؛ لأنه قد يطلب استراحة صلاة (حوار مع غيورغي ألكسندروفيتش ستيرلكوف:

<https://iremember.ru/memoirs/saperi/strelkov-georgiy-aleksandrovich/> [accessed April 10, 2020]).

وذكر جندي المشاة يوري كوموف (Yuri Komov) أن جنود آسيا الوسطى كانوا في المجمل أكثر =

ذلك مثلاً ما نراه من أن تأكيد صالحواف على أنه كان يدعو طوال الحرب يُعدُّ موضوعاً شائعاً في مذكرات الجنود المسلمين؛ فقد أُصيب في المعارك غبدلغاراي غاليموف (Gabdulgariai Galliamov) - من مدينة كيزل (Kizel) في منطقة بيرم المعروفة آنذاك بمنطقة مولوتوف - لكنه يقول: إنه لولا أذكاره لساء الوضع أكثر: «لم ينقذني في الحرب غير مرةٍ إلا الكلمات اليسيرة «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٩)؛ إذ يبدأ القصف، فتهبط إلى قعر الخندق، وتبدأ في تكرارها دون توقف. تنفجر القذائف حولك في كل مكان، لكن الله عز وجل يحفظك من الموت»^(٩).

وأما عزيز عبيد الله فيتش مورزاغاليموف (Gaziz Gabidullovič Murzagalimov)، أحد أبناء قرية نكايفه (Nakaevo) التابعة لمنطقة تشليابينسك (Cheliabinsk)، فهو

= تديناً من نظرائهم السلاف، وكان كثير منهم يصلُّون في جماعة، إن لم يكونوا جميعاً. (حوار مع يوري إلتش كوموف:

<https://iremember.ru/memoirs/pekhotintsi/komov-uriyilich/> [accessed April 11, 2020]).

(أ) حذفنا هنا، بالاتفاق مع المؤلف، الحاشية رقم (٩) في الأصل الإنكليزي، والتي عرّف فيها بالبسمة. (المترجم)

- (9) R.Sh. Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945)," in *Religioznoe mnogoobrazie Ural'skogo regiona. Materialy Vserossiiskoi nauchnoi Prakticheskoi konferentsii* (Orenburg: OOO IPK "Universitet," 2014), 151.

والقول بأن الدعاء مُنح من ويلات القصف كان شائعاً في المقابلات التي أجريت مع المسيحيين من المحاربين القدامى والناجين من الحرب؛ فتذكر امرأة في السادسة والخمسين من عمرها، في مقابلة أجريت في أواخر عهد ستالين: «أجزم بأننا أحياء بسبب دعائنا الرب فحسب. فعندما كنا في ألمانيا في الخندق والأمريكان يقصفون بالقنابل، سقطت ثلاث قنابل بالقرب من الخندق، لكنها لم تُصنبا. نجونا؛ لأنني كنتُ أدعو طوال الوقت. ومرةً أخرى أُلقت طائرة إنكليزية قنبلة على البيت الذي كنا فيه، وبدأ في الاشتعال، لكن بسبب وجود أيقونة للقديس نيقولاي معنا، نجت أعلى ممتلكاتنا». (HPSSS) (sched. A, vol. 14, case 273 f. 26). وأخبر ميكانيكي جرارات أوكراني محاوره بعد سنواتٍ قلائل من الحرب أن «المرء لا يمكنه العيش بغير إله. أذكر أنني في مرة من مرات القصف، كنتُ أدعو، وكان صديقي الملحد يبحث عن ملجأ يحميه، وقُتل» (HPSSS sched. A, vol. 36, case 103/[NY]1593, f. 46).

مدفعي كان يعدُّ نفسه ملحدًا، ولكنه وجدها تسأل الله النجاة فيما هو يخوض نهر الدنيبر البارد في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ١٩٤٣، وقذائف النازيين تضرب الماء حوله، وهو ما يستذكره قائلاً: «فتح العدو النار بالأسلحة كلها... وبدت المياه حولنا وكأنها تغلي، فانقلبت القوارب كرقائق الخشب، وسقط المدفع الرئيسي (orudii) في قاع الدنيبر المظلم، وجرف التيار جثث القتلى الممزقة. ولأنني من أعضاء الكومسمول، لم أكن أو من بالله قط، لكنني تذكرت هنا بعض كلمات الذكر التي علمتها جدتي: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أعوذ بالله، الرحمن... الله أكبر!»⁽¹⁰⁾. نجا مورزا غاليموف، وحصل على لقب «بطل الاتحاد السوفيتي»؛ تكريمًا له على بطولته في معركة الدنيبر.

ويذكر صالحوف دعاءه في محنة مشابهة في حملة فيينا، فهو ورفاقه قُصف قاربهم وسقطوا في نهر الدانوب المتجمد. وبينما هم تحت وابل من القصف الألماني، ومحاصرون في المياه المُثلجة، لا يمكنهم تبين صف القوارب التي تدنو منهم، إن كانت من الحلفاء أم المجر أم الألمان، تلا صالحوف سورة ياسين مرة بعد مرة، يحضه رفاقه على تلاوتها، فما زالوا كذلك حتى أنقذهم قارب يوغوسلافي في النهاية⁽¹¹⁾.

وأما محمد سيف الله فيتش سيفولين (Mukhamet Saifullovich Saifullin)، أحد أبناء قرية سيلياييفه (Seliaevo) قرب أوبلاست تشليابينسك (Cheliabinsk)، والذي جُنّد وهو في الثامنة عشرة من عمره، فيذكر، شأنه شأن مورزا غاليموف، ذلك الصراع الذي دارت رحاه في صدره بين أيديولوجيا الكومسمول التي كان يعتنقها وبين إيمانه [الديني] أيام الحرب. لقد كان محمد مظليًا، وقفز ثمانية وعشرين مرة في أثناء الحرب، وقد وجد نفسه غير مرة يسأل الله النجاة؛ حيث قال: «رغم انتسابي إلى الكومسمول، فقد كنت في لحظات الخطر المميت على الجبهة أرّدد في نفسي ذكرًا

(10) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945)," 150.

(11) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 105-106.

موجزًا هو «الحمد لله»^(١). وقد كان الجنود من مختلف الجنسيات يقاتلون حولي، فلا يمكنني أن أردّد الذكر بصوت عالٍ»^(١٢). وقد انضمّ محمد لاحقًا إلى صفوف الحزب الشيوعي.

ويذكر سيفولين، مثله مثل صالحوف، أن أبويه أرسلوا معه حين لَبَّى نداء الحرب بعض الأذكار، وخاصةً والده الذي تلا عليه هذه الأذكار^(١٣). وكذلك الحال مع ابن منطقته تشليابنسك، حلم الدين حساموفيتش نظاموف (Gilmitdin Khisamovich Nizamov) / الذي يذكر وداعًا مشابهًا؛ إذ كانت أمه تدعو له طوال الليل، و«تسأل الله [١١٠] أن يحفظ ابنها ذا الثمانية عشر عامًا»^(١٤).

ويذكر المظلي والمحارب القديم الذي شارك في معارك الدفاع عن موسكو وحصار ستالينغراد وتحرير روستوف وغيرها، فاسخ كافيف (Fasyikh Gafiev)، أنه سأل الله النجاة بينما كان ممددًا في خندق في مدينة زاپوروجيا (Zaporozhye)؛ حيث حاول إطلاق مظلته عندما كانت طائرتة المدمرة تهوي من السماء، لكن المظلة كانت عالقة، ربما بسبب الرصاص. سقط فاسخ في إحدى الحُفر؛ فانكسرت عظام فخذه وثلاثة من أضلاعه، وظل ممددًا هناك أربع ساعات تمر به القوات الألمانية، وتقترب منه قدر خطواتٍ أحيانًا. تفكّر في الله وانتظر الموت، قبل أن ينقذه شيخٌ كبير من سرية مأسورة، وجده وقدم له بعض الإسعافات الأولية الضرورية^(١٥).

ويلحظ كافيف أنه كان مواظبًا على الدعاء لا في لحظات الموت المحقّق

(أ) حذفنا هنا، بالاتفاق مع المؤلف، الحاشية رقم (١٣) في الأصل الإنكليزي، والتي عرّف فيها بالحمدلة. (المترجم)

(12) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945)," 151.

(13) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945)," 151.

(14) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945)," 152.

(15) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 129.

فحسب، بل في أثناء الحرب كلها؛ إذ يقول في حوارٍ مع الصحفي آيناز محمد ضيانوف (Ainaz Mukhametzyanova)^(١٦):

«لقد استهواني القفز من فتحات القنابل [في الطائرات]، ودائمًا ما كنتُ أدعو قبل أن أقفز من الطائرة، فكان الأمر على ما يلي: نحن جالسون في الطائرة، ورفاقي في السلاح يقولون: «ها هو كافيث قد بدأت تمتماته»... كان ذلك وقتما حلقت الطائرات الألمانية فوق باتايسك (Bataysk) وشرعت تقصفنا... قفزتُ على المنصّة الغارقة ثم قفز رجل آخر فوقي، وبعده ثالث، واضطّررنا إلى الجلوس، ومع سقوط القنابل، كانت الأرض تهتز حولنا. وهنا بدأت في الجهر مكرراً «لا إله إلا الله»^(١). وبدأ الرائد الممدد فوقي في تكرر: «ارحمنا يا إلهي، ارحمنا يا إلهي!» وصلب على نفسه. كان الثالث مقدّمًا، وبعد انقطاع القصف، قال للثاني: «حسنًا، لقد قلتها فجأةً أيها الرائد!»، فأجاب مشيرًا إليّ وقال: «وهو أيضًا استغاث [بالله] على طريقتة».

وكذلك لم يكن مشهد الرفاق المسيحيين وهم يصلّون أمرًا مفاجئًا، بل كان أمرًا شائعًا؛ فيذكر صالحوف أن «الفتية الروس كانوا يحملون معهم أدعيةً مكتوبةً من الإنجيل (Bibliyadän yazyp alyngan dogalary)»، وحمل بعضهم أيقونات في جيوبه، وكانوا يُخرجونها في أيديهم ويدعون: «يا رب احفظنا». تفكّرت في نفسي قائلاً: «كيف مُنحنا هذه الحرية في أمور الدين؟» (Nichek bezgä din mäis 'äläsensä). (irek birälär ikän!) لقد أخذتني الدهشة. لم يمنعنا أحد، بل دافعوا عن ذلك»^(١٧). ويذكر كثير من المحاربين المسيحيين القدامى اصطحابهم بعض الأدعية والتمايم والأيقونات والصُّلبان إلى الجبهة، وهو ما استذكره أحدهم قائلاً: «كانوا يُضرمون النيران بطاقتهم الحزبية / إن أشرفوا على الموت... لكنهم لا يتخلّون قطُّ عن [١١١]

(16) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 129-130.

(أ) حذفنا هنا، بالاتفاق مع المؤلف، الحاشية رقم (١٩) من الأصل الإنكليزي، والتي عرّف فيها بكلمة التوحيد. (المترجم)

(17) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 103-104.

صُلبانهم»^(١٨). ويذكر فلاديمير آنيكوف (Vladimir Annenkov)، جندي سلاح الفرسان، ارتدائه قميصًا؛ فيصفه قائلاً: «حاكت أُمِّي فيه بإبرة وخيط دعاءً أنجوبه من كل أهوال الحرب»^(١٩). ويذكر جندي الدبابات ستيفان ستاشكين (Stepan Stiazhkin)، الذي احتفظ بصليبٍ أعطته له أمُّه، رفيقًا له كان يتكسَّب من بيع الصلبان المصنوعة من سبائك الدورالومين (diural) المأخوذة من الطائرات المدمِّرة الألمانية والسوفييتية^(٢٠). وكان المزمور التسعون («العون الحي»)^(١) بوجه خاص، هو الذي

(18) Merridale, *Ivan's War*, 194.

يلاحظ براندون م. شستر أنه «كثيرًا ما وُجد بين متاع الجنود مقتنيات دينية من قبيل الأناجيل والصلبان والأدعية المغلفة بالجلد... وقد كتب بيوتر ليوباروف (Pëtr Liubarov)، الذي عمل مراسلًا لصالح جريدة من جرائد الجبهة، في يومياته أن الصلبان والتعبيرات شبه العلنية عن الإيمان شاعت على جبهات القتال... وذكر بعض الجنود تعويذاتٍ حافظة، بعضها على هيئة تماثيل (أحجبة، وهي في الغالب أدعية مغلفة بالجلد) أو صلبان، لكن أحيانًا كانت مجرد أشياء «جالبة للحظ» ولا ارتباط ديني لها، من قبيل حامل سجاجير مكسور».

The Stuff of Soldiers: A History of the Red Army in World War II through Objects
[Ithaca: Cornell University Press, 2019], 187

(١٩) حوار مع فلاديمير تيخونوفيتش آنيكوف:

<https://iremember.ru/memoirs/kavaleristi/annenkov-vladimir-tikhonovich/>
(accessed April 11, 2020).

(٢٠) حوار مع ستيفان ألكسندروفيتش ستاشكين:

<https://iremember.ru/memoirs/pekhotintsi/styazhkin-stepan-aleksandrovich/>
(accessed April 11, 2020).

[الدورالومين (Duralumin) اسم تجاري لإحدى سبائك الألومنيوم المصنعة، والمستخدمة في تصنيع بعض أجزاء الطائرات والسفن الهوائية القديمة - المترجم].

(أ) هناك اختلاف بين الترجمات الروسية والإنكليزية والعربية في ترتيب سفر المزامير؛ إذ نجد

المزمور التسعين في الترجمتين الإنكليزية (نسخة الملك جيمس) والعربية (نسخة سميث -

فان دايك) هو «صلاة لموسى رجل الله» (A Prayer of Moses the man of God) أما في

الترجمة الروسية (نسخة الترجمة المجمعة) فهو «مزمور مدح داود» (Хвалебная песнь

Давида)، وهو المناظر للمزمور الحادي والتسعين في الترجمتين الإنكليزية والعربية، وهذا

الأخير هو المقصود والمنتشر اتخاذه تماثيل وأحجبة بين الروس، ومشهور بينهم باسم «العون

الحي»، ونصه: «(١) ألسَّاكِنُ فِي سِتْرِ الْعَلِيِّ، فِي ظِلِّ الْقَدِيرِ يَبِيتُ. (٢) أَقُولُ لِلرَّبِّ: «مَلَجَايِ =

يُثَبِّتُهُ الْآبَاءُ وَالْأَزْوَاجُ غَالِبًا فِي يَاقَاتِ الْجُنُودِ الْمُتَجَهِّينِ إِلَى الْحَرْبِ، أَوْ يَحْيِكُونَهُ فِي مَعَاطِفِهِمْ، وَكَانَ الْمَعْتَقِدُ الشَّائِعَ آنَ ذَاكَ أَنَّ هَذَا «الْحِجَابَ» يَحْفَظُ مَنْ يَلْبَسُهُ^(٢١). وَقَدْ

= وَحِصْنِي. إِلَهِي فَأَتَكِلُ عَلَيْهِ». (٣) لِأَنَّهُ يُنَجِّيكَ مِنْ فِخِّ الصَّيَادِ وَمِنْ الْوَيْبِ الْخَطِيرِ. (٤) بِخَوَافِيهِ يُظَلِّلُكَ، وَتَحْتَ أَجْنِحَتِهِ تَحْتَمِي. تُرْسٌ وَمِجْرٌ حَقُّهُ. (٥) لَا تَخْشَى مِنْ خَوْفِ اللَّيْلِ، وَلَا مِنْ سَهْمٍ يَطِيرُ فِي النَّهَارِ، (٦) وَلَا مِنْ وَبَا يَسْلُكُ فِي الدُّجَى، وَلَا مِنْ هَلَاكِ يُفْسِدُ فِي الظُّهَيْرَةِ. (٧) يَسْقُطُ عَن جَانِبِكَ أَلْفٌ، وَرَبَوَاتٌ عَن يَمِينِكَ. إِلَيْكَ لَا يَقْرُبُ. (٨) إِنَّمَا بِعَيْنِكَ تَنْظُرُ وَتَرَى مُجَازَاةَ الْأَسْرَارِ. (٩) لِأَنَّكَ قُلْتَ: «أَنْتَ يَا رَبُّ مَلْجَأِي». جَعَلْتَ الْعَلِيِّ مَسْكَنَكَ، (١٠) لَا يُلَاقِيكَ شَرٌّ، وَلَا تَدْنُو ضَرْبَةٌ مِنْ حَيْمَتِكَ. (١١) لِأَنَّهُ يُوصِي مَلَائِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ فِي كُلِّ طُرُقِكَ. (١٢) عَلَى الْأَيْدِي يَحْمِلُونَكَ لِئَلَّا تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رَجَلَكَ. (١٣) عَلَى الْأَسَدِ وَالصِّلِّ تَطَأُ. الشَّيْبَلُ وَاللُّثْعَبَانُ تَدُوسُ. (١٤) «لِأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِي أَنْجِيهِ. أَرْفَعُهُ لِأَنَّهُ عَرَفَ اسْمِي. (١٥) يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَعَهُ أَنَا فِي الضِّيْقِ، أُنْقِذُهُ وَأَمْجِدُهُ. (١٦) مِنْ طُولِ الْأَيَّامِ أُشْبِعُهُ، وَأُرِيهِ خَلَاصِي.» (المترجم)

(21) Krinko, "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941–1945)," 56; 59.

حمل المدفعي ميخائيل شوراكوف (Mikhail Shurakov) صليبا، والمزمور التسعين مباركا من أمه مربوطا بملابسه الداخلية (حوار مع ميخائيل نيقولايفيتش شوراكوف:

<https://iremember.ru/memoirs/artilleristi/shurakov-mikhail-nikolaevich/> [accessed April 10, 2020])

ويذكر مثله جندي الإشارة أناتولي كريلوف (Anatoly Krylov) أن أخته أعطته ورقة تحمل مزمور «العوون الحى»، وحصل بعد ذلك على نسخة أخرى جديدة من امرأة أوكرانية في الحرب. وينسب لتلاوة هذا المزمور الفضل في حفظ حياته عندما كان مختبئا في خندق على جانب الطريق تحت القصف (حوار مع أناتولي بافلوفيتش كريلوف:

<https://iremember.ru/memoirs/svyazisti/krylov-anatoliy-pavlovich/> accessed April 11, 2020).

واصطحب المدفعي إيفان غارشتيا (Ivan Garshtia) كتابا صغيرا من جدته عنوانه حلم أم الرب، وأسبغ عليه صفة التميمة (حوار مع إيفان غارشتيا:

<https://iremember.ru/en/memoirs/infantrymen/ivan-garshtia/> [accessed April 10, 2020])

ونسبت أنطونيا كومرتسينا (Antonina Komaritsyna) فضل نجاتها في المعارك إلى صليبيها (الذي أعطتها إياه أمها) وصلاة اسمها «الرب قام من الأموات» (حوار مع أنطونيا ماكسيموفنا كومرتسينا (برانوفا)

=

ذكر أحد المحاربين القدامى والعملاء السابقين لمفوضية الشؤون الداخلية، في مقابلة أُجريت معه بعد سنواتٍ قلائل من الحرب: «كان كل جندي في الحرب يصطحب معه دعاء كتبه أمه وأرسلته إليه، معتقدًا أنه ربما يكون في هذا الصنيع شيء من الحق. وكان ذلك بعدما توقفت أوروبا غندا المناهضة للكنيسة»^(٢٢).

وتقول الأسطورة: إن ارتداء القطع الدينية مع زي الجيش الأحمر ربما منح ما هو أكثر من مجرد الخلاص الروحي؛ فقد احتفظ صادق جليلين (Sadyk Galiullin)، أحد الجنود الشباب الذين يعتزرون إلى منطقة تشليابينسك، بتميمة من الأذكار في مجموعة من الوثائق الشخصية، ووضعها في جيبٍ على صدره. وفي أثناء إطلاق النيران في مدينة كونيغسبرغ (Koenigsberg)، استقبلت اللُفافة «الطاهرة» رصاصة لتتخذ حياة جليلين. وما زالت عائلته تحتفظ بالتميمة التالفة تذكيرًا^(٢٣).

ويحكي الشهود في الجبهة الداخلية وعلى الخطوط الأمامية بعض المشاهد الدينية المثيرة لأناس لم ينخرطوا قطُّ في أمورٍ كهذه؛ فيقول أ. ك. أغاركوف (A.K. Agarkov): «لم يقف والداي قطُّ أمام الأيقونات، ولم يذهبوا للكنيسة، بل لنقل: إنهما لم يعمّداني ألبتة. لكن عندما كان صفير القنابل يدوي (*kogda svišteli bomby*) أيام الحرب، كانت أمي تقذف بنفسها [إلى الكنيسة] صارخة: «يا أمَّ الله، احملينا وارحمينا!» وكنا كلنا، وإن كنا لا نفهم هذه الأمور، نصرخ قائلين: «أيتها العذراء المباركة، أغيشنا واحملينا! يا رب ارحمنا!»^(٢٤).

= <https://iremember.ru/memoirs/drugie-voyska/komaritsina-baranova-antoninamaksimovna/> [accessed April 10, 2020].

وكان هناك أيضًا نمطٌ من التمايم «غير التقليدية» لا تنطوي على مضمون مسيحي؛ إذ كثيرًا ما استعمل الجنود القصيدة العاطفية الشهيرة «انتظرنِي» (Zhdī menia)، حيث نسب لها بعضهم صفات حماية سحرية. وكذلك كان يُسبغ على الصور والخطابات وهدايا الأقارب «قوى حامية».

Krinko, "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941–1945)," 58–59.

(22) HPSSS, sched. B, vol. 15, case 147 f. 14.

(23) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941–1945)," 151.

(24) Krinko, "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941–1945)," 56.

ويذكر قائد الدبابات إيون لازاروفيتش (Ion Lazarevich) أنه هو ورفاقه في أثناء شربهم للثودكا وقبل معركتهم الأخيرة في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٥، فوجئوا بمدفعي الدبابة يقول: «أنا مسلم، يجب ألا أشرب قبل موتي. وكان ضحكًا كبيرًا وسكيرًا مرحًا. لم يردّ عليه أحد، ولا حظنا أنه كان جادًا فيما يقول»^(٢٥). وكان كثير من الجنود يردّدون الدعاء في صمت، وأحيانًا في خجل^(٢٦)؛ فيقول جندي الاستطلاع فيودر بيلاييف (Fedor Beliaev): «إن ما تسمعه اليوم من أن الجميع كانوا ملحدين محض هراء. لكن الأمر أنه لمّا كان الدين موضحة قديمة، حاول الجميع كتم توسلاته لله في نفسه، بحيث لا يراه أحد. قطعًا لم يكن أحدٌ يصلي في العلن!»^(٢٧).

/ وكذلك أبدى بعض الجنود من ذوي الرتب الأعلى، ومنهم جنرالات مشاهير، [١١٢] مظاهر لافتة للتدين، وذلك وفق وصف المؤرخ ميخائيل فيتالييفتش شكاروفسكي (M.V. Shkarovskii)^(٢٨):

«وفي فيينا المحررة في عام ١٩٤٥، وبأمر من المارشال فيودور إيفانوفيتش تالبوخين (F.I. Tolbukhin) -الذي كان شقيقه كبير أساقفة

= يروي مقال كرينكو ذكرياتٍ أخرى مماثلة عن الشعور المسيحي «المفاجئ»، ومنها ذكريات امرأة نشأت في أسيرة شديدة الإلحاد، بدأت أيام الحرب ارتياد الكنيسة مع أطفالها، وهناك ارتجلوا الصلاة، لأنهم «لم يعرفوا كيف يصلّون».

(٢٥) حوار مع ديغن إيون لازاروفيتش:

<https://iremember.ru/en/memoirs/tankers/degenion-lazarevich/> (accessed April 8, 2020).

(٢٦) انظر مثلاً: حوار مع أرسنيه زونوف:

<https://iremember.ru/en/memoirs/tankers/arsenij-zonov/> (accessed April 8, 2020);

وحوار مع نعوم آرونوفيتش أرلوف:

<https://iremember.ru/memoirs/minometchiki/orlov-naum-aronovich/> (accessed April 8, 2020).

(٢٧) حوار مع فيودر إيفانوفيتش بيلاييف:

<https://iremember.ru/memoirs/razvedchiki/belyaev-fedor-ivanovich/> (accessed April 5, 2020).

(28) Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 123–124.

وقت حصار لينينغراد- رُمّم زجاج النوافذ الملوّن في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وصُنِع جرسٌ ليقدم هدية للكنيسة، منقوش عليه عبارة: «إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من الجيش الأحمر المظفر». أما المارشال ليونيد ألكسندروفيتش جو فوروف (L.A. Govorov)، أحد قادة جبهة لينينغراد، فقد عبّر مرارًا عن مشاعره الدينية في العلن. وبعد معركة ستالينغراد، بدأ المارشال فاسيلي إيفانوفيتش تشويخوف (V.I. Chuikov) في حضور [قدّاسات] الكنيسة الأرثوذكسية. وقد شاع بين المؤمنين على نطاق واسع أن المارشال چوكوف (Zhukov) كان يحتفظ في سيارته طوال الحرب بصورة لسيدة قازان»^(١).

ويذكر جندي الاستطلاع غريغوري كراسناتوس (Grigorii Krasnonos) مشهد اللحظات الهادئة قبيل اندلاع المعركة، حينما يقف الجنود على اختلاف أديانهم يصلّون قرب بعضهم في جماعات، فيقول: «لم أكن مؤمنًا بالله، لكنني لم أكن أتناول عليه، وكنت أتعاطف مع المؤمنين. وكنا قبل أن نخرج إلى القتال نحصل على وقتٍ نتفقّد فيه أسلحتنا، ونتعافى ونجمع شتات أنفسنا. وقد استغل البعض هذا الوقت في الصلاة، فكانوا يجثون على رُكبهم ويصلّون على أنفسهم، وكان المسلمون كذلك يجتمعون ويتلون أدعيتهم جماعةً»^(٢٩).

إن مذكرات الجنود وذكريات ذوي الخبرة أنفسهم مقياس مهمّ في تقدير أحداث الماضي البعيد، لكنها قاصرة، حتى لو امتازت كثير من الروايات بالاتساق. فالمرء يتمنى بالطبع وجود مصادر معاصرة [للحرب -م] كخطابات الجنود على الجبهة ذات المحتوى الديني، أو الكتابات الدينية الموضوعية زمن الحرب. ومن حسن

(أ) سيدة قازان هي أيقونة مقدسة من أيقونات الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، تصوّر مريم العذراء حاميةً لمدينة قازان وروسيا كلها، ويقدّسها المؤمنون الأرثوذكس جميعهم. (المترجم)

(٢٩) حوار مع غريغوري سيرغييفيتش كراسناتوس:

<https://iremember.ru/memoirs/razvedchiki/krasnonos-grigoriy-sergeevich/>

(شوهد في ١٠ إبريل / نيسان ٢٠٢٠).

الحظ أن لدينا كمًا وافراً من هذه المصادر يساعدنا في تأكيد تصور المحاربين القدامى عن الحرب بوصفها تجربة ذات صدى ديني لدى العديد من الجنود السوفيت؛ فمن الموضوعات شديدة الشيوع في خطابات الجنود، سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين، طلب الدعاء لهم؛ فمن ذلك مثلاً أننا نجد جندياً مصاباً في ستالينغراد يناشد أمه من سرير المستشفى في سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٢، قائلاً: «رجاءً اذهبي عني إلى الكنيسة وصلِّ، وأشعلي بعض الشموع أمام الأيقونة، واسألي الله التعجيل بنهاية الحرب، وادعي للشعب الروسي الصبور، واسأليه عالمًا جديدًا»^(٣٠).

إن وجود اللغة الدينية الصريحة في الخطابات الواردة لجبهة الحرب والصادرة منها أمرٌ لافت للنظر؛ لأن المواطنين السوفيت كلهم يعلمون أن هذه الخطابات قد تمرُّ على عين الرقيب. وبالفعل، احتفظت مفوضية الشعب للشئون الداخلية بخيئة كبيرة من خطابات الحرب «المنقحة». فنجد في سجلات المحفوظات السوفيتية السابقة -على سبيل المثال- كمًا هائلاً من الملخصات الوافية لخطابات شكوى أو استغاثة (zhaloba) تبادلها / الجنود وعائلاتهم، ومعها «ملفات قضايا» تُبين كيف [١١٣] استهدف عملاء المفوضية بعض كتّاب الخطابات لإجراء تحقيقات إضافية. وقد بُذلت أحياناً بعض الجهود لتقديم معونات إضافية للعائلات المحرومة. لكن يبدو أن هذه العائلات المحظوظة كانت قليلةً نسبيًا، ولقد كانوا كمن يسرون على صراط فوق قعر جهنم، فأصحاب الشكاوى تعيسوا الحظَّ قد يجدون أنفسهم قيد التحقيق؛ لإفصاحهم عن شعور «مناهض للسوفيت». وقد قرأت مئاتٍ من هذه «الشكاوى»

(30) Krinko, "Vera i sueveria na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941- 1945)," 56.

كثيرًا ما تتطرق مقابلات المحاربين المسيحيين القدامى إلى موضوع الخلاص في ساحة المعركة بفضل صلوات الآخرين. فنجد طالبًا روسيًا يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، يقول في حوار له أعقب الحرب بمدة قصيرة: «كان لددى ابن عم على جبهة الحرب، وطلب من جدي أن يدعو له، وقد فعل. ثم أخبرنا ابن عمي أن المقاتلين حولته من رفاقه قُتلوا كلهم؛ إذ لم يكونوا مؤمنين بالرب، لكنه نجا ولم يُصب بجرح. إن الصلاة نافعة بحق». (HPSSS sched. A, vol. 20, case 393 f. 25)

في سجلات محفوظات الحزب الشيوعي في تبليسي (Tbilisi) في صيف عام ٢٠١٩، متوقعًا أن أعثر على حشد من الأدلة على وجود مشاعر دينية «تخريبية» وقف عليها رجال رقابة مفوضية الشؤون الداخلية تسويغًا للاضطهاد.

لكني لم أجد شيئًا من ذلك؛ فالواضح أن رجال الرقابة كانوا مشغولين بالخطابات التي تشكو الجوع ونقص الكساء أو وقود التدفئة، والزعم بإساءة توجيه المعونات. وكذلك «وضعوا إشارات مخصصة» على خطابات صدرت عن جنودٍ أعربوا عن سخطهم على قادتهم من الضباط، وكانت الخطابات المؤشر عليها خاليةً جميعها من المحتوى الديني. ولقد خلصتُ إلى أن سبب ذلك إنما يرجع إلى وعي الجنود وعائلاتهم بحقيقة أن استعمال أدنى لهجة دينية في خطاباتهم قد يكون أمرًا له عواقبه.

لكني كنتُ مخطئًا، وكان يجب عليَّ أن آخذ على محمل الجدّ مزاعم المحاربين القدامى، مثل صالحوف، وهي المزاعم القائلة بأن التعبيرات الدينية لم تكن عرضة للاضطهاد في أثناء الحرب إلا فيما ندر. وقد بدا أن المكان الصحيح للبحث عن المحتوى الديني لخطابات الجنود لم يكن في ملفات مفوضية الشؤون الداخلية، بل في منازل عائلات المحاربين. فالدين لم يكن من ضمن الموضوعات التي أُشّر عليها عملاء المفوضية للتحقيق أو الرقابة في زمن الحرب^(٣١). وحسبنا أن نورد

(٣١) إذ يلاحظ كرينكو أنه من بين ثلاثمائة وأحد عشر ألفًا وتسعمائة واثنين وأربعين (٩٤٢، ٣١١) رسالة «مُسيئة» وضع عليها مراقبو مفوضية الشؤون الداخلية في «جبهة ستالينغراد» إشارات مخصصة في غضون أسبوعين (!) من يوليو/ تموز من عام ١٩٤٢، لم يكن منها ذا محتوى ديني إلا تسع عشرة (١٩) رسالة فقط.

Krinko, "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviiakh voennogo vremeni (1941–1945)," 56.

ووفق شكاروفسكي، طلب الجنود المسيحيون في رسائلهم آنذاك أن تُرسل إليهم في الجبهة نصوص عظات قساوسة بلادهم.

Shkarovskii, *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve*, 124–125

وعبر أحد الضباط عن سخطه؛ لأن جنوده اعتادوا بدء «خطاباتهم بـ يحيى يسوع المسيح». وقد استقبل أحد الجنود أيقونةً من أمه بالبريد، وطفق يصلي إليها قبل نومه» (Merridale, *Ivan's War*, 75).

مثالين لتقديم فكرة عامة عن الخطابات التي تسلمها من كانت موجهةً إليه، وقد غشيتها «البركة». وللخطاب الأول أهمية خاصة؛ نظرًا لمزجه الارتجالي غير الواعي بين الملاحظات السوفيتية والإسلامية.

افتتح جنديُّ البنادق التتري حسام منقذ الدينوفيتش منقذوف (Gussam Mingazetdinovich Mingazov) ذو الثمانية عشر عامًا، خطابه لأهله على عادة خطابات الجنود السوفيت، فكتبه بوطنية أسرة لكنها متكلّفة، من الراجح أنها نُسخت من خطابات الجبهة «المثالية» التي نشرتها الجرائد السوفيتية على نطاق واسع لأغراض البروباغندا؛ إذ يقول منقذوف: «إن هذا الخطاب المفعم بالاحترام والحب العميقين، كتبه ابنكما؛ جندي الجيش الأحمر الذي يحارب العدو الخسيس، ويدافع عن وطننا الأم». ثم يستطرد الجندي الشاب ليستدعي تحيةً نمطية استقاها من تقليدٍ آخر: «أبي وأمي العزيزين، اسألا الشيوخ الدعاء بعودتي من الحرب حيًا سالمًا، وسأوفيهم حقهم من الشكر عند عودتي بحمد الله»^(٣٢).

أما جار الله جليّلين (Iarulla Galiullin)، أحد المجندين التتر الشباب، فقد كان طلبه الدعاء مسوِّغًا؛ فمنذ تجنيده في عام ١٩٤٢، / أصيب ثلاث مرات، وفي كل [١١٤] مرة يعود إلى الجبهة بعد تعافيه. وقد كتب إلى بلدته في فبراير / شباط من عام ١٩٤٥ يطمئن عائلته قائلاً: «أما عني، فلا تقلقوا، أنا حي وبخير والحمد لله، ولا ينقصني شيء، وجراحي قد التأمّت إلى حدٍّ ما... عندما تتسلّمون خطابي هذا، اسألوا أحد الشيوخ إن أمكن أن يقرأ القرآن عني ويدعولي؛ لابنكم، فرحمة الله وسعت كل شيء»^(٣٣).

وبالإضافة إلى المذكرات والخطابات، تجلّت التجربة الدينية للحرب العالمية الثانية في طائفة وافرة من الأشعار التي نُظمت أيام الحرب. وقد نُشر في الأعوام الأخيرة قدرٌ كبير من هذا الشعر الديني الذي يرجع إلى عهد الحرب، واحتفظت به سجلات المحفوظات والمجموعات الخاصة، خاصةً في كازاخستان وترستان.

(32) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 159.

(33) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 160–161.

وقد جاء كثير من هذا الشعر على النمط الشعري التقليدي لآسيا الوسطى ومنطقة الفولغا-أورال والقوقاز، كالبيت، وهو تعبير جامع لكل «القصائد» الإنشادية والملحمية (مغناة أو ملقاة)، أو المناجاة (وهو تضرع صيغ شعراً أو ابتهاج ديني). ويلاحظ حكيموف (Khakimov) أن هذا النوع من الكتابة الشعرية ازدهر مثلاً بين أهل القرى في منطقة سڤردلوفسك (Sverdlovsk) في أثناء الحرب. ففي إحدى القرى، أَلَّف السكان أبياتاً في أثناء الحرب ذات لازمة متكررة نصّها: «الصبر منك إلهنا... الصبر منك إلهنا!»^(٣٤). لكن الجنود المسلمين كانوا أغزر مؤلفي هذا الأدب التقليدي. وقد احتُفظ بكثير من هذه القصائد في مخطوطات أو خطابات ترجع إلى عهد الحرب، وكثير غيرها ألقاها كتّابها على عائلاتهم بعد الحرب ثم دُوّنت. وقد جمع دارسو الأنثروبولوجيا والفلكلور عدداً كبيراً من هذه القصائد، وبدأت هذه الأعمال الأدبية الفريدة تخرج إلى النور في السنوات الأخيرة على هيئة مجموعات موجزة^(٣٥).

وهناك الآن دراسة مكثفة تتناول هذه الكتابات؛ حيث فرغ أكن چاي فرانك -في أثناء عكوفنا على كتابة هذه الدراسة- من كتابه عن الشعر الإسلامي الكازاخي إبان الحرب العالمية الثانية، وهو الكتاب الذي ترجم فيه عشرات القصائد إلى الإنكليزية؛

(34) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945),"

151.

(٣٥) انظر مثلاً:

K.M. Mingullin, M.Kh. Väliev, I.I. Iamaltdinov, and L. Kh. Mökhämmätcanova, eds., *Milli-mädäni mirasybyz: Samara ölkäse tatarlary* (Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, ädäbiyat häm sängat' instituty, 2015); K.M. Mingullin, I.G. Nuriev, and M.I. Äkhmätjanov, eds., *Milli-mädäni mirasybyz: Archa* (Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, ädäbiyat häm sängat' instituty, 2017); K.M. Mingullin, O.R. Khisamov, and L.Sh. Däulätshina, eds., *Milli-mädäni mirasybyz: Tomsk ölkäse tatarlary* (Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, ädäbiyat häm sängat' instituty, 2016); and K.M. Mingullin, I.I. Iamaltdinov, and L.Sh. Däulätshina, eds., *ölkäse tatarlary* (Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, ädäbiyat häm sängat' instituty, 2016).

فمثلاً، نجد هذه النصوص المؤثرة التي وضعها أحد شعراء مدينة تركستان، ويُدعى شامشي (Shāmsht) عن ألم رحيله إلى الحرب^(٣٦):

أسلمت أولادي لربي أولاً ثم الشباب والشيوخ ثانياً
فكلهم كانوا صغاراً أفرخاً ربيتهم، أسكتهم أعشاشياً!
نُصبح مثل الفجر يأتي عاجلاً إن يستجب ربي دعاء بواكياً

/ وكثيراً ما خاطب شعُرُ الحرب المستمعَ بضمير المتكلم، والشائع استعمال [١١٥] النمط السردى للمذكرات. والحقُّ أن كثيراً من هذه القصائد كانت بالفعل خطاباتٍ موجهةً إلى العائلة، في حين كان بعضها الآخر يحكي لجمهورٍ أوسع التجربة المباشرة لأصحابها. وتصف الأبيات التتيرية التالية، مستفتحةً بـ «البسملة» التراثية واستحضار عيد الأضحى الإسلامي، تجربةَ أحد الملالي الذي «استوطن» قرية تترية على الطريق إلى الجبهة، بعد أن كان معلماً جوّالاً^(٣٧):

بسم الله .. بسم الله!
فاسمع مني هذا الحكياً
جاءوا بجياد جرّارة
ورصاصاً دوى نسمعه
جاء العيد، عيد الأضحى
نصّاً يحكي ظفر الملاً
والرعب بداخلنا استعلّى
فالنار بأفئدة تضرى

* * *

(36) Allen J. Frank, *Faith and Trauma on the Eastern Front: Kazakh Soldiers in the Red Army, 1935– 1945* (Leiden: Brill, 2022).

إنني شديد الامتنان للدكتور فرانك على منحي فرصة الاطلاع على عمله قيد الإعداد، وإذنه لي باقتباس ترجمته لهذه القصيدة. لقد كان موضوع فراق الأطفال عند الانطلاق إلى الجبهة موضوعاً شائعاً في شعر الحرب الإسلامي السوفييتي. وكثيراً ما تخرج مشاعر الفراق الحزين بلفظٍ شديد التأثير، كما في تلك الرباعيات المسجلة بداغستان في عام ١٩٤٨ و عام ١٩٧٤ على التوالي: «لحظة تركك / باب القرية / تدعو أمك / حرسك الله!»؛ «بني حبيبي؛ للحرب تُولي / وإنني أريد السلم يعم / ليلَ نهار أدعو أصلي / حفظُ الله عليك يضم» (Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dageštana o Velikoi Otechestvennoi voine*, 16; 56).

(37) Mingullin, Väliev, Imaltdinov, and Mökhämmätcanova, eds., *Milli-mädäni mirasybyz: Samara ölkäse tatarlary*, 248.

وصلنا دنيسًا^(٣٨) سُكَّنَّا بيوتًا^(٣٩) قذفنا بنار وشايًا تركنا
دخلنا دنيسًا ... مُنحنا بيوتًا وحتى نعود إلهي أعتًا

* * *

كنتُ الذكيَّ الأصغرا مُدْنًا رأيتُ والقري
كنت فقيرًا مدقعا علّمت طفلًا قد وعى
في دفتر حكومي يباع بالرسوم
لا تبك يا أسغيد مصيرنا يقود
/بيتي هو الصنوبر منه سريري الأشهر
يانائلة ياسالمة تقْتيلُنَا الرُّعْبَ سِمَةً!

[١١٦]

ويستدعي «نشيد الملاً الجوّال» هذا نمطًا رفيعًا من الشعر الشعبي الصوفي الذي يرجع إلى عهد ما قبل السوفييت. ومما يلفت الانتباه بدرجة أكبر في هذا المقام ما تتضمنه مواساة المتحدث لأحابه («لا تبك يا أسغيد»); إذ يبدو مقصوده أنه على الرغم من أن المتحدث كان مصيره الذهاب والرهبنة تملأ نفسه إلى الحرب، فإن المدرسة المحلية ستظل موضع دعم الحكومة السوفييتية!

ومن الموضوعات الشعريّة الأخرى التي جاءت بضمير المتكلم تجربة الأسر في معسكرات أسرى الحرب الألمانية؛ فكثيرًا ما استحضّر «شعر الأسر» في أيام الحرب، في تعبيراتٍ حزينة موجزة، مجمل تجربة الأسير منذ أن جُئِد إلى أن نزلت به بلوى الأسر. وقد كتب القصيدة التالية الجنديّ الداغستاني في الجيش الأحمر سلطان داودوف (Sultan Daudov) في عام ١٩٤٢، وقد ترجمناها عن القوموقية، وأوردنا طرفًا منها في مدخل الكتاب، وهي عينة باهرة من جنس «شعر الأسر» الأدبي^(٤٠):

في دَرغلي قد كنتُ كالسلطان حرًا كصقرٍ جَدَّ في الطيران
حتى وقعت كفرخ طيرٍ غرّه شَرَكٌ لفاسية إلى النيران

(٣٨) دنيس: قرية في منطقة بوغولما (Bugulma) في مقاطعة سَمارا.

(٣٩) أي أن الجنود من أمثال هذا الملاً سُكَّنوا في بيوت الأهالي أو مباني غير عسكرية.

(40) Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dagestana o Velikoi Otechestvennoi voine*, 36-37.

من ذا الذي يعيش فلم ير همّنا
وفؤاده لم ينفطر لجراحنا
وآسى بنا من شدة الأحزان؟
مما يصيب بلادنا بهوان

* * *

إذا ذكروا الماضي يذوب فؤادي
ففي التايغا، والليل شدّ ستاره
ودمعي دمّ من حُرقة الأكباد
أثار البغاة الشغب في كل ناد
وجسومي متعبٌ ولكنّ صُحْبَتِي
على غفلة مما يقضُّ رقادِي

* * *

ثلاثة أشهر في الصيف
وتسعة أشهر بِشِتا
شمسٌ تحرق الجسدا
تُجمّد طرفي البَرَدَا
أبعثر في العدا طلقًا
وتقتلني الظنونُ سُدَى

* * *

اشتدّ ريحٌ واستقرّ ضباب
/ فنلندا أيتها الغربية إنني
والبرد يُردِي والحياة صعب
ماذا أفيد وقد أهيض جناحنا
أبكي بـ «يا وطني» فأين جَوَابُ؟
ودمي يبوسُ والنوى غلاب
شاكِي السلاحِ وليسَ نَمَّ حِرَابُ
أمي هنالك والبعاد عقابُ
والبحر يمنعي الوصول لموطني

[١١٧]

* * *

خبئيني يا ديار الغرباء
ليس ضوء القمر التّمّ بضوئي
عدمٌ كوني، حياتي في الفناء
ليس ورد الزهر لي من ذا الفضاء

* * *

آهة مكتومة آه .. حياتي
إخوتي سوف يعانون غيابي
تبلى الأرضُ السوادُ الأُمْنِيَاتِ
والبكا حقٌّ لأمي للمماتِ
زوجتي تنكح زوجًا آخرًا
يأخذ الرفاق حقَّ التعزيات^(٤١)
«إلمو» أختي، تواصل الحزن عليّ

* * *

(٤١) هي في هذا السياق صلاة جنازة إسلامية تقليدية على الميت.

فليحيا حزب الشيوعية
ليصنع بهذا القهر
سأودعكم يا أحبابي
لا يذكرني أحد فالريح
فليحيا حزب الشيوعية
طريقًا للحرية!
عيشوا بحياة مرضية
وهذا الطير سيأتي بكل وصية

وحيثما كان الجنود على الجبهة وفي الأسر يضعون قصائد يُعربون فيها عن
حينهم إلى عائلاتهم، كانت العائلات تضع أبياتًا يُعربون فيها عن آسأهم وبؤسهم،
كما في القصيدة الآفارية التالية (المترجمة هنا عن الروسية) التي كتبتها أم لابنها
المحبيب^(٤٢):

جميلُ المسَمَّى مجيدُ العملِ
يعيش ليطرد كل عدو
بعيدٌ ولكن أهلاً له
وهتلر يراه عصيَّ المنال
فما حملت مثله بطن أنثى
ولم يعرف الخوف والجبن يوماً
فلا سلمَ فيمن يراك قتيلاً
على هتلر لعنات الإله
شجاع هصور عظيم الأمل
يُقتل فاشيةً لا وجل
بظهر الذي للعلا قد وصل
/ بقلب له لا يخاف الأجل
ولا ولدٌ مثله يستهل
لسان نقي وكيف أجل
ومن يقتل النفس ظلماً قتل
وفي النار يصلى عذاب الأزل

[١١٨]

وفي حين أن القصائد التي وضعها الجنود تشمل جملة متعددة من الموضوعات،
من التجنيد إلى الرحيل نحو المعركة والأسر وعلاج الجرحى، فإن قصائد الحرب
الإسلامية على الجبهة الداخلية تستدعي كلها تقريباً حسرة الفراق والفقْد؛ ففي
القصيدة الآفارية التالية التي كتبتها خ. س. نيروزبيكوفا (Kh.S. Navruzbekova)
وسجلتها دارسة الفلكلور ف. م إبراهيموفا (F.M. Ibragimova) في قرية روتول
(Rutul) في عام ١٩٧٤، نجد امرأة لا يساورها القلق على مصير حبيبها فحسب، بل
على قوت يومها أيضاً بعد أن ذهب ماغوميدها إلى الحرب^(٤٣):

(42) Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dageštana o Velikoi Otechestvennoi voine*, 57–58.

(43) Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dageštana o Velikoi Otechestvennoi voine*, 57.

«ماغوميدي» ذو العيون الثاقبات
نور عيوني ماغوميدي هل تصلي
عظّموا شأنك قبلاً، هل يواسون
احترس من غدر ضدّ وانتبه
كن كوشق حاذق حُرّ سريع
تقرأ القرآن لي بعد الممات؟
عند نَعِشِي بعظيم الصلوات؟
ضعيفاً ذاق من مُرّ الحياة؟
بالعيون الداهيات الماكرات
يبغت الخصم ويخفي في الفلاة

وخلافاً لهذه الأبيات الممعنة في الذاتية، اتّسمت بعض الأشعار الإسلامية في
الجهة الداخلية بسمة غير ذاتية وعمومية وشكلية، كالرباعيتين التاليتين اللتين
جمعتهما بعض دارسي الفلكلور في سنوات ما بعد الحرب^(٤٤). فالرباعية الأولى
آقارية والثانية روتولية، ولكنهما مترجمتان هنا عن الروسية:

هوّن إلهي غمّنا وأعد إلينا جِبْنَا
واشف الجراح كوامنا أبناءنا فاردُدْ لنا

* * *

[١١٩] / لا تُنزلن ربي الثلوج على الجبلِ
واجعل عبيدك يذكرون بلادهم
وإذا نزلن فلا تدوبن إلى الأزل
لا تُنسيهنّ أرضهم حتى الأجل

وعلى الجانب الآخر من هذا الجنس الشعري لهذه الأبيات البليغة، نجد القصيدة
الآقارية التالية التي نقلها دارس الفلكلور ف. ز. أباكاروفا (F.Z. Abakarova) في عام
١٩٨٠ عن م. علييفا (M. Alieva) التي بلغت حينذاك سبعين عاماً في قرية تيديب
(Tidib) الجبلية. ويتبادر إلى الذهن عند قراءة هذه القصيدة، بنمطها الجبلي وصورها
الخصبة والغريبة عن الياقوت والمشمش، [نمط] القصيدة الغنائية الشعبية
الداغستانية^(٤٥):

(44) Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dageštana o Velikoi Otechestvennoi voine*, 19; 80.

الرباعية الأولى من تأليف بتول حاجيفا (Batul Gadzhieva) من قرية تيسي-آخيتلي (Tissi-
Akhitli) وروتها عنها آسيات سورايفا (Asiat Suraeva). أما الرباعية الثانية فهي محفوظة من
ضمن الرباعيات التي تحفظها وترويها النسوة القرويات خ. نيروزبيكوفا (Kh. Navruzbeikova)،
وز. ر. ماغوميدرحيموفا (Z.R. Magomedragimova)، وز. بابييفا (Z. Babaeva)، ودوتنها ف. م.
إبراهيموفا (F.M. Ibragimova) من قرية روتول.

(45) Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dageštana o Velikoi Otechestvennoi voine*, 84.

كيف استحال حديقة من مشمش
والحزن من ولد ييكي أجبلاً
أفما رأيت «عزيز» إذ ودّعتنا
هل صار مقبضي اللجيني ضائعاً؟
أفلم يكن بيتي الذي فارقته
هل صار حلماً أن أجول بهوه؟
صدري، وكيف تفجر الأنهار؟
فتكاد من حرّ البكا تنهار
أن البكاء بعينها مدرار؟!
هل غيبتك فلم تعد أسفار؟
ياقوتة؟ فكأنه أحجار!!
وتعيدنا من بيننا الأقدار

وأخيراً، فإننا نجد - خلافاً لهذه الأبيات المزهرة - شعراً في الجبهة الداخلية يتسم
بعجلة سريعة تفجع القلب، كما في الرثاء الروتولي التالي الذي يستدعي موت أحد
الإخوة على الجبهة^(٤٦):

آه على فقد الحبيب وموته
آه، أخي كان الفراق مصيرنا
ويموت قلب شاعر في صدره
وأخي الوحيد تخطّفته يد الردى
كيف المطار وليس ثم جناح
هل يرضين ربي تفور جراح؟
يا ربنا، وتحرّق الأرواح
والموت في أوصاله يجتاح

تعدّ هذه الأمثلة، المستقاة كلها في الغالب من داغستان، مجرد إشارة إلى التنوع
[١٢٠] الغنائي والشكلي في الشعر الإسلامي السوفييتي أيام الحرب. / ولما خرجت إلى
النور كثير من مدونات هذا الشعر من المحفوظات، حدد آلن چاي فرانك أجناساً
أدبية فرعية وموضوعات لها أهمية خاصة^(٤٧). فمن ذلك مثلاً أن هناك العديد من
القصائد التي كتبها مؤلفون شتى ينتسبون إلى الجيش الأحمر ولا رابط يجمع بينهم،
هي من نوع المناجاة حول موضوعة أذرعهم الممزّعة التي يسألون الله أن يجمعهم
بها يوم القيامة.

وبقطع النظر عن توليفته الغريبة من الموضوعات السوفييتية والإسلامية، فإن

(46) Adzhiev, ed., *Fol'klor narodov Dagestana o Velikoi Otechestvennoi voine*, 143.

دوّنت ف. م. إبراهيموفا هذه القصيدة المسماة «صرخة أخ» (والمترجمة هنا عن الروسية) في قرية
روتول في عام ١٩٧٠، نقلاً عن ز. ك. بابييفا.

(47) Frank, *Kazakh Muslims in the Red Army, 1939-1945*.

الطابع التقليدي للشعر الإسلامي السوفييتي لافتٌ للنظر؛ فأشعار من الأنواع نفسها نجدتها مؤلفة في غضون الحرب العالمية الأولى والحرب الروسية اليابانية وصراعات القرون السابقة، ويوضح فرانك ذلك في كتابه. وصفوة القول أن قصائد الحرب العالمية الثانية تمثل الممر المتصل الذي عبرت منه أجناس الأدب الإسلامي التقليدي إلى العهد الستاليني، بكل ما تنطوي عليه من لغة دينية ورمزية موفورة متماسكة وصريحة. فكما كان في خطاب الجبهة الذي كتبه منقذوف، الفتى ذو الثمانية عشر عامًا، والذي نقلناه آنفًا، يتبدى في هذه القصائد تداخل لطيف بين التعبيرات الدينية التقليدية وتجربة اللحظة الآنية في خدمة الجيش الأحمر. فمن ذلك مثلًا تلك الأبيات (المترجمة هنا عن التترية) التي وضعها نظام الدين مينابوف (Nizametdin Minapov) الذي يعتزى إلى مقاطعة شينتالينسكي (Shentalinsky) بترستان، وقد أتمَّ وضعها في إبريل/ نيسان من عام ١٩٤٤ عندما كان معتقلًا في إليف (Lviv) التي كانت تسمى آنذاك لِفوف (L'vov)^(٤٨):

<p>أحكي بإيجاز لكل من تلا والأربعين اجتحت حربًا للُعلا في الضنك أسعى نحوه مُسلسلا لا عودَ بعد قراره أن يعمل فريستات سرنا أربعًا أن تكُملا أخوض حربًا قاتلاً مُقتلا يسبقنا الحزن بأنواع البلا</p>	<p>بدأت ما كتبه مبسلاً^(١) ثاني نوفمبر بعد عام واحد وزوجةً بسبعة تركتها وقلبي المحزون يدري أنه / وبدأت في بلشانكه ثم إلى نحفر للمجنزرات محفرًا في سادسِ يونيو بدأنا حربنا</p>
--	---

* * *

(48) Mingullin, Väliev, Iamaltdinov, and Mökhämmätcanova, eds., *Milli-mädäni mirasybyz: Samara ölkäse tatarlary*, 251.

إنني ممتن لآلن فرانك على مساعدته الكبيرة الكريمة في تصحيح ترجمتي للنص التتري وتحسينها.

(١) حذفنا هنا في هذا الموضع، بالاتفاق مع المؤلف، حاشية وضعها للتعريف بالبسملة. (المترجم)

يخفقنا غاز يسّمّ الهوا والقصف فوق الرأس يأتي مثقلًا
ترثي له الأرض إذا ما قُصفت كالحقل أمسى طينه مجندلاً

«طَهَّر» الشاعر هذه القصيدة مفتتحًا إيّاها بالبسملة، وهي صيغة شائعة الاستعمال في جنس الأبيات الأدبي، الذي استلهمه نوعٌ آخر مشتقٌّ عنه لكنه إلحادي (وهذا أمر مثير للمفارقة، أليس كذلك؟) في أبيات زمن الحرب التي وضعها البشكير الذين اختاروا الكتابة بالروسية، كما في الأبيات المعنونة بـ «تركنا القرية صوب برلين»^(٤٩):

بدأنا الشعر ما قلنا ببسملة

(*Nachinaem svoi bayt my Bezo vsiakoi 'bismilly'*)

نجد كذلك نظيرًا لاستمرار جنسي الأبيات والمناجاة في منطقة القوقاز-أورال وآسيا الوسطى في استمرار جنس النظم في القوقاز؛ حيث هجر ستالين قسرًا مئات الآلاف من المسلمين في أثناء الحرب وبعدها. وثمة شطر من الأدب القوقازي عن التهجير والنفي أوفر تأثيرًا يندرج تحت هذا الجنس الأدبي، كالمنظومة التالية التي روتها ليوبا أوشيفا مختاروفنا (Liuba Ausheva Mukhtarovna) التي تنتسب إلى قرية الأيورت (Ala- Yurt) بإنغوشتيا^(٥٠):

الإنغوش يبكيه القوقاز، وُضئوا دمًا وحزن الأمهات يَرَقِبُ
/ والموت لا يُبقي بسبيريا أبا كلحاء والأطفال فيها تُندَبُ
إن العذارى هالكات قلبها رب أعنّا! فالنفوس تُسَلَبُ

[١٢٢]

(49) *Bashkort khalyk ijady, 11 tom: bāyettär / Bashkirskoe narodnoe tvorcheshtvo, tom 11: bayty*, ed. B.S. Baimov (Ufa: Kitap, 2004), 234.

(50) M.C.-G. Albogachieva, *Islam v Ingushetii: etnografiia i istoriko-kul'turnye aspekty* (St. Petersburg: MAZ RAN, 2017), 34–35.

وفقًا لألبوغاتشيفا، اضطلع الأئمة المسلمون بدور حيوي في دعم الجماعات المسلمة المهجرة وحفظ حياتهم، لكن بعض النخب المسلمة في القوقاز كان لها دورٌ مؤسف في هذا التهجير؛ إذ تكشف الوثائق أن بعض «رجال الدين» تعاون تعاونًا نشطًا مع مفوضية الشعب للشئون الداخلية في طرد الشيشان والإنغوش. لكن ألبوغاتشيفا تميل إلى قراءة متعاطفة لهذه الحوادث، وتشير إلى أن الأئمة المسلمين تمكنوا في بعض الحالات من التفاوض على النزاع السلمي لسلاح المقاومين، بدل أن يُقتلوا (٥٢-٥٤). لكن أسباب هذه الرؤية حسنة الظن أقرب لباب اليأس.

وهناك قصيدة أخرى عن التهجير، حفظها القرويون ثم دوّنها دارسو الفلكلور،
تحدد «العدو» على نحو أكثر صراحة، فتذكر أنه ستالين وعملاؤه⁽⁵¹⁾:

أحزاننا لقصّة عظيمة	قصّة حزن أمة مكلومة
قصّة موتى أرضهم غريبة	أوطانهم أحلامهم سلبية
نفاهم الظالم في سيبيريا	عدوهم عدونا مخشياً
ابك عليهم دائماً يا وطنُ	ادعُ لهم فكّم كواهم حزنُ
فجؤعوا وجُمّدوا حتى المَرَضُ	ولم يعالجوا بأصلٍ أو عَرَضُ
ابك عليهم دائماً يا وطنُ	ادعُ لهم فكّم كواهم حزنُ

هل يجوز لنا أن نخلص من ذلك إلى أن هذه الأجناس الشعرية بما اشتملت عليه من مضمون إسلامي تقليدي صريح، قد نجت من العهود السابقة عليها، أم أنها «بُعِثت» في زمن الحرب؟ هناك منطقة وسطى يمكن الجمع من خلالها بين الاستنتاجين كليهما. فمن ناحية، يمثل كثير من هذه القصائد تراثاً شفهيّاً يستحيل إخضاعه للرقابة، حتى في عهد الإرهاب الكبير. فكثير من القصائد التي اتخذت من الحرب العالمية الثانية موضوعاً لها ودوّنها دارسو الفلكلور بعد ذلك، كانت في الأساس محفوظة لا مكتوبة، وبعضها رواه للدارسين أبناء المحاربين أنفسهم ممن حفظوها. ويمكن للأدب الشفهي أن يتخفى أسهل مما تتخفى منشورات الساميزدات (samizdat)⁽¹⁾. ويمكننا التأكيد على أن الأجناس الشعرية الإسلامية التقليدية قد

(51) Albogachieva., *Islam v Ingushetii: etnografiia i istoriko-kul'turnye aspekty*, 36.

وثقت ألبوغاتشيفا عن موضوع الذاكرة الفلكلورية قصة تروي أن شيخاً إنغوشياً (٧٦) تبنياً بحملات التهجير في رؤية باطنية. ويشير ككاغاسانوف (Kakagasanov) إلى أن الأئمة المسلمين ألقوا على من لم يُرحّل من السكان كثيراً من الخطابات «الوطنية» ودعوات القتال أيام الحرب، وقد أقر المسئولون الملحدون البلديون بدور دار إفتاء المنطقة في تشجيع هذه التطورات، وعدوها من ضمن «التغيرات الجيدة الكثيرة» التي لاحظوها في المناخ الديني للمنطقة.

G.I. Kakagasanov, "Vzaimootnosheniia vlasti i religii v Dagestane v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941–1945 gg.)," *Vestnik instituta IAE* 2 [2011], 42–43

(1) ساميزدات (самиздат) كلمة روسية تعني النشر الشخصي، وأصبحت علماً على نمط الكتابة والنشر السري الذي ساد الجمهوريات السوفييتية في عهد الاتحاد السوفييتي فيما بعد =

نَجَتْ من عهود القمع المناهض للدين بفعل الحفظ الشفهي إلى حدٍّ ما. لكن من ناحية أخرى، عند مقارنة كثير من الأشعار الدينية التي اتخذت من الحرب العالمية الثانية موضوعًا لها، وخرجت إلى النور مؤخرًا من سجلات المحفوظات والمذكرات، بما كُتب له البقاء من الأشعار الدينية المتعلقة [بالموضوعات السائدة خلال] العقدين الفاصلين بين الحربين (مثل العمل الجماعي)، نجد أنه كانت هناك ندرةٌ نسبية في هذا النوع الأخير من الأشعار. ولئن كان هذا الخلل يعكس في الإنتاج الأدبي ما لا يمكن أن يُعدَّ مجرد تغييرٍ مفاجئٍ في الحفظ، / فمن الصحيح أن نقرر أن الحرب أورثت المشاركين فيها وضحاياها قدرة على الإبداع المتدفق، أو بعبارة أخرى، أورثتهم انبعاثًا مستقلًا عن تغييرات السياسة السوفيتية. وفي المجمل، نجد أن ثمة موضوعين كبيرين هيمننا على تراث الشعر الإسلامي الأوراسي، هما شعر الحرب وشعر العشق (ويندرج تحته العشق «الإلهي»). ولهذا، فلا عجب أن نجد لدينا تراثًا شعريًا إسلاميًا غنيًا إلى حدٍّ كبير يراجع إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الروسية اليابانية.

على أن هناك أيضًا بعض التفسيرات المعقولة الجديرة بالذكر؛ إذ ربما حفَّز التشجيع «الرسمي» السوفيتي للشعر الوطني، في زمن الحرب، المسلمين السوفييت على الجهر بأعمالهم (حتى الديني منها) بقدر من الجرأة أكبر مما كان عليه الأمر في العقود السابقة. أو ربما أدى القمع المناهض للدين، وعصر اعتقال الأئمة، وكثرة الواشين، إلى إسكات الشعراء المسلمين السوفييت، الذين بدأوا بعد ذلك في العودة مرةً أخرى بعد خروج الأئمة وزوال العواقب القاسية.

وتشير هذه الاحتمالات كلها إلى سؤالٍ أساسي حول الدين في فترة الحرب: هل من الأجدى عدُّ عهد الحرب نقطة تحولٍ للتعبير الديني، أم أن عهد الحرب كان

= ستالين. وقد استغل المنشقون والجماعات الدينية والأيدولوجية المختلفة نمط النشر الشخصي هذا لنشر الكتابات السرية والمحجوبة، وكانت الكتب والمجلات تُنسخ باليد وتُداول بين القراء بصورة شخصية. وأول كتاب صدر بهذه الطريقة كان كتاب بوريس باسترناك دكتور چيفاغو في عام ١٩٥٧. ولقد شاعت هذه الطريقة عالميًا؛ إذ استعمل اليساريون والشيوعيون في جميع أنحاء العالم طريقة النسخ والنشر الشخصي هذه لترويج أفكارهم بعيدًا عن أعين السلطات. (المترجم)

مجرد عامل يسّر وجوده عودة الحياة الدينية إلى الظهور؛ إذ لم تتغير تغيراً عميقاً؟ يمكننا أن نجد مصادر تعضد الرؤيتين. فهناك مثلاً ما روته فاطيما عالميانوفا (Fatima Galim'ianova) من تاريخ شفهي لعائلة بشكيرية مسلمة من العهد السوفييتي، حيث أشارت إلى أنه «على الرغم من صعوبة الظروف، ظل المجتمع المسلم نشطاً، وأقيمت كل الصلوات والاحتفالات وانهقدت الزيجات واحتفالات تسمية المواليد، كل ذلك في البيوت. وفي الأعياد، يجتمع الناس مع بعضهم البعض يصلون ويقرؤون سوراً من القرآن»⁽⁵²⁾. ولئن كانت فترة الحرب، كما يشير هذا الاقتباس، قد أظهرت فحسب ما كان طي الكتمان، فيمكننا الخلوص إذن إلى أنه، بخلاف الصورة الشائعة، لم يكن لهذه الفترة أهمية كبرى في التاريخ الديني للاتحاد السوفييتي. وتُخزّل قصة الإسلام في هذه البلاد وفق هذه الرؤية إلى معادلة خطية عن الدين الذي لا يُقهر في جوهره، وعن بقائه وانتشاره حتى في الظروف المعادية.

لكن الغالبية العظمى من المصادر، سواء تلك التي كتبها مسلمون أو تلك التي كتبها بيروقراطيون سوفييت يتولّون الرقابة عليهم، تُبيّن بوضوح أن عهد الحرب كان لحظة مفصلية⁽⁵³⁾. ولم يكن السياق الأساسي لهذه المفصلية مجرد تأسيس منظمات

(52) Galim'ianova, "Cheremkhovskii Mulla," <http://islamrb.ru/cheremkhovskij-mulla/> (accessed January 1, 2020).

(53) يورد إرين تاسار تقييم أحد ممثلي مجلس الشؤون الدينية في قيرغيزستان، وأمثلة من زمن الحرب على طبقات أخرى من مجتمع آسيا الوسطى، فيقول: «لم يشك أختياموف (Akhtiamov) قط في أن تصاعد معدّلات تدين المسلمين قد نتج عن الحرب. «بل إن بعض المشاركين في الحرب تضرّع بوضوح في خضم المعركة أنه «سيحترم الرب» إن نجّاه. ولا أجد أي سبب آخر يفسر رؤيتنا العديد من قدامى المحاربين من بين المؤمنين المصلين». وقد تقدّم ميرزاكولوف (Mirzakulov) - ميكانيكي في محطة الماكينات والشاحنات وحصل على وسام لشجاعته في الحرب - للالتحاق بإحدى مدارس النظارة الدينية لآسيا الوسطى وكازاخستان بعد عودته لوطنه مباشرة. ونجد غولوموف (G'ulomov) أحد أعضاء الكومسومول والستاخانوفيين [الذين يتبعون نموذج عامل المناجم أليكسي ستاخانوف الذي ضرب المثل في التفاني في العمل لإنتاج ما هو أكثر من المطلوب منه، وتحولت بعده إلى حركة تشجع على هذا التفاني -م] يكتب لستالين تعهداً بجمع ثمانية آلاف وثمانمائة (٨.٨٠٠) كغم من القطن لكل هكتار، ثم يبدأ في ارتياد المسجد و«يصلّي لله طالباً معونته في إنجاز عهده».

دينية رسمية تعمل لصالح الحكومة السوفيتية فحسب، وإنما كان أيضًا في تصوّر العديد من المسلمين أن ما كان محظورًا فيما مضى، من الأنشطة والتعبيرات الدينية، لم يعد كذلك. ولم تقتصر الصور التي جسّدت هذا التغير في العقلية على تكاثر الرموز الدينية «المرخّصة» فحسب، بل جرى الإفصاح عنه علانية من على المنابر. [١٢٤] وخذ الملاً أفضل / حُسن الدينوف (Afzal Khusnutdinov) مثلاً على ذلك، وكان من الجمهورية الاشتراكية السوفيتية البشكيرية؛ إذ أعلن في ملأ من الناس يتألف من مائة شخص مجتمعين في مسجدٍ كان مغلقاً في السابق، أن «الدوائر الحكومية العليا أجازت حقَّ إقامة الصلاة (*est' razreshenie na pravo soversheniia molitvy*)، وحقَّ ردِّ المساجد المغلقة ليرتادها المؤمنون. وفي القريب العاجل، سيُدحر العدو وتنتهي الحرب بقيادة الرفيق ستالين، وسنصلي جميعاً لسنين قادمة»^(٥٤).

وقد شاع هذا الشعور بتغيّر الجو والعقلية في الريف والمدينة على حدّ سواء؛ فوفقاً لزاريبوف وسافاروف - اللذين يمثل كتأبهما الأخير عن الإمام السوفيتي المسلم أحمد چان مصطفىن (Akhmetzian Mustafin)^(١) مساهمةً جيدةً في دراسة الموضوع غير المطروق عن الحياة الإسلامية السوفيتية في المدن - خلا مسجد موسكو الرئيسي - أي: المسجد الجامع - من الرواد أو آخر الثلاثينيات؛ حيث أحجم المصلّون عن حضور صلاة الجماعة خشية الاعتقال. ولكن في أيام الحرب، ووفقاً لمصادر هذين المؤلفين من المسجد نفسه، جرى «تقنين الحياة الإسلامية» في المدينة ببطءٍ وحرص، وامتلاً المسجد مرةً أخرى بالرواد (ويلاحظ المؤلفان أن غالب رواد المسجد كانوا من الشيوخ، وربما يرجع ذلك إلى الاختلافات الديمغرافية

(54) R.Kh. Kinziabaeva, "Vklad religioznykh organizatsii BASSR v pobedu v Velikoi Otechestvennoi voine," *Iadkiar* 1 (2008), 85.

(أ) أحمد چان مصطفىن (Ахметзян Мустафин) إمام المسجد الجامع بموسكو لما يقرب من ثلاثين عاماً. ولد في عام ١٩٠٢ في منطقة نيچني نوفغورد، ودرس في مدرسة «محمدية»، وعمل منذ عام ١٩٤٠ إماماً غير رسمي في موسكو، ثم أصبح إماماً للمسجد الجامع في موسكو في ستينيات القرن. وكان لمصطفىن دورٌ كبيرٌ في حماية المسجد الجامع من مخططات الهدم التي حاول الاتحاد السوفيتي تنفيذها في الثمانينيات، وتوفي في عام ١٩٨٦. (المترجم)

في الإقبال على أداء الشعائر الدينية، وربما يرجع أيضًا إلى أن كثيرًا من الشباب كانوا على الجبهة^(٥٥). ويشير المؤلفان إلى نقطة حاسمة مفادها أنه على الرغم من أن التغيرات الجوهرية في سياسة الدولة الرسمية لم تقع إلا في عام ١٩٤٣، فإن الشعور بانفكاك قبضة «السيطرة الشاملة» قد بدأ يشيع مع شهور الحرب الأولى^(٥٦).

وفي الريف البعيد، نجد شهادةً محليةً عن فترة الحرب جاءت على النمط نفسه؛ إذ يروي فلاديمير بوبروفنيكوف (Vladimir Bobrovnikov) الذي قضى سنواتٍ من العمل الميداني في قرية خوشتادا (Khushtada) الداغستانية وفيما حولها، أنه، وفقًا لرواية الأهالي، لم يُغلق مسجد القرية رسميًا قطُّ، حتى «في ذروة حملات القمع الستالينية». لكن فترة الحرب شهدت بعض التغيرات الجوهرية. فأولًا، بُني مزار جديد على أطراف القرية، وهو عبارة عن ضريح خُصِّص لثلاثة من أولياء الطريقة النقشبندية. وكما في موسكو، انتشر الشعور بوقوع التغيير قبل تغير السياسة الرسمية؛ حيث تفيد مصادر بوبروفنيكوف أنه «بحلول منتصف الأربعينيات، كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها. وقبل الافتتاح الرسمي للمسجد، بدأ المؤمنون يصلُّون في ساحاته؛ فكان الناس يجتمعون لصلاة العشاء والتراويح في شهر رمضان، وكذلك استمرت الاحتفالات بعيدي الأضحى والفطر، وانهقدت حلقات الذكر النقشبندية للرجال والنساء، وأقيمت صلوات الاستسقاء الجماعية في مزارات أولياء الصوفية الثلاثة»^(٥٧).

(55) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin: iz istorii islama v SSSR*, 61.

تمثل دراسة زاريفوف وسافاروف نظيرًا جيدًا لدراسة كتريون كيللي (Socialist Churches) التي هي دراسة مهمة للكنائس المدنية في پتروغراد/ لينينغراد.

(56) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 62.

(57) Vladimir Bobrovnikov, "Withering Heights: The Re-Islamization of a Kolkhoz Village in Dagestan: a MicroHistory," in Stéphane A. Dudoignon and Christian Noack, eds., *Allah's Kolkhozes. Migration, DeStalinisation, Privatisation, and the New Muslim Congregations in the Soviet Realm (1950s–2000s)* (Berlin: Klaus Schwarz, 2014; Islamkundliche Untersuchungen. Bd. 314), 375.

أورازا بايرم هو عيد انتهاء الصيام، ويسمى بالعربية عيد الفطر. والتراويح نوع من الصلاة =

لكن هذه التجمعات الدينية المتزايدة لم تغيب عن أنظار السلطات؛ إذ راوحت [١٢٥] لهجة الوثائق الداخلية في فترة أواخر الحرب / بين القلق والارتباك. فكما يلاحظ ماينر: «واجه السوفييت - منذ عام ١٩٤٣، وعلى نحو متزايد في عام ١٩٤٤ - ما عدّوه تكاثراً مقلّماً لعدد المظاهر الدينية العفوية، وتتفق المصادر السوفيتية على الإقرار بوجود هذه الظاهرة في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي، في المناطق التي احتلّها الألمان وفي الجبهة الداخلية السوفيتية»^(٥٨). ويلخص تقرير شديد السرية كتبه بوليانسكي الوضع فيما يتعلّق بالطوائف الدينية كلها نحو عام ١٩٤٥^(٥٩):

«حول تنامي النشاط الديني بين المؤمنين. يُلاحظ تنامي النشاط الديني بين المؤمنين في كل مكان وعلى مستوى الطوائف كلها. زد على هذا ما لاحظناه من تراجع في درجة تنامي هذا النشاط في بعض الجمهوريات والأوبلاستات والكرائيات، في حين كان أسرع في غيرها. ففي بعض الأماكن، نجد نشاطاً لدى مؤمني الطوائف (من أمثال الإنجيليين والمعمدانيين والسبتيين والخمسينيين وغيرهم)، وفي أماكن أخرى، نجد المسلمين وأهل العقيدة القديمة واليهود والكاثوليك وغيرهم. ويعبر المؤمنون عن هذا النشاط فيما نرى في

= المخصوصة التي يؤديها المسلمون في شهر رمضان فقط. وأما الذكر فهو ممارسة صوفية متميزة تتضمن ترديد عبارات تعبدية، سرّاً على هيئة تفكرات متكررة تأملية، أو جهراً في هيئة «إنشاد». وقد يستمتع غير المسلمين أنفسهم بطقوس رمضان، فمثلاً، نجد امرأة اسمها زويا ليخالوبفا (Zoya Likholobova)، أُجلبت من الغرب إلى أوزبكستان، وتذكر عملها لاثنتي عشرة ساعة في محطة يتوقف إنتاجها كلياً بفعل العيد الإسلامي الذي سمّته «العيد/ البايرم الكبير» (bol'shoi bairam). ورُحّب بها من عائلة رئيسها في العمل وهم يستمتعون بـ «بلوف أوزبكي رائع [طبق من المطبخ الأوزبكي يتكون من حبات أرز كبيرة مع قطع رقيقة من البصل ولحم الضأن والجزر - م] وبطيخ طيب الرائحة، ولذاثد أخرى».

“Likholobova Zoya Grigor’evna,” in V.I. Podmarkov, et al, eds., *Pamiat’: Vospominaniia rabotnikov Donetskogo natsional’nogo universiteta o Velikoi Otechestvennoi voine 1941-1945 gody* (Donetsk: Iugo-Vostok, 2011), 135-136.

(58) Miner, *Stalin's Holy War*, 141.

(59) *RPTs*, 493.

تقديمهم طلبات للمجلس لتسجيل جماعاتهم الدينية، وفي زيادة الشعائر الدينية (التعميد وحفلات الزواج)، وفي انخراط الأطفال والمراهقين في الأنشطة الدينية لهذه الطائفة أو تلك، وما إلى ذلك».

وهناك إجماع كبير على «عودة» الحياة الدينية في العديد من صورها الظاهرة الكبرى، لكن هل تغيّر طابع التعبير الديني الإسلامي تغيّرًا ذا بال في أثناء الحرب؟ تجيب العديد من المصادر، من جانب المسلمين والبيروقراطيين السوفيت معًا مرة أخرى، بالإيجاب، وتشير إلى عددٍ من مواضع التغير.

فمثلًا، طرأ على دور التصوف تغيرات عميقة؛ فوفقًا لعبارة مجازية شاعت بين البيروقراطيين السوفيت، ودُحضت منذ ذلك الوقت، كانت «الأخويات» الصوفية حركاتٍ تخريبية واسعة النطاق تستهدف التمرد على الدولة. وزعم البعض أن «الإيشانات» (مشايخ الصوفية) المتطرفين تعهّدوا بتأهيل العناصر الهدّامة، وكانت «الأخويات» السّرية كالخلايا النائمة. وقد أشار العديد من الباحثين في وقت لاحق إلى أنه لا دليل على وجود هذه الظاهرة^(٦٠). ولكن ثمة أدلة على أن بعض الممارسات الصوفية قد تغيّرت في شكلها ونطاقها؛ فمثلًا، تجاوز طقس الذكر - هذا الإنشاد الديني المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالممارسة الصوفية الأوراسية - في قرية داغستانية واحدة على الأقل «حدود الأخوية، وأصبح طقسًا إسلاميًا عامًا»^(٦١). وربما يرجع ذلك جزئيًا إلى ظاهرة لُوْحِظت في القرية نفسها، ألا وهي أن أسرة المشايخ كريمة المَحْتَد في القرية - أي: عشيرة شمخل - غازي (Shamkhal-gay) التي ينتسب إليها أولياء القرية الصوفية النقشبندية الثلاث - قد استؤصلت عن بكرة أبيها إبان حملات القمع في الثلاثينيات، / وبحلول سنوات الحرب لم يكن أحدٌ من أبنائها قد نجا^(٦٢)، [١٢٦]

(٦٠) انظر مثلًا:

DeWeese, "Islam and the Legacy of Sovietology."

(61) Bobrovnikov, "Withering Heights: The Re-Islamization of a Kolkhoz Village in Dagestan," 375.

(62) Bobrovnikov, "Withering Heights: The Re-Islamization of a Kolkhoz Village in Dagestan," 374.

أي أن الأئمة الشرعيين لـ «الأخويات» الخاصة لم يكونوا موجودين للمطالبة بدورهم القيادي، وبغير وارث شرعي لسلسلة التلقين [أي: تلقين الذكر]، شعر من يرغب في عقد حلقات الذكر بالحرية في عقدها خارج حدود الجماعة المخصصة. وقد أصبحت حلقات الذكر -شأنها شأن كثير من عناصر التصوف في روسيا والقوقاز وآسيا الوسطى- «ملكية عامة» بدلاً من حصرها في أخوية بعينها تتطلب تلقيناً رسمياً. وقد أشار ديفين دو ويس إلى أن هذه الظاهرة قد بدأت بالفعل قبل العهد السوفييتي⁽⁶³⁾، ولا شك أن الأنماط القائمة كانت هي أساس التغيرات الجارية، كما أفضت إلى استقرارها. ولكن الجديد هنا هو السياق الجديد وما انفرد به من ضغط واضطهاد متعمد ومستمر. لكن القضاء على السلاسل الصوفية الشريفة لم يشمل الاتحاد السوفييتي كله؛ ففي بعض الأماكن التي ظلت فيها هذه السلاسل متصلة، ظلت حلقات الذكر المحلية شأنًا أكثر خصوصية. وهناك أيضًا تفسير يسير لانتشار ممارسات الذكر في بعض المناطق؛ إذ كان بعض البيروقراطيين السوفييت يخشون أن إغلاق آلاف المساجد قد يؤدي إلى زيادة شعبية الطقوس التي ارتبطت تقليديًا بتراث «الأخويات» الصوفية القديم، وازدهرت خارج المساجد (وعبروا عن ذلك في تقاريرهم بلهجة مرتبكة).

وقد وقع تحولٌ جديد مع تزايد شعبية الموالد وتكرارها، وكانت الموالد تُحيل تقليديًا إلى الاحتفالات بذكرى مولد النبي محمد [ﷺ]، ولكنها اشتملت في بعض المناطق على احتفالات بموالد أولياء الصوفية. ويبدو أنه في الحقبة السوفييتية، جرى ترتيب «موالذ الأولياء» بالتزامن مع التجمعات الأهلية السوفييتية الاعتيادية، من قبيل توديع الجنود المتوجهة إلى الجبهة. فوفقًا لمصادر شامل شيخ علييف

(63) DeWeese, "Shamanization in Central Asia";

انظر أيضًا:

Devin DeWeese, "'Dis-ordering' Sufism in Early Modern Central Asia: Suggestions for Rethinking the Sources and Social Structures of Sufi History in the 18th and 19th Centuries," in B. Babadjanov and Y. Kawahara, eds., *History and Culture of Central Asia/ Istorii i kul'tura Tsentral'noi Azii* (Tokyo: The University of Tokyo, 2012), 259–279.

في القوقاز، كان الشيوخ المشرفون على الموالد كثيرًا ما ينتهزون الفرص ليعلّموا الناس أحكام الإسلام الأساسية. ويلاحظ شيخ علييف أن هذه الاحتفالات كانت «شيئًا من الاندماج بين التقاليد الإسلامية والسوفييتية الجديدة»^(٦٤).

على أن التغيير الأبرز أيام الحرب، وفقًا للعديد من السرديات، كان يتمثل في ذلك التحول الاستثنائي نحو حضور النساء وظهورهم في المساجد؛ ففي مسجد موسكو الجامع، شكّل النساء - ولأول مرة - قسمًا كبيرًا من الرواد، وكنّ يصلين بمغزل [عن الرجال] في الطابق العلوي^(٦٥). ويصف زاريفوف وسافاروف كيف أن النساء كنّ يجتمعن بعد الصلوات في ساحة المسجد لتبادل الملحوظات والأخبار حول أحبابهن على الجبهة وتطور مجريات الحرب^(٦٦). / وفي أماكن أخرى، كان عدد [١٢٧] النساء اللّاتي يشهدن صلاة الجماعة أشدّ إثارةً للدهشة؛ ففي صلاة أحد الأعياد في أوفاء، حضر الصلاة حشدٌ من ثلاثة آلاف شخص تقريبًا، وكان غالبُ الحضور من النساء أو من الجنود الذكور المسرّحين من الخدمة^(٦٧).

وتشهد بعض المصادر على وجود ظاهرة إمامة النساء أو حضورهن صلواتٍ للنساء حصراً في البيوت أيام الحرب؛ إذ تصلي النساء معاً في هذه الجماعات، ويتعلّمن قراءة الخط العربي وبعض الأمور الأخرى^(٦٨). وبعض هذه الجماعات

(64) Shikhaliev, "Transformatsiia sufisma v svete religioznoi politiki i pereselenii gortsev v Dagestane 1930-1990-x gg.," 102.

(65) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 80.

كتب إرين تاسار عن دور المرأة التقليدي في حياة المسجد، قائلاً: «كان المسجد بيئةً يسيطر عليها الذكور، وما زال على ذلك حتى اليوم (في آسيا الوسطى على الأقل). لكن ماذا عن المرأة المسلمة؟ لم تجرؤ النساء على ارتياد المساجد ولا فرضت عليهن صلاة الجماعة، لكن المرأة شاركت في مجالٍ نشط من الحياة الدينية محظور على الرجال، تقوم على رئاسته الأئين (otin - Амьин) ... وهو [لقب] يُحيل إلى الشخصيات الدينية البارزة من النساء ممن جمعن وظائف الإمام والعالم والمدرّس والطبيب والمعالج النفسي» (Soviet and Muslim, 20).

(66) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 62.

(67) Kinziabaeva, "Vklad religioznykh organizatsii BASSR v pobedu v Velikoi Otechestvennoi voine," 85.

(68) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 23.

أمّتها النساء وبعضها أمّها الرجال، كتلك الجماعة التي كانت تتألف من خمس نسوة إلى عشر، وكنّ يجتمعن دورياً بإمام من مسجد [قرية] كامشلي (Kamyshly) ليستمعن إلى تلاوة القرآن. وقد استجوبت السلطات السوفييتية هذا الإمام، لكنه لم يعتذر عن فعله، وذكر أن هؤلاء النسوة كنّ «يُردنَ بدورهنّ سماع كلام الله»^(٦٩). وقد أمّت النساء بعض هذه الجماعات؛ حيث جمع مثلاً بعض الأثروبولوجيين تقارير عن امرأة تترية تعقد صلوات جماعية تُعرف باسم صلاة الاستخارة (namaz-istikhar)^(١)، وعن نسوة تتريات أخريات كنّ يعقدن احتفالات لتسمية المولود (بالتترية: isem kushu)، ويؤدّين الطقس التقليدي المتعلّق بتغسيل الموتى من النساء. وعلى الرغم من غياب الأدلة على منع النساء صراحةً من القيام على هذه الطقوس الخاصة وأدائها قبل ذلك، فإنه نادراً ما نجد دليلاً على قيام النساء على هذه الطقوس قبل سنوات الحرب^(٧٠).

وتورد بعض التقارير المتعلقة بالحياة الدينية في زمن الحرب وصفاً لنساء تؤمّ اجتماعات دينية واسعة النطاق وأخرى ضيقة وسرية؛ فمن النوع الأول مثلاً ما رُوِيَ من أن شريفةً بشكيرية من أصحاب الحيازات في الكولخوز^(ب) تسمّى مجيدوفايا (Mazitovaia) استضافت في بيتها ثمانين رفيقاً في ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٤٣ للاحتفال بعيد الأضحى، وقام على الحفل ملاً اسمه طالب قاسموف (Talip Kasimov)، وحثّ الحضور على دعم الجيش الأحمر^(٧١). وأما فيما يتعلق بالنوع الثاني من الاجتماعات، فقد وصف المؤرخ المقيم في تسليابنسك رفايل

(69) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 97.

(أ) حذفنا هنا، بالاتفاق مع المؤلف، حاشية عرّف فيها بصلاة الاستخارة. (المترجم)

(70) Khairtdinov, *Islam na Urale: entsiklopedicheskii slovar'* (Moscow: Medina, 2009),

80.

(ب) «الكولخوز» هو المزرعة الجماعية، وهي مزرعة تتكون من مجموع حيازات الفلاحين المقيمين في قرية واحدة، أو في منطقة زراعية واحدة. وكانت كل مزرعة جماعية تضم في المتوسط نحو ٤٠٠ حيازة، وتبلغ مساحتها في المتوسط نحو ٤٠٠ هكتار. (المترجم)

(71) Kinziabaeva, "Vklad religioznykh organizatsii BASSR v pobedu v Velikoi

Otechestvennoi voine," 85.

سيبغاتوفيتش حكيموف (R.Sh. Khakimov) صلواتِ جماعة تؤمُّها النساء في المنطقة في الثامنة أو التاسعة مساءً، بعد أن تغادر إدارة المزرعة الجماعية وقادة الحزب غير المتعاطفين. وكنَّ يتشاركن معًا حساء الحليب المتواضع «الخلما» (halma)^(٧١)؛ لنقص اللحوم^(٧٢). (ولم تكن هذه السرية أمرًا ضروريًا في بعض الأماكن الأخرى؛ ففي يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٢، كتب أحد المديرين الإقليميين في قسم التحريض والبروباغندا في الحزب الشيوعي بداغستان، يشتكي بمرارة لرؤسائه من مرؤوسيه الشيوعيين: «إن كثيرًا من أعضاء الكومسمول الثلاثة والعشرين يؤدُّون صلواتهم، ومعهم أيضًا الشيوعي المهيج أحمد أحمديف (Akhma Akhmaev)»^(٧٣)).

على أن الأمثلة الأكثر إدهاشًا لمناخ «الانفتاح» الديني المتزايد وروحه هي التي نجدها في الالتماسات التي رفعها المسلمون إلى مسئولي الحزب المحليين أو الإقليميين، والتي أوردنا نماذج منها. ومن أغرب الالتماسات التي تسلَّمها مسئولو الحزب / في منطقة فرغانة (Ferghana) في الجمهورية الاشتراكية السوفيتية [١٢٨] الأوزبكية، التماسٌ جاء «نيابةً عن» (ot imeni) خمسين امرأة وفتاة، نورد فيما يلي جانبًا منه^(٧٤):

«لقد أصدرت حكومتنا قرارًا بإعانة النساء المُعيلات، وتقديم الدعم المادِّي لأبناء جنود الجبهات. ولا نعارض هذا القرار، لكننا نقول ما يلي: إن كثيرًا من أزواجنا مفقودون منذ أربع سنوات أو خمس، وقد قُتل بعضهم بالفعل، وإن كثيرًا من بناتنا قد كبرن ولا حُطَّاب لهن. وقد قلَّ عدد الرجال في منطقتنا، وحرام وعارٌّ علينا أن

(أ) الخلما أو السلما (Салма) طعامٌ تقليدي لدى البشكير والتتر والكازاخ، يُقدَّم في شكل حساء من مكرونة مصنوعة من الدقيق والماء والبيض، وأحيانًا يُضاف إليها لحم الأحصنة أو الخراف. (المترجم)

(72) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945)."

(73) M.D. Butaev, G.I. Kakagasanov, and A.I. Osmanov, eds., *Vlast' i musul'manskaia religiia v Dagestane (Noiabr' 1917 g.-dekabr' 1991 g.). Dokumenty i materialy* (Makhachkala: IIAE DNTs RAN, 2007), 154.

(74) RPTs, 501-502.

نلد بلا زواج ('bez muzhei rozhat'). لقد كان يُسمح لنا في الماضي بحكم ديننا (po nashei religii) بأن يتزوج الرجل بفتاتين أو ثلاثة، لكن الآن، حظر القانون ذلك. ما زلنا قادرات [كل واحدة منا] على إنجاب طفلين أو ثلاثة؛ ومن هنا لا مناص من أن تسمح حكومتنا للرجال بأن يتزوجوا بامرأتين أو ثلاثة (neobkhdimo, chtoby Pravitel'stvo dalo rasporyazhenie muzhchinam zhenit'sia na 2-3

«zhenshchinakh»

أغرب من الخيال أن نجد التماسًا من مسلمات أوزبكيات يطلبن فيه من الحكومة السوفيتية أن تأمر الرجال بتعدد الزوجات الذي أقرّه الدين.

ويسعدنا أن نفترض أن هذه المناشدة لم تنل القبول، لكن السلطات الشيوعية كانت في حالات الضرورة القصوى تتولى تلبية المعايير الدينية بنفسها؛ فقد عبّر أحد التقارير الحكومية الداخلية في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٤ عن القلق من الهوس بعمليات الختان في منطقة كويبيشيف (Kuibyshev) (٧٥):

«لقد رفضت فتاةً بشكيرية في يناير/ كانون الثاني الزواج من غالي أكيروف (Gali Akirov)؛ عاملٍ في مزرعة «قزل يولدز» (Kzyl-Iulduz) الجماعية في منطقة كويبيشيف وعضوٍ في الكومسمول؛ لأنه لم يكن مختونًا. ولختانه، أرسل عضو الحزب الشيوعي ورئيس المزرعة شغايف (Shagaev) عاملًا آخر إلى رايون تشيغوف (Teshgov) في منطقة إتشكالف ليحضر «خاتنا» (za 'spetsialistom' po obrezaniiu)؛ فجلب كوشان تشيخوف (Kushan Shekov)، الشيخ البشكيري ذو الثمانية والسبعين عامًا، من رايون تيلوف (Teplov)؛ ليختن عضو الكومسمول، ومائتين وخمسة وخمسين طفلًا آخرين، منهم ابنا رئيس المزرعة الجماعية شغايف».

(75) RPTs, 497.

ويشير التقرير أيضًا إلى موجة مشابهة من عمليات الختان للرضع والمراهقين في أوبلاست سيغور-كازاخستان (Severo-Kazakhstan).

وفي حين زعم بعض المراقبين الحكوميين أن المشاركة في الشعائر الدينية الأهلية شاعت أكثر ما شاعت بين عمال المزارع الجماعية^(٧٦)، / فإن بعض المصادر [١٢٩] لاحظت عكس ذلك تمامًا؛ حيث ألمحت - كما فعل التقرير المرتبك عن «هوس الختان» الذي نقلنا عنه آنفًا - إلى ما شاع في بعض المناطق من أن بعض مسؤولي الحزب قد شاركوا [في هذه الشعائر]؛ فنجد أ. تيريتييف (I. Terentiev) رئيس لجنة الحزب الإقليمية في أليانوفسك (Ulianovsk) ينقل لرؤسائه في عام ١٩٤٧ أن ممارسة «الشعائر الدينية» قد شاعت في سنوات ما بعد الحرب بين أعضاء الحزب وعائلاتهم؛ ففي مزرعة جماعية واحدة في منطقة كيلوتشي (Kliuchi): «من بين أحد عشر شيوعياً [مسجلاً]، سلك طريق العبادة الدينية سبعة منهم (vstali na put' otpravleniia religioznykh obriadov)^(٧٧)».

ولكن عندما نتحدث عن النشاط الديني الجماعي للنساء في زمن الحرب بوجه خاص، فربما كان أدل الأمثلة على ذلك هو ما فعلته نسوة قرية كايانوفه في منطقة بيرم إنقاذاً لمسجدهم المحلي؛ فحين علمن أن المسجد، الذي يرجع تاريخ تأسيسه إلى عام ١٨٩٨، تجبّ مصادره للحصول على أخشاب للمدرسة الجديدة، تولّت طائفة منهن جمع مقدار وافر من أخشاب الغابة، وبنين بها مدرسةً بأيديهن. وأنقذ المسجد الذي كانت مصادره أمراً واجباً في فترة سابقة^(٧٨).

(٧٦) انظر مثلاً:

Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 18.

إذ زعم تقرير صادر عن بعض السلطات المحلية الملحده في منطقة بينزا أن طبقاتٍ أخرى من السكان، وخاصة الحرفيين والعمال والمثقفين، «تقف بعيدة عن الدين وكأنه على الهامش».

(77) O.R. Khasianov, "Religioznye praktiki predstavitelei kommunisticheskoi partii na sele v poslevoennoe desiatiletie (na materialakh Kuybyshevskoy i Ul'ianovskoi oblasti)," in T.V. Petukhovi, ed., *Patriotizm: istoriia, sovremennośt', obraz budushchego. Mezhdunarodnaia nauchno-prakticheskaia konferentsiia, posviashchennaia 70-letiiu Pobedy v Velikoi Otecheštvennoi voine: sbornik nauchnykh trudov* (Ul'ianovsk: UIGTU, 2015), 287.

(78) Khakimov, "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otecheštvennoi voiny (1941-1945)," 153; Khairetdinov, *Islam na Urale: entsiklopedicheskii slovar'*, 173.

وفي الوقت نفسه، بالعودة إلى موسكو، شوهدت النساء على نحو أكثر تواتراً فيما وصفه زاريفوف وسافاروف (كما أشرنا سابقاً) بأنه أهم موقع كان ظهورهن فيه محدوداً قبل ذلك، ألا وهو مقابر المسلمين في حي دانيلوفسكيه (Danilovsky)؛ إذ طفقت يحضرن جنازات أقربائهن، وهو ما لم يكن يفعله قبل ذلك (وظل هذا التوجه مستمرًا في فترة ما بعد الحرب، وعندما افتتحت مقبرة جديدة للمسلمين في عام ١٩٥٦ جنوب شرقي المدينة، ظلَّ النساء يشكلن قسمًا كبيرًا من زوّارها)^(٧٩). وقد اختار عضو مجلس مدينة موسكو الذي قطن «بيت الحكومة»^(٨٠) سييغ الشُّمعة مدةً طويلة، البلشفي التتري الشهير شايماردان نورمانوفيتش إبراهيموف (Shaimardan Nurimanovich Ibragimov) (١٨٩٩-١٩٥٧)، دفن أبويه في هذه المقبرة، ملتزمًا الشعائر الإسلامية الكاملة^(٨١). وفي تقدير زاريفوف وسافاروف: «لا نبالغ إذا قلنا: إن شعائر الجنازة كانت على رأس لائحة» أعمال أئمة موسكو؛ حيث شارك كثير من المسلمين من المتخلفين عن المساجد بانتظام في شعائر الدفن التقليدية وزيارة القبور^(٨١).

وكذلك كان «نقل السكان»، أفرادًا أو جماعات، دافعًا كبيرًا من دوافع التغيير الديني في أعوام الحرب وما تلاها مباشرة؛ فمن المثير مثلًا أن نتأمل النمو الهائل

(79) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 82.

(أ) بيت الحكومة (Дом правительства) مبنى سكني كبير يقع على ضفة نهر موسكفا في وسط موسكو، وكان أطول مبنى سكني في موسكو حتى عام ١٩٥٢. وقد اكتسب هذا المبنى اسمه وسُمعته السيئة من كونه مسكنًا لكثير من أبناء النخبة السوفيتية التي لقيت مصرعها وعائلاتها على يد ستالين في فترة الإرهاب الكبير في الثلاثينيات. (المترجم)

(80) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 73.

(81) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 72.

يلاحظ المؤلفان أن المسئولين المنوط بهم القيام بأنشطة مناهضة الدين كانوا أقل اهتمامًا بزيارات القبور أو طقوس الجنازات من اهتمامهم بحفلات الزواج/النكاح الإسلامية التقليدية على سبيل المثال؛ إذ عُدَّت جرس إنذار على التدين بين الشباب، وأساسًا للتنبؤ بالتوجهات على المدى الطويل.

Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 75.

لحجم السكان المسلمين في جبال الأورال طوال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات؛ حيث كان الباعث الأول على هذا التحول هو التصنيع السريع الذي شهدته المنطقة طوال الثلاثينيات، في حين كان الباعث الثاني هو قمع سنوات الحرب / وتهجير [١٣٠] التتر من القرم والقوقاز، حيث دُفع كثير من أبناء هذين الإقليمين إلى التوطن في الأورال (طوعاً حيناً، وقسراً في غالب الأحيان). فنجد مثلاً أن مدينة سفيردلوفسك وحدها قد زاد عدد التتر فيها عشرة أضعاف خلال الفترة بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٣٩. وقد ارتفعت نسبة التصنيع في مدن المنطقة ارتفاعاً كبيراً بفعل توطين التتر والبشكير فيها^(٨٢)، وزاد في الفترة نفسها سكان تشيلياينسك خمسة أضعاف، ونيچني تاغيل (Nizhnyi Tagil) أربعة أضعاف، وبيرم ثلاثة أضعاف. ويذكر فريق من عمال أحد مصانع الماكينات الكبرى في الأورال - وهو المصنع الذي ازدهر نشاطه أيام الحرب - العلاقة الوثيقة التي نشأت بين العمال المسلمين الأوزبك والمواطنين الجدد من التتر والبشكير، وكانوا أحياناً يُصلُّون معاً^(٨٣). وفي الوقت نفسه، خضع سكان الجبال المعزولون في داغستان لإعادة توطين قسري في السهول، على أمل أن يكونوا عُرضَةً، من بين أمورٍ أخرى، إلى ما يفترض أنه أثر «علماني» لدى سكان السهول، لكن ميشيل كيمبر وشامل شيخ علييف أوضحوا أن إعادة التوطين لم تُفض إلى علمنة الجماعتين، بل أفضت إلى المزيد من التلاحق الديني بين نمط التعليم الديني القديم الذي شاع في الجبال، ومناهج «أصولي جديد» [الأصول الجديدة] الحديثة التي شاعت في السهول^(٨٤):

«ومن المفارقات اللافتة أنه بهذا الإجراء تقاربت التُّخب الدينية الجبلية تقارباً وثيقاً مع السكان المحليين في المناطق التي انتقلوا إليها، وأثروا على عملية نشر المعارف الإسلامية وأثروها. ولهذا، بدأ الفقهاء والعلماء المسلمون من المواطنين الجدد يعملون في مزارع

(82) Staroštin, *Islam v Sverdlovskoi oblasti*, 77.

(83) Khairtdinov, *Islam na Urale: entsiklopedicheskii slovar'*, 365.

(84) Michael Kemper and Shamil Shikhaliev, "Qadimism and Jadidism in Twentieth Century Daghestan," *Asiatische Studien / Etudes Asiatiques* 69/3 (2015), 609.

الكولخوز السهلية، وأحياناً كان أكثر من عالمٍ في تجمع واحد... هنالك أصبحت المخطوطات الإسلامية التي نُسخَت في جبال الآفار يدرُسها القوموق أيضاً في السهول. وفي الوقت نفسه، أَلِفَ الفقهاء والطلاب الموطَّنون من جبال الآفار كتبَ المناهج الجديدة... التي استُعِمِلت في السهول منذ أوائل القرن العشرين. ومن هنا، نشأ في مناطق التوطن نظام جديد هجين، يجمع بين عناصر نظامي التعليم الإسلامي اللذين كانا إلى ذلك التاريخ مستقلين».

وقد كان أيضاً للقيود التي فُرِضت على العبادات الجماعية آثار غير متوقعة؛ إذ يقول إمامُ قرية تترِيٌّ شغل بعض المناصب القيادية في المزارع الجماعية بعد سنوات الحرب مباشرة: «لا ريب أن الالتزام بالفرائض الدينية في العهد السوفييتي كان من الصعوبة بمكان، خاصة مع الوجود في منصب قيادي. وكان الناس يجتمعون في بيوتهم لأداء الصلاة سرّاً في الغالب»⁽⁸⁵⁾. وغني عن البيان أن حصر / صلاة الجماعة في البيوت لم يمنعها منعاً باتاً، لكن يمكننا أن نضيف أنه في ريف داغستان، لاحظ بوبروفنيكوف أنه في بناء مسجدٍ جديد في فترة ما بعد السوفييت، لم يُستلهم التصميم من تصميمات المساجد القوقازية التقليدية، ولا من مساجد الشرق الأوسط، بل جاء على هيئة البيوت السكنية القروية التي كانت بيوت صلاة على مدار عقود. فلماً انتقلت أنشطة المساجد المغلقة إلى البيوت، أصبحت عمارة البيوت مصدرَ إلهامٍ للعمارة «الدينية».

وكذلك كانت بيئة المساجد أيام الحرب وخلال العقد الأول بعدها تمرُّ بتغيرات عميقة؛ ففي موسكو، أرسلت مجموعة من النسوة عام ١٩٥٤ شكوى لمفوض مجلس الشؤون الدينية، كان يستحيل إدراك فحواها في سنوات ما قبل الحرب. وكانت هذه الشكوى منتجاً إسلامياً سوفييتياً مميزاً، شكَّلته هوية إسلامية سوفييتية وتشبَّع بها، وصُنِع في سياق تلك التغيرات العميقة التي مرَّت بها مشاركة النساء الدينية التي برزت في سنوات الحرب، وشرحناها في هذا الفصل. وقد أراد هؤلاء

(85) Älmieva, ed., *Möselmannar böek vatan sugyshynda*, 131.

النسوة سماع إمامهن، وعوّلن في سبيل تحقيق ذلك على التسامح الديني والنسوية والوطنية السوفيتية، وروح الثورة البلشفية^(٨٦):

«إلى الرفيق بيشابوشنيكوف (Besshaposhnikov)، مفوض مجلس الشئون الدينية في مجلس مدينة موسكو:

لقد صلّينا نحن مسلمات موسكو لسنواتٍ في الطابق العلوي للمسجد، وفي أوائل عام ١٩٥٤، نقلنا بعض أعضاء الجمعية الدينية للمسلمين إلى قبو المسجد، حيث لا يصلنا صوت الإمام ولا خطبته مطلقاً.

وإننا نعلم أن الحكومة السوفيتية، بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية المجيدة، قد ساوتنا نحن النساء بالرجال في حقوق الحياة كلها؛ فنطلب، نحن المدافعين عن وطننا، لأجل أداء فروض صلاتنا، ولعلمنا بإحسانك تجاه المسلمين؛ نطلب وضع مكبرٍ للصوت في مسجدنا له سمّاعة واحدة على الأقل.

وإن لم يكن، فنسألکم توجيه الأمر إلى القائمين على المسجد بنقلنا إلى الطابق العلوي، حيث كنا نصلي سابقاً».

وقد شاع هذا النوع من الالتماسات الاستثنائية شيوعاً تدريجياً طوال السنوات الأخيرة من الحرب وفي مطالع السنوات التي أعقبته. وكما أسلفنا، أنشأت الدولة السوفيتية / في أثناء الحرب إدارة جديدة للنظر في هذه الالتماسات، ومراقبة تسجيل [١٣٢] المختصين بالدين والطوائف والمباني الدينية، ومتابعة الحياة الدينية بوصفها حلقة وصل مع الدولة. وكما سنرى في الفصل الخامس، عانت هذه الإدارة فوضى لا نظام فيها، وهو ما أفاد منه المتدينون من المواطنين السوفيت إفادةً عظيمةً.

(86) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 80–81n.

(٥)



البيروقراطيون حيارى: مراقبة المسلمين في كازاخستان بعد الحرب

/ في عام ١٩٤٩، وبعد سنواتٍ من العمل المخلص في مراقبة النشاط الديني، [١٣٣] في خدمة البيروقراطية السوفييتية، أُقيل مَفَوِّضُ مجلس الشئون الدينية في الجمهورية الاشتراكية السوفييتية التتيرية ذاتية الحكم، خ. س. باغاييف (Kh.S. Bagaev) من منصبه، وأُتهم بـ «سوء السلوك» في مذكرةٍ داخليةٍ لاذعة؛ جاء فيها أنه «تقاعس في عدة حالات عن تطبيق سياسة حزبنا المتعلقة بالدين، ولم يبالي بتصرفات الملاي غير المرخص لهم»، وسمح لـ «عددٍ كبيرٍ» من المساجد غير المرخصة بالعمل دون أن يوقَّع عليها عقوبة، وأصبح في عددٍ من الحالات «شريكاً» للأئمة المحليين، وقالت المذكرة أنه ساعد أحد المساجد في الحصول على هاتفٍ جديد، وأذن للمسلمين في قازان بشراء سيارة لنقل الموتى إلى المقابر. وخلصت لائحة الاتهام إلى أن «هذه الوقائع تعني أن باغاييف قد خلع عن نفسه ما يؤهله لأن يكون مفوضاً لـ [مجلس] الشئون الدينية، وشجَّع الملاي وزعماء طوائف الديانات الأخرى في حالاتٍ عدة على نشر نفوذهم بين العمال؛ ولهذا فإنه لن يعمل مستقبلاً على تنفيذ السياسة الدينية لحزبنا البلشفي، ويجب عزله من منصبه»^(١).

وكان لهذه الاتهامات وَقَعٌ صادمٌ، لما هو في حُكم المعلوم بالضرورة من سيرة باغاييف؛ حيث كان على الجُملة بيروقراطياً مخضرمًا وملحدًا ملتزمًا، درس الاقتصاد، وجعل يتدرَّج في المناصب حتى شغل منصب رئيس عصبة المناضلين الملحدين في الجمهورية التتيرية، في أوج موجة الإرهاب الستاليني الكبير في عام

(1) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*. 1940-e gg, 63–64.

١٩٣٨، وظل قائمًا به حتى عام ١٩٤٤ عندما عُيِّن مفوضًا لمجلس الشئون الدينية في الجمهورية. فهل يمكن لرجل كهذا أن يكون «شريكًا» للنُخب الإسلامية المنفلة العقل؟

إن الجرائم التي ليمَ عليها باغاييف، من قبيل الطفرة التي شهدتها نشاط الجماعات الدينية غير المُسجَّلة مثلًا، لم تكن مقصورةً قطُّ على ترستان، بل كانت، كما سيبيّن هذا الفصل، أعراضًا لَحيرة المسؤولين والسكّان، على حدِّ سواء، فيما يتعلّق بمسائل [١٣٤] / السياسة الدينية في أثناء الحرب وما تلاها. ونجد أن مواطنَ الغموض وسوء الفهم وخيبة الأمل المتعلقة بتطبيق السياسة الدينية تجلّت بوضوح في مجموعة من الوثائق البارزة سنجعلها محور تركيز هذا الفصل، وهي سلسلة المراسلات المنشورة مؤخرًا بعد رفع حجاب السّرية عنها، بين اثنين من بيروقراطيي مجلس الشئون الدينية في كازاخستان، هما: ن. غولايفا (N. Guliaeva) ون. سايتوف (N. Sabitov). وقد كان هذان المسؤولان -مثلهما مثل باغاييف- من المسؤولين المباشرين عن تطبيق السياسة الدينية السوفيتية، فلم يتمكّنَا -مثله أيضًا- من الالتزام بها، ناهيك عن تطبيقها.

وفي الأخير، كيف يمكن أن يكون هناك إسلام «رسمي» عندما تكون السياسات المتعلقة بالإسلام غير مطبّقة ولا مفهومة لدى المسؤولين أنفسهم؟ الواقع أن دراسات الحالة المعروضة هنا ستقوِّض التمييز الذي قام طويلًا بين الإسلام السوفيتي «الرسمي» و«غير الرسمي»؛ فقد اعترضت هذا التمييز تحدياتٌ نشأت عن أدلة جديدة تُثبت أن النظارات الدينية والنُخب «المسجَّلة» كانت تتفاعل على نحوٍ مستمر مع النُخب غير المسجَّلة والجماعات التي انخرطت في أنشطة دينية غير قانونية، نظريًا على الأقل. ويعني ذلك أن المؤرخين قد طمسوا، على بصيرة، ذاك التمييز القائم بين المجالين «الرسمي» و«غير الرسمي». ومن النتائج التي تمخضت عنها هذه الكشوفات الحديثة أيضًا أن التمييز بين النشاط «الرسمي» و«غير الرسمي» قد قام غالبًا في أذهان المسؤولين السوفيت المنوط بهم مراقبة الحياة الدينية (وفي أذهان المؤرخين الذين تبنوا هذين التصنيفين دون تمحيص). ومن ثمّ، فمن المغربي

الافتراض أن هذه التمييزات المفاهيمية كانت قطعية الدلالة عند هؤلاء المسؤولين، فُهم على أية حال من خلقوها وعزّزوها بالنقاش المستمر للنشاط «المسجّل» في مقابل النشاط «غير المسجّل».

على أن بيروقراطي مجلس الشئون الدينية أنفسهم قد أخفقوا أحياناً في الالتزام بالسياسات الدينية التي تولّوا هم مسئولية تطبيقها، على نحو ما سنبين في هذا الفصل. وفي الوقت نفسه، كان المسؤولون على مستوى اللجان التنفيذية في المقاطعات والمناطق غافلين عن هذه السياسات أو غير مباليين بها أحياناً. فضلاً عن الارتباك والقلق البيروقراطي، كان هناك، كما سنرى، ارتباكٌ آخر يؤبه له حول طبيعة الإسلام ذاتها في آسيا الوسطى (ناهيك عن الاتحاد السوفيتي كله)؛ فمثلاً، ما فائدة «تسجيل» المساجد إن لم يكن المسلمون الكازاخ، بما عُرف عنهم من بدوّة، لهم فيها حاجة أصلاً؟ وما فائدة مراقبة الملالي والزعماء المسلمين الآخرين إن كان كل مسلم، وفقاً للشريعة، يجوز له أن يؤدي شعائره على نحو فردي؟

من منظور البيروقراطيين السوفيت الملحدّين، كان للتسامح غير المسبوق الذي اتسمت به السياسة الدينية في زمن الحرب مُسوِّغاً استراتيجيًّا مقنع، ألا وهو أن الظهور بمظهر «الراعي» للمؤسسات الدينية سيسمح للدولة بالإشراف عليها ومراقبتها. وهكذا، يؤدّي اتساع نطاق / الحريات الشخصية إلى توسيع نطاق دولة [١٣٥] المراقبة وتعزيزها. وكان نظام التسجيل الذي عرضنا له في الفصل الثالث ينزل من هذه الاستراتيجية منزلة قُطب الرّحى. فالمساجد الجديدة يجب تسجيلها لدى الحكومة، وكذلك القائمون على المساجد وروادها، ممن يشار إليهم معاً بـ «الجماعة» (obshchina) الدينية. ويُنتظر من البيروقراطيين المعيّنين من قبل مجلس الشئون الدينية أن يجمعوا معلوماتٍ عن أنشطة هذه الجماعات وزعمائها في أثناء عملية التسجيل وبعدها. وفي حين كان المجلس على تواصل دائم مع ممثلي النظارات الدينية، فإن اعتماده الشديد كان على أتباعه من عملاء الاستخبارات وعمليات المراقبة المحلية بين المسلمين. وكان النظام عبقرياً على المستوى النظري؛ إذ يصبح الأئمة «الوطنيون» المدعومون من الدولة «رجال دين» (sluzhiteli)

kul'ta) ومخبرين للنظام في وقت واحد، في حين تخضع الجماعات الدينية المحلية لمراقبة عملاء سوفيت من غير المسلمين.

لكن الواقع ضربته الفوضى؛ فمثلاً، كان عدد الجماعات غير المسجلة أكثر على الدوام من نظيراتها المسجلة، ففي الجمهورية التتية، عدَّ المسؤولون بحلول منتصف الأربعينيات خمسًا وعشرين جماعة غير مسجلة، مقابل ست عشرة جماعة مسجلة فقط. وكان لثمانية عشرة جماعة غير مسجلة إمامها الخاص، وتراوح عدد «المتسبين» إليها بين عشرين ومائة وثلاثين (٢٠-١٣٠) مسلمًا. وأما مقاطعة أليانوفسك (Ul'ianovsk) المجاورة، فكانت تضم خمسًا وثلاثين جماعة غير مسجلة، في حين سُجِّل فيها عشرة فقط. وفي مقاطعة كويبيشيف «سامارا» (Samara)، كان هناك ثمان عشرة جماعة غير مسجلة في عام ١٩٤٥^(٢)، ولاحظ مفوض مجلس الشئون الدينية في المقاطعة، ك. إف. رابوتالوف (K.F. Rabotalov) إلى أن الجماعات غير المسجلة «تتمتع في بعض الأحيان... بوضع أفضل من نظيراتها المسجلات؛ لأنها تتحرك دون أي قيود»^(٣).

وقد ظهرت هذه الجماعات المسلمة، المسجلة وغير المسجلة، على شاشة رادار الدولة، مضرب المثل، في خضم ما عدّه مسئولو مجلس الشئون الدينية «بعثًا وإحياءً» للأنشطة الدينية الجماعية في أوساط المسلمين، وهو بعثٌ ابتدأ في أيام الحرب^(٤). وفي حين زعم كثير من المسؤولين أن متوسط سن المسلمين السوفيت «المتدينين» (veruiushchii) يميل نحو الشيخوخة^(٥)، بدأ كثير من

(2) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 93.

(3) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 16.

(4) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 18.

(5) فمثلاً، قدَّر أحد المسؤولين في أليانوفسك أن أكثر من سبعين في المائة (٧٠٪) من السكان المتدينين «المواظبين» في المنطقة فوق الستين (Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 19). وقدَّم بعض المسيحيين والملحدين السوفيت، في مقابلات أُجريت معهم أواخر عهد ستالين في إطار برنامج هارفارد عن النظام الاجتماعي السوفيتي، تقديرًا مشابهاً عن أعمار المواطنين المتدينين، فقال مهندس كهربائي روسي: «ما زال هناك كثير من الناس =

الجنود الشباب المسرّحين من الخدمة في سنوات ما بعد الحرب في ارتياد المساجد. ووفقًا لأحد التقديرات، وصل عددهم إلى نحو ١٥-٢٠٪ من رواد المساجد. وقد أصبح هؤلاء الجنود -بالإضافة إلى احترام الشيوخ لهم وكونهم قدوة لصغارهم- موضع تركيز مسئول مجلس الشؤون الدينية؛ حيث قدّموا تحديثات دورية عن «انتشار» النفوذ الديني^(٦).

/ وفي الوقت نفسه، أمكن الاعتماد على الأعياد الإسلامية الكبرى؛ لجذب [١٣٦] حشود كبيرة ومتنوعة إلى المساجد وعقد احتفالات واسعة النطاق خارجها. فوفقًا لتقارير بعض المسئولين، احتفل المسلمون السوفييت كلهم، رفقة قيادات الحزب المحلية، بعيد الفطر. ففي مقاطعة كوبييشيف مثلاً، رفع مفوض مجلس المنطقة تقريرًا إلى موسكو قال فيه: «إن مسلمي التتر جميعهم يحتفلون بمخلصين بعيد الفطر، وفيهم الشيوخ وطلاب المدارس والأطفال»^(٧). وفي حين كان مسئولو الحزب الشيوعي يتجنبون عادةً حضور الاحتفالات الدينية، كانت هذه الأعياد استثناءً من ذلك؛ ففي عيد الأضحى في عام ١٩٤٩، انعقد احتفال مزرعة فييتشسلاف مولوتوف التابعة لمنطقة كوبييشيف في بيت رئيس المزرعة، وحضره عددٌ من «قامات» الحزب، منهم أمين الحزب في المنطقة نفسها، ورئيس محطة معالجة الحبوب المحلية ورئيس لجنة مراجعة المزرعة. ولكن لسوء الحظ، أفاد أحد ممثلي مجلس الشؤون الدينية أنه «اندلع شجار في عمرة السكر»^(٨).

= يشعرون بالتدين... وخاصةً من هم فوق الأربعين أو الخامسة والأربعين... فالمتدينون لم يموتوا بعد» (33 f. 517, vol. 26, HPSSS sched. A). وقال طالب روسي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا: «في المجمل، لم يذهب إلى الكنيسة إلا من هم في منتصف أعمارهم أو كبار السن. وكان القساوسة يتشككون في الشباب» (642/ case, vol. 32, HPSSS sched. A, (NY)1109 f. 10).

(6) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 18.

(7) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 24-25.

(8) "v protsesse etoi p'ianki byla ustroena draka" (Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 24).

وعلى الرغم من الطفرة التي شهدتها الأنشطة «غير المسجلة»، وجدت بعض الزعامات الدينية أن التسجيل مع الحكومة قد يصلح ذريعة للوصول إلى المساجد المغلقة؛ ففي السابع عشر من سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٤، تلقى المسئولون المحليون في مدينة بافلودر (Pavlodar) طلبًا متواضعًا من رجلٍ يسمى رحمة الله كولمغامبيتف (Rakhmetolla Kulmagambetov) يزعم فيه أنه يتحدث نيابةً عن المسلمين «المؤمنين» في المدينة كلها^(٩):

«باسم جماعة المسلمين في بافلودر، أستأذنكم في إقامة احتفال عيد الفطر، الذي يحين موعده في الثامن عشر [من سبتمبر/ أيلول] من عام ١٩٤٤. ويومها:

(١) سنصلي وندعو الله أن ينصر جيشنا الأحمر البطل على الغزاة الفاشيين الألمان.

(٢) وسنجمع التبرعات لصندوق الدفاع.

هذا كل ما سنفعله، وترجوكم جماعة المسلمين ألا ترفضوا هذا الطلب».

مُنح الإذن المطلوب، وراقب مسئولو مجلس الشؤون الدينية الاحتفالات وتابعوا التبرعات الموعودة التي بلغت ستة آلاف ومائتين وخمسة وعشرين (٦.٢٢٥) روبلاً. لكن كما اتضح بعد ذلك، أخفق المسئولون المحليون، ربما عن عمد، في تسليم هذه التبرعات للبنك المركزي السوفييتي «الغوسبانك» (Gosbank)، وهو ما استوجب توبيخًا من المكتب الإقليمي لمجلس الشؤون الدينية^(١٠). ومهما يكن من أمر، فقد كان المبلغ المجموع في شهر رمضان مجرد جزءٍ من المبلغ الإجمالي الذي تبرعت به جماعة المسلمين في بافلودر للجيش الأحمر. وكانت هذه التبرعات

(9) Kulmagambetov to the Pavlodar oblispolkom, September 17, 1944, V.D. Boltina and L.V. Sheveleva, eds., *Iz istorii islama v Pavlodarskom Priirtysh'e 1919–1999: sbornik dokumentov* (Pavlodar: EKO, 2001) (IIIIP, من الآن فصاعدًا: IIIIP, 72–73, doc. 52).

(10) N. Guliaeva to Sh. Kenzhebaev, December 15, 1944, IIIIP, 74, doc 54.

هي محور / الالتماس التالي الذي تقدّم به كولمغامبيتف، واثنين من رفاقه إلى اللجنة [١٣٧] التنفيذية الإقليمية (oblispolkom) للمدينة في التاسع عشر من ديسمبر / كانون الأول من عام ١٩٤٤^(١١)؛ إذ قال فيه:

«إننا نحن مسلمي مدينة بافلودر، الذين تجاوز عددهم ثلاثة آلاف (٣.٠٠٠) شخص، نبتهج، رفقة شعبنا [السوفييتي] أجمع، بما حقّقه الجيش الأحمر من نجاحات باسلة في الحرب الوطنية الكبرى. ونُمدُّ هذه النجاحات بتبرعاتنا لصندوق الدفاع، ونسأل الله أن يُتم لنا ولجيش رفاقنا عاجلاً غير آجل دحر ألمانيا الفاشية الألمانية [كذا وردت]. وقد جمعنا بالفعل، نحن مسلمي بافلودر، ما قيمته مائة وخمسة عشر ألف (١١٥.٠٠٠) روبل وأرسلناها للبنك المركزي، فأرسل لنا الرفيق ستالين برقية شكر على ذلك، يثمن فيها التزامنا بتعزيز قوى الجيش الأحمر بكل معونة ممكنة، في سعيه لتوجيه ضربة قاصمة للعدو.

ما زال جمع التبرعات من المؤمنين مستمرًا. لكننا حتى اليوم لا نملك مسجدًا في المدينة، فلا يمكننا تأدية فروض ديننا؛ ولذلك، نستأذنكم في إعانتنا على تأدية الصلاة والدعاء لنصرنا في الكفاح ضد ألمانيا الفاشية، وعلى فتح مسجد وتسجيل جماعتنا المسلمة. وإن أفضل «عقار سكني» (zhilfond) في المدينة يصلح موقعًا للمسجد هو المسجد الكازاخي القديم الكائن في شارع الأول من مايو؛ العقار رقم ٧٦. وستسعنا مساحته التي تبلغ ثلاثمائة (٣٠٠) مترًا مربعًا، جميعًا.

وكذلك نستأذنكم في تسجيل رحمة الله كولمغامبيتف إمامًا عند افتتاح مسجد بافلودر، ونرجو صادقين ألا يُرفض طلبنا.

[وقد جرى الاتفاق على كل ذلك] في اجتماع لمؤمني بافلودر حضره خمسة وأربعون (٤٥) مؤمنًا.

(11) Kulmagambetov, Tarchakov, and Mamyrov to K. Makin, December 19, 1944, IIIPP, 74-75, doc. 55.

وبعدها بأسبوع، وفي رد فعلٍ سريع كالبرق بمعايير البيروقراطية الإقليمية السوفيتية، دُرس الطلبُ وُوفق عليه في مذكرة صادرة من اللجنة التنفيذية المحلية، وأشارت عرضًا إلى أن مبنى المسجد القديم الكائن في شارع الأول من مايو كان ساعتها ورشة حياكة، وكان قد صودر لتحويله [إليها] في عام ١٩٣٧. وأما مسجد المدينة المغلق الآخر فقد استولت عليه الفرقة الموسيقية^(١٢).

ولكن هذه الموافقة - لسوء حظ كولمغامبيتف ومسلمي باقلودر - لم تكن إلا الخطوة الأولى في العملية البيروقراطية؛ فأولاً، وجب إعادة كتابة بعض الأوراق التي شابتها الأخطاء وتقديمها قبل عرض الأمر على مجلس الشؤون الدينية؛ إذ «لم تف المحاوله الأولى بمتطلبات / فتح بيوت الصلاة للطوائف الدينية ... فمثلاً، كان [١٣٨] ينقصها المعلومات المنصوص عليها في الفقرة الخامسة من القرار»^(١٣). ثم كان هناك فحص لخلفية المسلمين الخمسة والأربعين المذكورين في طلب كولمغامبيتف الأول^(١٤). وفي الوقت نفسه، عُدَّ مبنى ورشة الحياكة غير مناسب؛ ولهذا وجب على كولمغامبيتف تقديم التماس آخر لاستعادة المساحة التي تشغلها الفرقة الموسيقية^(١٥)، وقد استغرق ذلك كله شهرًا.

ومع إهمال حالة مسجد باقلودر، عملت الدولة على منع أئمة مسلمي باقلودر من السفر و«نشر نفوذهم» في المناطق المجاورة؛ ففي السنوات السابقة، كان يمكنهم السفر بحرية، وكان يجب منعهم من ذلك.

وهنا يأتي دور ن. غولايقا، إحدى المفوضين المحليين لمجلس الشؤون الدينية في باقلودر، التي نجد صراحةً مدهشة وعميقة في مراسلاتها مع رؤسائها، وهي المراسلات التي رُفِع عنها حجاب السرية أخيرًا؛ فقد ذكرت صراحةً في خطابٍ

(12) T. Morshchinin, "Decision of the Pavlodar *oblispolkom*," December 22, 1944, *IIIIP*, 75-76, doc. 56.

(13) A. Zagovel'ev to N. Guliaev, February 10, 1945, *IIIIP*, 78, doc. 58.

(14) Iadryshnikova, "Memo from Pavlodar *Gorispolkom*," February 26, 1945, *IIIIP*, 79, doc 59.

(15) Kulmagambetov and Tarchakov to I. Kalinin, February 27, 1945, *IIIIP*, 79, doc. 60.

أرسلته لمكتب المجلس الرئيسي في الجمهورية الكازاخية في إبريل / نيسان من عام ١٩٤٥ إلى أن القيود المفروضة على السفر لم تخلُ من تنازلات من جانب الحكومة^(١٦):

«لقد ظهرت الأعمال الوطنية للمسلمين [فيما مضى] على صورة جمع التبرعات لصندوق الدفاع الوطني. والحقُّ أن الجمع وقع أساسًا في عام ١٩٤٤، ولم يشهد الربع الأول من عام ١٩٤٥ إلا القليل منه. ويرجع ذلك إلى أن زعماء المواطنين المؤمنين في المدن كانوا يجمعون التبرعات [في السابق] لا في حدود مدنهم فحسب، بل كانوا يتجولون في الرايونات [الأخرى] بتصاريح سفر تُصدرها اللجنة المركزية. لكن إصدار هذا النوع من الأذون لممثلي جماعات المؤمنين أُلغي مؤخرًا، بدعوى أنه يجب عليهم ممارسة هذه الأنشطة بين مؤمني باقلودر لا غير».

لم تكن غولايشا قد عيّنت في وظيفتها بمجلس الشئون الدينية إلا قبل ذلك بخريفٍ واحدٍ، على أنها كانت بيروقراطية متمرسّة؛ إذ كانت تشغل قبل ذلك منصب نائب رئيس الشئون الاجتماعية والثقافية للجنة المركزية. وفوق ذلك لم تكن شديدة الحماس للأنشطة الدينية الإسلامية، وعلى الرغم مما ينطوي عليه الأمر من فقدان لبعض العوائد الحكومية كما ذكرت. فقد سارعت إلى توضيح أن الإجراءات المُتخذة لكبح حراك الأئمة المسلمين لها عندها ما يسوّغها تمامًا؛ حيث نصّت على أنه: «مما يجب ذكره أن ممثلي جماعات المسلمين في المدينة يميلون إلى الانسياح بأنشطتهم الدينية في أقاليم المقاطعات كلها». / وحذرت غولايشا بوجه خاص من [١٣٩] محاولاتهم تجنيد المسلمين في مناطق مختلفة لتقديم التماسات للحكومة لفتح مساجد قروية^(١٧).

ولم تقتصر فائدة تسجيل مسجد محلي وافتتاحه في باقلودر على تيسير مراقبة

(16) N. Guliaeva to N. Sabitov, April 13, 1945, *IIIPP*, 83, doc. 66.

(17) N. Guliaeva to N. Sabitov, April 13, 1945, *IIIPP*, 83, doc. 66.

جماعة المسجد، بل ربما أفاد أيضًا في «تثبيت» إمام كان جوارًا؛ ففي الثلاثين من مايو/ أيار من عام ١٩٤٥، وبعد أسابيع قليلة من استسلام ألمانيا وانقضاء الحرب العالمية الثانية، مُنح الإذن أخيرًا بافتتاح المسجد محل ورشة الحياكة^(١٨)، وبعد أسبوعين حصلت الجماعة على «كل ما تبقى من الممتلكات الدينية في قائمة المخزون»، وكان من بينها الأثاث المتواضع المملوك للمسجد نفسه^(١٩). وتصف القائمة المذكورة مبنى متواضعًا بسيط السمت، جرى توثيق كل جزء فيه توثيقًا دقيقًا مفصلاً بوصفه «ملكية دينية»^(٢٠)، وذلك على النحو الآتي:

- (١) قبة من الخشب على أساس حجري،
- (٢) سقف مغطى بعضه بالمعدن، وما بقي بالألواح الخشبية، وهو الأكثر،

(18) N. Sabitov to N. Guliaeva, May 30, 1945, *IIIPP*, 85, doc. 69; N. Guliaeva, "Memo on the opening of registered mosques in Pavlodar," June 8, 1945, *IIIPP*, 86, doc. 70.

(19) N. Guliaeva to S. Artamonov, June 9, 1945, *IIIPP*, 87, doc. 71.

(20) Simonenko, Mamyrov, and Kulmagambetov, "Certificate of transfer for the mosque in Pavlodar," June 12, 1945, *IIIPP*, 87, doc 72.

يسر هذه التطورات المرسوم (رقم ٨٠١ الصادر في الثلاثين من يونيو/ حزيران من عام ١٩٤٤) الذي سمح بإعادة المقتنيات الدينية أو التبرع بها للجماعات الدينية. وتبع ذلك في أغسطس/ آب من العام نفسه قرارٌ سمح للمنظمات الدينية المسجلة بافتتاح حسابات في البنك الحكومي، وبعدها بعام، صدر قرارٌ آخر يمنح هذه المنظمات صفة «الكيانات القانونية» في البيع أو الإيجار أو تشييد المباني لأجل الأغراض الدينية (56). *PDDUM*. واستنادًا إلى قوة هذه القرارات، التمسّت النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان من پوليانسكي نقل سبع مجمعات من إدارة شؤون العمارة لتكون تحت رعاية النظارة، منها المزاران الكبيران شاه زنده وشاهي ماردان (36-37). *ISG3*. وانظر عن أثر هذه الإصلاحات على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية:

Chumachenko, *Church and State in Soviet Russia*, 79–80.

وقد أشارت شوماتشنيكو إلى أن هذه القوانين رفعت عن كاهل رجال الدين أعباء الضرائب التي كانت فوق شدتها عظيمة السخف؛ حيث كان رجال الدين في الأرياف يُطلب منهم فيما مضى سداد الضرائب لحماً وبيضا، حتى وإن لم يكن لديهم ماشية أو دجاج (*Chumachenko, Church and State in Soviet Russia*, 79–80).

- (٣) حوائط داخلية مطلية بملاطٍ أبيض، [وفوقها] سقف خشبي،
 (٤) أرضية قديمة غير مطلية من الخشب،
 (٥) نافذتان مصقولتان، ومفقود منهما ثلاثة أطر شتوية،
 (٦) موقدان على النمط الهولندي وأطباق وفرن حديدي ومنظمات
 خانقة،
 (٧) أربع أبواب عادية من الخشب، بها الحاجيات الحديدية [من قبيل
 الأقفال والمقابض]،
 (٨) فاصلان خشبيان عاديان غير مدهونين،
 (٩) حائطان فاصلان جديان، كما هو مسجّل في الوثيقة الحالية.

وَقَعَ كُولَمَغَامبِيَّتَفْ وزملاؤه عند استلامهم مكانهم الجديد عقدًا يحدّد مسؤولياتهم الجديدة؛ فمن الواجب عليهم بالطبع العناية بالعقار ودفع رسوم صيانته (ومن ذلك التجديدات والتدفئة والتأمين والحماية وتسديد الديون والضرائب والرسوم المحلية وغير ذلك). على أنهم وافقوا أيضًا على بعض التنازلات المفتوحة لحساب رقابة الدولة؛ فالعقد يؤكد على أن تسمح الجماعة «دون إعاقة» لممثلي مجلس نواب العمال في مدينة بافلودر ولمسؤولي مجلس الشؤون الدينية بزيارة العقار وفحصه. وبصيغة أكثر التباسًا، فرض العقد على موقعيه «العمل / على استعمال البيت وما فيه [١٤٠] من أشياء دينية في سدّ الحاجات الدينية لا غير، وعدم السماح لرجال الدين بإقامة شعائر دينية غير مسجّلة» لدى ممثلي مجلس الشؤون الدينية^(٢١). أي أن كل الأعمال الدينية التي تضطلع بها جماعة المسجد يجب أن يوافق عليها مسؤولو مجلس الشؤون الدينية ويوثّقوها. وقد افتُتح المسجد في العشرين من يونيو/ حزيران من عام ١٩٤٥^(٢٢).

وتبدو تنازلات المراقبة هذه، للوهلة الأولى، انتصارًا لأجهزة الاستخبارات السوفيتية ولكل المسؤولين الأمليين في تكبيل سياسات التسامح الديني الجديدة من

(21) "Contract with the Muslim community of Pavlodar," June 14, 1945, *IIIPP*, 88, doc. 73.

(22) N. Guliaeva to N. Sabitov, June 28, 1945, *IIIPP*, 91, doc. 75.

خلال توسيع نطاق التحكم المباشر في الجماعات الدينية. وقد تعمق يعقوب روئي في دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي، مستندًا إلى مجاميع هائلة من المراسلات الداخلية بين البيروقراطيين السوفيت حول الجماعات المسلمة، وأيد صراحةً القول بأن التسامح الديني كان، في المقام الأول، استراتيجية لتوسيع نطاق «دولة المراقبة»، بهدف ضبط سلوك المسلمين وكسب سلطات إشرافية على الحياة الدينية. وكذلك تُلقي الأدلة التي ساقها روئي الضوء على ازدواجية تصوّرها المسئولون السوفييت (تصوّرًا ضمنيًا)، ثم صاغها المؤرخون في وضع «إسلام رسمي» في مقابل «إسلام غير رسمي». فالجانب الرسمي تمثله النظارات الدينية المرخصة والأئمة المرخص لهم، في حين يمثّل الجانب غير الرسمي الشخصيات غير المسجّلة التي تعمل بزعمهم عملاً غير قانوني على هامش المجتمع، وتكون لها في الغالب دوافع مناهضة للسوفييت؛ فمثلاً، تكشف وثائق الحزب الداخلية ومراسلاته، التي استفاض روئي في دراستها، انشغالاً بما زُعم أنها أنشطة مناهضة للسوفييت يقوم عليها «الإيشانات» (الإيشان تعبير محلي عن شيخ الصوفية) المتهم كثيرٌ منهم بترويج البروباغندا المناهضة للدولة. وكان يُظن أن الطرق الصوفية و«المشايخ الجوالين» تنافس المؤسسة الرسمية على كسب تعاطف المسلمين السوفييت. (لا شك أن بعض الجماعات «الإيشانية» بوجه خاص كانت مثيرة للقلق، على سبيل المثال الجماعة التي سُمّيت إيشانات قيرغيزيا الشُّعر^(أ). ولكن بغض النظر عن الخطر المحتمل من جانب الطرق الصوفية القديمة، نُسبت طائفة واسعة من المظاهر الدينية -كثيراً ما عُدت «بقايا قبل إسلامية»- إلى هذه القنوات غير الرسمية، وعُدّت خطراً على الدولة وعلى ترقية المسلمين و«تحديثهم».

وقد ارتكزت هذه التقسيمات على فكرتين متضافتين نجدهما لدى البيروقراطيين السوفييت ومؤرخي الدين في الاتحاد السوفييتي على حدّ سواء؛ إحداهما: أن السلطات الإسلامية المرخصة من الاتحاد السوفييتي، والتي كثيرًا ما سُمّيت «الملاي

(أ) إيشانات قيرغيزيا الشُّعر (the Hairy Ishans - Волосатые ишаны) طريقة صوفية تأسست في عشرينيات القرن العشرين، وكانت صريحة المناهضة للسوفييت، وهاجمتها الدولة أكثر من مرة وقتلت بعض شيوخها. (المترجم)

الحرر»، كان هدفها الأول القضاء على الأشكال التقليدية «الشعبية» للإسلام، والأخرى: أن هذه السلطات تلقاها المسلمون السوفييت برفض واسع؛ ولهذا عدوا «جنرالات بغير جنود»، وفقاً لتعبير فالتر كولارز (Walter Kolarz) (٢٣).

/ وعلى الرغم من أن النشاط الديني غير المسجّل بدأ واسع الانتشار بين [١٤١] المسلمين السوفييت - وهو ما تجلّى واضحاً في مراسلات بعض بيروقراطي مجلس الشؤون الدينية الذين حاولوا وسمه بـ «الهامشية» - فإن التعبئة ضد السوفييت لم تكن سمةً عامة لهذه الأنشطة فيما يبدو. فكما سنبيّن في حالة بافلودر، عند تأكيد سيطرة الدولة على الجماعات الدينية، واجهت الحكومة السوفييتية مشكلةً أعمق بكثير عبّر عنها بيروقراطي مجلس الشؤون الدينية أنفسهم، ألا وهي أن الجماعات المحلية لم تع السياسات الدينية الجديدة التي وُضعت زمن الحرب، شأن كثير من المسؤولين السوفييت.

ففي الثامن والعشرين من يونيو/ حزيران من عام ١٩٤٥، بعد أسبوع فقط من افتتاح مسجد بافلودر، حدّرت ن. غولايشا رؤساءها في رسالة سرية شديدة الصراحة، من الطفرة التي يشهدها النشاط «غير المرخص» في المنطقة. ولم يكن سبب هذه الطفرة في رأيها يرجع إلى تحريض الزعامات الدينية ضد السوفييت، بل إلى الحيرة المنتشرة على المستويات كلها، من الأهالي المسلمين إلى معلّمي المدارس وحتى الأجهزة الحكومية (٢٤):

«بلغتنا معلومات تفيد أنه في بعض الرايونات، هناك مقاطعات يقيم فيها المسلمون الشعائر دون تسجيل جماعاتهم، والأجهزة الحكومية المحلية غافلة تمام الغفلة عن ذلك.

وربما ترجع لامبالاة أجهزة الرايونات بأنشطة المسلمين إلى أن كثيراً من القادة لا يعون الكيفية التي حلّت بها حكومتنا هذه المسألة، [و] ولا كيفية استيعاب ما سمحت به من «الحق في حرية الصلاة»

(23) Kolarz, *Religion in the Soviet Union*.

(24) N. Guliaeva to N. Sabitov, June 28, 1945, *IIIPP*, 91, doc. 76 (التشديد من عندنا).

(*pravo svobodno molit'sia*). فهناك منهم من يفهم الأمر على هذا النحو: «إن كانت الحكومة قد منحت المؤمنين حرية التعبير عن مشاعرهم الدينية، فدعهم يصلُّون وقتما شاءوا وأينما شاءوا».

وأسوق لكم مثالاً على ذلك (مع التسليم بأن هذا لم يصدر عن الرايون أو رئاسة المدينة). ففي إحدى مدارس بافلودر، قالت معلِّمة تاريخ للطلبة: إن الكنيسة والدولة غير منفصلتين، أي أن هناك ممثلين في اللجنة التنفيذية يسمحون [برفع] المسائل الدينية لاجتماعات اللجنة».

وفي اليوم نفسه، أرسلت غولايفكا مذكرةً لمسؤولين في مقاطعة قريبة تحذِّرهم من أن جماعةً غير مسجَّلة من المسلمين تقيم احتفالات دينية جماعية، وطلبت منهم [١٤٢] إعلام المسلمين بأن الشعائر الدينية لا يمكن أن تُقام / إلا في حال كان للجماعة بيت صلاة أو مسجدًا مرخَّصًا من قبل الحكومة. وكتبت: «حتى يصدر إذن الحكومة بافتتاح بيت صلاة، يجب وقف الشعائر الجماعية»^(٢٥). وفي الوقت نفسه، كان رؤساء غولايفكا - ولا سيما ن. سابيتوف، العامل في مكتب مجلس الشؤون الدينية الرئيسي، في جمهورية كازاخستان - يدفعونها للتحقيق في تقارير عن أنشطة غير مسجَّلة، وجمع معلومات مفصَّلة عن الجماعات المنخرطة فيها. وعن حالة الجماعات الدينية «غير القانونية»، كتب سابيتوف إلى غولايفكا قائلاً: «لا مناص من تحديدهم جميعًا، والتأكد من استمرار وجودهم»^(٢٦). وبمجرد تحديدهم، سيدعو مجلس الشؤون الدينية إلى وقف تجمعاتهم أو السماح لهم بالتماس التسجيل في هيئة طلب افتتاح مسجد أو بيت صلاة، مع قائمة مفصَّلة بجميع أفراد «المؤمنين» المنتسبين إلى الجماعة المذكورة. وقبل رفع الطلب إلى مجلس الشؤون الدينية، يجب أن توافق عليه اللجنة التنفيذية المحلية.

لكن لم يُستلم إلا القليل من الطلبات، وحفلت تغطية غولايفكا للأنشطة الدينية

(25) N. Guliaeva to *raispolkom* representatives, June 28, 1945, *IIIPP*, 92-93, doc. 77.

(26) N. Sabitov to N. Guliaeva, July 10, 1945, *IIIPP*, 94-95, doc. 80.

المحلية، شهرًا بعد شهر، بقدر كبير من القلق العميق. ولقد حذرت سابيتوف في خريف عام ١٩٤٥ من أنه على الرغم من عدم ملاحظة أنشطة إسلامية غير قانونية مؤخرًا في بافلودر، «فلا مناص من القول: إن أثر الجماعة في مجموع السكان المسلمين بدا سلبيًا»؛ فمثلًا، توقف العمال المسلمون عن العمل توقيًا تامًا في عيد الفطر^(١) مؤخرًا، «واتخذوا هذا اليوم عطلةً من تلقاء أنفسهم»، وأغلقت ثلاثة مصانع أبوابها إغلاقًا كاملًا طوال اليوم. وكتبت غولاييفا: «والأدهى أن مديري هذه الشركات رضخوا لهذا الأمر، عوضًا عن بيانه لجماهير العمال»^(٢٧). زد على ذلك أن الأعمال الوطنية التي قامت عليها الجماعات الدينية، وأُشيد بها أيام الحرب، كانت في الوقت نفسه في تناقص ملحوظ؛ ففي الربع الثالث من عام ١٩٤٥، لم يُسهم مسلمو بافلودر لصندوق الدفاع إلا بألفي (٢.٠٠٠) روبل فقط. ورأت غولاييفا أن افتتاح المسجد كان له أثر سلبي على التبرعات الوطنية. ولقد شرحت لسابيتوف أن جامعي التبرعات من المسلمين، قبل افتتاح المسجد، إنما كانوا يفعلون ذلك رجاء «استحقاق هذا التصريح»، وبعد الافتتاح، «لم يعد لديهم ما يدعوهم لفعل ذلك؛ إذ بلغوا مرادهم ومبتغاهم»^(٢٨).

وفي الوقت نفسه، ظلت الأنشطة الدينية غير القانونية قائمةً في الأرياف المحيطة بافلودر، وكذلك استمرت، وفق زعم غولاييفا، اللامبالاة المطلقة / لدى المسؤولين [١٤٣] المحليين. وشرحت لسابيتوف الموقف بحقنٍ جلي في قولها^(٢٩):

«ما زالت لامبالاة إدارات الرايونات بأنشطة المؤمنين قائمة، على الرغم من أوامرنا وتحذيراتنا المتتالية لرؤسائها. وقد ضبطنا في العديد من الرايونات إقامة شعائر صلاة إسلامية منظمّة بإمامة أحد الملالي،

(١) كتبت غولاييفا هنا «عيد رمضان»، ووضع المؤلف بعدها حاشيةً يقول فيه أنه ليس على يقين أيُّ العيدين هو المقصود، الفطر أم الأضحى؛ فأوضحت له أن المقصود هو عيد الفطر، فأقرّ ذلك ووافق على حذف الحاشية. (المترجم)

(27) N. Guliaeva to N. Sabitov, "not before October, 1945," IIIIP, 95, doc. 81.

(28) N. Guliaeva to N. Sabitov, "not before October, 1945," IIIIP, 95, doc. 81.

(29) N. Guliaeva to N. Sabitov, "not before October, 1945," IIIIP, 95, doc. 81.

وقادة الرايون لم يولوا هذا الأمر أهميةً ألبتة... وقد حذّرناهم مرّةً أخرى».

ولقد بدا لغولايفًا كذلك أن طائفةً من الأهالي المسلمين - بدورهم - غير عابئين بالسياسة الرسمية المتعلقة بالنشاط الديني، أو ربما استولت عليهم الحيرة فقط. وعلى الرغم من حظر تصاريح السفر لأئمة المسلمين في محاولة صريحة لعرقله نشرهم «نفوذهم» بين سكان المناطق المجاورة، فقد رفعت غولايفًا تقريرًا لسابيتوف تذكر فيه أن إمامًا مسلمًا من سيمبالاتينسك (Semipalatinsk) «وجّه تعليماتٍ تناقض تعليماتنا، مفادها أن إمام الجماعة المسلمة في بافلودر (كولمغامبيتف) يجب عليه أن يوسّع أنشطته في جميع أنحاء الأوبلاستات كلها»⁽³⁰⁾.

والواضح أن سابيتوف عزا بعض هذه المشكلات إلى ضعف عملية جمع المعلومات، أو على الأقل إلى غموض أنواع المعلومات التي يجب على عملاء مجلس الشؤون الدينية جمعها. ولتوضيح ذلك، عمّم طلبًا في السادس عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٤٥ يورد فيه إحدى عشرة نقطة خاصة يجب توضيحها فيما يلي من تقارير استخباراتية. وتتيح القائمة نافذة مهمة يمكن الإطلاع من خلالها على أنواع المراقبة التي كان مجلس الشؤون الدينية يطمح إلى فرضها على المسلمين⁽³¹⁾:

- (١) سمات الطوائف الأساسية،
- (٢) عدد بيوت الصلاة: (أ) المفتحة بموافقة المجلس، (ب) والمسجّلة بأنها كانت قائمة،
- (٣) بيانات كاشفة عن التركيبة الاجتماعية للمؤمنين،
- (٤) نسبة المؤمنين ومقدار نفوذهم على الجماهير،
- (٥) الطابع الاجتماعي والسياسي لرجال الدين: (أ) تركيبهم الاجتماعية،

(30) N. Guliaeva to N. Sabitov, "not before October, 1945," *IIIPP*, 95, doc. 81.

(31) N. Sabitov, "On Work from the Time of Appointment," November 16, 1945, *IIIPP*, 96-97, doc. 82.

- (ب) معارفهم الدينية، (ج) مقدار نفوذهم على الجماهير، (د) سلوكهم في زمن الحرب وفي الوقت الحالي،
- (٦) اللون السياسي للجماعات الدينية وتوجهها: (أ) أشكال الأنشطة الدينية، (ب) جهود التجنيد وأنشطة البروباغندا، / (ج) أشكال التعرض [١٤٤] للجماهير، (د) موقفها من الحملات الزراعية [أي: العمل الجماعي]،
- (٧) السمات الخاصة بكل طائفة،
- (٨) الجماعات الدينية السرية (*podpol'e*)،
- (٩) ما يواجهه عملكم من أوجه قصور وصعوبات،
- (١٠) منهج عملكم،
- (١١) خلاصاتكم وتوصياتكم بخصوص هذه المسائل كلها.

مُنحت غولايفشا شهرًا لإعداد التقرير المطلوب، وسلّمته في حينه، في الخامس عشر من ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٤٥، لكنه كان يحفل بالأخبار السيئة؛ إذ كتبت تقول: «تصعب الإجابة عن الأسئلة الواردة في مخطّطك ... خاصة فيما يتعلّق بعدد المؤمنين وتركيباتهم الاجتماعية؛ إذ ليس ثمّ بيان بذلك، ولا يمكن إعداد [إحصائية كهذه] في جميع أنحاء الأوبلاستات كلها». ولم تتمكن إلا من إبلاغه بأن تعداد المسلمين في بافلودر يتراوح بين ألفين (٢.٠٠٠) وألفين وخمسمائة (٢.٥٠٠) شخص، وقالت: «ويستحيل عمليًا ذكر شيء عن تركيبة المؤمنين الاجتماعية»^(٣٢). وأما الخلفية الاجتماعية لـ «رجال الدين» فكانت أيسر في تلخيصها، على الرغم من أن غولايفشا، كغيرها من عملاء مجلس الشئون الدينية، وجدت مؤهلاتهم الدينية دون توقعاتها؛ حيث كانت ترى أن أئمة المسلمين في بافلودر ينتسبون في غالبهم إلى خلفيات رعوية (أي من عوام الكازاخ)، تعلموا في المدارس التقليدية، وعملوا لفترة معلمين علمانيين للكازاخ، ثم ادّعوا لأنفسهم المالكية وتمكّنوا من كسب تأييد قسم من السكان. وقد رأت غولايفشا إجمالاً أن هؤلاء المالكي الذين عيّنوا أنفسهم، لم يكن بمقدورهم أكثر من مجرد تلاوة بعض

(32) N. Guliaeva to N. Sabitov, December 15, 1945, *HIIP*, 100, doc. 85.

الآيات المناسبة على الموتى، أو في الصلاة، «وكانوا في غالبهم لا يفقهون شيئاً في الدين»^(٣٣).

وختمت غولايفا تقريرها بتكرار حقيقة أن التبرعات الوطنية قد شهدت تراجعاً كبيراً، وهو ما يرجع جزئياً إلى قيود السفر التي فرضت مؤخراً على الأئمة، وحقيقة أن «نفوذ رجال الدين» قد انعكس بالسلب على السلوك الشائع بالتوقف عن العمل في المصانع إبان الأعياد الإسلامية. وهنا لم تُلَقَّ غولايفا بالأئمة على «رجال الدين» فحسب، بل على غيرهم من مديري المصانع أيضاً. وكتبت تقول: «يشي ذلك بحقيقة أن عدداً من المديرين لا يعون سياسات الدولة السوفيتية فيما يتعلق بالمسألة الدينية»^(٣٤). لكن في الوقت نفسه، تجوهلت «سلسلة التحذيرات» التي أرسلتها غولايفا إلى المسؤولين المحليين فيما يتعلق بتكاثر التجمعات والشعائر الدينية غير القانونية؛ حيث ظلت هذه التجمعات على حالها، ولم يعرقل نشاطها أحدٌ قط^(٣٥). ولكن كيف يمكن للأهالي المسلمين اقتراف هذه المجازفات؟ ألا يعلمون أنهم بذلك يخرقون القانون؟

[١٤٥] / يبدو أنهم كانوا يجهلون ذلك؛ فقد أوضحت غولايفا في تقريرها للشهر التالي، يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٦، أن هذه التجمعات قد استمرت؛ «لأنه من ناحية، لم يكن الأهالي المسلمون على علم بعدُ بإجراءات تسجيل الجماعات، ومن ناحية أخرى، لم تتبه اللجنة التنفيذية المحلية إلى هذا [النوع من الأنشطة]». وأكدت غولايفا أنها أرسلت «مراراً تعليمات إلى اللجان التنفيذية للمناطق حول حظر إقامة صلوات الجماعة»، لكنها لم تجد أذناً مصغية^(٣٦). وفي الوقت نفسه، لم تكن غولايفا محللاً قبول مسؤولي اللجنة التنفيذية للمنطقة إلى حدٍ كبير؛ إذ لم يكن أحدٌ في اللجنة التنفيذية يعمل على قضية «الطوائف الدينية»؛ ومن هنا كانت نقطة الاتصال الوحيدة لديها في الحكومة المحلية تتمثل في رئيس اللجنة التنفيذية للمنطقة، والذي قالت

(33) N. Guliaeva to N. Sabitov, December 15, 1945, *IIIPP*, 100–101, doc. 85.

(34) N. Guliaeva to N. Sabitov, December 15, 1945, *IIIPP*, 101, doc. 85 (التشديد من عندنا).

(35) N. Guliaeva to N. Sabitov, December 15, 1945, *IIIPP*, 100, doc. 85.

(36) N. Guliaeva to N. Sabitov, January 10, 1946, *IIIPP*, 102, doc. 86.

عنه لسابيتوف: «وهو أكثر انشغالاً كما تعلم بمسائل أخرى؛ ومن هنا، لا بد أن يكون تحصيل بعض المعلومات أو طلب تنفيذ بعض التعليمات أمرًا شاقًا للغاية»^(٣٧).

ولم تكن الأمور أفضل حالاً على مستوى الحكومة القطرية - اللجنة المركزية (oblispolkom). واشتكت غولايشا لسابيتوف أنه منذ يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٦، لم يكن لها حتى مكانٌ تعمل فيه في مكاتب اللجنة المركزية؛ ولهذا لم يكن لديها مكانٌ تستقبل فيه الزوار. فكيف يمكنها استضافة الزعامات الدينية المحلية والمخبرين الذين تستقي منهم المعلومات إن لم يكن لديها مقعد تقدّمه لهم؟ وقد توّسّلت لرؤسائها في مجلس الشئون الدينية للتدخل نيابةً عنها لتحسين ظروف عملها^(٣٨).

وقد تلقت غولايشا - عوضاً عن دعمها - توبيخاً بارداً من المكتب الرئيسي للمجلس في موسكو؛ ففي خطابٍ لاذع لغولايشا وسابيتوف، أقرّ نائب رئيس المجلس يوري سادوفسكي (Iurii Sadovskii) باستلامه «كثيراً من المعلومات الصحيحة» منهما، لكنه أضاف أن «ذلك كله غير مرضٍ؛ لافتقاره إلى المعلومات السياسية والبيانات الإحصائية». وعندما تطرّق إلى تقاريرهما عن النشاط غير المرخص، ذكر سادوفسكي أنهما «لم يقدّما أيّ نوع من البيانات المحددة التي تهّم المجلس». وطالب بأن تحدد التقارير المستقبلية أموراً من بينها «دوافع المسلمين في عدم التماسهم منكم افتتاح المساجد، وتفضيلهم إقامة الشعائر الدينية في العراء أو في البيوت الخاصة، دون تسجيل منظمات دينية بالطريقة المحددة لهم». وفوق ذلك، عليهم الانتباه دوماً إلى «الجماعات الدينية السرية» التي تتشكّل - وفق سادوفسكي - من «الجماعات الدينية التي تمارس أنشطة مناهضة للسوفييت»^(٣٩). ولم تعجز غولايشا عن الردّ على خطاب سادوفسكي، وقالت^(٤٠):

(37) N. Guliaeva to N. Sabitov, January 10, 1946, *IIIIP*, 102-103, doc. 86.

(38) N. Guliaeva to N. Sabitov, January 10, 1946, *IIIIP*, 103, doc. 86.

(39) Iu. Sadovskii to N. Sabitov, February 14, 1946, *IIIIP*, 106-107, doc. 88.

(40) N. Guliaeva to N. Sabitov, April 2, 1946, *IIIIP*, 108, doc. 89.

«لماذا لا يتوجه المسلمون إلى الممثلين يلتمسون افتتاح المساجد ويفضلون الصلاة في البيوت الخاصة؟ أولاً، لأنه لم يمنعهم أحد من إقامة الصلاة في البيوت، والحكومة المحلية لم تنتبه إلى ذلك، وكذلك لا يعلم المسلمون قواعد افتتاح المساجد كلها. ويكاد / لا يوجد بينهم متعلّم واحد يعبى لهم الالتماس ويقدم الوثائق كلها».

[١٤٦]

وقد صوّرت غولايفا هذه الحالة من خلال سرد «قصة نجاح» كشفت بعضاً من محتتها، رغم نهايتها المرضية؛ إذ بلغت معلومات عن جماعة من المسلمين في منجم محلي يُقيمون الصلاة في أحد البيوت وفي قبو للطعام أصبح مسجداً غير مسجّل. وقد أخبر «أحد الممثلين المحليين التابعين لأجهزة أمن الدولة» الجماعة بأنه يجب عليها التسجيل في حال أرادت استكمال إقامة الصلاة. وذكرت غولايفا أن إمامهم - إن جازت تسميته بذلك - جاءها يستوضحها كيفية تسجيل الجماعة. وقد اكتشفت أنه أمّي، فساعدته في تسجيل الجماعة، لكنها صدمت من حقيقة أن الجماعة كلها قبل تواصل أمن الدولة معها كانت «راضية تمام الرضا بالصلاة في بيت خاص خلف إمام أمّي»^(٤١). ومعنى ذلك أنهم كانوا في غفلة تامّة عن سياسة الحكومة بشأن التجمعات الدينية. وفي الوقت نفسه، ظلت ظروف عمل غولايفا على حالها من التدهور، حتى توّسّلت لسابيتوف في إبريل / نيسان من عام ١٩٤٦ قائلة^(٤٢):

«يجب أن أذكر مرةً أخرى ظروف العمل الصعبة. وليس ذلك تباكياً مني ... إذ ما قولك إن أخبرتك أنني أطرّد من مكان عملي في الغالب يوميّاً؟ وقد حاولت شرح قيمة عملي وفشلت؛ إذ لا يصحّ أن يأتي ممثلو المجتمع لزيارتي - بوصفي ممثلةً للحكومة - وأستقبلهم هكذا في الردهة، لكن المحاولات التي بذلتها لم تُجد نفعا. والواضح أنه منذ «نُحّي الدين جانباً»، لم يعد له أي سلطة، ولا للعامل الذي يقوم على هذا العمل [بالإشراف على الجماعات الدينية].»

(41) N. Guliaeva to N. Sabitov, April 2, 1946, IIIPP, 108, doc. 89.

(42) N. Guliaeva to N. Sabitov, April 2, 1946, IIIPP, 108, doc. 89.

وفيما يتعلق بالمساعدة التي طلبتها لتحسين ظروف عملي، لم يساعدني لا المجلس، ولا ممثله [الإقليمي] في كازاخستان».

بيد أنه إلى جانب هذه التحديات اليومية الأساسية الملموسة، واجهت غولايفًا تحديًا آخر كان من الصعب عليها التعبير عنه. فإن كان مسلمو بافلودر والمناطق المحيطة بها لم يتمكنوا من استيعاب ضرورة تسجيل المساجد، فإن ذلك لم يكن بسبب أن قوانين التسجيل لم تُشرَح لهم على وجهٍ ملائم. فكما أوضح لها سايتوف في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٤٥، في خطابٍ «إثنوغرافي» غير معهود، ربما لم يألف الكازاخ / أن المساجد، مسجلةً كانت أو غير ذلك، ركنٌ من أركان الأنشطة [١٤٧] الدينية الجماعية، وقال: إن المساجد قبل الثورة لم تكن توجد إلا في المراكز والمدن فحسب. وأما لدى بدو الأرياف - وهم غالبية الكازاخ - «فكانت المساجد قليلة؛ ذلك أنه نظرًا لطبيعة الحياة البدوية، لم تكن لهم بها حاجة». وفي هذه الظروف، «نشأ تقليد مستقر لدى الكازاخ، الذين كانوا بدوًا في السابق، بالعيش دون مساجد ثابتة لأداء صلاة الجماعة». وفي حالة تسجيل جماعات إسلامية جديدة، توقع سايتوف أن تأتي الالتماسات من «ملالي بلا مساجد» يطلبون الإذن بإقامة الشعائر الدينية في العراء أو في البيوت الخاصة^(٤٣).

وكان تسجيل جماعات مسلمة «لا مساجد لها» يعني الانحراف عن السياسة القائمة بخصوص تسجيل الجماعات الدينية؛ ففيما مضى، كانت الجماعة المسلمة تُنسب إلى مسجدٍ معين، كما أن اتحاد العمال كان يُنسب إلى مصنعٍ معين. ولم يكن ذلك حصرًا للجماعة وأنشطتها في مساحة محددة فحسب، بل كان أيضًا عاملاً مفضيًّا إلى تيسير نوع نظام الرقابة الذي سوَّغ التوجه المتسامح مع الدين. فلكي تراقب جماعة ما، يجب عليك تحديد موضعها، وتسجيل الجماعة مع مسجدٍ معين ييسر هذا الأمر. والحقُّ أنه ربما كان تسجيل الجماعات والمساجد معًا هو الإجراء الواضح الوحيد في عهد «التسامح» الديني الجديد. وكانت هذه هي الرسالة التي

(43) N. Sabitov, "On the Conduct of [Religious] Rites in Auls without Mosques," November 16, 1945, *IIIIP*, 97-98, doc. 83.

كررتها غولايقا على مسامع المسئولين المحليين (وقالت: إنها لم تلتق منهم قطُ سامعًا): إن الأنشطة الدينية الجماعية يجب أن تجري في إطار مسجدٍ مسجل. والواقع أن هذه هي الأوامر التي جاءت رأسًا من ستالين نفسه. ويعني ذلك أن مسئول مجلس الشؤون الدينية أمروا بـ^(٤٤):

- (١) دفع أنشطة الروابط الدينية نحو تضييق نطاقها تضييقًا شاملاً،
- (٢) قصر أنشطة الروابط الدينية على بيوت الصلاة و[أغراض] العبادة فحسب،
- (٣) فرض رقابة صارمة على أنشطة المراكز الدينية،
- (٤) إعمال القمع الحازم مع أي نوعٍ من أنواع أنشطة التشكُّلات الدينية [غير المسجَّلة].

لكن إذا كان كثير من الكازاخ لا حاجة لهم في المساجد أو بيوت الصلاة الأخرى، فكيف سيذهبون للتسجيل، وماذا سيسجّلون، لتقنين صلوات جماعتهم واحتفالاتهم وغيرها من الأنشطة؟

[١٤٨] / هنا يصبح خطاب سابيتوف شديد الغموض؛ إذ يقول: «ومن هنا تبرز للممثلين ضرورة مراجعة الأمر للتوصل إلى نتيجة مناسبة». لكن سابيتوف لم يكن بمقدوره -فوق ما تقدّم- أكثر من إخراج الكرة من ملعبه^(٤٥)؛ حيث قال:

«ولتحقيق ذلك، على الممثلين عقدُ مقابلاتٍ خاصة مع أعضاء النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، وأعضاء لجنتها الثورية، ومع مشايخ الأهالي («الأقسقل» *(aksakals)*^(١) المسلمين)،

(44) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 60.

(45) N. Sabitov, "On the Conduct of [Religious] Rites in Auls without Mosques," November 16, 1945, *IIIIP*, 97-98, doc. 83.

(١) الأقسقل (بالأوزبكية: *Ag'saqqallı* - بالقرغيزية: *Аксакал*) كلمة في اللغات التركية تعني «اللحية البيضاء»، وهي تشير إلى كبار الشيوخ من ذوي الهيبة والرأي والحكمة. ويُستخدم هذا التعبير للإشارة إلى رأس القرية والمحلة. وتشكّل مجالس الأقسقل الآن جزءًا من النظام القضائي في قرغيزستان وأوزبكستان. (المترجم)

«لا مناص من ذكر ما يتَّسم به المسلمون الكازاخ من خصوصية؛ إذ يمكنهم تأدية الصلاة بقطع النظر عن وجود مسجدٍ / من عدمه. فوفقَ التراث القديم للشعوب البدوية، يمكنهم أداء الصلاة في العراء. وهم هنا يتبعون هذه التقاليد، ولا يجتهدون في السعي إلى افتتاح المساجد. وكذلك يمكن لرجل الدين فيهم أن يكون أي شخص على حظٍّ من المعرفة بالدين، ويمكنه قراءة بضع آياتٍ من القرآن في الصلاة. ويسر عليهم كل ذلك أداء الصلاة».

وقد أدى ذلك كله إلى الاستحالة العملية لتسجيل المساجد في السهول الريفية المنبسطة في الجمهورية الاشتراكية السوفيتية الكازاخية.

ولم تقتصر المشكلات التي وصفتها غولايشا على مكتبها، أو بالأحرى على رواقها، في كازاخستان الريفية؛ فمستولو مجلس الشئون الدينية في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي اشتكوا من تفشي النشاط غير المسجّل. وهناك العديد من الأمثلة الدالة على قلقهم هذا، ونجد قدرًا كبيرًا من الأدلة في كتاب روثي ذي الستمئة صفحة، والمعنون بـالإسلام في الاتحاد السوفيتي، تنبئ عن القلق من هذه الأنشطة. ووفقَ المؤرخين البارزين للإسلام السوفيتي في منطقة القولغا-أورال، كوروليفا وكوروليف، تثبت سجلات المحفوظات أن أكثر الأنشطة الدينية، كاحتفالات المناسبات المختلفة أو الصلوات اليومية، انعقدت في المساحات الخاصة أو النائية، بعيدًا عن أعين المسؤولين، وهو ما خلص إليه باحثون آخرون أيضًا^(٤٧)؛ حيث أُقيمت المحافل الدينية «غير القانونية» في البيوت والحقول المفتوحة والمقابر. ويبدو أن غالب هذه التجمعات كان يقوم عليها رجال مسنون، لكن بعضها قامت عليه النساء^(٤٨). ويُروى أيضًا أن النساء تولين إمامة بعض الصلوات وقمنَ على حلقات

(47) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 50; cf. also Denisov and Morgunov, *130 let Tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 36.

(48) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 23; 50.

يجوز للنساء على المذهب الحنفي السائد في آسيا الوسطى أن يؤمنَّ غيرهن من النساء، لكن كما يشير تاسار، فإنه «مع بعض الاستثناءات، لم يكن [النساء] يتجرأن على المساجد» (*Soviet and Muslim*, 20).

تدارسنَ فيها النصوص الدينية، وتعلّمنَ قراءة الخطّ العربي^(٤٩). وفي تقريرٍ سري رُفِع إلى بوليانسكي في عام ١٩٤٥ عن الأنشطة الدينية في كويبيشيف، أفاد عميل محلي مجلس الشئون الدينية بأنه حتى بعض الملالي المرخّص لهم يخرقون القانون السوفييتي عندما يتعلق الأمر بالنساء^(٥٠):

«بغية ترسيخ نفوذهم بين الناس، يعظ رجال الدين، لا في المساجد فحسب، بل في البيوت أيضًا، وللنساء على وجه الخصوص. فمن المعلوم أن أحد ملالي مسجد كامشيلينسكي كان يجمع أحيانًا في أحد البيوت جماعةً مكونة من خمس إلى عشر نسوة، من المسنّات في الغالب؛ إذ كنَّ -وفقَ قوله- «يُردن سماع كلام الله»، وهو يتلو عليهم القرآن».

لكن موطن القلق الأكبر تمثّل في ظاهرة العلماء المسجّلين الذين استغلوا منصّتهم «الرسمية» في مناهضة / المشروعات الاجتماعية السوفييتية الأساسية، ولا سيما مشروع العمل الجماعي. فوفقَ أحد العملاء في كويبيشيف، كان غالب «الملالي» المرخّص لهم من الوطنيين، لكن بعض المخزّيين اندسوا بينهم^(٥١):

«كما هو واضح من البيانات المقدّمة، لم يتلقَ قسمٌ كبير من الملالي أي تعليم [ديني] متخصص، وقد اندرجوا في سلك الملالية بعد ثورة أكتوبر، وخصوصًا في أثناء الحرب الوطنية الكبرى. وفيما يلي استعراضٌ لتوجههم الأخلاقي والسياسي: إن غالب الملالي شديدو الولاء للحكومة السوفييتية، ولما تضطلع به من أعمال، ويشاركون

(49) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 22.

(50) "Report on the Activities of Religious Denominations in the City of Kuibyshev and Kuibyshev Oblast in 1945," Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 97.

(51) "Report on the Activities of Religious Denominations in the City of Kuibyshev and Kuibyshev Oblast in 1945," Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 97; cf. also Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 56.

بنشاط في أعمال المزارع الجماعية^(٥٢)... وإن كان بعضهم لم يتقبل بعد نظام المزارع الجماعية في قرانا. فمثلاً، نجد عليموف عدي (Galimov Ady)، ملاً مسجد باكايف (Bakaev) في مقاطعة كامشلينسكي، المولود في عام ١٨٨٢ ويعمل مزارعاً مستقلاً (krest'ianii-edinolichnik)؛ نجده يناهض تأسيس المزارع الجماعية. وكان يتعمد أحياناً إقامة الصلاة في وسط عمل زراعة جماعية نشط ليعطل العمل في المزرعة. (وتعمل مفوضية الشعب للشئون الداخلية على التحقيق مع الملاً حالياً). وفوق ذلك، فإنه يملك في عمله؛ إذ يُظهر كامل الولاء والاحترام للحكومة السوفييتية، ولكنه يلغو بتأويلات مناهضة للزراعة الجماعية في حواراته الخاصة مع المؤمنين».

ومن المشكلات الكبرى أيضاً للملاي المسجلين نفوذهم على المسلمين من خارج دائرة مسجدهم المباشرة، وهي بلا شك مشكلة يصعب اقتفاء أثرها؛ فنجد في بينزا (Penza) المسئولين، وقد انزعجوا من العلامات الظاهرة لسمو مكانة الأئمة المحليين في نظر السكان؛ حيث كان القرويون يبنون منازل لأئمتهم دون الحصول على إذن الحكومة المحلية. ولم يكن المواطنون يعودون إلى أشغالهم في الأعياد

(٥٢) وهنا يضع العميل «لائحة شرف» بالأئمة المسلمين الموالين؛ «فمثلاً، كان ملاً مسجد بلاغوداروف (Blagodarov)، صابروف فالياخت (Sabirov Valiakht) - المولود في عام ١٨٦٩ وشغل منصب ملاً المسجد نفسه منذ عام ١٩٢٨ - عضواً في المزرعة الجماعية، وفي أثناء الحرب الوطنية الكبرى، ظل يعمل في حقول المزرعة الجماعية فلاحاً عادياً، وجمع إلى عمله الخدمة في المسجد. وللملاً احتراماً ونفوذ كبيران لدى المؤمنين وبقية سكان قرية بلاغوداروف. وكذلك ملاً مسجد كامشلينسكي (Kamyshtinskii)، شاريبوف محمد علي (Sharipov Mugamedgali) الذي كان عضواً في المزارع الجماعية وعاملاً فيها، تعلق خطبه بالقضايا التي تواجه المزرعة الجماعية. وشمردانوف (Shamardanov) ملاً مسجد رايون دينيشنكو شنتالنسكي (Denichenko Shentalinsky)، كان في أثناء فراغه من [أعمال] العبادة، يعمل في القرية صانع مواقد ونجاراً وسمكرياً وفي مهن أخرى. وهناك ملاي آخرون يمارسون حياتهم بوصفهم مواطنين صالحين في الدولة السوفييتية».

"Report on the Activities of Religious Denominations in the City of Kuibyshev and Kuibyshev Oblast in 1945," Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 97

الكبرى إلا بعد أن يأذن لهم الأئمة. وفي الخريف، لبى المواطنون طلب الإمام وأحضروا كمية كبيرة من حطب النار، في حين خلت المدرسة المحلية من الحطب^(٥٣). ولقد خطَّط بعض الأئمة لنظام تعليمي مختلف، قال عنه أحد العملاء في كويبيشيف: «إن الشغل الشاغل للمسلمين جميعاً في الوقت الحالي هو جذب الشباب إلى صلاة الجماعة ومقارئ القرآن. وقد أثار بعض رجال الدين غير مرة مسألة إمكانية تعليم الأطفال قراءة القرآن في المدرسة أو البيت، ومسألة عقد مدارس دينية إسلامية خاصة»^(٥٤).

وفي بافلودر، حدّرت غولايشا رؤساءها من تفاني الأهالي المسلمين الشديد في التبرع للمسجد، وقالت: «أناس يمنحون / آخر ما لديهم من كوبيكات (kopeks)^(٥١)، [١٥١] غير عابئين بفقرهم». وفي الوقت نفسه، لاحظت أن بعض أعضاء الحزب يتردّدون على المسجد، ومنهم ستاخانوفيين^(ب) ونخب أخرى. وصاغت غولايشا منطق تفكيرهم [أي الستاخانوفيين - م] كما يلي: «طالما أنني لا أكتفي بإنجاز ما تعهد به الدولة إليّ من أعمال، بل أزيد عليه، فما الضير من الذهاب إلى الصلاة؟!». وحدّرت رؤساءها قائلةً: «إن كان للإسلام أثرٌ على من هم في الطليعة، فإن أثره على من خلفهم من عوامّ الناس أشد»^(٥٥).

وفي أوبلاست تيومين، حيث لم يسجّل السوفييت أي جماعة مسلمة مرخّصة لأحد المساجد إلا في عام ١٩٤٧، حدّرت المسئولون من أن افتتاح المسجد قد يرفع عدد «المؤمنين» في المنطقة بمقدار ضعفين أو ضعفين ونصف، وستأتي بعدُ المزيد

(53) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 50.

(54) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 62.

(أ) الكوبيك يساوي ١٠٠ / ١ من الروبل. (المترجم)

(ب) الستاخانوفيين هم أتباع نموذج عامل المناجم أليكسي ستاخانوف (Alexey Stakhanov) الذي ضرب المثل في التفاني في العمل لإنتاج ما هو أكثر من المطلوب منه، وتحولت بعده إلى حركة تشجع على هذا التفاني. (المترجم)

(55) N. Guliaeva, "[Report] on Works during the Second Quarter of 1946," June 28, 1946, *IIIIP*, 114-115, doc. 95.

من التماسات فتح المساجد. وبالفعل، قُدِّم كثير من الالتماسات في عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩، ولكنها رُفضت جميعًا بذريعة العجز في المساحات أو التمويل^(٥٦).

وفي الوقت نفسه، ظل إمام بافلودر كولمغامبيتف، رغم تنعُّمه بأفضال الدولة لسلوكة الوطني وكونه من الأئمة المرخص لهم، يثير حنق مسئولي مجلس الشئون الدينية الإقليميين؛ بسبب ما دأب عليه من محاولة نشر «نفوذه» في المناطق المجاورة^(٥٧). وفي نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٤٥، وبَّخه من سايتوف الذي حثَّ غولاييفا على إبلاغه بأنه يتوجَّب عليه التقليل من سفراته إلى بافلودر وما حولها؛ إذ إن أنشطته «لا بد أن تقتصر على منطقة الجماعة المسجَّل فيها»^(٥٨). وبحلول يونيو/ حزيران من العام التالي، لم يعد كولمغامبيتف على وفاقٍ مع جماعته، ولم يتمكن من الاعتماد على مسئولي مجلس الشئون الدينية في الاحتفاظ منصبه. وفي معرض تأملها قصة الإطاحة بهذا الإمام، أنحت غولاييفا بالأئمة على الثارات القبليَّة بين الكازاخ و«الصراع بين رجال الدين لديهم على منصب الإمام المربح». وقد شرحت ذلك لسائتوف قائلة^(٥٩):

«تتجلَّى هذه المشكلات في تعيين إمام جديد لمسجد بافلودر. فعندما وصل بكتاسوف (Bektasov)، الإمام الجديد، امتنع كولمغامبيتف الإمام السابق عن ترك منصبه بأية طريقة. وتصاعد الأمر حتى أصبح فضيحةً كبيرة، بل شجارًا إلى حدِّ ما. إن الإمام كولمغامبيتف

(56) Kliueva, "Zhizn' v ateisticheskom gosudarstve: musul'manskie obshchiny

Tiumenskoï oblasti (1940-1960-e)." gg.)," 117.

(٥٧) وبالتحديد، سعى كولمغامبيتف إلى استلام وظيفة إمام الأوبلاست كله، بناءً على ترتيبٍ أُرسي منذ العشرينيات مع النظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا، يشغل بموجه أئمة بافلودر هذا المنصب. وقد ضمن كولمغامبيتف تأييد قاضي النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان في الجمهورية الكازاخية لهذا الطموح. وإني شديد الامتنان لأن فرانك على منحي هذه المعلومة.

(58) N. Sabitov to N. Guliaeva, November 22, 1945, IIIPP, 99, doc. 84.

(59) N. Guliaeva, "[Report] on Works during the Second Quarter of 1946," June 28, 1946, IIIPP, 113, doc. 95.

لا يعترف بأية قواعد، ويرى أن الناس هم من اختاروه، وهم لا غيرهم
من يحقُّ لهم عزله. وحتى يحقق ذلك، دار على البيوت ليجمع
توقيعات مؤيديه».

ظلت دقائق السياسة القبلية عَصِيَّةً على فهم غولايفشا، شأن كثير من الأمور
المتعلِّقة بـ «الحياة الداخلية» للجماعات الدينية. ولم تتمكن من / طرح الكثير من [١٥٢]
التأملات حول هذه القضايا، وظلت المعلومات التي تقدمها لرؤسائها عن الحياة
الدينية في بافلودر وما حولها، حتى بعد شهورٍ عدة من عملها في خدمة مجلس
الشئون الدينية، هزيلةً للغاية، وهو الأمر الذي شكاه منه رؤساؤها. فنظريًا، من المتوقع
أن يني الممثلون المحليون لمجلس شئون الطوائف شبكةً من المصادر والتحالفات
مع المسؤولين المحليين في اللجان التنفيذية للمقاطعات. فكما بيَّن مفوض المجلس
في منطقة بينزا، تُجمَع المعلومات على يد «ممثلي اللجان التنفيذية في المقاطعات
وأمنائها، ومن خلال التحاور مع الزوار (من المؤمنين ورجال الدين ومن جاء من
الناس ليناقدش أمورًا دينية)، ومن خلال مقابلات مع ممثلي الأجهزة السوفيتية
والمؤمنين الأفراد عند زيارة الحقول»^(٦٠). ولكن عمليًا، وكما توضح تجربة غولايفشا،
فإن بناء هذه العلاقات من الصعوبة بمكان؛ ذلك أن المسؤولين المحليين لم يكن
لديهم أي اهتمام بغولايفشا، ولا احترام لعملها، ولا حتى فهم للسياسات الدينية التي
تطمح إلى تنفيذها، ولم يكن لها -على الحقيقة- مكانٌ بينهم. ويبدو أنها كانت
أحسن حظًا في جمع المعلومات من المواطنين المحليين، على أن عجزهم عن
استيعاب الحاجة إلى التسجيل أغضبها.

وفي مكانٍ آخر، صادف المسؤولون المحليون لمجلس الشئون الدينية عائقًا أكثر
جوهرية يحول بينهم وبين جمع المعلومات؛ ففي منطقة كوبيشفس ذات الأغلبية
الترتية، حيث تُودَى جوانب الحياة الدينية الإسلامية كلها باللغة الترتية (ما عدا
الصلوات العربية)، لم يكن ممثِّل مجلس الشئون الدينية يعرف الترتية^(٦١).

(60) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 62.

(61) Koroleva and Korolev, *Islam v Srednem Povolzh'e*, 62.

وفي الوقت نفسه، ظلَّت سياسة الدولة نحو الدين - التي كانت كثيرة التقلُّبات منذ الأيام الأولى للحرب - شديدة الالتباس، تطراً عليها تغيرات حاسمة أمام مسؤولي مجلس الشئون الدينية. وعلى مرَّ العقود السابقين، خلص عددٌ من المؤرخين إلى أن عهد «التسامح» الديني الرسمي انقضى في عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩، خلال الفترة التي أُقيل فيها خ. س. باغاييف - الذي التقينا به أول الفصل - لـ «سوء سلوكه» بوصفه «شريكاً» للنخب الدينية المنفلتة العقال^(٦٢). وقد عُمِّمت في عام ١٩٤٨ مذكرةٌ داخليةٌ بين مسؤولي مجلس الشئون الدينية تعلن أن تسجيل الجماعات الدينية الجديدة يجب وقفه^(٦٣)، وفي أغسطس / آب من العام التالي، وقَّع ستالين قراراً يُبطل إذناً صدر بفتح مدرسة في طشقند^(٦٤). (لكن يعقوب روائي وبختيار باباجانوف (Bakhtiyar Babazhanov) أشارا إلى تحولٍ أسبق من ذلك ناحية سياسات دينية أحزم، بدأت ملامحها في الظهور في غضون عامٍ أو عامين من نهاية الحرب)^(٦٥).

غير أنه في قرارٍ منسوب إلى ستالين صدر من موسكو في يناير / كانون الثاني من

(62) Sulaev, "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi Voine 1941-1945 gg.," 24.

(63) Khakimov, "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarstvennoreligioznoi politiki v SSSR," 97.

(64) Nabiev, *Islam i gosudarstvo*, 100.

وافق مولوتوف شخصياً على افتتاح هاتين المدرستين في أكتوبر / تشرين الأول من عام ١٩٤٥. وقد نُشرت مذكرة الإذن في: (ISG3, 40).

(٦٥) يطرح روائي التسلسل التالي: «تقنين للدين» بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٧، ثم تراجع طفيف للوراء بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٤، ثم «تحرر أكبر» بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨، ثم حملة جديدة مناهضة للدين بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٤ (Ro'i, *Islam in the Soviet Union*, 10). أما فكرة استمرار السياسات المناهضة للدين في عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ فيدعمها باباجانوف (Babazhanov)، الذي يذكر هجمةً جديدةً في ذلك الوقت على «البقايا» (perezhitki) من قبيل شدِّ الرحال إلى الأضرحة. انظر:

"O fetvakh SADUM protiv 'neislamskikh. obychaev,'" in A. Malashenko and M.B. Olcott, eds., *Islam na postsovetskom. prostranstve: vzgliad iznutri* (Moscow: Carnegie Center, 2001), 171.

عام ١٩٤٦، وعُمِّم على مسؤولي مجلس الشؤون الدينية، نجد دليلاً على القول بأن سياسات «التسامح» في زمن الحرب ظلت قائمة في فترة ما بعد الحرب؛ إذ سمح [القرار] بافتتاح بعض المساجد وبيوت الصلاة الجديدة، وإن كان بإذن المجلس. والمدهش أن هذه الوثيقة قد سمحت لأئمة المسلمين المرخص لهم بالعمل / في [١٥٣] أنشطة اقتصادية خاصة (أي أنشطة «رأسمالية»)؛ بغية رعاية جماعاتهم، ومن هذه الأنشطة تصنيع «الأغراض» (*utvari*) الدينية وبيعها وغيرها من الحاجيات الدينية الأخرى، وذلك بالإضافة إلى بناء العقارات الخاصة (*sobstvennost*) غير «بيوت الصلاة» وتأجيرها وبيعها^(٦٦). بيد أن تلميحات قوية عن سياسة أكثر تقييداً بدأت تصدر عن موسكو بعد أقل من عام واحد^(٦٧).

إن عدم اتفاق المؤرخين على التسلسل الزمني للسياسات الدينية يعكس الالتباس الدائم الذي عاشته هذه السياسات ذاتها^(٦٨)؛ إذ إن توجيه ستالين الصادر في عام ١٩٤٦ سمح لمسؤولي مجلس الشؤون الدينية بالترخيص بفتح مساجد مسجّلة، لكن هل يعني ذلك أنه يجب عليهم فعل ذلك؟ وإن وجب، فما معدله؟ كذلك سُمح للجماعات المسجّلة بشراء بعض المواد وبيعها بإذن مسؤولي المجلس، ولكن هل يعني ذلك أنه يجب على هؤلاء الإذن لهم؟ أم أن هذه السياسات «التسامحية» كانت في ظاهرها مجرد استراتيجية لمراقبة الالتماسات، في إطار استراتيجية أوسع لمراقبة أنشطة الجماعات الدينية؟ لقد تُرك أمر التفاوض على هذه الأمور لمسؤولي مجلس الشؤون الدينية ولرؤساء النظارات الدينية.

(66) I. Stalin and Ia. Chadaev, "On the Prayer-Houses of Religious Communities," January 28, 1946, *IIIPP*, 103, doc. 87.

(67) Denisov and Morgunov, *130 let Tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*, 33.

(٦٨) يلخص تاسار الأزمة تلخيصاً مناسباً، فيقول: «كما تعزز المناخ الجديد بعدم وجود ضوابط على الإسلام؛ فالتنظيم الرسمي للدين في جميع أنحاء البلاد كان في حالة فوضى خلال الحرب وبعدها؛ ذلك أن ستالين لم يصدر أي توجيه واضح حول السياسة الدينية بعد رفع الإرهاب الكبير، والأنكى أن جهاز الحزب قدّم القليل، إن كان قدّم شيئاً، من التوجيهات للبيروقراطيين القطريين حول تنفيذ الإصلاحات الدينية في عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤؛ ولذلك، لم يجد المسؤولون حافزاً يدفعهم نحو تضييق الخناق على الدين، موجّهين طاقتهم إلى مكان آخر». (*Soviet and Muslim*, 50-51.)

وعندما وُبِّخَ باغاييف وأُقيل من منصبه في عام ١٩٤٩، كان من الأدلة الأساسية التي أفضت إلى إدانته بـ «شراكة» المتدينين المارقين، واقعة مساعدته للأئمة المسلمين في قازان على شراء سيارة؛ فقبل: إنه انحرف بهذا الصنيع عن السياسات الدينية للحزب. لكن الواقع أن شراء الأئمة المرخص لهم للسيارات، بموافقة مسئول مجلس الشئون الدينية (من أمثال باغاييف)، قد صرَّح بجوازه ستالين نفسه في المادة السابعة من قراره الصادر في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٦^(٦٩). وعلى حدِّ علمي، لم تُلغ هذه المادة بعد ذلك قطُّ.

إلا أنه في أثناء عمل باغاييف في مكاتب مجلس الشئون الدينية، تغيرت الأمور تغيرًا حاسمًا. ولا يبدو أنه أغفل أي مذكرات سياسية مهمة، وإن كان من المؤكد أن فاتته بعضُ الهمسات^(١). وبعد، فإذا كان أعلى مسئولٍ في مجلس الشئون الدينية في الجمهورية الاشتراكية السوفيتية التتية قد «أساء فهم» سياسة الدولة تجاه الدين، فهل يُنتظر من المسؤولين الأدنى -دع عنك المواطنين المسلمين العاديين- استيعابها؟

(69) I. Stalin and Ia. Chadaev, "On the Prayer-Houses of Religious Communities," January 28, 1946, *IIIIP*, 103, doc. 87.

(أ) يومئذ المؤلف ساخرًا إلى أن إقالة باغاييف كانت مؤامرة اتخذت من بعض ما زعمت أنه مخالفات وقع فيها ذريعةً لتخطيطه. (المترجم)



/ يروي هذا الكتاب قصتين متضافتين عن المسلمين السوفييت إبان الحرب [١٥٤] العالمية الثانية؛ أولاهما: عن الحياة الدينية للمواطنين المسلمين، وفيهم الجنود وعائلاتهم على الجبهة الداخلية والزعامات الدينية الأهلية، وقصتهم قصة انبعاث ديني واسع النطاق زمن الحرب، ويتجلى هذا الانبعاث في أدب الحرب ومذكرات المحاربين القدامى والخطابات الواردة إلى الجبهة والصادرة منها وقصص شهود العيان والالتماسات، إلى جانب تقارير العملاء السوفييت التي كانت في العادة تفيض سخطاً بسبب الطفرة غير المسبوقة التي شهدتها الحياة الدينية في أشكالها الظاهرة. وكان ذلك بمنزلة ثورة اجتماعية متواضعة، غير أنها ذات مغزى، أقرتها الدولة إلى حد ما إقراراً ضمنياً في ابتداء أمرها بالتسامح معها، ثم إقراراً صريحاً أعرب عن نفسه فيما قدّمته من دعم حكومي، وإن كان محدوداً. وأما القصة الثانية فعن تفاعلات الدولة؛ أي: عن تطور أولوياتها واستراتيجياتها نحو الدين، وعن الصّلة بين الدولة والنّخب المسلمة، وعن البروباغندا التي ابتكراها وأحسنها في تأليفها سوياً، وعن السّبل التي أصبحت من خلالها المؤسسات التي رخصت بها الدولة قناة للمشاركة الشعبية، التي تجلّت في أمثلة من قبيل التماسات التسجيل، وارتياح المساجد المسجّلة والمفتحة حديثاً، والزكاة والصدقات في رمضان، وتقديم التبرعات للمجهود الحربي من خلال القنوات الدينية.

وتتلاقى هاتان القصتان عند كل مواطن سوفييتي مسلم؛ بوصفها موضوعاً للحياة للتعبدية، وبوصفه «الموضوع» المستهدف بالبروباغندا. ولكن لا مناص من السؤال:

هل كان للبروپاغندا الدينية في زمن الحرب أي أثر على المسلمين السوفيتية؟
ولماذا آل الأمر بالمسلمين السوفيتية إلى خوض غمار الحرب؟

كان لدى الجندي صاحب المدفع الآلي القيرغيزي أسرال كاليتشيف (Asral Kalychev) إجابةً يسيرةً، يعبر بها عن نفسه على الأقل؛ حيث قال: «في سبيل الوطن، وفي سبيل ستالين، ستالين الذي بفضل أمست البلاد قوية. إنه رجل قوي». فثنى المحاور، الذي فاجأته إجابة الشيخ الملتحي بلا شك، بسؤال عن الدين يقول: «هل كنت مؤمناً بالله على الجبهة؟»، فأجاب: «إننا لا ننسى الله قط، وعلى الجبهة أيضاً؛ الله»^(١).

وينطوي موقف كاليتشيف من ستالين على أهمية خاصة؛ لأنه مُعبرٌ وغير مُعبرٍ في آنٍ معاً؛ فبعض الجنود يتطرقون في أشعارهم ومذكراتهم إلى الوطن والعائلة والرفاق، ونادراً ما يُذكر ستالين^(٢)، / في حين أن بعضهم يذكره كثيراً. ولكن هذا التنوع نفسه نقطة اختلاف واضحة بين بروپاغندا الدولة التي تحفل بذكر ستالين، وبين أحاديث شهود العيان وكتاباتهم. وهناك اختلافات أخرى، منها أن البروپاغندا السوفيتية زمن الحرب كانت انتصارية في الغالب، تركز على النصر النهائي على هتلر، وابتهاج المناطق المحررة، والمجد المترتب على الانتصار في المعركة، ولم يُسمح [فيها] لأبطال الجيش الأحمر بالبكاء. ولكن شعر المسلمين في الحرب، ومضمون المقابلات مع المحاربين القدامى، جاء على النقيض من ذلك؛ إذ يحفلان بأمارات الفجيعة والفراق والعنف واليأس. وفي الوقت نفسه، تُصوّر الحرب على أنها جناية هتلر، لا ستالين. ولا يُذكر هذا الأخير أحياناً إلا لئيمجده، ولا يُلام أبداً. وبهذا المعنى، كان السؤال حول سبب القتال لا معنى له، مع وضوح العدو وتجليه.

(1) "Za chto vy voevali?" "Za Rodinu, za Stalina. Stalin—eto tot chelovek, blagodaria komu strana krepko stoiala. Krepkii chelovek byl." "Na fronte verili v Allakha?" "Allakha my ne zabyvaem. I na fronte tozhe Allakh."

(٢) حوار مع أسرال كاليتشيف:

<https://iremember.ru/memoirs/pulemetchiki/kalichev-asral/> (accessed April 11, 2020).

لقد كانت حربًا دفاعيةً، مسوّغها حفظُ النفس. ولم يتطوع للقتال من المسلمين السوفييت إلا عددٌ قليل نسبيًا في البداية، وكانت روحهم المعنوية وقناعتهم في العام الأول من الحرب في الحضيض، شأن الجيش الأحمر كله. ولكن مع التقدّم الذي أحرزته جيوش هتلر وذيوع أخبار الفظائع التي اقترفها جنود المحور ضد المواطنين -بغض النظر عن دينهم- تجلّى للجنود ومواطني الاتحاد السوفييتي كله الطابع الوجودي للحرب. لم تكن الحربُ -كما تظهر في كثير من مصادرها الإسلامية- حربًا في سبيل ستالين، بل حربًا على هتلر، ولم يذهب أحد قطُّ إلى الظنِّ بأن هذا الكفاح دفاعٌ عن ستالين أو الحكومة السوفييتية. بل عدّ دومًا دفاعًا عن أشياء أقدس كثيرًا، هي الوطن والعائلة والجماعة. وكان الإيمان الديني -على اختلاف الأديان- قاسمًا مشتركًا وركنًا من الأركان التي تقوم عليها كثير من الطوائف والعائلات والأوطان السوفييتية، وإن لم يكن كذلك لدى جميعها.

ولئن كان هدفُ پروباغندا الدولة السوفييتية رصّ الصفوف خلف ستالين والشيوعية، فقد ساغ لنا أن تساورنا الشكوكُ في أن پروباغندا زمن الحرب قد أخفقت في غالب أحوالها؛ ذلك أن الوثائق الشخصية والعائلية والمذكرات والذكريات لا تعكس كلها القدر نفسه من الاهتمام بهذين الركنين. وتعبّر كلماتُ الشاعر يوري بيواش (Iurii Belash) الذي شارك في القتال على الجبهة عن كثير من هؤلاء الجنود⁽³⁾:

أقول صادقًا،

لم يطرق ستالين في الخنادق بالنّا

بل سبقه الله إلى أفئدتنا

لم يذكره في الهيجا جنودنا

ولم تتطرّق إليه أحاديثنا

لم يكن في ذلك حاجة لنا

(3) George Gibian, "World War 2 in Russian National Consciousness: Pristavkin (1981- 7) and Kondratyev (1990)," in John Garrard and Alison Healicon, eds., *World War 2 and the Soviet People: Selected Papers from the Fourth World Congress for Soviet and East European Studies* (London: Palgrave, 1990), 155.

/ أما إن كان الهدف من هذه البروباغندا صياغة رؤية جذابة لـ «الوطن»، لـ «النحن»، اللذان يستحقان الدفاع عنهما، فربما حققت نجاحًا محدودًا. ولا شك في أننا نجد بواعث البروباغندا وتعبيراتها المجازية حاضرة في الكتابات الشخصية لجنود الجبهة الموجهة إلى العائلة والأحباب دون غيرهم. وقد تزوجت بواعث البروباغندا هذه لدى الجنود المسلمين مع بعض الموضوعات الإسلامية، لتعكس -أو تردّد على الأقل ترديدًا باهتًا- صدى البروباغندا الإسلامية السوفيتية التي برزت بدعم من الدولة في السنوات الأخيرة من الحرب.

ومع ذلك، فإن حملة البروباغندا الدينية السوفيتية كانت محدودة النطاق ومتأخرة وموسومة بالخداع المكشوف؛ حيث قيل للمواطنين العارفين: إن الاتحاد السوفيتي كان على الدوام موطنًا سعيدًا للمسلمين؛ يرضى دينهم ويضمن تقريرهم لمصيرهم. وكانت خطابات بعض الأئمة، مثل: باباخان ورسولوف، تُبث أحيانًا في المحافل الكبرى، كما لاحظ كارل بيركهوف^(٤). ولم تنشأ دور إفتاء هؤلاء الأئمة إلا قبل أقل من عامين من نهاية الحرب، وقد بيّن إرين تاسار حدود نطاق نفوذهم في العقود التالية، ولكن يبدو أن نفوذهم وبروزهم بين السكان المسلمين لم يكن قد بلغ أقصى ما يمكنه بلوغه حين كانت دور الإفتاء لا تزال في أوّل أمرها.

ولذلك كله، هل يصحُّ قولنا: إن دور الإفتاء، ناهيك عن البروباغندا التي قامت على نشرها، كانت قوة ذات ثقل في الحرب العالمية الثانية؟ يرى بعض المؤرخين أن دور الإفتاء لم تكن أكثر من مجرد قوة هامشية لا تكاد تُرى، حتى في العقود التالية^(٥). بيد أنني أحاجج -خلافًا لذلك- بأن دور الإفتاء محكُّ أساسي لتعقُّل الحياة الإسلامية السوفيتية في عهد ستالين وما بعده. والحقُّ أنه يمكنني إيراد خمسة عشر مسلكًا يمكن من خلالها لموضوع دور الإفتاء -في سياقها التأسيسي الأوسع،

(4) Berkhoff, *Motherland in Danger*, 209; 216.

(٥) انظر:

Adeeb Khalid, Review of *Soviet and Muslim: The Institutionalization of Islam in Central Asia*, by Eren Tasar, *Slavic Review* 77/4 (2018), 1035-1037.

أعني: سياق الثورة الدينية في زمن الحرب - أن يسَلط الضوء التاريخَ الديني السوفييتي.

أولاً: كانت دور الإفتاء عند المواطنين المسلمين السوفييت المثلَّ الأبرز على تراجع القمع الديني، وتغيُّر السياسة الدينية في أثناء الحرب، على الشاكلة نفسها التي كانت بها عودة سيرغي بطيرغا رسمياً نقطة تحول رمزية عند المسيحيين الأرثوذكس، ما زالت تُذكر حتى اليوم بعد مرور ثمانين عاماً.

ثانياً: تتيح لنا پروباغندا التي وضعتها الدولة بالتعاون مع نخبة «أصيلة» - كانت موضع التبجيل والتقدير في زمن ما قبل السوفييت (من أمثال باباخان) - لمحة مهمة عمّا كانت هذه النُخب على قناعة بأنه يلائم القسم الأكبر من المسلمين السوفييت؛ إذ لم يكن ثمَّ أحدٌ على قيد الحياة آنذاك يعي قيم الثقافة الإسلامية في آسيا الوسطى، كما كانت قبل السوفييت، الوعي الأتمّ، كما وعها / إيشان باباخان، سليل أحد [١٥٧] أشرف أنساب المنطقة، والذي قارب عمره الستين عند قيام ثورة أكتوبر [١٩١٧]. وكان باباخان أبعد ما يكون في المجتمع السوفييتي عن نموذج الملحد المولود في موسكو الذي تلقى تعليماً سوفييتياً. ومن هنا يمكننا فهم الكثير عن تصور باباخان لما يمكن أن يحفز أهل ملته. ويصدق ذلك خاصةً على ترويج باباخان، لأغراض پروباغندا، لجوانب من الحياة الإسلامية كان قد تقدّم له الإنكار على فاعليها، مثل: زيارة الأضرحة، والتقاليد الصوفية الباطنية. لقد ألقى على مسامع جماهيره ما أرادوا هم سماعه، واستندت تقديراته إلى خبرته الشخصية وما عايشه طيلة حياته، بعيداً عن صياغات الإلحاد العلمي الماركسي اللينيني ووصفاته.

ثالثاً: في حين أن بيركهوف يدفع بأن أكثر ما تفرّدت به پروباغندا السوفييتية زمن الحرب هو هيمنة الدولة المطلقة على صياغتها^(٦)، فإن پروباغندا دور الإفتاء الدينية السوفييتية تكشف نوعاً من پروباغندا لم يكن مرجعه إلى موسكو. إن هذا «النوع» مثلاً على پروباغندا الدولة بوصفها خطاباً تفاوضياً؛ إذ تضع موسكو توجهات حول سياقه، لكنها تضطر حين يتعلق الأمر بالمحتوى إلى اتباع النُخب الدينية. وكما نجد

(6) Berkhoff, *Motherland in Danger*, 4.

في الفصل الثاني، سمحت مساحات التفاوض هذه للزعامات الدينية بصياغة منظوراتٍ وقيم كانت قبل سنواتٍ قلائلٍ محرّمةً، بل ومخوفةً.

رابعًا: أفضى إنشاء دور الإفتاء إلى سيلٍ متدفقٍ من الالتماسات قدّمها المسلمون السوفييت، طالبين فيها كل شيءٍ من إعادة فتح المساجد إلى استرداد لوازم الشعائر الدينية. ويومئ هذا -على الأقل- إلى انتشار الوعي بهذه المؤسسات الجديدة، فضلًا عن استعداد بعض المواطنين لاختبارها بوصفها قنواتٍ لتوسعة نطاق النشاط الديني في سياقات جديدة و«قانونية» في الظاهر. ويقدر ما يبدو ذلك متواضعًا، فإنه يطرح رؤيةً جديدةً على الأقلٍ لعلاقة الدولة السوفيتية بحقوق كل فرد وامتيازاته.

خامسًا: يمكننا القول: إن دور الإفتاء ورؤساءها لم يكونوا مجرد أبواق دعائية ولا موظفي اتصال بيروقراطيين، وإنما كانت مسؤولياتهم الدينية الرسمية مسئوليات ضخمة. فحتى في العامين الأولين لوجود دور الإفتاء زمن الحرب، قام رؤساؤها على الوظائف التقليدية للنخب الدينية الإسلامية؛ إذ قاموا، هم أو آخرون من ذوي الصلة بهذه الدور (من خلال التسجيل أو العلاقات غير الرسمية)، على الجنازات وعمليات الختان والزيجات، وألقوا الخطب بانتظام، وأشرفوا على الوظائف اليومية للمساجد المُفتّحة حديثًا. وقد أسهم هؤلاء على الجُملة إسهامًا كبيرًا في الحياة الدينية اليومية زمن الحرب، وكان لذلك أيضًا أثر على المجهود الحربي؛ / إذ كان جنود الجيش الأحمر المسرّحين من بين رواد المساجد، ودُفن كثير من ضحايا الحرب وفق الشريعة الإسلامية.

سادسًا: أسهمت دور الإفتاء في المجهود الحربي مساهماتٍ أكثر مادية، كما بيّننا في الفصل الثالث؛ حيث جمع أئمة المسلمين مبالغ ضخمة من المال بفضل التبرعات المجمّعة في المساجد والمحوّلة من خلالها. وكثير من هذه التبرعات «الوطنية» ارتبطت صراحةً بالصدقات الإسلامية التقليدية؛ إذ كانت في الغالب تخرج في شكل الزكاة. وبطبيعة الحال، ضخّمت المصادر السوفيتية حجم التبرعات، وكان هناك أشكال من الإكراه والفساد. ومن المعقول أن نسأل عن عدد «التبرعات» التي كانت في الواقع رشىً وجهودًا فردية لضمان دعم الدولة أو دفع

«تكاليف تشغيل» مشبوهة. لكن لا يمكن إنكار الأدلة القائمة على أن المؤسسات الإسلامية (كنظيراتها المسيحية) تبرعت بمبالغ ضخمة لصالح أعمال الحرب، وهي حقيقة أقرَّ بها عتاة الملحدين من المسؤولين أنفسهم. وهكذا، فإن أئمة المسلمين السوفييت لم يجمعوا القلوب والعقول على حرب هتلر فحسب، بل جمعوا كذلك دباباتٍ وبنادق وقنابل.

سابعًا: لمَّا كانت دور الإفتاء حلقة وصل بين المسلمين والدولة الملحدة، فقد أشاعت تصورًا عن الاتحاد السوفييتي الستاليني بوصفه ضربًا من الدولة «التشاركية»، وهو ضربٌ استنبتته ستالين بطرائق عدَّة^(٧). ولقد أرسل مجرد وجود دور الإفتاء، بغض النظر عن أنشطتها المتنوعة، للمواطنين إشارة مفادها أن مساحةً جديدة محدودة من الفاعلية قد انفتحت، وهي إشارة واضحةٌ تخترق ضباب السياسات مؤدَّاهَا أن المشاركة في الحياة الدينية العامة لم تعد صنوًا للتمرد. بل على العكس، قد تكون الحياة الدينية منسجمةً مع قانون الدولة وقيمها والحرب على هتلر، بل منسجمةً مع الوطنية السوفييتية.

ثامنًا: خلقت هذه المساحة الجديدة ما هو أكثر من مجرد ذهنية جديدة نحو العلاقة بين الدين والدولة؛ إذ هيأت فرصًا حقيقية للحراك الاجتماعي في المجال الديني؛ ففي أشد الحالات دراماتيكية، نجد بعض من كانوا في القريب من «معتقلي الرأي» يُسحبون من معسكرات الغولاغ رأسًا إلى المناصب الدينية. وعلى المستوى الأعم، نجد أن من كانوا سابقًا من الموظفين الدينيين وتحولوا إلى وظائف «علمانية»، تمكَّنوا من العودة لممارسة العمل الديني. وتقدِّم الدراسات التاريخية المحلية الكثير من سير أفرادٍ عملوا موظفين في الحكومة أو فلاحين طوال العشرينيات والثلاثينيات، ثم وجدوا أنفسهم أئمة أو قضاةً في دار الإفتاء خلال الأربعينيات والخمسينيات.

(٧) انظر:

Paolo Sartori and Bakhtiyar Babajanov, "Being Soviet, Muslim, Modernist, and Fundamentalist in 1950s Central Asia," *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 62 (2019), 110.

تاسعًا: في حين أن مؤرخي عصر الحرب الباردة قسّموا الإسلام السوفييتي تقسيمًا نمطيًا إلى مجالين دينيين منفصلين، أحدهما المجال «الرسمي» (المرخص من الدولة)، والآخر «غير الرسمي» (غير المسجّل)، جعلت دراسات أخرى أحدث [١٥٩] -بدأها ديثين دو ويس بمقالة تأسيسية^(٨)- / دورَ الإفتاء نقطة التقاء بين تياراتٍ دينية متنوعة؛ فالأئمة المسلمون المرخصون والمسجّلون كانت لهم علاقات واسعة ومعقدة وأحيانًا مثمرة بنظرائهم غير المسجّلين. وقد كتب زاريفوف وسافاروف أن «الأئمة غير المسجلين كانوا معلومين تمام العلم لدى أئمة المساجد المسجلة، وكانوا هم الأوفر نشاطًا من بين جماعة المسجد في المدن ذات المساجد (وكانت الحال على ذلك في موسكو بوجه خاص)^(٩). وكذلك، لم يُعقّ التسجيلُ الأئمة المسجّلين عن الانخراط في أنشطة مشكوكٍ في قانونيتها؛ إذ -كما يلحظ بوبروفنيكوف- «كان الأئمة التابعون لسلطة مجلس النظارة الدينية لمسلمي شمال القوقاز يشتغلون في الوقت نفسه بتعليم الصبية تعليمًا غير قانوني في حجراتهم (hujras)، فيما أمكن للفقهاء المعتمدين، مثل: محمد سيد (Muhammad-Sayyid)، أن يصبحوا مريدين لمشايخ صوفية غير مرخصين»^(١٠). ولا يتعلّق الأمر هنا بأن جميع المسلمين السوفييت قد عدّوا دورَ الإفتاء مؤسسات قانونية، بل كما يمكننا أن

(٨) انظر:

DeWeese, "Islam and the Legacy of Sovietology."

(9) Zaripov and Safarov, *Akhmetzian Mustafin*, 67-68.

أضاف المؤلفان: «بل، وكما تشير المؤرخة آيسلو بيلالوفنا يونسوف (A. B. Yunusov)، بحلول عام ١٩٥٠، كان المفتي عبد الرحمن رسولوف قد أصدر تسعمائة وسبعة عشر (٩١٧) ترخيصًا لأئمة غير مسجّلين تعطيهم الحق في إقامة الشعائر، وهو ما رفضه مجلس الشئون الدينية».

(10) Bobrovnikov, "Withering Heights," 376.

عن الحدود الملتبسة بين المجالين «الرسمي» و«غير الرسمي»، انظر:

Tasar, *Soviet and Muslim*, and "Islamically Informed Soviet Patriotism in Postwar Kyrgyzstan," *Cahiers du monde russe* 52/2-3 (2011), 387-404; Kemper and Shikhaliev, "Administrative Islam: Two Soviet Fatwas from the North Caucasus"; and Abashin, "A Prayer for Rain: Practicing Being Soviet and Muslim".

نفترض، أثار دنو هذه الدور من الدولة الشكّ والريبة في نفوس كثيرين. ولكن لا شك في أن أهمية دور الإفتاء لم تقتصر على الأهمية الرمزية، وإنما تضمنت طائفة من الوظائف التي جعلتها أكثر من مجرد حجابة باب الحكومة.

عاشراً: عززت دورُ الإفتاء سلطةَ ذوي الأنساب الإسلامية الشريفة في جميع أنحاء روسيا والقوقاز وآسيا الوسطى. ونجد أن رسولوف وباباخان مثالان على ذلك، ويشكّل باباخان بوجه خاص حالة شديدة الدراماتيكية؛ حيث أُوْرث المفتي الذي كان معتقلاً ابنه ضياء الدين باباخان منصبه على رأس النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، الذي أُوْرثه بدوره حفيده شمس الدين خان باباخان. وعلى مستوى أكثر محلية، نجد في ترجمة الملاً الكازاخي سعد وقاص غلmani (Saduaqas Ghilmani)⁽¹⁾ نفسه، المنقولة حديثاً إلى الإنكليزية، ما يصحّ أن يكون قائمةً تعريفية بهذه «الأسر» العلمية في جميع أنحاء السهوب الكازاخية، على نحو يثير في المرء شعوراً بأنه ما من عشيرة كازاخية - إلا فيما ندر - إلا وكان لها، في قلب الحقبة السوفييتية، «أسر شريفة» من أهلها، وأن هذه الرموز كانت تستمدُّ جاهها من النسب والعلم على حدٍّ سواء⁽¹¹⁾.

(أ) سعد وقاص غلmani (Садуакас Гылмани) إمام وعالم و مترجم وشاعر كازاخي كبير، عمل قاضياً للنظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان منذ عام ١٩٥٢ ولمدة عشرين عامًا، وكان الإمام الأكبر لمدينة ألماتي. وُلد سعد وقاص في عام ١٨٩٠ في منطقة إرمتاوسكي (Ерейментауский) بكازاخستان، وتعلم العربية من جده، ثم درس في مدرسة أكتامك-قلب (Актамак-калпе) بقرية تولنغيت (Толенгит). تتابعت عليه حملات الاتحاد السوفييتي على الدين في عام ١٩٢٩، فاعتُقل مدةً ثم خرج، ومُنع من ممارسة التعليم والدعوة والإمامة. ثم عُيّن في عام ١٩٥٢ إماماً لمسجد ألماتي، وقاضياً ثانياً للنظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان. ولسعد وقاص العديد من الإسهامات البارزة في الحقل العلمي الكازاخي ترجمةً وتأليفاً وشعراً؛ فقد ترجم أعمال الفارابي من العربية إلى الكازاخية، وكتب أكثر من أربعين كتاباً عن الإسلام، وألف كتاباً ضخماً سمّاه: تراجم العلماء المسلمين في زماننا باللغة الكازاخية، ومات قبل أن يُنمّه في عام ١٩٧٢، فأتمّه ونشره مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا) التابع لمنظمة التعاون الإسلامي. (المترجم) (١١) انظر:

Ghilmani, *Biographies of the Islamic Scholars of Our Times*; Frank, *Gulag Miracles*,

105-116; Ashirbek Muminov, "From Revived Tradition to Innovation: Kolkhoz =

حادي عشر: لم يقتصر ما قدّمته دور الإفتاء على تعزيز الأنساب الإسلامية القائمة في واقع الناس فحسب، بل شمل تعزيز الأنساب الفكرية والمفاهيمية التي يمكن تتبّعها إلى عصورٍ سابقة؛ حيث كانت الفتاوى الصادرة عن دور الإفتاء في زمن الحرب تتصل بالجهود الحربي في الغالب الأعمّ، إلا أنه في العقد التالي، ستتجه الفتاوى إلى صياغة رؤية مميزة للإسلام (ومُتشددة في بعض الأحيان) تضرب بجذورها في السجلات التي دارت في عهد ما قبل الحقبة السوفييتية. ولعل السمة الأساسية لهذه الرؤية تصديّها للتبرُّك بالأضرحة، تلك الممارسة التي كانت آيةً على الإسلام الأوراسي وخصيصةً من خصائص التصوف، ويرجع عمرها لقرونٍ مضت. وقد تجلّت هذه الجهود المناهضة للأضرحة في سلسلة من فتاوى النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان صدرت في منتصف الحقبة السوفييتية إبان رئاسة ضياء الدين بن إيشان باباخان وخليفته. وقد وضع بعض المؤرخين العديد من الفرضيات / حول الأصول النظرية لهذه المساعي وحول التوجُّه العقدي للنظارة [١٦٠] بشكلٍ عام (ويمكن لدور الإفتاء الأخرى أن تكون موضوعاً لدراسة من هذا النوع، وإن لم تظهر بعد)، فنجد تاسار يربط بين الأيديولوجيا الدينية لسلالة باباخان وبين التراث النقشبندي المجددي المرتبط بالشيخ النقشبندي في الجنوب آسيوي أحمد السرهندي وخلفاؤه^(١٢). وأما أديب خالد فيدرج تراثهم ضمن تراث الجديدين في أوائل القرن العشرين^(١٣). ويتعقّب [باولو] سارتوري (Paolo Sartori) الصلة بين

= Islam in the Southern Kazakhstan Region and Religious Leadership (through the Cases of Zhartı-Töbe and Oranğay since the 1950s)” in Stéphane A. Dudoignon and Christian Noack, eds., *Allah's Kolkhozes. Migration, DeStalinisation, Privatisation, and the New Muslim Congregations in the Soviet Realm (1950s–2000s)* (Berlin: Klaus Schwarz, 2014; Islamkundliche Untersuchungen. Bd. 314), 307–366.

(12) Tasar, *Soviet and Muslim*, 29; 35;

انظر أيضاً:

Sartori and Babajanov, “Being Soviet, Muslim, Modernist, and Fundamentalist in 1950s Central Asia,” 113.

(13) Khalid, *Islam after Communism*, 111.

النظارة الدينية لآسيا الوسطى وكازاخستان وبين «المتزمتين» غير الجديدين في آسيا الوسطى إبان الاستعمار الروسي^(١٤). لكن ما يهمننا في هذا المقام هو ما يشترك فيه هؤلاء المؤرخون الثلاثة، وأعني به أنهم يقيمون علائق مقبولة عقلاً بين دور الإفتاء وبين التراث الفكري الإسلامي في حقبة ما قبل السوفييت؛ هذه العلاقات التي ما كان لظهيرهم الملحد في موسكو أو في مجلس الشئون الدينية أن يدرك دقائقها. ويخلص سارتوري إلى قوله: «والحق أنه على الرغم من أن مجلس الشئون الدينية كان يطلب الفتاوى من النظارة الدينية لآسيا الوسطى، فإنه من الجلي أيضاً أن النظارة كان لها فعاليتها المستقلة، وكثيراً ما تلاعبت بمتطلبات المجلس؛ إنفاذاً لأجندتها الثقافية الخاصة»^(١٥).

ثاني عشر: تمكّنت دور الإفتاء، بعد أن شقّت لنفسها هذا الحيز الديني المتمايز، من خلال الاستئثار بموارد الدولة، وتعزيز صلاتها بأجهزتها الأمنية، من إبراز أئمة بعينهم وتهميش آخرين. واللافت للنظر أنهم تمكنوا من فعل ذلك في إطار أيديولوجي إسلامي (وليس إطاراً ملحدًا ودولتياً).

ثالث عشر: على الرغم من أن دور الإفتاء كانت بذلك تغير الحدود المفاهيمية للمسلمين داخل الاتحاد السوفيتي، فإنها عبّرت حدوداً لم يعبرها كثيرون غيرها؛ إذ تمكن أئمة دور الإفتاء، بصفتهم سفراء لأماكن أخرى من العالم الإسلامي، أن يخلقوا نوعاً هجيناً من البروپاغندا السوفيتية والدينية للمسلمين في السعودية وإيران والصين وغيرهم. ولا أسهل من الاستهزاء بهذه الرحلات؛ حيث سار «الحرس» في ذيل هؤلاء الأئمة المسلمين وهم يردّون الأكاذيب الصريحة عن الحرية الدينية السوفيتية. وكذلك من الصعب أن نعرف كيف جمعت جماهير الأجانب لهذه الزيارات. لكن ما نعلمه أن مشهد المبعوثين المسيحيين الأرثوذكس السوفيت في الخارج كان له أثر كبير على جماهير الأمريكيين والبريطانيين، ويمكننا بشكلٍ معقول

(14) Sartori and Babajanov, "Being Soviet, Muslim, Modernist, and Fundamentalist in 1950s Central Asia."

(15) Sartori and Babajanov, "Being Soviet, Muslim, Modernist, and Fundamentalist in 1950s Central Asia," 135.

أن نتخيل أن أخبار باباخان ورسولوف في مكة مثلاً كانت مثار اهتمام بعض أتباعهم من السوفييت، أو ربما مثار اهتمام جُلاسهم من السعوديين أيضاً.

رابع عشر: أفضى إنشاء دور الإفتاء - كما لاحظ كثير من المؤرخين الآخرين - إلى تجديد علاقة «الوساطة المحكومة» بين مسلمي أوراسيا والدولة، وهي العلاقة التي يمكن تتبعها تاريخياً حتى تأسيس المجلس الديني لمسلمي أرنبورغ في ثمانينيات القرن الثامن عشر^(١٦). وهناك العديد من أوجه الشبه الظاهرة بين هذا الجهاز الإداري القيصري وبين دور الإفتاء السوفيتية؛ حيث كان المجلس الديني، وكذلك دور الإفتاء السوفيتية، / جهازاً بيروقراطياً يتغياً توسيع نطاق إشراف الدولة [١٦١] على المسلمين ومؤسساتهم الدينية، وترسيخ علاقة منفعة متبادلة بين النخب الإسلامية والدولة، وفتح طريق أمام هذه النخب «كي تحصل على حصتها مما تفيء به الأنظمة» بتعبير إرين تاسار^(١٧)، وكذلك الترويج لنوع من «الأرثوذكسية» الإسلامية السوفيتية من خلال تقديم أفكار دور الإفتاء الدينية على أفكار التيارات الدينية المنافسة لها. بيد أنه على الرغم من أوجه التشابه تلك، يجب أن التروّي في قبول القول بأن دور الإفتاء المعدلة وحديثة التكوين في الأربعينيات إنما هي مجرد استنساخ للمؤسسة الدينية القيصرية. ومهما يكن من أمر، فقد أسست الدولة السوفيتية دور الإفتاء زمن الحرب، وكان عزمها صريحاً على استئصال الدين في

(١٦) انظر:

Tasar, *Soviet and Muslim*, 36-37; Frank, *Gulag Miracles*, 105.

وعن المجلس الديني لمسلمي أرنبورغ والسياسة الدينية القيصرية، انظر:

Robert Crews, *For Prophet and Tsar: Islam and Empire in Russia and Central Asia* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2009); Mustafa Tuna, *Imperial Russia's Muslims: Islam, Empire and European Modernity, 1788-1914* (New York: Cambridge University Press, 2015); Firouzeh Mostashari, *On the Religious Frontier: Tsarist Russia and Islam in the Caucasus* (New York: I.B. Tauris, 2006); Paul W. Werth, *The Tsar's Foreign Faiths: Toleration and the Fate of Religious Freedom in Imperial Russia* (New York: Oxford University Press, 2014)

(17) Tasar, *Soviet and Muslim*, 36.

الأخير، وذلك بخلاف المجلس الديني القديم. وكانت البنية الجديدة التي أنشئت للكنيسة الأرثوذكسية أيضًا نموذجًا أقرب وأوضح لدور الإفتاء الجديدة. ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في اسمي الجهازين الحكوميين المسؤولين عن كليهما: مجلس الشئون الدينية (CARC) للمسلمين والبوذيين وغيرهما، ومجلس شئون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية (CAROC). وكذلك، لا دليل لدينا على أن ستالين قد نظر بجديّة في أمر المجلس الديني لمسلمي أرنبورغ قبل الاجتماع برسولوف، لكننا نعلم، كما ذكرنا في الفصل الأول، أنه قد أنتمَّ بالفعل «صفقته الجديدة» مع رؤوس الكنيسة قبلها بشهور، ويبدو أنه عرض على رسولوف «الصفقة» نفسها. باختصار، كانت الصلة التاريخية بين المجلس الديني لمسلمي أرنبورغ أوضح عند المؤرخين مما هي عند ستالين ومولوتوف وكاريفوف، أو كلٌّ من كان منخرطًا في وضع السياسة الجديدة. لكن لا شكَّ في أن الروابط التاريخية مهمة لدراسة التاريخ الديني الأوراسي على المدى الطويل، وبالطبع كان للأمر مغزاه من منظور رسولوف نفسه (مثلًا).

خامس عشر: كما أمكننا أن نربط دور الإفتاء السوفيتية بالماضي ما قبل السوفيتي، يمكننا أيضًا أن نربطه بالحاضر ما بعد السوفيتي؛ ذلك أنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، سرعان ما أسس عددٌ من الدول ما بعد السوفيتية «مجالس» دينية استنسخت جوهر العلاقات بين الدولة ودور الإفتاء في العهد السوفيتي. ففي أوزبكستان مثلًا، نصَّب الرئيس إسلام كريموف (Islam Karimov)، المتوفى في عام ٢٠١٦، لعدة سنوات، الفقيه الإسلامي الشهير محمد صادق محمد يوسف، المتوفى في عام ٢٠١٥، «مفتيًا أكبر» بحكم الأمر الواقع للجمهورية. ولم يكن في الأمر مبالغة؛ لأن محمد صادق كان قد انتُخب مفتيًا أكبر للنظارة الدينية لآسيا الوسطى وكازاخستان في عام ١٩٨٩ (وأصبح في العام نفسه نائبًا منتخبًا في مجلس السوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية)^(١٨). وكان الشيخ ابنًا «مباشرًا»

(١٨) جاء هذا التعيين في أعقاب مظاهرات ضخمة ضد سلف المفتي الجديد في طشقند، بما يدل إلى حدٍّ ما على الاهتمام الشعبي البالغ بمؤسسة الإفتاء نفسها. انظر:

Tasar, *Soviet and Muslim*, 365.

[١٦٢] للمؤسسة الإسلامية السوفيتية؛ إذ وُلِد في وادي فرغانة، ودرَس العلوم الشرعية في معهد الإمام البخاري بطشقند، / وفي مدرسة مير عرب التاريخية ببخارى، ثم عمل محرِّرًا في مجلة النظارة الدينية الرسمية، المسماة المسلمون في الشرق السوفياتي، وكان كغيره من النُخب الإسلامية السوفيتية، سليل نسبٍ شريف من الفقهاء والعلماء المسلمين يرجع إلى عهد ما قبل السوفيت (في منطقة أنديجان المشهورة بتدينها). وكان محمد صادق غزير الإنتاج ويتمتع بعلاقات نافذة، ولا تشوب حُسن مقاصده الإسلامية السوفيتية شائبة، فكان في موقع يؤهله لأن يكون من بين أكثر الشخصيات الإسلامية تأثيرًا في زمن ما بعد السوفيت. وبينما كانت المؤسسات الدينية «الرسمية» في الدول ما بعد السوفيتية لا تعمل تحت إشراف ملحدين متشدِّدين يسعون لتدميرها بالكلية، فالظاهر أن «الصفقة الجديدة» التي عقدها ستالين في أثناء الحرب ما زال صداها يتردَّد في السياسات الدينية ما بعد السوفيتية.

وتركز هذه النقاط على الظروف والمؤسسات والأدوار التي استُحدثت في غضون الثورة الدينية التي شهدها زمن الحرب. لكن ما أزالته الدولة في أثناء الحرب لا يقلُّ أهمية عمَّا استحدثته؛ فقد أزال الخطر المائل دومًا في الاعتقال والإعدام، والضرائب العقابية على الزعامات الدينية، ومصادرة الأملاك الدينية للطائفة وإغلاقها. ومنذ العشرينيات، لم يشهد الناس يومًا مكن فيه عددٌ كبيرٌ من المواطنين السوفيت من ممارسة دينهم بحرية. إن الدولة لم «ترفع راية» الدين، كما زعم سولجنيتس، لكنها خلصته من بعض قيوده.

وكانت عودة الدين وتسامح الدولة أمرًا محيِّرًا لكثير من الملحدين السوفيت، ومنهم بيروقراطيو مجلس الشئون الدينية الذين عانوا ضعف الموارد المزمن. فضوابط التعبير الديني، التي كانت كيفما اتفق، وفي الغالب الأعم كانت غاشمة، أصبحت الآن غير مجدية، بل ملتبسة. وكان ذلك أمرًا له أهميته؛ إذ منح ستالين المؤمنين شبرًا، لكنهم بكل سرور أخذوا قدر فرسخ، دون أن يمنعهم أحد. ولم تشتعل ثورة الحياة الدينية زمن الحرب بأثرٍ من حيوية البروباغندا الدينية للدولة، بل بفعل ملايين المواطنين المؤمنين العازمين على الإفادة من تسامح الدولة وانصراف اهتمامها لشأن آخر.

لقد أبنْتُ هنا عن العديد من الأفكار المتعلقة بأهمية دور الإفتاء السوفيتية (فصّلت في بعضها على مرّ الكتاب، وفصّل في بعضها الآخر أعمالٌ حديثة أصدرها تاسار وسارتوري ودو ويس وغيرهم). وقد أوضحت طوال الكتاب كيف برزت دور الإفتاء، وأسباب بروزها في أثناء الحرب، مثبتًا أهميتها الأوسع بوصفها جزءًا من ثورة دينية اشتعلت زمن الحرب. ولم تكن غايتي الخلوص إلى رؤية معيارية واحدة للإسلام السوفيتي، ناهيك عن إسقاطها على العقود الأربعة التالية من الفترة السوفيتية. ومع ذلك، يشترك هذا الكتاب مع دراساتٍ أخرى حديثة تتحدى كل عنصر من عناصر «المعرفة الشائعة» عن الإسلام في الاتحاد السوفيتي في العقود القليلة الماضية. / وقد لخصّ پاولو سارتوري وبخيتار باباجانوف نقاط الإجماع [١٦٣] العتيقة هذه في مقالة حديثة، ذكرا فيها^(١٩):

«عندما يُسأل المؤرخون والأنثروبولوجيون عن قوى التغيير التاريخية التي أثّرت على الإسلام في آسيا الوسطى السوفيتية، يُجمعون على أن (١) عددًا كبيرًا من العلماء قد وقعوا تحت مقصلة الإرهاب الأحمر، أو فقدوا منزلتهم الاجتماعية، على نحو أعاق نقل المعارف الدينية المتخصصة، (٢) وأن الشريعة لم تعد يُنظر إليها بوصفها مصدرًا للسلوك القويم ومرجعًا لميزان العدل، (٣) وأن المؤسسات المهمة من قبيل الأوقاف الخيرية قد أُلغيت، (٤) وأن التدين أصبح محصورًا في نطاق الأسرة الضيق، (٥) وأن الضمير الأخلاقي وسلوك التقشف وحياة الزهد كما تتجلى في شخصيات تقليدية من أمثال الدراويش والقلندرية قد تراجعت أمام جاذبية التحديث، (٦) وأن التعليم فقد أكثر مبادئه الدينية المتعارف عليها محليًا، وشرع يغذي القيم القومية والعلمانية بصفة أساسية».

(19) Sartori and Babajanov, "Being Soviet, Muslim, Modernist, and Fundamentalist in 1950s Central Asia," 109.

أدخلت الترقيم على القائمة هنا توضيحًا للمناقشة التالية.

وفيما يتصل بالنقطة الأولى، صحيح أن كثيرًا من العلماء المسلمين كانوا ضحايا لحملات القمع الديني التي وصفناها في الفصل الأول، لكن هذا الكتاب يبين أن كثيرًا منهم أيضًا قد نجوا من هذا القمع واستمروا في عملهم الديني؛ فبُعِد الثورة الدينية التي شهدها زمن الحرب، حصل كثير منهم على ترخيص من الدولة، وأفاد غيرهم ممن لم يحصلوا على هذا الترخيص من المناخ الديني الجديد.

وأما النقطة الثانية، ففي حين قضت الدولة السوفيتية على المحاكم الشرعية ما قبل السوفيتية، فإن «الشريعة» الإسلامية، بمفهومها الأوسع، ظلت قائمة طوال الحقبة السوفيتية في هيئة دور الإفتاء التي تصدر فتاواها، وعلى مستوى أكثر محلية، ظلت قائمة في الجماعات التي كانت موطنًا للنخب الإسلامية ذات النفوذ.

وأما النقطة الثالثة، فعلى الرغم من أن المساجد والبنى الدينية الأخرى فقدت ما كانت ترفدها به الأوقاف الدينية الرسمية على الشاكلة الإسلامية الكلاسيكية، فقد يبين الفصل الخامس كيف أن الأملاك الدينية قدرعتها، وباللمفارقة، الدولة السوفيتية نفسها، التي قامت أحيانًا على إدارة الممتلكات بالتعاون مع أئمة المسلمين ومسؤولي مجلس الشئون الدينية.

أما النقطة الرابعة التي مفادها أن التدين السوفيتي كان محصورًا في العائلة، فهي أكثر النقاط التي تتحدثها الأدلة التي تضمّنها هذا الكتاب، وتخصُّ في غالبها الحياة الدينية في سياقات خارج البيوت الخاصة؛ إذ نرى الدين هنا تحشده الدولة أداة في يدها، ويستولي عليه أئمة المسلمين لإثارة نشاط جماهيري، ويتشارك فيه / الجنود [١٦٤] على أرض المعركة، ونجده محفوظًا في التجمعات المدنية والريفية بوصفه ظاهرة على مستوى الجماعة كلها؛ تشمل الهوية الجماعية والحياة الشعائرية. إننا نجد الهوية الإسلامية وقد صيغت على مستوى العائلة، وأيضًا على مستوى القرية والمدينة والجيش الأحمر والاتحاد السوفيتي كله، بل حتى على مستوى العالم الإسلامي أجمع، في الماضي والحاضر، كما في الخطابات التي ناقشناها في الفصل الثاني.

وأما النقطتان الخامسة والسادسة المتعلقةان ببقاء الزهد الصوفي والتعليم

الإسلامي، فقد تناول الكتاب هذين الموضوعين تناوياً غير مباشر، لكن هناك بالتأكيد أدلة تتحداهما. فأولاً، على الرغم من أن سلوكيات «الدرائش» التقليدية المنسوبة إلى متصوفة ما قبل الحقبة السوفييتية قد تراجعت بالفعل أيام السوفييت، فإن تراث الصوفية الأعم ظل قائماً، كالأنسب الصوفية الكريمة وممارسة زيارة الأضرحة واسعة الانتشار^(٢٠)، وكما كتب دو ويس^(٢١):

«وحتى المظاهر العلنية للتدين ذات الجذور «الصوفية» ظلت قائمة طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، لا بوصفها مجرد جزء من «تراث» لا يتغير ويمثل أحياناً بديلاً «للحدثاء»، بل بوصفها تفاوضاً مستمرًا حول الاستقامة الدينية التي تضرب بجذورها في المجتمع الإسلامي في آسيا الوسطى، والتي جرى «تفعيلها» غير مرة بفعل بعض التحولات السياسية والاجتماعية، واستمرت في الانتشار، انتشاراً ديناميكياً (ويمكننا القول: «على نحو مبتكر»)، في أطر اجتماعية وسياسية ودينية جديدة انطوى عليها الحكم القيصري أولاً، ثم الدولة السوفييتية».

ويشمل التراث الصوفي والتعليم الإسلامي كل هذه التفاعلات المحرّكة، وبهذا المعنى الواسع، لا شك أنهما نجيا من الحقبة السوفييتية (ففي حالة المدارس مثلاً، نجد مدرستين قد نجتا).

وهناك نقطة أخيرة جديرة بأن نضيفها إلى هذه القائمة، وهي الزعم بأن الدولة السوفييتية قد نجحت في محاولتها عزل الدين واختزاله إلى مكوّن من مكونات

(٢٠) عن تراث التقاليد الصوفية في آسيا الوسطى وبقائها، انظر:

DeWeese's recent, landmark essay, "Sufism in Central Asia: New Perspectives on Sufi Traditions, 15th-21st Centuries," in Devin DeWeese and Jo-Ann Gross, eds., *Re-Envisioning the History of Sufi Communities in Central Asia: Continuity and Adaptation in Sources and Social Frameworks, 16th-20th Centuries* (Leiden: Brill, 2018), 21-74.

(21) DeWeese, "Shamanization in Central Asia," 358.

الهوية العرقية أو القومية، أي تجريده من كل وظيفة تجعل منه مصدرًا للقيم الأخلاقية أو المعنوية، أو للروحانية أو للمعرفة الهادفة عن هذا العالم وما بعده^(٢٢). وعلى الرغم من أن الأدلة التي ساقها هذا الكتاب تشير إلى عكس ذلك (كما سائين لاحقًا)، فإن رؤية «العلمنة» السوفيتية لها ما يسوغها؛ إذ هي قراءة عميقة لما أمّلت الدولة السوفيتية في تحقيقه، وهي تعكس بدقة التصورات والتجارب التي وصفها كثير من المواطنين السوفيت أنفسهم. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الرؤية هي قراءة دقيقة للبروباغندا العلمانية الموجهة للمسلمين السوفيت زمن الحرب، / تلك التي جرّدت الأبطال المسلمين الأسطوريين من «حمولتهم» الدينية التقليدية، كما فعلت مع القديس الأرثوذكسي ألكسندر نيڤسكي (Alexander Nevskii) حين نزعته عنه القداسة أمام جماهير الروس. ومن هنا، نجد أحد مسلمي بلقاريا يذكر في مقابلة بُعيد الحرب^(٢٣):

«لدينا بعض القصص (rasskazy) عن أبطالٍ قدماء، كان لكثير منها أساس ديني. لكن النظام السوفيتي لم يستخدم كثيرًا من الفلكلور؛ لأن شطرًا كبيرًا منه يتضمن جوانب دينية، ولم يجمع الفلكلور الخاص بنا أو ينشره؛ لأنه لا يستطيع استغلاله. فمثلًا في إحدى قصصنا، لدينا رجل اسمه أسرب علي (Asireb-Ali) يرفع سيفه فانشق له البحر، فعبر جنوده ومُسخ أعداؤه خنازير بحر. ولا شك في أن هذا النوع من الفلكلور لا يمكن للسوفيت أبدًا أن يستعملوه».

وفوق ذلك، لا جدال أبدًا في أن العديد من المواطنين قد نشأوا في بيوتٍ متدينة ثم آل بهم الأمر إلى الإلحاد السوفيتي ومبادئه. فبعض محاربي الجيش الأحمر القدامى ينكرون إنكارًا مطلقًا أن الدين كان له أي دور مهم في تجربتهم زمن الحرب؛

(22) Khalid, *Islam after Communism*, 70–71; Devin DeWeese, Review: *Islam after Communism: Religion and Politics in Central Asia* by Adeb Khalid, *Journal of Islamic Studies* 19/1 (2008), 135; Sartori, "Toward a History of the Muslim's Soviet Union," 322.

(23) HPSSS sched. B, vol. 8, case 224, f. 15.

إذ نسمع جندي الاستطلاع غريغوري كونستنتينوفيتش كُدريافتسيف (Grigorii Konstantinovich Kudriavtsev) يخبرنا أنه «لم يكن ثمة علاقة بالدين في الحرب، بل لم نعلم [عنه] شيئًا، ولم يُذكر أي شيء في أي مكان. فبعد الثورة، خُربت الكنائس ودمّرت، وأبعد القساوسة إلى مكانٍ ما ... لاحقًا، في الأخير، يبدو أن الدين شرع يساعد في أعمال الحرب. وقع أمرٌ ما، وشرع ستالين يحسّن علاقته بالدين»^(٢٤). وفي الوقت نفسه، تعكس ذكريات جندي الإشارة البشكيري فريد منرحمنوفيتش كهرمانوف (Farit Minrahmanovich Kagarmanov) حياةً عائلية متنوعة على مستوى الدين، لا يمكن بسهولة اختزالها إلى ثنائية الديني في مقابل العلماني^(٢٥):

«لقد كنا في ريعان الشباب، ولم نفكر في الله، ولم تكن عائلتنا متدينة مطلقًا (*sovsem ne nabozhnaia byla*). كانت أمي قريبةً [من الدين] إلى حدٍّ ما، لكن أبي كان أبعد ما يكون عن الدين؛ فلم يعلماني إلا قول «بيار [يا جبار]» بعد الأكل، ولم يزد علمي بالدين على ذلك. نعم، عندما ذهبت إلى الحرب، أعطتني أمي حين الوداع ورقةً تحمل شيئًا مكتوبًا بالعربية. وكنت أحملها طوال الحرب في جيب سترتي (*gimnasterka*)، ولم أعلم قطُّ ما كُتب فيها، ربما كانت دعاءً».

يعني ذلك أن المشهد الديني كان متنوعًا، وقصة العلمانية في الاتحاد السوفييتي جديرة هي الأخرى بالسرد. لكنها ليست القصة الوحيدة الجديرة بالذكر، ويقصُّ علينا هذا الكتاب قصةً مختلفة تمامًا. / فكما رأينا في الفصل الأول، لم يكن [١٦٦] المسئولون السوفييت الملحدون أنفسهم، وعلى رأسهم ستالين، على قناعة بأن الحملات المناهضة للدين قد أفلحت في بلوغ بغيتها. نعم، كانت هناك براغماتية

(٢٤) حوار مع غريغوري كونستنتينوفيتش كُدريافتسيف:

<https://iremember.ru/memoirs/razvedchiki/kudryavtsev-grigoriy-konstantinovich/>
(accessed May 20, 2020).

(٢٥) حوار مع فريد منرحمنوفيتش كهرمانوف:

<https://iremember.ru/memoirs/svyazisti/kagarmanov-farit-minrakhmanovich/> (accessed May 20, 2020).

خبيشة تحتال لاستغلال الدولة للدين أداة في الحرب، لكننا نجد أيضًا لمحة من اليأس. فبمعنى ما، كان استمرار الإيمان الديني أمرًا بدهيًا، وخاصةً بين مسلمي آسيا الوسطى مثلًا، الذين لم تُشن عليهم الحملات المناهضة للدين بقوة إلا في أواخر العشرينيات. فلو أن طفلًا وُلِدَ عشية ثورة أكتوبر في عام ١٩١٧، لكان في الثالثة والعشرين من عمره عند اشتعال الحرب. فأول «جيل سوفيتي» كان لا يزال شابًا حدثًا عند بداية الحرب (وجدير بالذكر أن بعض المناطق الإسلامية السوفيتية لم تندمج في الدولة البلشفية إلا في طور متأخر، بعد عام ١٩١٧ بعدة سنوات). ومن هنا، لم تكن الحياة «التقليدية» التي استدعتها الدولة في پروباغندا زمن الحرب ماضيًا ملتبسًا مجهولًا، بل ماضيًا ترعرع فيه غالب المواطنين السوفيت وعرفوه معيشةً، ماضيًا ليس كأي «ماضي»، بل كما لاحظ ستالين، كان حاضرًا مشهودًا، وعزيزًا على النفس في كثير من الأحيان.

لم يكن الأمر يتطلب رئيس وزراء، بل ولا حتى دعائيًا سوفيتيًا محترفًا، لإدراك هذه التفاعلات. فنجد بُعيد الحرب مهندسًا روسيًا مهاجرًا، يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، وسليل عائلة كانت أرسقراطية قبل الثورة، يتأمل هذه التغيرات في حوارٍ أُجري معه في فندق ميدواي (Hotel Midway) بنيويورك. والحق أن استبصاراته الساخرة والمقنعة جديرة بأن نقلها هنا على طولها^(٢٦):

«لقد اعتادوا قبل الحرب الحديث عن الوطنية السوفيتية. لكن سرعان ما أدركوا في الحرب أنه ما من شيء اسمه الوطنية السوفيتية، فعادوا إلى الوطنية الروسية. لقد علموا أنه لا أحد يريد القتال في سبيل ستالين، فعادوا إلى التاريخ ليجدوا أي مشاعر موروثة معادية للألمان، فاستجلبوا الحرب العالمية الأولى والغزو الألماني، واستدعوا ألكسندر نيفسكي ودفاعه عن روسيا ضد الغازي الألماني دفاعًا مجيدًا. كان نيفسكي بالطبع قديسًا من قديسي الكنيسة الأرثوذكسية، لكنهم تناسوا ذلك وركّزوا على مآثره العسكرية. عادوا إلى استعمال

(26) HPSSS sched. A, vol. 31, case 445/(NY)1007, f. 57-58.

الكتفيات^(١) وجعلوا الناس يشعرون أن في الأمر عودة لشيء عزيز مألوف... فتحت الكنائس في كل مكان، واستقبل ستالين المطران سيرغي في الكرملين. وتذكروا فجأة قصة مينين (Minin) التاجر النوفغوردي والنبيل بوچارسكي (Pozharski) اللذين قاما على تنظيم حملة في زمن الاضطرابات لتحرير موسكو وطرد البولنديين المحتلين. وبعثوا من الرماد شخصيات تاريخية، مثل: سوفوروف (Suvorov) وألكسندر / نيخسكي وبوهدان خميلنيتسكي (Bogdan Khmel'nitski)، واستحدثوا أوسمة عسكرية جديدة سموها بأسمائهم. وفي مكان ما، نبشوا ووجدوا عجوزاً حصل على كثير من الأوسمة في الجيش القيصري، منها أربعة من صلبان القديس جورج، ووجدوا صورة له في مجلة أغنيوك [الشرارة] (Ogonyok). كان لكل ذلك أثره؛ إذ رأى الناس في ذلك عودة إلى الماضي، بما تلاعب بمشاعرهم. بالطبع لن يصدقهم أحد إن كرروها ثانية».

[١٦٧]

والحق أنه ربما كانت الثورة الدينية أبقى وأهم سمة من سمات مركب «التراث» التلفيقي الذي اختلقته الدولة في زمن الحرب، لكن هذا المركب كان أكبر بكثير من الدين، ولم يرق فحسب إلى الاعتراف بأن الحياة الدينية قد نجت، بل تجاوز ذلك ليعترف - من منظور أوسع وإن كان على مضض - بأن الإنسان السوفيتي ما زال متعدد الأبعاد.

وقد نتج عن هذا الصدام بين المطامح والواقع تفاوضاً تاريخياً، ركز هذا الكتاب على أبعاده الدينية، ليبين كيف أن المسلمين السوفيت خلقوا مساحةً لحياتهم الدينية في سياق أيديولوجيا دولتية معادية [للدين] في جوهرها. وقد نجحوا في ذلك لا بالتمرد ولا «بالنشاط المناهض للسوفيت» سرّاً، بل بتعلم كيفية المزج بين قيم الدولة الراسخة، وما طرحته من امتيازات جديدة، في وطنية دينية متميزة، يمكن طرحها أو التسليم بوجودها بوصفها متوافقة مع المثل السوفيتية توافقاً كاملاً.

(١) ما يوضع على كتف العسكري من رُتب أو نياشين. (المترجم)

ملحق
مختارات من الأروباغندا الاءينة السوفيتية
ووثائق زمن الحرب



/ تمثل الوثائق التالية نماذج من أشء الأجناس الأءبية تفراءً في القرن العشرين، [١٦٩] ألاً وهو جنس الأروباغندا الاءينة السوفيتية. وتبين هذه الوثائق، التي يرجع تاريخها إلى الحرب العالمية الثانية أو السنوات التالية عليها مباشرةً، اللغة التي استعملها السوفيت من أئمة المسلمين وءاخامات اليهود وراهبان البوذيين؛ ابتغاء تجيش طوائفهم لءوض غمار الحرب، والتواصل مع إءوانهم في الءين في الخارج، وتملق ستالين.

الوثيقة الأولى

ناء وطني لمسلمي ما وراء القوقاز (مايو/ أيار من عام ١٩٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

يا علماء المسلمين وفقهاء الإسلام، يا إءواننا المؤمنين، يا إءواتنا المسلمين وأءواتنا المسلمات!

إننا نحن ممثلي أهل العلم ومؤمني أذربيجان وءورءيا وأرمينيا، عقدنا جمعية (قرولتاي) شريفة من الثاني إلى الخامس من شهر جماءى الثاني، في عام ١٣٦٣ هـ (بين الخامس والعشرين والثامن والعشرين من مايو/ أيار من عام ١٩٤٤) في مءينة باكو، وإننا نناشدكم اليوم؛ إذ يتقرر مصير المسلمين والبشرية كلها.

لقد ناقشت جمعيتنا أمورًا بالغة الأهمية لمسلمي ما وراء القوقاز، كمسألة الفضاء التي ارتكبتها الهتلريون (Gitlerovtsy) الملعونون وأذئابهم الفجرة في الوطن المقدس لشعب الاتحاد السوفييتي.

إن العالم يصطلي منذ ثلاث سموات بنار حربٍ لم يستعر مثلها في التاريخ قطُّ، ولم يشهد الجنس البشري مثل أهوالها وحرمانها قطُّ.

إن هتلر السفاح المتعطِّش لدماء البشر وأذابه من السفلة اقترفوا جرائم وفضائح مروّعة في بلاد العالم كلها تقريبًا، لا لشيء إلا ليستولوا على هذه البلدان ويحيلوا شعوبها محبي الحرية عبيدًا.

لقد أغرقت جحافل هتلر المتعطشة للدماء الأراضي الخصبة في بلادٍ كثيرة بالدم والدموع. أبادوا ملايين الناس، وأحالوا مئات المدن البهية إلى أطلال خربة.

لقد غدرت ألمانيا الهتلرية، وكسرت الهدنة بينها وبين الدولة السوفييتية، وهاجمت وطننا العظيم في خيانة إجرامية.

أيها الإخوة المسلمون!

[١٧٠] / إن الجحافل الفاشية الوحشية، يقودها ويحرّضها هتلر الطاغية، قد دنّست أرضنا العزيزة وارتكبت، ولا تزال، أشنع الجرائم والفضائح على الأرض السوفييتية.

لقد جاءت جحافل هتلر، بعد أن أبادت كل شيء في طريقها بالسيف والنار، كعاصفة رملية على حقول الذرة الخصبة والحدائق اليانعة؛ حدائق ومدن ووطننا.

وأوذي ملايين العمال الصادقين الأحرار في الاتحاد السوفييتي، منهم مسلمون من إخواننا، وعُذِّبوا لا لشيء إلا لرفضهم العبودية.

لقد خُصِّبت لحي آبائنا الرمادية، ووجوه أمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا وبناتنا الغاليات، وصدور الشباب، بدمائهم الزكية، وانهار كثير من المباني المباركة تحت القصف بالقنابل والقذائف الفاشية.

لقد شهد العالم كله الفضائح الدامية التي ارتكبتها السفّاحون الفاشيون في حقِّ

أسرى الحرب من الجيش الأحمر، وفي حقّ السكان المسالمين في المناطق السوفييتية المحتلة. وقد سيقّ ملايين السوفييت المسالمين إلى معسكرات العمل الفاشية، وكانوا يرسفون تحت نير سفاحي هتلر.

ووصلت جحافل هتلر في عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢) إلى سفوح جبال القوقاز، وكانت هذه الوحوش الفاشية ترجو أن نُخلي جمهورياتنا الزاهرة والمشمسة فيما وراء القوقاز، أي أذربيجان وچورچيا وأرمينيا السوفييتية. وأراد هتلر استعباد شعب ما وراء القوقاز، وتخريب مساجد أرض أجدادنا المباركة وبيوت صلاتها وتدنيسها، وجلب العار على زوجاتنا وأخواتنا وعرائسنا، بيد الجنود الألمان المجرمة.

وتمنى الفاشيون لو صبغوا ماء نهري كورا وآراكس بدماء أطفالنا وأمهاتنا.

لكنهم لم يفلحوا في مساعيهم الخبيثة، ولحقت رحمة الله بمسلمي ما وراء القوقاز. لقد أنقذتنا بسالة جنودنا من غزو العدو.

لقد أثار الهجوم الغادر على الاتحاد السوفييتي والفظائع التي ارتكبتها الفاشيون على أرض وطننا المقدسة، غضبًا عارمًا لدى الشعب السوفييتي كله. واستجابة لدعوة زعيمهم ستالين العظيم، هبّ الشعب السوفييتي هبة رجل واحد، وحول البلاد كلها إلى قلعة حصينة في وجه العدو.

وعندما رأى علماء الإسلام في الاتحاد السوفييتي ما ارتكبه الألمان من فظائع لا مثل لها في التاريخ، أطاعوا أوامر القرآن الكريم، فناشدوا المسلمين الدفاع عن الوطن؛ الاتحاد السوفييتي حيث المساواة بين الناس جميعًا، وحيث لا مكان للشقاق والعداوة بين الأمم، وحيث يتمتع الجميع بحرية الاعتقاد، بلا استثناء (*pol'naia svoboda sovesti*).

لقد دعونا جنودنا إلى الفتك بأعداء وطننا، اتباعًا لنصّ القرآن الكريم؛ إذ يقول: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة، ١٤].

لقد رأى علماء المسلمين وفقهاؤهم في بلاد ما وراء القوقاز أن الدفاع عن الوطن

فريضة دينية، فأصدروا -مستئين بعلماء المسلمين في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الأخرى- نداءً وطنياً للمسلمين، ودعّوهم إلى كفاحٍ شرسٍ ضد أعداء الإسلام والبشرية المتعطشين للدماء؛ ضد ألمانيا الهتلرية.

لقد استزلنا البركات على أولادنا وإخواننا المسلمين لمآثرهم في القتال ضد الشياطين الفاشيين مصاصي الدماء، وأوصيناهم أن كونوا أبطالاً شجعاناً، واسحقوا العدو، واجتثوا وحوش الفاشية من على وجه الأرض.

وذكرناهم بحديث سيدنا رسول الله ﷺ الشهير الذي يقول فيه: «حب الوطن من الإيمان»؛ فلا يكون مؤمناً من لا يحب وطنه.

[١٧١] / لقد وجدت دعوتنا أرضاً خصبة في قلوب إخواننا المسلمين، فأشعلت الشعوب المتأخية في أذربيجان وچورچيا وأرمينيا حرباً لا هوادة فيها على العدو، متحدين ومنسجمين مع شعوب الاتحاد السوفيتي كلها. إن أبناءنا وإخواننا الأبطال يقاتلون مستبسلين في معارك رهيبة، خاضوها في سبيل حرية وطننا وكرامته.

من ذا الذي لم يسمع في الاتحاد السوفيتي بمآثر الفرقة ٤١٦ تغانروغ (Taganrog)، والفرقة ٧٧ سمفروبول (Simferopol)، وغيرهما من فرق الأذريين؟ ومن ذا الذي يتغافل عن الانتصارات العظيمة التي حققتها هذه الفرق في سحقها الغزاة الفاشيين وطردها إياهم من تغانروغ ومليتوبول (Melitopol) وسمفروبول وغيرها من المدن؟ إننا نفخر أمام وطننا والحكومة السوفيتية بأن لدينا هؤلاء الأبناء البواسل، الذين حازوا لقب بطل الاتحاد السوفيتي، من أمثال هادي أصلانوف (Hazi Aslanov)، وصلاح الدين كزيموف (Salatdin Kizimov)، ومالك ماغيرموف (Melik Mageramov)، ومصيب علييف (Museib Aliev)، وفريد سافاروف (Fariz Safarov)، ومهدي غولييف (Mekhti Guliev)، وإدريس سليمانوف (Idris Suleimanov)، وإسرائيل شنشرادزي (Israil Chincharadze)، وخضير مصطفييف (Khidir Mustafaev)، وغيرهم.

وكان نبينا الكريم محمد ﷺ إذا أرسل جنده لقتال العدو في المعركة، قال لهم:

«إن الانضباط والإخلاص وطاعة الأوامر وحب القتال وتمني رفعة الوطن والدولة، هو ما يجلب لنا النصر»^(١).

وإن المسلمين في الجبهة الداخلية يبذلون قصارى جهدهم في العمل المتفاني في شركات الدولة ومصانعها وحقولها؛ إنفاذاً لواجباتهم تجاه الوطن، ويساعدون الجيش الأحمر والبلاد بكل السبل الممكنة.

لقد نجح الشعب السوفيتي وإخواننا المسلمون في واجبه المبارك؛ فأنقذ الجيش الأحمر الباسل مئات المدن وآلاف القرى من أيدي العدو البغيض، وعاجلاً لا آجلاً، سيطر على الأرض السوفيتية المقدسة كلها من الغزاة الفاشيين، تحت قيادة قائده المجيد، الزعيم الأعظم لشعوب الاتحاد السوفيتي كلها، أمل العالم ودرع حرية العقيدة (zashchitnik svobodi sovesti)، يوسف فيساريونوفيتش ستالين، المنغمس في مجد الجيش الأحمر المنبسط غرباً حتى حدود أرض أجدادنا، والمتوغل في أرض رومانيا يطارد العدو ويحرر شعوب أوروبا المستعبدة.

إننا نحن ممثلي أهل العلم والمؤمنين في أذربيجان وچورجيا وأرمينيا، المجتمعين في هذه الجمعية، ندعوكم إخواننا وأبناءنا المقاتلين البواسل في الجيش الأحمر، أن تحملوا على العدو ببسالة، يداً بيد وكتفاً بكتف مع شعوب الاتحاد السوفيتي كلها، وأن تبيدوا الغزاة الألمان بلا هوادة، وتدحروهم من وطننا المقدس؛ امتثالاً لكلام القرآن الكريم القائل: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ ؛ ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾^(١).

يا إخواننا وأخواتنا وأبناءنا وبناتنا الأعزاء على الجبهة الداخلية!

نناشدكم أن تعملوا كل في مكانه بمزيد من التفاني والإتقان، وتشدوا بعملكم من أزر الجيش الأحمر بالمعدات والذخائر والمؤن، وبهذا تحققون أمر القرآن الكريم

(أ) لا نعلم حديثاً عن النبي ﷺ أو أثرًا عن الصحابة يشير إلى المعاني المذكورة. (المترجم)

(١) مذكور في النص الأصلي أن الآيتين هما ١٨٦ و ١٨٧ من سورة البقرة، والصواب أن النص

المذكور تحريف طفيف للآيتين ١٩٠ و ١٩١ من سورة البقرة.

إذ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٢).

يا علماء الإسلام وفقهاء الكرام!

علينا أن نوّدي واجبنا المقدس تجاه الوطن، فندعو، لا نكلُّ، بمحق العدو محققًا عاجلاً.

إننا نحثُّ المؤمنين المخلصين على التحلي بالشجاعة وإظهار البسالة على جبهات المعارك من أجل أرض أجدادنا، وعلى التزام الأمانة والتفاني في العمل على الجبهة الداخلية؛ للإسهام في استئصال شأفة عدو البشرية كلها.

/ صلُّوا واسألوا الله عز وجل أن يُنعم على وطننا العظيم بالسعادة والرخاء. [١٧٢]

ولا تملُّوا من سؤال الله العافية والعمر المديد لقائد الشعب العظيم، يوسف فيساريونوفيتش ستالين.

إن المعارك القادمة بين جنود هتلر والجيش الأحمر وجنود حلفائنا العظام، بريطانيا وأمريكا، ستحقق آمالنا بتحرير البشرية كلها من عدوها الملعون، وباستعادة السلام والعدل في العالم أجمع.

لعن الله الفاجر هتلر ومن معه.

وبعون الله العظيم، سيُدحر العدو ويُمحق. آمين.

باسم جمعية علماء المسلمين ومؤمني ما وراء القوقاز:

شيخ الإسلام، علي زاده، آخوند أغا؛ رئيس النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز.

المفتي، أفندي زاده، إبراهيم أفندي (Efendi Zade Ibrahim Efendi)، نائب رئيس النظارة الدينية.

(٢) مذكور في النص الأصلي أن الآية هي ٦٢ من سورة الأنفال، والصواب أنها آية ٦٠.

أعضاء النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز من أذربيجان:

القاضي باش نماز زاده، أخوند فرج الله (Pishnamaz Zade Akhund Faradkulla)

القاضي أخوندوف، عبد الرحيم (Akhundov Abdul Ragim)

القاضي ماغيميدوف، رمضان أفندي (Magomedov Ramazan Efendi)

أعضاء النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز من جورجيا:

القاضي بيريدز رسيم سليمان أوغلي (Beridze Rasim Suleiman Ogli)

القاضي باقروف ملا نادر شاه أستا درويش أوغلي (Bakirov Molla Nadershakh

Usta Darvish Ogli)

أعضاء النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز من أرمينيا:

القاضي بيراموف ميرزا القادر (Bairamov Mirza Alekder)

القاضي ماغيرموف شيخ العسكر عباس أوغلي (Magerramov Shaykh Alesker

Abbas Ogli)⁽³⁾

الوثيقة الثانية

خطاب من أئمة النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز لمسلمي إيران

(الثالث عشر من يونيو/حزيران من عام ١٩٤٥)

إننا نحن ممثلي مجلس شئون علماء ما وراء القوقاز، باسم مسلمي المنطقة، وخاصة مسلمي أذربيجان السوفيتية، نرحب بإخواننا المؤمنين من مواطني دولة الشاهنشاه الإيرانية، ونبعث بأصدق آيات الامتنان العميق لحسن ضيافتهم. يقول الله في القرآن: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات، ١٠]، وإنه بيننا وبين مسلمي إيران

(3) PDDUM, 275-280.

أسمى علاقات الود والجوار منذ القديم، وهو أمر واضح كل الوضوح. والآن بعد أن استقبلنا النائب المحترم في البرلمان، شيخ الإسلام ملايري، في منزله استقبالا كريما وأحسن ضيافتنا، فإننا نظن أن هذه الصداقة ستشدد وتقوى، ونأمل أن تستمر على الدوام.

وإنني أودُّ اليوم أن أُطلع إخواني المؤمنين في عُجالة على حياة مسلمي ما وراء القوقاز وأن أفهمهم على حقيقة أوضاعهم. ولا شك أنكم تعلمون أنه منذ أكثر من أربع سنوات، تعيش شعوب أوروبا وروسيا وما وراء القوقاز بلوى كبرى أنزلها بهم الفاشيون الألمان. لقد عانت البشرية بسبب دموية هتلر الوحشية بلاءً ومعاناة لا نظير لهما؛ فدمّرت بلدانٌ مزدهرة، وأبّدت شعوب عن بكرة أبيها، وسُلبت ثمار عملها وأُحرقت، وقُتل الأطفال الأبرياء والشيوخ، واغتُصبت النساء. وكان هتلر يريد غزو العالم واستعباد شعوبه وقهرهم، / ووصل به فجوره أن هاجم أراضي المسلمين الطاهرة في الجزائر وتونس ومصر بعد أن استولى على عددٍ من بلدان أوروبا، ثم انتهك القانون الدولي؛ حيث خرق معاهدة عدم الاعتداء مع الاتحاد السوفيتي، وهاجمه على حين غرة. ثم تمكّن من الاستيلاء على بعض المناطق في روسيا، وارتكب فيها شرورا منكرة وفضائح تشيب لهولها الولدان. فأينما حلَّ الفاشيون صارت المدن والبلدات رمادا، وبارت الحداثق والحقول، وأبّدت السكان المسالمون، وتعرض الأطفال والنساء والشيوخ لانتهاكاتٍ لا نظير لها. [١٧٣]

لقد استبسلت الدولة السوفيتية في دفاعها عن بلادنا، لكن الفاشيين جاهدوا لغزو القوقاز. وعندما بلغ فجور الفاشيين هذا الحد، لم يسعنا، نحن علماء المسلمين والمؤمنين من شعوب الاتحاد السوفيتي كلها، وبأمر كتابنا الذي يقول: «حب الوطن من الإيمان»^(٤)، أن نقف مكتوفي الأيدي ونرقب هذه الفضائح فلا نحرك ساكنا. وبصفتي شيخ الإسلام في القوقاز، اجتمعت مع الشيخ عبد الرحيم، قاضي باكو، والعالم المبرّز أخوند ميرزا فرج الله باش نماز زاده، وبعد أن ناقشنا الأمر مع ممثلين آخرين للعلماء، قررنا مساعدة وطننا وحلفاء الحكومة السوفيتية بكل ما

(٤) ليس في القرآن آية بهذا المعنى.

أوتينا من قوة، وبأفضل ما لدينا؛ لنشارك في إنقاذ شعوب العالم وتخليصها من كابوس الهيمنة الفاشية. فولينا وجوهنا في عام ١٩٤٢ شطر المسلمين المؤمنين في جميع أنحاء العالم، ندعوهم للدفاع عن أوطانهم. ولقد نُشرت دعوتنا ووُزعت في الاتحاد السوفيتي وإيران. والحمد لله أن الفاشيين الخونة قد تلقوا -الحمد لله أن الفاشيين الخونة تلقوا- تحت القيادة الشجاعة لفخامة المارشال ستالين - ضربات قاضية وهزائم ساحقة على الجبهات كلها لم يجدوا من دونها مؤثلاً. وقد تفرّد الجنود المسلمون في هذا الكفاح ودافعوا عن وطنهم الطاهر بأجسادهم.

وبعدما أدوا واجبه تجاه البشرية والعالم الإسلامي، توجّهنا إليهم بنداء آخر في عام ١٩٤٤، وشددنا [هذه المرة] على التزاماتهم الدينية. وهنا تجب الإشارة إلى أن الجنود المسلمين -مثلهم مثل جنود شعوب الاتحاد السوفيتي كلها- قد حققوا إنجازات باهرة في التمكن من فنون الحرب، وحصل كثير منهم على رتبة الجنرال. وممن يجب ذكره منهم هادي أصلانوف، ابن أذربيجان الخالد، الذي حارب عدو وطنه مستبسلًا، وقضى شهيدًا بطلاً في أرض المعركة؛ فكان موته خسارة عظيمة لشعبنا. وقد مُنح هذا الجنرال أربعة عشر وسامًا رسميًا؛ لقاء خدمته لوطنه، وتقديرًا لموهبته العسكرية الفذة. لقد كانت أعماله عظيمة بحق.

وعلى جبهات الحرب الوطنية الكبرى، تميزت الفرقتان ١٦ و٤١ تغانروغ و٧٧ سيمفروبول تميزًا خاصًا، وقد طبّقت شهرتهما الآفاق. وثمة فرق أخرى تتمتع بالخبرة والبطولة ذاتها أنقذت شعوب الاتحاد السوفيتي وغرب أوروبا من إفسار الفاشيين الألمان.

وأود أن أذكر أيضًا أن أربعة من أبناء أخوند ميرزا فرج الله باش نماز زاده، واثنين من أبنائي، وأربعة من أقرب أقربائي، شاركوا جميعًا في هذه المعارك. ويحق لنا أن نفخر ببسالة أبطال من أمثال صلاح الدين كزيموف ومالك ماغيرموف، ومصيب علييف، وفريد سافاروف، ومهدي غولييف، وإدريس سليمانوف، وزير مصطفىيف (Zuber Mustafaev)، وعزيز عبد الرحمنوف (Aziz Abdurakhmanov)، ونجفقلي رافعييف (Nadzhafkoli Rafiev)، ومروان موسييف (Marvan Musaev)، وعادل قوليف (Adil Kuliev)، وغيرهم من الأبطال المسلمين.

وبعد نشر هذه الدعوة [في عام ١٩٤٤]، بدأ المسلمون يستفتوننا في دينهم، وحتى نلبي احتياجات أهل العلم، أسسنا نظارةً دينية (upravlenie)؛ حيث توجهنا في العام نفسه إلى مجلس السوفيتت الأعلى نلتمس / الإذن بتشكيل نظارة الشؤون الدينية، فوافق المجلس على التماسنا، وبنهاية العام الماضي انعقد مؤتمر لعلماء الإسلام في باكو، وكان من بين ضيوف الشرف ضياء الدين باباخان من طشقند، والمفتي [زين الدين] رسولي من أوقاف، والمفتي قادري من القوقاز، وخضري أفندي من شمال القوقاز، ونصر الدينوف من موسكو.

وتتهدي نظارة الشؤون الدينية في أعمالها بهدي أحكام القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة. وفي بعض الأحيان، تنعقد اجتماعات طارئة لأعضاء النظارة كلهم. وتشمل النظارة في أعمالها الأنشطة التربوية التي تقوّي أواصر الصداقة والوحدة بين شعوب الاتحاد السوفيتي، وترفع من معنويات فلاحي المزارع الجماعية وتحشدهم لموسم الربيع، وتشجّع العمال الدؤوبين المنتجين، وترعى مشاعر الإخلاص لقادة الحكومة والإدارة ... إلخ.

ومن مسؤوليات النظارة تكليفُ بعض الأئمة بمهام مختلفة؛ كحماية أضرحة العلماء وكبار رموز الإسلام وآثارهم.

والآن أنتقل للإجابة على الأسئلة التي طرحها رئيس جمعية الدعوة الإسلامية وممثل المديرية الرئيسية لشؤون الدعاية والمنشورات الإيرانية.

تشكّل نظارة الشؤون الدينية للقوقاز من تسعة أعضاء، هم: رئيس النظارة، وهو أنا، شيخ الإسلام علي زاده؛ ونائب الرئيس هو المفتي إبراهيم أفندي زاده؛ وأخوند ملاً عبد الرحمن أخوند زاده؛ وأخوند ميرزا فرج الله باش نماز زاده؛ ورمضان أفندي ميرزا أغا بالا؛ والشيخ علي عسكر محرموف؛ وميرزا علي أكبر نماز أوغلي؛ ورئيس أفندي (Rahes Efendi)، وملاً يونس (Mulla Yunus). ويقوم الأربعة الأوائل في باكو، ويشرفون مباشرة على أعمال النظارة، ويعيش في جمهوريات الاتحاد السوفيتي قرابة خمسة وثلاثين مليون مسلم. وقد وقّع هؤلاء العلماء المذكورون وكثير غيرهم على دعوتنا لمسلمي العالم أيام الحرب.

إن الوعظ في المساجد [السوفييتية] مثله مثل أي مكان آخر؛ يقرأ مشايخنا آيات من القرآن الكريم ويناقشون سير العلماء والأئمة والأنبياء. وفي كل رايون، يحظى كل أوبلاست بطائفة من علماء المدارس الدينية وطلابها، وهناك حاليًا أكثر من خمسين (٥٠) طالبًا قوقازيًا يدرسون في إيران وفي العتبات [العراقية]. حتى إذا فرغوا من دراستهم، أمكنهم النهوض بمهمة الإمامة بإذن الحكومة. ولا تزال مساجدنا ومدارسنا الدينية وأماكن اجتماعنا كما كانت من قبل.

وستفتح نظارة الشؤون الدينية في المستقبل القريب مدرسة دينية خاصة تُدرّس فيها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية جنبًا إلى جنب التخصصات الدينية، وسيُفرد لها مبنى خاص.

وللمسلمين [السوفييت] مقابرهم الخاصة، حديثة وقديمة.

ولكن في ضوء خصوصيات البيئة [السياسية] الدولية، لم يسافر المسلمون في السنوات الأخيرة للحج إلى مكة.

ولدينا في بلادنا كثير من الكتب والآداب المكتوبة باللغة العربية، والمطبوعة بالحروف القديمة، ولا حاجة لنا في إعادة طباعتها بالحروف الجديدة [أي الكيريلية]. بيد أن كل الكتب الدراسية للمدارس المتوسطة والعليا تُطبع بالحروف الجديدة، ويُدرّس الخط القديم إلى جنب الخط الجديد في بعض المؤسسات التعليمية.

ولا اختلاف في حالة المصاحف؛ إذ يحفل الاتحاد السوفييتي بعدد هائل من المصاحف، فلا حاجة إلى إعادة طبعتها. فلا نكاد نجد بيتًا مسلمًا يحوي عدة مصاحف. وكان علماء الجيولوجيا [كذا وردت] كلهم ينتمون في الغالب إلى عائلات / انخرطت لعقود بأبنائها جميعهم في الأنشطة الدينية، وأنا نفسي أنتسب [١٧٥] إلى عائلة من هذا النوع.

وأود أن أقول كلمة موجزة عن حرية الدين والإيمان في الاتحاد السوفييتي. إن شعوب الاتحاد السوفييتي طالما تمتعت بحرية العقيدة، وتنص المادة الرابعة والعشرون بعد المائة من الدستور السوفييتي نصًا خاصًا على حرية [العبادة]

للطوائف الدينية؛ فإن الدين والدولة منفصلان لا يجتمعان في الاتحاد السوفييتي. ونحن العلماء المؤمنين لطالما تمتعنا بالحرية الكاملة في ممارسة شعائنا الدينية. فالأذان يصدح في بلادنا صباح مساء، والخطب والدروس الدينية تُلقى في المساجد، ويعقد العلماء إجراءات الزواج والطلاق وفق قوانين البلد، وتُؤدَّى الجنازات والصدقات وغيرها من الشعائر الدينية على نحو ما كانت تُؤدَّى دون تغيير.

وفي مواسم العزاء، تُلقى الخطب وتُروى قصص استشهاد الأئمة، ويؤدي المؤمنون طقوسها في شهر المحرم.

وقد أعانت الحكومة المؤمنين بكل وسيلة ممكنة. والحقُّ أنك إن قارنت العهد السوفييتي بالنظام الاستبدادي السابق عليه، وجدت الفرق هائلًا؛ فالحكومة [القيصرية] السابقة لم تولِّ المسلمين أدنى اهتمام، وأعاقت تمكيننا من العلم والمعرفة، فكانت حياتنا آنذاك غمًّا وظلامًا؛ إذ لم يكن للأطفال والمراهقين المسلمين حقٌّ في التعليم، ولم يكن لنا الحقُّ في دخول مؤسسات الدولة وشركاتها. أما الآن، فيُعَلِّمنا الاتحاد السوفييتي بكل حب العلوم والأفكار الحديثة، بغض النظر عن القومية والدين، ويدرس فتياننا وفتياتنا في معاهد تعليمية ممتازة، وقد أبدى مسلمو بلادنا ميلًا قويًا للتعلُّم، فلا حاجة لإكراههم. ونادرًا ما تجد أميًّا، حتى في القرى والنجوع. وتجد آلاف المدارس الابتدائية والمؤسسات التعليمية والمعاهد والمدارس الفنية في الجمهوريات. ولدينا طاقمنا المحلي من المتخصصين الماهرين الخبراء في صناعات متعددة. ولدينا أكاديميون مبرزون من أمثال مير قاسموف (Mir Kasymov)، وتوبشباشف (Topchibashev)، وحسينوف (Huseinov)، ومير علي قاشقاي (Mir Ali Qashqai)، والپروفوسور كرايف (Karaev)، والپروفوسور فؤاد أفندييف (Fuad Efendiev)، والپروفوسور عبد الله ييف (Abdulaev)، والپروفوسور ممد أمين أفندييف (Mammad Emin Efendiev)، والپروفوسور ممد علييف (Mammad Aliev)، والپروفوسور شمخل ممدوف (Shamkhal Mammadov)، وغيرهم.

وفي كل مؤسسات الحكومة وأجهزتها العليا، أثبت الفتيان المسلمون والفتيات

المسلمات أنهم قادرون على إنجاز أي عمل أو مهمة في مختلف المجالات،
ويمكننا القول: إنهم فاقوا بعض الشعوب الأخرى في ذلك.

وإن الشعب الأذري مدينٌ بهذه الإنجازات اللامعة لقائدهم العزيز، جعفر
باقروف، الذي يقف بكل قوته وراء قضية تعليم الشعب الأذري، دون أن يركن لحظةً
لما تحقق. أنعم الله عليه بالعمر المديد لينفع وطننا.

ولا شك أننا ندين دينًا كبيرًا بهذه الإنجازات للقائد الأعظم للأمم كلها، المارشال
ستالين، الذي يفكر في سعادة البشرية ورخائها بغض النظر عن القوميات والأديان.

إنه يولي شعوب العالم أجمع اهتمامه، ويخص الشعب الإيراني، جار وطننا
القديم، باهتمامه الودود. أنعم الله علينا بدوام الصداقة وقوتها بين بلدينا.

وختامًا، أود أن أعبر عن خالص امتناني لفخامة الشاه، ولأئمة إيران، ولكل
أصدقائي الإيرانيين على تلتفهم وحسن ضيافتي ورفاقي^(٥).

الوثيقة الثالثة

نداء وطني من جماعة من وجوه كهنة البوذية وأهلها (دون تاريخ)

[١٧٦]

/ أوم^(١)! ربي أحلل السلام والسعادة على الأرض!

من أولئك السائرين على هدي العظيم القدير بُرخن بوذا؛ من طلبته الحق الذين
أخذوا عهد العفة (tselomudriia)،

إليكم يا مؤمني العظيم العفو بُرخن بوذا وطلابه؛ إليكم في نور ديننا الطاهر
المبارك؛ إليكم نسوق كلمات الوحي والمناشدة هذه،

نعم؛ أسلمنا أنفسنا لرحمة القدير بُرخن. نعم؛ ارحمنا ربنا بوذا!

(5) GARF f. R-6991, op. 3, d. 20, ll. 61-69 (PDDUM, 301-307).

(١) أوم (Om)، وبالسنسكريتية (ॐ): رمز وصوت مقدّس في الهندوسية والبوذية، يوضع في بداية
الصلوات والدعوات، لتمجيد بوذا والثناء عليه. (المترجم)

في اليوم الثاني والعشرين من منتصف شهر يونيو/ حزيران من عام ١٩٤١، هاجم الفاشيون الكفار (nepravovernii) من الألمان، ممن تبعوا كفر أبناء الشيطان تشومنوس (Chomnos)^(٦) وزعيمهم الوحش البغيض هتلر سليل جالب الموت أبلغاتشن (Abilgachin)^(٧)؛ هاجموا أرض أجدادنا بغدر وقسوة وحشية. هاجموا عائلة شعوبنا المتصادقة، من أتباع المذاهب والأديان المختلفة، ودمروا حياتنا السعيدة المسالمة، مدفوعين بأبغض الأفكار وأشدّها إثماً، وأشعلوا حرباً مجرمة دموية، يبغون بذلك استعبادنا واستعباد أبنائنا وأحفادنا.

وقد هبّت كل شعوب أرضنا الشاسعة من أهل الأديان والمذاهب كلها، في حربٍ مقدسة لا هوادة فيها على الوحوش الفاشية؛ كي يحفظوا سعادة مستقبلهم وكرامة بلدهم وحرّيته.

لقد سدد البواتير (bators)^(٨) - جنود جيشنا الأحمر العظيم - للفاشيين الفسقة ضرباتٍ قاصمة، وجعلوا يدفعونهم يوماً بعد يوم إلى حظائرهم (v ikh zverinoe logovo)؛ ففي عام ١٩٤٣، وفي غضون خمسة أشهر لا غير، حرر الجيش الأحمر مائة وستين (١٦٠) مدينةً وردّها إلى أهلها، منها دونباس وكييف عاصمة أوكرانيا، وثمانية وثلاثين ألف (٣٨.٠٠٠) مستوطنة، واثنين وثمانين (٨٢) مدينة [كذا وردت]، وثلاثمائة وعشرين (٣٢٠) محطة سكة حديدية. وبقوة غاشمة، يدفعون القوات الكافرة غرباً، ويستردون الأرض المباركة لصالح الشعب.

(٦) انظر قائمة المصطلحات آخر الوثيقة.

(٧) انظر قائمة المصطلحات آخر الوثيقة.

(٨) البوغاتير (Богатырь - Bogatyr) كلمةٌ تركية-مغولية (وجمعها البوغاتيرات أو البواتير) تعني البطل أو الشجاع، وأصبحت علماً على نوع من شخصيات الأساطير السلافية الشرقية. البوغاتير هو الفارس المغوار ذو القوة الضاربة والشجاعة والإقدام، صوته جهوري وغاياته وطنية ودينية، يدافع عن الروس من الأجنبي، من قبيل شعوب السهول التركية، والتتر منهم على الأخص. يتجول في جميع أنحاء روسيا بحثاً عن المغامرات ولحماية الروس. لكن الكلمة في العصر الحديث تجردت من حمولتها الأسطورية، وصارت علماً على كل بطلٍ شجاع، في الحرب أو السياسة أو الرياضة أو غير ذلك. (المترجم)

لقد هاجم مصاصو الدماء (krovopiitsy) الألمان شعبنا الطاهر غير مرة في القرن الماضي، وفي كل مرة يفشلون في الاستيلاء على حقولنا الشاسعة وتراب أرضنا الغنية، ويعجزون عن أسر شعبنا المسالم محب الحرية واستعباده.

على أنهم في كل مرة يفاجؤهم الموت والعار، بإرادة القدير وبقوة أسلافنا الأبطال (bogatyrei-predkov) منابع النور.

ففي عام ١٢٤٢ م ابتلعتهم بحيرة تشودسكوه (Chudskoe) تحت سيف البوغاتير/ البطل (bogatyr) الروسي اللامع ألكسندر نيخسكي. وفي عام ١٧٦٠ م، سحق الجيش الروسي الألمان، واستولى على برلين، تحت قيادة البوغاتير الشهير سوڤوروف.

وفي عام ١٩١٤ هاجموا وطننا ثلاث مرات، وشاركنا في النصر عليهم شعب المغول البوريات (Buryat-Mongol)، الذين اعتنقوا البوذية من قديم. وقد أراق أبناءهم دماءهم على أرض المعركة، وأبدوا بسالة عسكرية وشجاعة لا نظير لهما، وعليهم بركة من كهنة ديننا الأطهار.

ويعلم الجميع ما قدّمه [اللامان] الپانديتا خنبو (Pandita Khambo) إيرولتيف (IROLTUEV) وإيتغيلوف (ITIGILOV) [كذا وردت]، مع غيرهما من اللامات والداتشانات (dachans) الكبار الآخرين / نيابةً عن الشعوب المؤمنة، من توضّحات [١٧٧] متنوعة وغالية لأجل أرض أجدادنا، وكيف قاموا على تنظيم مؤسسات خيرية تساعد الجرحى والمعاقين من الجنود.

إن الشعوب الساكنة في الاتحاد السوفييتي الطاهر العظيم كلها، من أتباع الأديان والمذاهب المتنوعة، ومنهم المغول البوريات (أتباع البوذية الطاهرة منذ القدم)، وقفوا جميعاً مع الشعب الروسي الشريف مراراً في وجه الغزاة الأجانب (so storony inostrannykh interventov) يدًا بيد وقلوبهم متآلفة، وتحملوا بتفانٍ لا مثيل له أيام الشدائد والمعاناة القاسية.

والآن أيضًا، عندما أبدى لنا الفاشيون الفجرة من الألمان وزعيم عصابتهم هتلر، وحش تشومنوس، نواياهم الدموية تجاهنا، قمنا نحن المغول البوريات مع الشعوب الأخرى بالانضمام إلى صفوف الحرب المقدسة لأجل تحرير أرضنا.

إن الفاسق الكافر هتلر يفخر بأنه من عبّاد المسيح [كذا وردت!]، لكن أينما حلّ، حل شرٌّ رهيب؛ حل التدمير الوحشي للكنائس والكاتدرائيات المسيحية، والنهب الخبيث لكل ما هو خير لروح الشعوب وتراثها، والذبح القاسي للشيوخ والنساء والأطفال، والصورة المقززة للعنف والنهب وإضرار النار عمدًا في المدن والقرى المسالمة، وتدمير القيم الثقافية وتخريب آثار القدماء. ويكشف لنا ذلك كله بلا مواربة عن الوجه الوحشي الشيطاني لهؤلاء اللصوص.

ومن هنا، أخذنا نحن أتباع البوذية وطلابها الحق عهد العفة، وجئناكم أيها المؤمنون بقوة الخلاص في جواهر بُرخن الثلاثة وطلابها، جئناكم يا أهل المعاناة والعطش، جئناكم أيها النساء والرجال، جئناكم بندا.

ابذلوا كل قوتكم وعلمكم وأفكاركم للدفاع الشريف والمقدس والإلهي عن الوطن. ونبارككم باسم بُرخن فيما يجدر من صراعات وفي المآثر العسكرية. واعملوا في المزارع الجماعية ومزارع الدولة ببسالة وإخلاص في سبيل الوطن، وضاعفوا جهدكم من أجل تحقيق النصر العاجل على العدو.

وإننا نقسم أمام بُرخن أن إيماننا المتفاني وعملنا الشجاع وأفكارنا الطاهرة ستتوجه دومًا نحو أقدس المهام؛ مهمة الدفاع عن أرض الأجداد. وسنذكر أن أدنى تراخٍ أو إهمالٍ أو تقصيرٍ إنما يعد تراجعًا عن مهمة إغاثة الوطن المقدسة، وهذا التراجع ردة (bogootstupnichestvo) من أشر الشرور.

إن المؤمنين الصادقين بدين البوذية الطاهر وكرامة المياه المقدسة (arshans) من علماء بوذا العظام، لن يتراجعوا أبدًا عن مهمتهم الحقيقية المقدسة في التضحية بحيواتهم على مذبح أرض الأجداد (na altar' otechestva).

الزموا طريق علماء بُرخن وبرؤوا بقسمكم الزاهر، هذه مهمتكم الوحيدة في الحياة.

لقد علمنا بوذا قائلًا: «إنهم إن امتلكوا الإرادة للسعي إلى الحقيقة، إذن تسعد حياة الناس ويقدرّون على الدفاع عن بلدتهم وشجاعتهم وحرّيتهم».

أيها البوذيون المؤمنون!

علينا أن نعمل بتفان، وسيعجل الله بنصرنا على قبيلة الشياطين وزعيمهم البغيض هتلىر. وسنلقي بهم -بفضل جهودنا- إلى جحيم لا قعر له، جزاء ما عملوا من سوء.

/علينا أن ندعو الجواهر الثلاثة ليل نهار، نسأل الخلاص، ونسأل السلام [١٧٨] والمستقبل السعيد في أرض بلا شياطين لكل أتباع بُرخن. علينا أن ندعو لجيشنا الأحمر الباسل أن يقطع أعداء البشرية إربًا إربًا بسيفه الحارق اللامع. إن الحرب في مرحلتها الفاصلة، وسنجلب قوتنا كلها لنضمن النصر ودحر العدو.

وطالما فيكم رمق، سيثمر عملكم خيرًا!

* * *

قائمة مصطلحات [من الوثيقة الأصلية]

التشومنوس [Chomnos]: الشيطان.

أبلغاتشن [Abilgachin]: جالب الموت.

البوغاتير [bator]: البطل

بانديتا خنبو [Pandita Hambo]: رتبة لدى اللامات البوذيين البوريات.

داتشان [Datsan]: دير بوذي

بُرخن [Burkhan]: إله

أرشان [Arshan]: مياه مقدسة^(٨)

(8) PDDUM, 216.

قائمة المصطلحات المرفقة آخر الوثيقة مُتسخرجة من النص الأصلي.

الوثيقة الرابعة

تهنئة روش هشانا لستالين

من «رأس (predsedatel) يهود موسكو» (١٩٤٣)

إلى ي. ف ستالين (موسكو، الكرملين):

عزيزي يوسف فيساريونوفيتش!

في التاسع والعشرين من هذا الشهر، نحتفل نحن اليهود المتدينين (religioznye evrei) بالعام الجديد - العام ٥٧٠٤ بتقديرنا - وهو يوم تطهر وبعث روعي مليء بالأمور المقدسة المهمة لكل يهودي مؤمن، ونتوجه إليكم قائدنا الحكيم وزعيمنا العظيم في هذا اليوم بالدعاء وأطيب التمنيات بالسعادة والرزق والصحة والعافية في العام الجديد. حفظكم الرب وسددكم فيما تميلون إليه من آراء وما تقومون به من أعمال لا مقصد لها إلا نفع أوطاننا (rodiny) وشعبنا السوفيتي (narod).

وكل يهودي مؤمن بتراثنا القديم يسبر روحه ويزن أعماله ويحجب عن أفعاله في العام الماضي أمام الرب وأمام ضميره، ويُعدُّ نفسه للعام التالي. يتواصل اليهودي مع أبيه في السماء، ويدعو في صلاته أن يعم السلام على العالم أجمع وأن تنتصر العدالة، ويدعو بانتصار الخير والعقل. إننا نحن اليهود السوفيت المتدينين نسخر كل أفكارنا ومشاعرنا في يوم التطهر هذا لوطننا الحبيب، ونسأل الله القدير الرخاء لدولتنا العظيمة، وطن شعوبنا الشقيقة وأرض الحقيقة والعدل، ونسأله العافية والعمر المديد لقائدنا الأعلى، الذي مكنتنا قيادته الحكيمة، تمكيناً لا حدَّ له، من أن نعيش حياةً كاملة ونافعة مواطنين سوفيت فخورين فضلاء.

نحتفل الآن بثالث عام جديد في ظل الحرب. وقد تحمّلنا نحن اليهود على مدار ثلاث سنوات مشاق هذه الحرب الدموية القاسية، كتفًا بكتف مع شعوب بلادنا الشقيقة كلها، وقدّمنا معهم تضحيات هائلة / بحماس شديد، واحتفلنا جميعاً بفخر واعتزاز كبيرين بنجاح جيشنا الأحمر المغوار، الذي يقاتل فيه كثيرٌ من أبناء شعبنا من [١٧٩]

نصر إلى نصر، تحت قيادتكم البارعة، ويقربنا يوماً بعد يوم من الاحتفال الأكبر. وفي العام الجديد الثالث هذا في ظل الحرب، نقول ما في قلوبنا بشجاعة، ونحن نزن أعمالنا ونعرض أفعالنا وأفكارنا على ضمائرنا. لقد قاتلنا في العام الماضي بكل حب وإخلاص لوطننا، ولجيشنا الأحمر الباسل، ولك قائدنا الحبيب. لقد فار دمنا في عروقنا كرهاً للعدو الفاشي، وسخرنا كل قوتنا وقدرتنا من أجل تحقيق النصر في هذه الحرب. وفي العام الحاضر، نسأل مرة أخرى أبانا الذي في السماء، ونعدكم ببذل قصارى الجهد بغير كلل لنحرز النصر الأخير، ونطرده العدو المهين من حدود وطننا. نؤكد لك زعيمنا ومعلمنا المفدى أن دعوات عامنا الجديد تدور حول غاية واحدة وأمنية واحدة، أن يكون العام الجديد ٥٧٠٤ عام نصر محقق، لك ولجيشنا الأحمر المغوار في ظل قيادتك ولنا جميعاً؛ عام سعد وبهجة ورخاء؛ عام تقدم مُعجز؛ عامًا يُكتب لك فيه أن ترى تحقق مُثلك، وتقطف فيه ثمار شواغلك وأعمالك العظيمة الدؤوبة في صالح وطننا وشعبنا السوفييتي كله.

باسم اليهود المتدينين،

رأس يهود موسكو،

صموئيل سلومونوفيتش شوبرتسكي (Samuil Solomonovich Chobrutskii)^(٩)

الوثيقة الخامسة

عبد الرحمن رسولوف؛ نداء وطني للمسلمين السوفييت

(مايو/أيار ١٩٤٢)

إخوتي المسلمين الكرام!

إن كلام الله ورسوله محمد ﷺ يحض المسلمين على القتال بلا هوادة؛ بغية تحرير وطننا العظيم والإنسانية كلها والعالم الإسلامي من قبضة الأوغاد الفاشيين.

(9) PDDUM, 251-253.

يا رجال جبهة الداخل ونساءها، لا تستسلموا للجبين والذعر، واشتدوا في فعل كل واجبٍ للانتصار في معركة الوطن وأمن الناس وحياتهم.

وفي هذا الجهاد المقدس دفاعًا عن أرض الأجداد (*v etoi sviatoi Otechestvennoi voiny*) ضد ألمانيا الفاشية وأذئابها، بينوا للعالم أجمع ولاءكم لوطنكم وأثبتوا استقامتكم، وادعوا في المساجد والمصليات بنصر الجيش الأحمر.

إننا نحن علماء الإسلام (*uchenye islama*) والزعامات الدينية القاطنة في الاتحاد السوفييتي ندعو المسلمين جميعًا للدفاع الشامل عن وطننا الحبيب وعن العالم الإسلامي من الفاشيين الألمان وزبائنتهم. ادعوا الله الرحيم عز وجل أن يعجل بخلص البشرية والعالم الإسلامي كله من طغيان الفاشيين أعداء الإنسان (*chelovekonenavistnikov-fashistov*).

[١٨٠] / ما من مؤمن حقيقي (*pravovernyi*) اليوم إلا وله ابنٌ أو أخٌ أو أبٌ يقاتل الألمان، وما من مؤمن حقيقي يتلكأ في حمل السلاح للدفاع عن وطننا المشترك. وكذلك، ما من أحدٍ في الجبهة الداخلية إلا ويشترك في النصر بعمله في المصانع والمزارع. ونحن المسلمين نتذكر حديث رسول الله محمد ﷺ: «حب الوطن من الإيمان»^(١٠).

الوثيقة السادسة

برقية إلى ستالين من إيشان باباخان وأئمة آخرين من النظارة الدينية
لمسلي آسيا الوسطى وكازاخستان (السابع عشر من أكتوبر/تشرين
الأول من عام ١٩٤٣)

من ممثلي النظارات الدينية ومؤمني أوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان
وقيرغيزستان وكازاخستان:

تحية دافئة لك عالي المقام يوسف فيساريونوفيتش، رئيس الحكومة السوفييتية

(10) *Islam yuldarynda: Sufiysilik habaqtari häm shäyekh Zäynulla Räsülev shäjärähe*, 65–68.

والقائد الأعلى للقوات المسلحة، من المؤتمر الديني لممثلي النظارات الدينية ومؤمني أوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان وقيرغيزستان وكازاخستان.

منذ اشتعال الحرب الوطنية الكبرى لشعوب الاتحاد السوفيتي على ألمانيا الهتلرية وحلفائها في أوروبا، حضَّ علماء المسلمين في آسيا الوسطى وكازاخستان المسلمين المؤمنين على الدفاع عن وطنهم العزيز، وباركوهم في مساعيهم العسكرية. وقد تضرَّع أهل العلم بدعواتٍ جمّة لنصر الجيش السوفيتي، وحثوا المسلمين المؤمنين في الجبهة الداخلية، سواء من خلال الكتابة أو الخطب، على العمل الأمين الدؤوب، وعلى إعانة الجبهة بتوفير مزيد من المواد الخام عالية الجودة والمؤن والذخيرة والسلاح. واليوم نوّكد راضين أن الله جل جلاله قد استجاب دعاءنا، والجيش الأحمر يطهّر، تحت قيادتكم الرشيدة، الأراضي السوفيتية من العدو، ويحرر كل يوم عشرات بل مئات من البلدات والمدن.

عالي المقام يوسف فيساريونوفيتش، إننا، نحن المجتمعين من ممثلي علماء المسلمين والمؤمنين، نوّكد لك أننا سنحضر المسلمين المخلصين في دعائنا ووعظنا -ممن هم على جبهة القتال أو من يؤازرنهم في الداخل- على تدمير العدو، دون ادّخار أي جهد في ذلك، حتى لو استلزم الأمر أن يضحوا بحياتهم. وسندعو الرجال والنساء على جبهة القتال أن يعملوا بعشرة أضعاف طاقتهم؛ من أجل إمداد الجبهة بكل ما تحتاجه للقضاء العاجل على العدو الخبيث.

ولأجلك يا شمسنا المزهرة يوسف فيساريونوفيتش، نرفع أكف الضراعة لله، ومن صميم قلوبنا نسأله لك العافية والعمر المديد. وندعو الله عز وجل أن يعينك على الاستمرار في إنجاز الأعمال العظيمة التاريخية، وعلى تحرير وطننا وكل شعوب أوروبا التي قهرتها ألمانيا الهتلرية. آمين⁽¹¹⁾.

(11) GARF f. R-6991, op. 3, d. 6, l. 34-36 (PDDUM, 199-201).

الوثيقة السابعة

نداء وطني لمسلمي شينغيانغ باسم إيشان باباخان وممثلي النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان (١٩٤٥)

[١٨١] / إننا نناشد العالم الإسلامي، نيابةً عن مسلمي تركستان كلها، بهذا الخطاب الذي يجمل القول في وصف [ظروفنا] الماضية والحاضرة كما هي؛ بغية تبديد الفرضيات والمفاهيم المختلفة عنا.

إن تركستان ظلت لآلاف السنين، وما زالت، وطنًا مقدسًا للأوزبك والطاجيك والتركمان والكازاخ والقيرغيز والأويغور والقاراكولباك. وقد دافع أسلافنا ببسالة عن أرض أجدادهم ضد غارات المهاجمين الذين غزوها مرارًا، لكنهم فشلوا في استعبادهم وإبادة شعبنا. إن أرضنا تحوي في باطنها رفات رجالٍ عظام؛ فهناك ضريح عليّ [رضي الله عنه]، صهر محمد [ﷺ] في قرية شاهي ماردان في وادي فرغانة. وفي طشقند، يرقد رفات عكاشة الطاهر [رضي الله عنه]، أحد صحابة النبي [ﷺ]. وفي سمرقند، نجد شاه زنده الشهيرة قبورها، وأقدسهم ضريح قثم بن العباس [رضي الله عنه]. وهناك في تركستان ضريح الخواجه الطاهر أحمد يسوي. وفي بخارى، نجد ضريح بهاء الدين نقشبندي [كذا وردت]، والشيخ العالم البخارزي، وكلال الطاهر، وعشرات غيرها من أضرحة الأولياء الآخرين المدفونين في أماكن أخرى من تركستان الشريفة. لقد بُني على كثير من هذه الأماكن أضرحةٌ باهرة، ويدعو مسلمو تركستان عند قبور هذه الأولياء. رزقهم الله الجنة. آمين.

إن مدننا الطاهرة - بخارى وسمرقند وخيوه وطشقند وغيرها - كانت على مر القرون مراكزَ للعلم والمعرفة والحكمة المقدسة لخراسان ومصر والجزيرة العربية وقشغر والهند وإيران وأفغانستان. وقد خرج كثير من العلماء والفقهاء وعلماء الفلك والمعماريين والشعراء من تركستان؛ فالحكيم ابن سينا، والعالم أولوغ بك الذي لا يضارع، وغيرهما من الطلاب المتميزين، كلهم أصبحوا معلمين في مدارس

تركستان. وقد أقام أسلافنا مباني مذهلة لمساجد ومدارس بي بي خانم (Bibi Khanim)، وخواجه أحرار، وأولوغ بك، وشير دار (Shir Dor)، وتيليا كاري (Tillia-Kari).

إن مكتبات بخارى الشريفة وسمرقند وطشقند وأورغنش (Urgench) وآلماتي (Alma-Ata)، وفرونزه (Frunze) وغيرها من المدن، تحوي على أرففها ملايين الكتب والمخطوطات النادرة؛ ففي مكتبة طشقند الوطنية وحدها هناك نحو مليوني مجلد، منها جوهرة الحكمة الإسلامية؛ الكتاب العزيز (القرآن) مدوناً بخط الخليفة الراشد عثمان [رضي الله عنه] ذاته، الذي استشهد في الوقت الذي كُتب فيه هذا المصحف تقريباً، وقد أُتخذت أوراق هذا المصحف من رق الغزال، ونرى حتى اليوم بقع دمه الشريف عليها. وكان مسلمو تركستان يضعون أيديهم على هذا المصحف الشريف عند انعقاد الجمعيات وإبرام اتفاقيات التجارة. وهناك مخطوطات لكتب «الصحاح» الستة، هذه الكتب الإسلامية الطاهرة، وكذلك مخطوطة لديوان قوتادغو-بيليك (Kutadgu-bilig) الذي كتبه يوسف الحاجب ق [يوسف خاص حاجب البلاساغوني] (Yusuf Khass Hajib Balasaguni)، وقد كتبها باللهجة التركية «الخاقانية» التي تعد أصلاً للغتين الأدبيتين الأوزبكية والأويغورية. ونجد في مكتبة طشقند معجم محمود القشغري بمجلداته المتعددة، وكتابات العلماء والفلاسفة المشهورين كأبي نصر الفارابي، وأبي علي بن سينا البخاري، والبيروني الخوارزمي، وأحمد الفرغاني، ومحمد بن موسى الخوارزمي، والتفتازاني، وغيرهم.

/ لقد كنا، نحن مسلمي تركستان، متفرقين مبشرين قبل الثورة السوفييتية العظمى، [١٨٢] ولم تكن لنا دولة، فاتحدنا وأسسنا جمهورياتنا الحرة تحت راية الحكومة السوفييتية، وقُضي على الخلاف القومي الذي ساد قبل ذلك. وقد أقمنا في تركستان جمهوريات مستقلة هي أوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان وكازاخستان وقيرغيزستان، وانضمت جميعها إلى الاتحاد السوفييتي أعضاءً متساوين مع جمهوريات الشعوب الأخرى. وقد بنت شعوب هذه الجمهوريات كلها عواصمها، وزيّنتها بالمباني الباهرة للمؤسسات الحكومية وبيوت الثقافة والتعليم والمعاهد الطبية والجامعات

والمدارس وما إلى ذلك. ونمتلك اليوم مدارس للتعليم العالي في شتى فروع العلوم، ويدرس فيها آلاف الشباب المسلمين.

لدينا اليوم مدارس للتعليم العالي في كل فروع العلوم، ويدرس فيها آلاف الشباب المسلمين. وعلى عتبة مدرسة «أولوغ بك» الساحرة في سمرقند، يتلأأ منذ خمسة قرون حديث نبينا الكريم ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». لكن هذا الحديث لم يتجسد في الواقع إلا في كنف الحكومة السوفيتية. ولدينا اليوم أطباءنا ومعلمونا وأساتذتنا وخبرائنا الزراعيون ومهندسون وطيارونا. ولقد سنحت لمسلمي تركستان فرصة تطبيق مهاراتهم في كل مجالات الحياة، وصون رخائهم، مع التمسك في الوقت نفسه بإسلامهم.

نحن أولو الأمر في سياساتنا واقتصادنا وثقافتنا ولغتنا وديننا وعاداتنا وحيواتنا الخاصة، وهذا كله بفضل دستور الاتحاد السوفيتي، قانون دولتنا الأساسي الذي خطته يد ستالين العظيم الحكيم المباركة؛ إذ تمنح المادة الرابعة والعشرون بعد المائة (١٢٤) من دستور دولتنا المواطنين جميعاً الحق في اعتناق الدين الذي يريدون، وتتيح لعلماء كل دين وللمؤمنين من كل الطوائف نظراتهم الخاصة، ولا تحول الدولة بين أصحاب الأديان والمذاهب وبين ممارستهم لشعائهم الدينية.

ويعلم المسلمون في شتى أنحاء العالم أن الإشراف على الأنشطة الدينية الإسلامية في تركستان من اختصاص النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، وهي النظارة المنتخبة في مؤتمر قرولتاي (Kurultai) للعلماء والمؤمنين من أهل الإسلام.

وعندما بنت عائلة شعوب الاتحاد السوفيتي العظيمة حياةً مسالمة لأنفسها، ونمت قوتها الاقتصادية، وعندما بنينا أكبر مصانعنا وشركاتنا ومحطات سككنا الحديدية وقنوات الزراعة الخاصة بنا في جميع أنحاء آسيا الوسطى، وعندما قامت الزراعة الكبيرة بعد تيسيرنا التطبيق الشامل للآلات الزراعية الجديدة، وعندما ارتقى المستوى السياسي والثقافي للشعب؛ عندما تم ذلك كله في عام ١٩٤١، غدرت بنا

جيوش ألمانيا الهتلرية، ودون إعلان حرب، انتهكت المعاهدة الموقعة بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا، وهاجمت وطننا الطاهر. وقد باركنا أبناءنا وإخواننا منذ أول أيام الحرب ليدافعوا عن الوطن ضد العدو الخائن الذي أغرق أوروبا كلها في الدماء.

إن الألمان يريدون إبادة غالب السكان واستئصال شأفتهم من البلاد، وأن يصفدوا أيدي الباقين في العبودية، ويبتموا أطفالنا ويشلونهم. [إنهم يريدون] تدمير وطننا، وإهدار حقوقنا، وإهانة ديننا وتحقيره، وتحويل المسلمين إلى البروتستانتية [كذا وردت]، وإنزال الجذب بحدائقنا العطرة، بعد أن يُغرقوا بدماء الشيوخ والنساء والأطفال ودموعهم قنوات ريِّنا التي بنتها يدُ الشعب، مع ما تحمله من ماءٍ وحياة وسعادة لأهلنا.

لقد احتل الألمان والرومانيون شبه جزيرة القرم التي يدين أغلب سكانها بالإسلام، فدمروا هذه المنطقة الزاهرة وخرَّبوها، وقضوا على حرية مسلمي القرم في تقرير مصيرهم الوطني، وسخروا سخريةً لا مثيل لها من عاداتهم اليومية ودينهم.

/ وفي شمال القوقاز، حيث حل وحوش الألمان أيضًا، ارتكبوا جنایات فظیعة، [١٨٣] فنهبوا الشعب كله وأحرقوا بيوت سكان الجبال وفجَّروها، واستعبدوا آلاف الرجال والنساء وأسروهم. وفي كراي كراسنادر وخاركوف وغيرهما من مناطق أوكرانيا، أمر القادة الألمان بإعدام آلاف الناس، وفيهم العجزة والشيوخ والنساء والأطفال، بالغاز الخانق في سيارات مغلقة إغلاَقًا مُحَكَّمًا. وقد تأكدت هذه الفظائع وأيديتها أقوال الضباط والموظفين الألمان في محاكماتٍ علنية انعقدت بعد تحرير القوات السوفييتية لهذه المناطق من الغزاة. وهناك كثير من الوقائع المشابهة في تقارير وقَّعها شهود عيان. لقد أطلق الألمان النار على الجنود والجرحى الذين أُسروا، وشنقوهم وأحرقوهم وعذبوهم وشوَّهوهم، وبينهم مسلمون.

قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «حب الوطن من الإيمان»؛ ولذلك دعونا -نحن رعاة دين مسلمي تركستان- رعايانا أن يمضوا قدمًا في محاربة جيوش هتلر البغيضة، مدافعين عن كرامتنا وحریتنا وديننا ومجدنا. وقال ربنا عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٦﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

تَفَقَّتْهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴿ [البقرة، ١٩٠-١٩١؛ وثمة خطأ في النص الأصلي؛ حيث ورد أن الآيتين هما ١٨٦ و ١٨٧]. إن جنودنا على الجبهة يقومون بمعجزاتٍ تدل على شجاعتهم، ويبيدون الغزاة الهتلريين ليل نهار، ويحررون مئات المدن وآلاف القرى من أيديهم. وقد أثبت كثير من أبناء مسلمي تركستان براعتهم في القتال، وحصلوا على أوسمة عالية منها وسام بطل الاتحاد السوفيتي.

وإن الرجال والنساء في الجبهة الداخلية يصنعون الأسلحة بلا كلل، ويقدمون للجبهة كل ما تحتاجه، فيزودون جيشنا الحبيب بالموءن والعتاد والذخيرة والسلاح والرشاشات والدبابات والطائرات. وإلى جانب ذلك، تبرع المسلمون بمدخراتهم الخاصة؛ ابتغاء سد حاجات الجبهة، ليصل ما جمعه إلى عشرات الملايين من الروبلات، سوى الملابس والطعام.

وإن قوات حلفائنا - إنكلترا وأمريكا - تسدد للعدو ضرباتها من الجو؛ فدمرت القوات الألمانية الإيطالية في إفريقيا وطهرت أراضيها كلها من قوات العدو. وكذلك الأمر في إيطاليا التي انسحبت من الحرب. وأما قوات البارتيزان في بلاد أوروبا المحتلة، فإن هؤلاء الثوار القوميين يكيلون الضربات كل يوم للعدو، فيدمرون الطرق والكباري ويعطّلون القطارات، ويفجرون مخازن الذخيرة والموءن ويحرقونها. إن الجبهة المفتوحة على الغزاة الألمان وأذئابهم في أوروبا تتسع. لقد اقتربت ساعة النصر على الفاشيين. ونحن - خدام دين الإسلام - ندعو الله ليل نهار في المساجد، خمس مرات في اليوم، أن يعجّل بنصرنا على الأعداء. وناشد مسلمي العالم جميعاً بقولنا: إن الهتلريين أعداء كافة الشعوب المحبة للحرية، والمسلمين خاصة؛ ولذلك، ندعو - نحن العلماء المسلمين في الاتحاد السوفيتي - مسلمي العالم أجمع إلى أن يثوروا على هؤلاء المستعبدين الفاشيين الفجرة. ومن لا يمكنهم المساعدة بدورٍ مباشر في هذا الكفاح العظيم بالقتال، يمكنهم أن يقدموا دعمًا معنويًا للمقاتلين. إن قلوبنا مُعلّقةٌ بقلوبكم، وسعادتكم تبهجننا، وحزنكم يسوءنا، وكذلك يجب أن تسعدكم بهجتنا، وتحملوا معنا حزننا. وقریبًا تشرق الشمس على البلدان المستعبدة، ويأتي يومٌ عيش الحياة الحرة السعيدة.

/ سنلتقي إخواننا الكرام في الأيام التاريخية القادمة، وستكونون ضيوفنا الأعزاء [١٨٤] في بيت الحب والصدقة، حيث السلام والأمان.

إخواننا المؤمنين في العالم، يا أهل الضمير الحي والإيمان الثابت، اسألوا النصر العاجل للجيش الأحمر، الذي يرفع رايات الحرية والاستقلال للشعوب المستعبدة. ولا تصدّقوا ما يروّجه أعداؤنا وأعداؤكم - لعنهم الله - من افتراءات شنيعة على بلادنا!

نسألك يا رب النصر العاجل لقوات الحلفاء على الغزاة الهتلريين وأذئابهم، ونسألك الرخاء والسعادة للمسلمين أجمعين.

الموقّعون:

رئيس النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، المفتي الشيخ [إيشان] باباخان عبد المجيد خانوف.

عضو مجلس رئاسة النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، القاضي مراد خوجه صالحوف (Murad Khodzha Salikhov).

عضو مجلس رئاسة النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، القاضي والإمام والخطيب ضياء الدين قاري باباخان^(١٢).

(12) PDDUM, 310-316.

ملحق الصور



صورة (١): الاجتماع التأسيسي للنظارة الدينية
لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان.



صورة (٢): عبد الرحمن رسولوف.



صورة (٣): إيشان باباخان.



صورة (٤): من اليمين المشايخ الأربعة عبد الرحمن رسولوف وإيشان باباخان وخضري غيبكوف وآخوند أغا علي زاده.



صورة (٥): نموذج لخمالات الاتحاد السوفيتي على الحجاب في آسيا الوسطى في عام ١٩٢١.



صورة (٦): جندي مسلم عائد من الحرب.



صورة (٧): جنود مسلمون سوفيت يُقيمون الصلاة على جبهة الحرب.



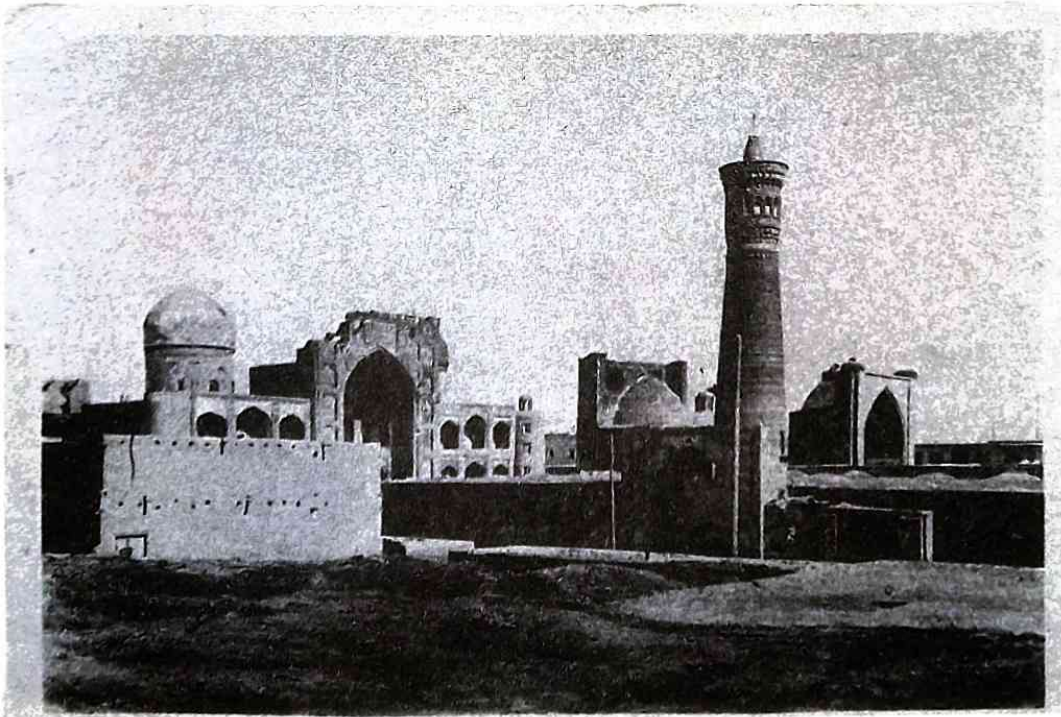
صورة (٨): مسلمات في المسجد الجامع الأول بأوفا في عام ١٩٥٨.



صورة (٩): مسلمون في ساحة المسجد الجامع الأول في عام ١٩٥٨.



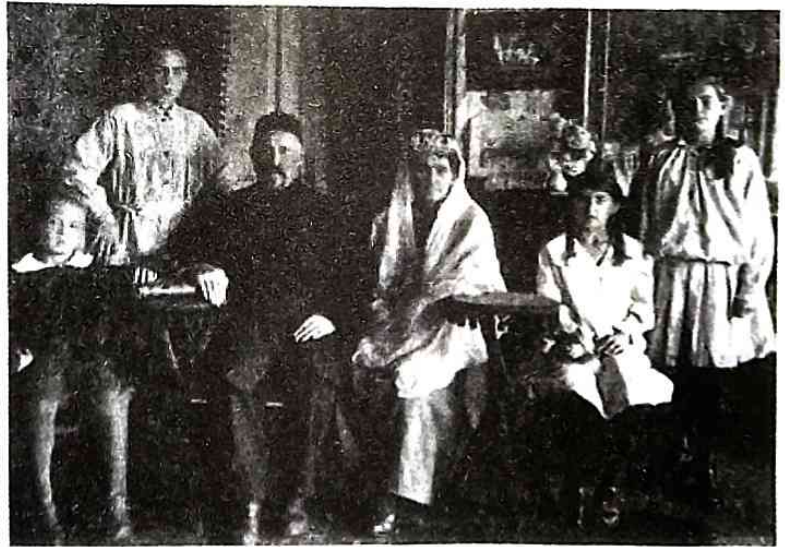
صورة (١٠): الجندي المسلم عبد الحكيم إسماعيلوف يرفع علم الاتحاد السوفيتي على قمة مبنى البرلمان الألماني (الرايخستاغ).



صورة (١١) مدرسة مير عرب التاريخية ببخارى.



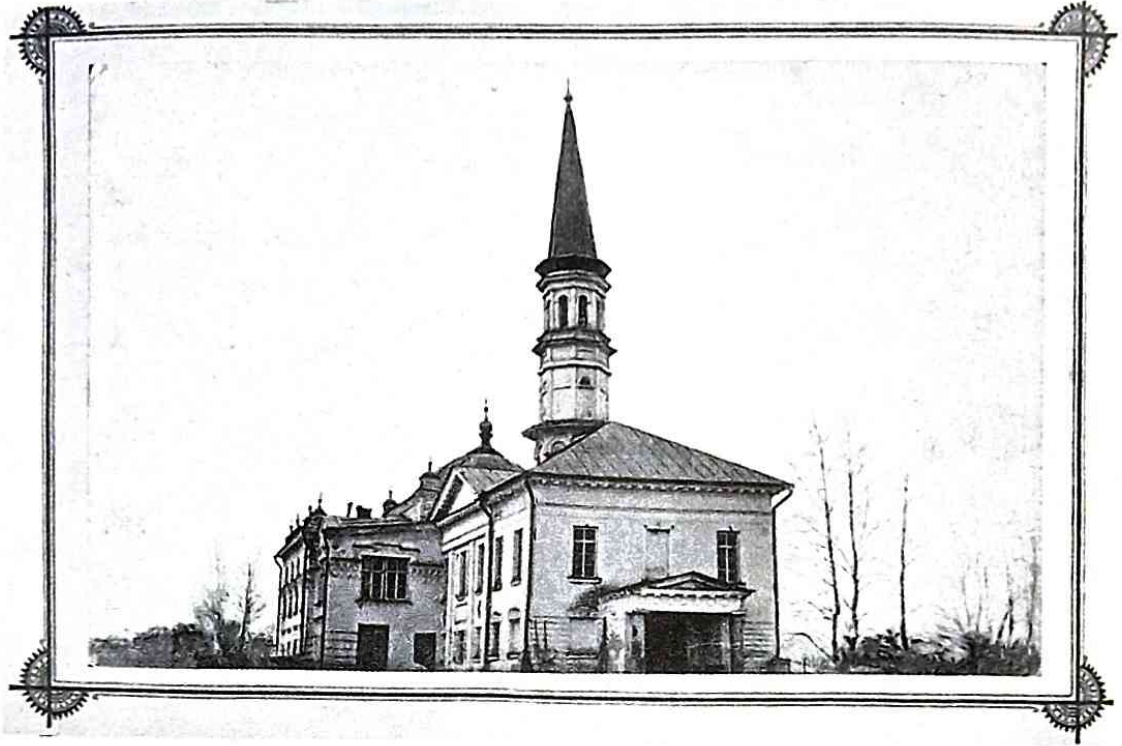
صورة (١٢): إيشان باباخان يلقي خطبة في الخمسينيات.



صورة (١٣): جهانگیر أبي عز الدين [أبزکلدين]
إمام المسجد الجامع الأول في أوفاء وعائلته.



صورة (١٤): البطريرك سيرغي.



صورة (١٥): المسجد الجامع الأول في أوفاء.



صورة (١٧): رضاء الدين بن فخر الدين.



صورة (٢٠): البطريرك أليكسي الذي خلف البطريرك سيرغي
على رأس بطريركية موسكو.



صورة (٢١): ستالين مرتدياً الزي الشعبي البشكيري



صورة (٢٦): فريد منر حمنوفيتش كهرمانوف (الأول من اليسار جلوسًا).



صورة (٢٢): أيقونة القديسة ماترونا وستالين



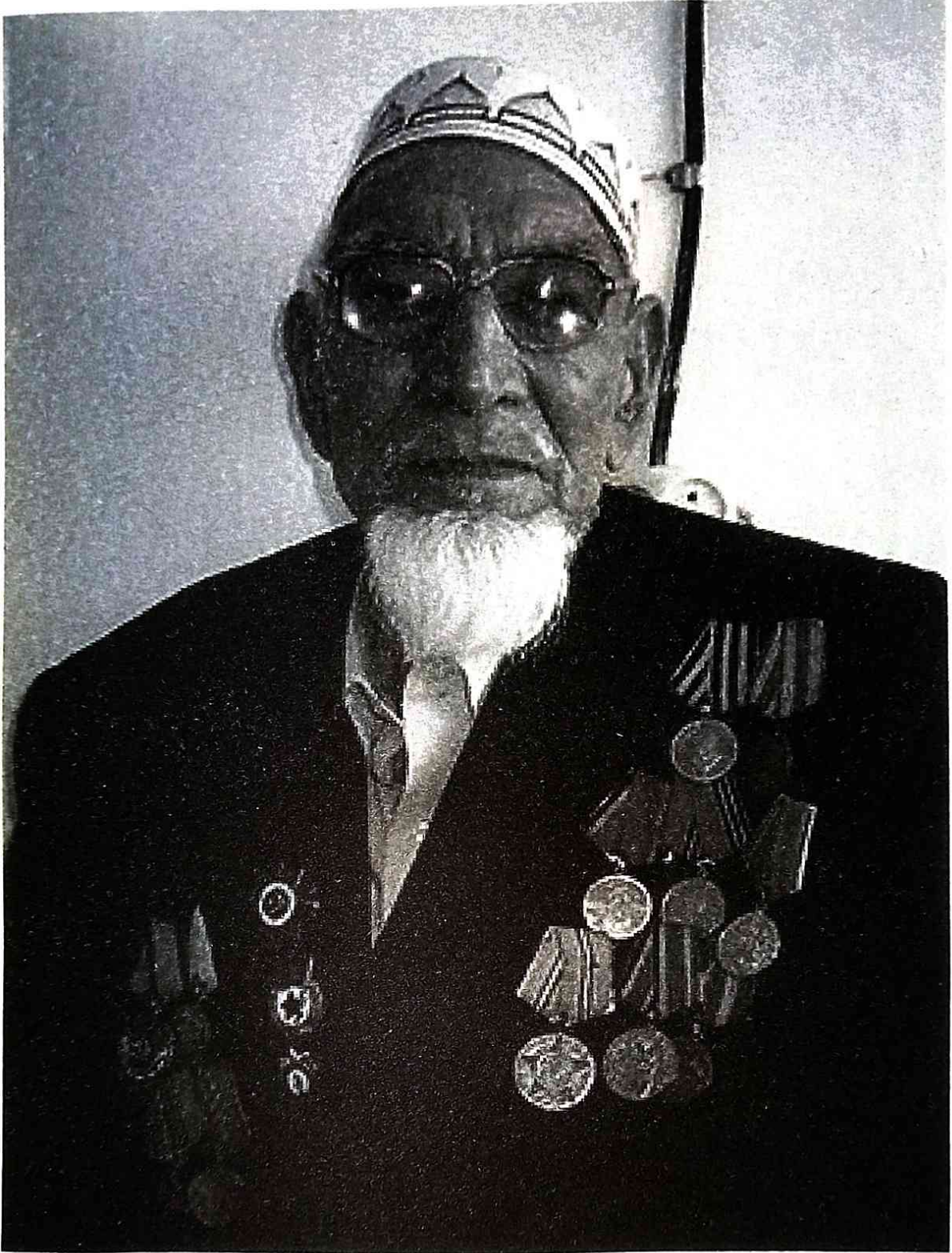
صورة (٢٢): فيودر إيفانوفيتش بيلايڤ



صورة (٢٣): ألكسندروفيتش سترلكوف



صورة (٢٤): غريغوري سيرغييفيتش كراسنانوس



صورة (٢٥): آسرا كالتشف.



صورة (٢٧): هادي أصلانوف، بطل معركة الدفاع عن موسكو ١٩٤١.



صورة (٢٨): المشاركون في مؤتمر (قرولتاي) دار إفتاء طشقند الثالث
عام ١٩٤٩، ويظهر في وسطهم إيشان باباخان.



صورة (٢٩): طلاب الصف الرابع في مدرسة مير عرب ببخارى، ١٩٤٨.



اختصارات سجلات المحفوظات

AkadNkKaz: The National Academy of Sciences of the Republic of Kazakhstan, Almaty.

AkadNkTat: The Academy of Sciences of the Republic of Tatarstan, Kazan.

.GARF: State Archive of the Russian Federation, Moscow.

HPSSS: The Harvard Project on the Soviet Social System, Cambridge, MA.

NatArchGE: National Archives of Georgia, Tbilisi.

RGASPI: Russian State Archive of Socio-Political History, Moscow.

حوارات من موقع www.iremember.ru

Annenkov, Vladimir Tikhonovich

Belyaev, Fedor Ivanovich

Degen, Ion Lazarevich

Garshtia, Ivan

Grubov, Ivan Vladimirovich

Kalychev, Asral

Komaritsyna (Baranova), Antonina Maksimovna

Komov, Yuri Ilyich

Krasnonos, Grigory Sergeevich

Krylov, Anatoly Pavlovich
Shurakov Mikhail Nikolaevich
Strelkov, Georgii Aleksandrovich
Styazhkin, Stepan Alexandrovich
Zonov, Arsenij

مواقع على شبكة الإنترنت

https://rbvekpros.livejournal.com/23511.html#_ftnref2
<https://islamperspectives.org/rpi/>
<http://islamrb.ru/cheremkhovskij-mulla/>

المصادر والمراجع المنشورة

- Abashin, Sergei. "A Prayer for Rain: Practicing Being Soviet and Muslim." *Journal of Islamic Studies* 25/2 (2014), 178-200.
- Abataev, E.D. "Islam v gody Velikoi Otechestvennoi voiny." In *Istoriia Velikoi Pobedy: sbornik materialov mezhvuzovskoi I 89 nauchno-prakticheskoi konferentsii*, 11-15. Novokuznetsk: FKOU VO Kuzbaskii institut, FSIN Rossii, 2018.
- Adzhiev, A.M. ed. *Fol'klor narodov Dagestana o Velikoi Otechestvennoi voine*. Makhachkala: Dagestanskii nauchnyi tsentr Rossiiskoi akademii nauk Institut iazyka, literatury i isskustva im. Gamzata Tsadasy, 2006.
- Akhmadullin, V.A. *Patrioticheskaiia deiatel'nost' dukhovnykh upravlenii musul'man v gody velikoi otechestvennoi voiny*. Moscow: Islamskaia kniga, 2015.
- Akhmadullin, V.A. "Deiatel'nost' organov gosudarstvennogo upravleniia SSSR i rukovoditelei dukhovnykh upravlenii musul'man po sozdaniuu vsesoiuznogo musul'manskogo tsentra." *Vlast'* 8 (2015), 154-158.
- Akhmadullin, V.A. "Deiatel'nost' sovetskogo gosudarstva po nagrzhdeniiu musul'man za razgrom gitlerovskoi Germanii: uroki dlia natsional'noi bezopasnosti Rossii." *Gumanitarnyi vestnik* 4 (2016), 1-13.
- Akhmadullin, V.A. "Deiatel'nost' sovetskogo gosudarstva po organizatsii khadzha sovetskikh musul'man v 1944 g." *Vlast'* 6 (June 2013), 162-164.

- Akhmadullin, V.A. "Kharakternye oshibki issledovatelei pri analize khadzha sovetskikh musul'man v 1945 g." *Vlast'* 7 (2013), 156-158.
- Akhmadullin, V.A., "Reglamentatsiia sovetskim gosudarstvom vypuska i raspredeleniia islamskikh kalendarei, izdannykh muftiiatami (1944-1965)." *Vestnik Moskovskogo gosudarstvennogo lingvističeskogo universiteta* 1/794 (2018), 103-119.
- Albogachieva, M.C.-G. *Islam v Ingushetii: etnografiia i istoriko- kul'turnye aspekty*. St. Petersburg: MAZ RAN, 2017.
- Alekseev, V.A. *Illiuzii i dogmy*. Moscow: Politizdat, 1991.
- Algar, Hamid. "Shaykh Zaynullah Rasulev: The Last Great Naqshbandi Shaykh of the Volga-Urals Region." In *Muslims in Central Asia: Expressions of Identity and Change*, edited by Jo-Ann Gross, 112-133. Durham, NC: Duke University Press, 1992.
- Alibaev, M.A. *Islam v sovietskom Kazakhstane: strategii vyzhivaniia*. Astana: ENU im. L.N. Gumileva, 2015.
- Almieva, Nuriia, ed. *Moselmannar boek vatan sugyshynda*. Kazan: Khozur-Spokoislvie, 1436/2015.
- Aminova, Gulnora. "Removing the Veil of *Taqiyya*: Dimensions of the Biography of Agha-yi Buzurg." PhD dissertation, Harvard University, 2009.
- Anonymous. "Mohammedans Greet Marshall Stalin." *Soviet War News*, May 31, 1944.
- Arapov, D.Iu., and G.G. Kosach, eds. *Islam i sovetskoe gosudarstvo (1944-1990). Sbornik Dokumentov. Vypusk 3*. Moscow: Mardzhani, 2011.
- Arapov, D.Iu. "Mozhno otmetit' riad vysokikh podvigov voinskoi doblesti, proiavlennykh musul'manami." *Voенno- istoricheskii zhurnal* 11 (2004), 42-44.
- Arapov, D.Iu. "Musul'manskii triptikh: islam i sovetskaia vlast'. 1917-1949-1982." *Pax Islamica* 1/2 (2009), 248-266.
- Arapov, D.Iu. "'Prizyvaite pravovernykh otvagoi i geroistvom na fronte, chestnym i samootverzhenym trudom v tylu uskorit' chas pobedy.' S'ezd musul'man Srednei Azii i Kazakhstana o zadachakh borby s fashijskoi agressiei. Oktiabr 1943 g." *Pax Islamica* 1/10 (2013), 152-160.
- As-Salam* 9/478, May 1, 2015 / Rajab 1436.

- Babazhanov, Bakhtiyar. "O fetvakh SADUM protiv 'neislamskikh obychaev.'" In *Islam na postsovetskom prostranstve: vzgliad iznutri*, edited by Alexei Malashenko and Martha Brill Olcott, 65-78. Moscow: Carnegie Center, 2001.
- Baimov, B.S. *Bashkort khalyk ijady, 11 tom: bayettar / Bashkirskoe narodnoe tvorcheshtvo, tom 11: bayty*. Ufa: Kitap, 2004.
- Basilov, V.N., and K.K. Kubakov. "Survival of Pre-Muslim Beliefs in Islam." In *Secularization in Multi-Religious Societies: Indo-Soviet Perspectives*, edited by S.C. Dube and V.N. Basilov, 227-240. New Delhi: Indian Council of Social Science Research, 1983.
- Beglov, Aleksei. *V poiskakh "bezgreshnykh katakomb."* Tserkovnoe podpol'e v SSSR. Moscow: Izd. Sovet Russkoi Pravoslavnoi Tserkvi, 'Arefa,' 2008.
- Bekkin, R.I. "Muftiiaty i gosudarstvo v sovetskuiu epokhu: evolutsiia otnoshenii." In *Rossiiskii islam v transformatsionnykh protsessakh sovremennoiti: novye vyzovy i tendentsii razvitiia v XXI veka*, edited by Z.R. Khabibullina et al, 54-74. Ufa: Dialog, 2017.
- Bennigsen, Alexandre, and Marie Broxup. *The Islamic Threat to the Soviet State*. London: Croom Helm, 1983.
- Bennigsen, Alexandre, and S. Enders Wimbush. *Mystics and Commissars: Sufism in the Soviet Union*. London: C. Hurst, 1985.
- Berkhoff, Karel C. *Motherland in Danger: Soviet Propaganda during World War II*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2012.
- Black, Edwin. *The Farhud: Roots of the Arab-Nazi Alliance in the Holocaust*. Dialog Press, 2010.
- Black, Jeremy ed., *The Second World War, Volume II: The German War, 1943-1945*. Burlington, VT: Ashgate: 2007.
- Bobrovnikov, Vladimir. "'Traditionalist' versus 'Islamist' Identities in a Dagestani Collective Farm." *Central Asian Survey* 25/3 (2006), 287-302.
- Bobrovnikov, Vladimir. "Withering Heights. The Re-Islamization of a Kolkhoz Village in Dagestan: a Microhistory." In *Allah's Kolkhozes. Migration, DeStalinisation, Privatisation, and the New Muslim Congregations in the Soviet Realm (1950s- 2000s)*, edited by Stephane A. Dudoignon and Christian Noack, 367-397. Berlin: Klaus Schwarz, 2014; Islamkundliche Untersuchungen. Bd. 314.
- Bobrovnikov, V.O., A.R. Navruzov, and Sh.Sh. Shikhaliev. "Islamskoe

- obrazovanie v sovetskom Dageštane (konets 1920-x-1980-e gg.).” *Pax Islamica* 1/4 (2010), 72-75.
- Boltina, V.D., and L.V. Sheveleva. *Iz istorii islama v Pavlodarskom Priirtysh'e 1919/1999: sbornik dokumentov*. Pavlodar: EKO, 2001.
- Bušanov, Alfrid K. “Against Leviathan: On the Ethics of Islamic Poetry in Soviet Russia.” In *The Piety of Learning: Islamic Studies in Honor of Stefan Reichmuth*, edited by Michael Kemper and Ralf Elger, 199-224. Leiden: Brill, 2017.
- Bušanov, Alfrid K. *Biblioteka Zainap Maksudovoi*. Moscow: Mardjani Foundation, 2019.
- Bušanov, Alfrid K. *Islamskaia poeziia v epokhu Stalina: sbornik stikhov Kyiametdina al-Kadyirii*. Kazan: Institut istorii im. Sh. Mardzhani AN RT, 2018.
- Bušanov, Alfrid K. “Islamskii apokalipsis pri Staline” (forthcoming).
- Bušanov, Alfrid K., and Michael Kemper. “Administrative Islam: Two Soviet Fatwas from the North Caucasus.” In *Islamic Authority and the Russian Language: Studies on Texts from European Russia, the North Caucasus and West Siberia*, edited by Alfrid K. Bušanov and Michael Kemper, 55-103. Amsterdam: Pegasus, 2012; Pegasus Oost- Europese Studies 19.
- Butaev, M.D., G.I. Kakagasanov, and A.I. Osmanov, eds. *Vlast' i musul'manskaia religiiia v Dageštane (Noiabr' 1917g. dekabr' 1991 g.). Dokumenty i materialy*. Makhachkala: IIAE DNTs RAN, 2007.
- Carmack, Roberto J. “Hero and Hero-Making: Patriotic Narratives and the Sovietization of Kazakh Front-Line Propaganda, 1941-1945.” *Central Asian Survey* 33/1 (2014), 95-112.
- Carmack, Roberto J. *Kazakhstan in World War II: Mobilization and Ethnicity in the Soviet Empire*. Lawrence, KS: University of Kansas Press, 2019.
- Chatani, Sayaka, *Nation- Empire: Ideology and Rural Youth Mobilization in Japan and Its Colonies*. Ithaca: Cornell University Press, 2018.
- Chumachenko, Tatiana A. *Church and State in Soviet Russia: Russian Orthodoxy from World War II to the Khrushchev Years*. Translated by Edward E. Roslof. New York: M.E. Sharpe, 2002.
- Chumakova, Tatiana. “‘Karta religii’ dlia neudavsheisia Vsesoiuznoi perepisi 1937 g.: zabytaia stranitsa sovetskogo religiovedeniia.” *Gosudarstvo, religiiia, tserkov* 3-4/30 (2012), 106-133.

- Chumakova, Tatiana. "Podgotovka k Vsesoiuznoi perepisi 1937 g. Sozdanie karty religii SSSR." *Dialog so vremenem* 41 (2012), 296-316.
- Dalin, David G., and John F. Rothmann. *Icon of Evil: Hitler's Mufti and the Rise of Radical Islam*. New York: Random House, 2008.
- Davis, Nathaniel. *A Long Walk to Church: A Contemporary History of Russian Orthodoxy*. Boulder, CO: Westview, 2003.
- Denisov, D.N., and K.A. Morgunov. *130 let tsentral'noi sobornoj mecheti Orenburga*. Orenburg: OGAU, 2009; "Etnoregional'nye issledovaniia" v. 6.
- De Santi, Chiara. "Cultural Revolution and Resistance in Uzbekistan during the 1920s: New Perspectives on the Woman Question." In *Patterns of Transformation in and around Uzbekistan*, edited by Paolo Sartori and Tomaso Trevisani, 51-89. Reggio Emilia: Diabasis, 2007.
- DeWeese, Devin. "'Dis-ordering' Sufism in Early Modern Central Asia: Suggestions for Rethinking the Sources and Social Structures of Sufi History in the 18th and 19th Centuries." In *History and Culture of Central Asia/ Istorii i kul'tura Tsentral'noi Azii*, edited by B. Babadjanov and Y. Kawahara, 259-279. Tokyo: The University of Tokyo, 2012.
- DeWeese, Devin. "Islam and the Legacy of Sovietology: A Review Essay on Yaacov Ro'i's *Islam in the Soviet Union*." *Journal of Islamic Studies* 13/3 (2002), 298-330.
- DeWeese, Devin. "Shamanization in Central Asia." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 57 (2014), 326-363.
- DeWeese, Devin. "Spiritual Practice and Corporate Identity in Medieval Sufi Communities of Iran, Central Asia, and India: The Khalvali/Ishqi/Shallari Continuum." In *Religion and Identity in South Asia and Beyond: Essays in Honor of Patrick Olivelle*, edited by Stephen E. Lindquist, 251-300. London: Anthem Press, 2011.
- DeWeese, Devin. "Survival Strategies: Reflections on the Notion of Religious 'Survivals' in Soviet Ethnographic Studies of Muslim Religious Life in Central Asia." In *Exploring the Edge of Empire: Soviet Era Anthropology in the Caucasus and Central Asia*, edited by F. Muhlfriedand and S. Sokolovskiy, 35-58. Munster: Lit Verlag.
- Dolgoplov, M. "Soviet Mufti Exposes Hitler Mufti." *Soviet War News*. October 24, 1942.
- Drozдов, K.S. "Stalingrad: voennaia mashina Reikha protiv internatsionala

sovetskikh narodov.” In *Istoricheskaia pamiat' i rossiiskaia identichnost'*, edited by V.A. Tishkova and E.A. Pivnevoi, 185-202. Moscow: RAN, 2018.

Dunn, Dennis J. *The Catholic Church and Russia: Popes, Patriarchs, Tsars, and Commissars*. Aldershot: Ashgate, 2004.

ad-Durgeli, Nazir. *Uslada umov v biografiakh Dagestanskikh uchenykh (Nuzkhat al- azkhan fi taradzhim 'ulama' Dagiistan)*. Edited and translated by A.R. Shikhsaidov, M. Kemper, and A.K. Buġtanov. Moscow: Mardzhani, 2012.

Eden, Jeff. “A Soviet Jihad against Hitler: Ishan Babakhan Calls Central Asian Muslims to War.” *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 59 (2016), 241-246.

Edgar, Adrienne. “Bolshevism, Patriarchy, and the Nation: The Soviet ‘Emancipation’ of Muslim Women in Pan-Islamic Perspective.” *Slavic Review* 65/2 (2006), 252-272.

Edgar, Adrienne. “Emancipation of the Unveiled: Turkmen Women under Soviet Rule, 1924-29.” *Russian Review* 62/1 (2003), 132-149.

Evans, S. *The Churches of the USSR*. London: Cobbett, 1943.

Fairuzov, B.G. *Istoriia islama v Rossii*. St. Petersburg: Timoshka, 2019.

Frank, Allen J. *Bukhara and the Muslims of Russia: Sufism, Education, and the Paradox of Islamic Prestige*. Leiden: Brill, 2012.

Ferfermen, Kirill. “Between ‘Non-Russian Nationalities’ and Muslim Identity: Perceptions and Self-Perceptions of Soviet Central Asian Soldiers in the Red Army, 1941-1945.” In *Combatants of Muslim Origin*, 121-136.

Florin, Moritz. “Becoming Soviet through War: The Kyrgyz and the Great Fatherland War.” *Kritika*, 17/3 (Summer 2016), 495-516.

Frank, Allen J. *Gulag Miracles: Sufis and Stalinist Repression in Kazakhstan*. Vienna: Austrian Academy of Sciences Press, 2019.

Frank, Allen J. *Kazakh Soldiers in the Red Army, 1935-1945* (Leiden: Brill, 2022).

Froese, Paul. *The Plot to Kill God: Findings from the Soviet Experiment in Secularization*. Berkeley: University of California Press, 2008.

Gaiazov, A.S. *Malaia i bol'shaia rodina grazhdanina. “Rakh Kazanchi.”* Ufa: “Bashkirskaaia entsiklopediia,” 2016.

- Genatulin, Anatolii. *Krasnaia poliana*. Ufa: Kitap, 2008.
- Ghilmani, Saduaqas. *Biographies of the Islamic Scholars of Our Times*. Edited by Allen J. Frank, Ashirbek Muminov, and Aitzhan Nurmanova. Istanbul: IRCICA, 2018.
- Gibian, George. "World War 2 in Russian National Consciousness: Prištavkin (1981-7) and Kondratyev (1990)." In *World War 2 and the Soviet People: Selected Papers from the Fourth World Congress for Soviet and East European Studies*, edited by John Garrard and Alison Healicon, 147-160. London: Palgrave, 1990.
- Gross, J.A., and A. Urunbaev, eds. *The Letters of Khwaja 'Ubayd Allah Ahrdr and His Associates*. Leiden: Brill, 2002.
- Guseva, Iu.N. "Mrachnoe ekho 'Dela TsDUM': 'Tsep' korana' i repressii protiv musul'manskoi elity v SSSR (1940 god)." *Novyi istoricheskii vestnik* 2/52 (2017), 85-102.
- Guseva, Iu.N. *Rossiiskii musul'manin v XX veke (na materialakh Srednego Povolzh'ia)*. Samara: Ofort, 2013.
- Hakim, Na'mal. *Islamda va shura hukumatida khatun-qizlar huquqi*. Tashkent: Uzbek Dawlat Nashriyati, 1925.
- Hammond, Kelly. "Managing Muslims: Imperial Japan, Islamic Policy, and Axis Connections during the Second World War." *Journal of Global History* 12 (2017), 251-273.
- Harf, Jeffrey. *Nazi Propaganda for the Arab World*. Yale University Press, 2009.
- Hoare, Marko Attila. *The Bosnian Muslims in the Second World War: A History*. New York: Oxford University Press, 2013.
- Holzman, Franklyn D. "Soviet Inflationary Pressures, 1928-1957: Causes and Cures." *The Quarterly Journal of Economics* 74/2 (May, 1960), 167-188.
- Ibragimov, Ruslan R. "Activities of the Commissioners of the Council on Russian Orthodox Church and the Council on Religious Faiths under the Council of People's Commissars of the USSR on the Tatar Autonomous Soviet Socialist Republic during the Great Patriotic War and Early Post-War Years." *Journal of Sustainable Development* 8/5 (2015), 184-190.
- Ibragimova, Zaira Bagautdinovna. "Prodolzhenie bogoslovskoi polemiki nachala XX v. v Dageštanskikh arabograficheskikh sochineniiakh

- sovetskogo perioda." *Istoriia, arkheologiiia i etnografiia Kavkaza* 14/3 (2018), 34-39.
- Imy, Kate. *Faithful Fighters: Identity and Power in the British Indian Army*. Palo Alto: Stanford University Press, 2019.
- Iunusova, A.B, ed. *225 let Tsentral'nomu dukhovnomu upravleniiu musul'man Rossii: Istoricheskie ocherki*. Ufa, 2013.
- Iunusova, A.B. *Islam v Bashkortostane*. Ufa: Ufimskii poligrafkombinat, 1999.
- Jarman, Robert L., ed. *Political Diaries of the Arab World: Saudi Arabia: The Jeddah Diaries, 1919-1940 (Vol. 2:1922-1927)*. Oxford: Archive Editions, 1990.
- Kabirova, A.Sh., E.G. Krivonozhkina, and A.S. Bushuev. *Nam zhit' i pomnit': Tatarskaia ASSR v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941- 1945 gg.)*. Kazan: Foliant, 2016.
- Kalkandjieva, Daniela. *The Russian Orthodox Church, 1917- 1948: From Decline to Resurrection*. Abingdon: Routledge, 2014.
- Kakagasanov, G.I. "Vzaimootnosheniia vlasti i religii v Dagestane v gody Velikoi Otechestvennoi voiny (1941-1945 gg.)." *Vestnik instituta IAE* 2 (2011), 40-45.
- Kamp, Marianne. *The New Woman in Uzbekistan: Islam, Modernity and Unveiling under Communism*. Seattle: University of Washington Press, 2006.
- Kawahara, Yayoi, and Umed Mamadshezhodoshev. *Documents from Private Archives in Right-Bank Badakhshan*. Tokyo: University of Tokyo, TIAS Central Eurasian Research Series, 2015.
- Keller, Shoshana. *To Moscow, Not Mecca: The Soviet Campaign against Islam in Central Asia*. Westport, CT: Praeger, 2001.
- Keller, Shoshanna. "Trapped between State and Society: Woman's Liberation and Islam in Soviet Uzbekistan, 1926-1941." *Journal of Women's History* 10/1 (1998), 20-44.
- Kelly, Catriona. *Socialist Churches: Radical Secularization and the Preservation of the Past in Petrograd and Leningrad, 1918- 1988*. DeKalb, IL: Northern Illinois University Press, 2016.
- Kemper, Michael. *Studying Islam in the Soviet Union*. Amsterdam: Vossiuspers UvA, 2009.

- Kemper, Michael, and Shamil Shikhaliev. "Administrative Islam: Two Soviet Fatwas from the North Caucasus." In *Islamic Authority and the Russian Language: Studies on Texts from European Russia, the North Caucasus and West Siberia*, edited by Alfrid K. Buřtanov and Michael Kemper, 55-102. Amsterdam: Pegasus, 2012.
- Kemper, Michael, and Shamil Shikhaliev. "Qadimism and Jadidism in Twentieth-Century Dagheřtan," *Asiatische Studien / Etudes Asiatiques* 69/3 (2015), 593-624.
- Kemper, Michael. "From 1917 to 1937: The Mufti, the Turkologist, and Stalin's Terror." *Die Welt des Islams* 57/2 (2017), 162-191.
- Khairtdinov, D.Z. *Islam na Urale: entsiklopedicheski slovar'*. Moscow: Medina, 2009.
- Khakimov, R.Sh. "Musul'manskie obshchiny na Urale v gody liberalizatsii gosudarřtvenno-religioznoi politiki v SSSR." *Vestnik Cheliabinskogo Gosudarřtvennogo Universiteta* 22/237 (2011), 93-99.
- Khakimov, R.Sh. "Musul'mane Urala v gody Velikoi Otechestvennoi voiny" (1941-1945) In *Religioznoe mnogoobrazie Ural'skogo regiona. Materialy Vserossiiskoi nauchnoi Prakticheskoi konferentsii*, 145-153. Orenburg: OOO IPK "Universitet," 2014.
- Khalid, Adeeb. "Being Muslim in Soviet Central Asia, or an Alternative History of Muslim Modernity." *Journal of the Canadian Historical Association / Revue de la Societe historique du Canada* 18/2 (2007), 123-143.
- Khalid, Adeeb. *Islam after Communism: Religion and Politics in Central Asia*. Berkeley: University of California Press, 2007.
- Khalid, Adeeb. Review of *Soviet and Muslim: The Institutionalization of Islam in Central Asia*, by Eren Tasar. *Slavic Review* 77/4 (2018), 1035-1037.
- Khalid, Adeeb. "Searching for Muslim Voices in Post-Soviet Archives." *Ab Imperio* 4 (2008), 302-312.
- Khalidova, O.B. "Religiia, dukhovenřtvo i gosudarřtvo v gody Velikoi Otechestvennoi voiny v severo-kavkazskom regione." *Vestnik instituta IAE* 3 (2016), 58-65.
- Khasianov, O.R. "Religioznye praktiki predstavitelei kommunisticheskoi partii na sele v poslevoennoe desiatiletie (na materialakh Kuybyshevskoy i Ul'ianovskoi oblasti)." In *Patriotizm: istoriia, sovremennořt', obraz*

- budushchego. Mezhdunarodnaia nauchno-prakticheskaia konferentsiia, posviashchennaia 70- letiiu Pobedy v Velikoi Otechestvennoi voine: sbornik nauchnykh trudov*, edited by T.V. Petukhovoï, 284-289. Ul'ianovsk: UIGTU, 2015.
- Kildin, S.A., S.Sh. Yarmullin, and F.F. Ghaysina, eds. *Bashkortostan—aulialar ile*. Ufa: Kitap, 2012.
- Kinziabaeva, R.Kh. "Vklad religioznykh organizatsii BASSR v pobedu v Velikoi Otechestvennoi voine." *Iadkiar* 1 (2008), 83-86.
- Kisriev, E.F. *Islam v Dagestane*. Moscow: Logos, 2007.
- Kliueva, V.P. "Zhizn' v ateisticheskom gosudarstve: musul'manskii obshchiny Tiimenskoi oblasti (1940-1960-e gg.)." *Vestnik arkheologii antropologii, i etnografii* 10 (2009), 117-121.
- Kokebayeval, Gulzhaukhar, Yerke Kartabayeval, and Aigul Sadykova. "The Evolution of Soviet Power's Religious Policy during the Great Patriotic War." *Asian Social Science* 11/ 13 (2015), 235-239.
- Kolarz, M. *Religion in the Soviet Union*. New York: St. Martin's Press, 1961.
- Koroleva, L.A., and A.A. Korolev. *Islam v Srednem Povolzh'e. 1940- e gg.* Penza: Penzenskii gosudarstvennyi universitet arkhitektury i stroitel'stva, 2015.
- Koroleva, L.A., and A.A. Korolev. "Vlast' i musul'mane v SSSR v velikoi otechestvennoi voine (po materialam penzenskoi oblasti)." *Vestnik Permskogo Universiteta* 1/13 (2010), 30-34.
- Krinko, E.F. "Vera i sueverii na fronte i v tylu v usloviakh voennogo vremeni (1941-1945)." *Bylye Gody* 29/3 (2013), 53-61.
- Krivosheev, G.F. *Soviet Casualties and Combat Losses in the Twentieth Century*. London: Greenhill, 1997.
- Kunzel, Matthias. *Jihad and Jew-Hatred: Islamism, Nazism, and the Roots of 9/11*. New York: Telos Press, 2007.
- Lamb, Samantha. *Stalin's Constitution: Soviet Participatory Politics and the Discussion of the 1936 Draft Constitution*. Milton: Routledge, 2017.
- Le Gac, Julie. "Haunted by Jinns: Dealing with War Neuroses among Muslim Soldiers during the Second World War." In *Combatants of Muslim Origin in European Armies in the Twentieth Century: Far From Jihad*, edited by Xavier Bougarel, Raphaëlle Branche, and Cloé Drieu, 183-204. London: Bloomsbury, 2017.

- Luehrmann, Sonja. *Religion in Secular Archives: Soviet Atheism and Historical Knowledge*. New York: Oxford University Press, 2015.
- Makarov, N.D. *Analargha maslakhatar*. Translated by M. Rasuli. Tashkent: Uzbekistan Dawlat Nashriyati; Saghliqni saqlash kutubxanasini, 1925.
- Mallmann, Klaus-Michael, and Martin Coppers. *Nazi Palestine: The Plans for the Extermination of the Jews in Palestine*. Philadelphia: Enigma Books, 2013.
- Martin, Terry. *The Affirmative Action Empire*. Ithaca: Cornell University Press, 2004.
- Massell, Gregory J. *The Surrogate Proletariat: Moslem Women and Revolutionary Strategies in Soviet Central Asia, 1919-1929*. Princeton: Princeton University Press, 1974.
- Merridale, Catherine. *Ivans War: Life and Death in the Red Army, 1939-1945*. New York: Picador, 2006.
- Miner, Stephen Merritt. *Stalin's Holy War: Religion, Nationalism, and Alliance Politics, 1941-1945*. Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2003.
- Mingullin, K.M., I.I. Iamaltdinov, and L.Sh. Daulatshina, eds. *Milli-maddni mirasybyz: Orenburg olkdse tatarlary*. Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, adabiyat ham sangat' instituty, 2016; Fanni ekpeditsiialar khazinasennan.
- Mingullin, K.M., O.R. Khisamov, and L.Sh. Daulatshina, eds. *Milli- mdddni mirasybyz: Tomsk olkdse tatarlary*. Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, adabiyat ham sangat' instituty, 2016; Fanni ekpeditsiialar khazinasennan.
- Mingullin, K.M., I.G. Nuriev, and M.I. Akhmatjanov, eds. *Milli-mdddni mirasybyz: Archa*. Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, adabiyat ham sangat' instituty, 2017; Fanni ekpeditsiialar khazinasennan.
- Mingullin, K.M., M.Kh. Valiev, I.I. Iamaltdinov, and L. Kh. Mokhammatcanova, eds. *Milli- mdddni mirasybyz: Samara olkdse tatarlary*. Kazan: G.I. Ibrahimov isem. Tel, adabiyat ham sangat' instituty, 2015; Fanni ekpeditsiialar khazinasennan.
- Minnullin, Il'nur. *Musul'manskoe dukhovenstvo i vlast' v Tatarstane (1920-1930 gg.)*. Kazan: Institut Istorii, 2006.
- Minnullin, Il'nur. *Musul'manskoe dukhovenstvo Tatarstana v usloviikh politicheskikh repressii 1920-1930- x gg.* Nizhnii Novgorod, 2007.

- Morse, Chuck. *The Nazi Connection to Islamic Terrorism: Adolf Hitler and Haj Amin al-Husseini*. Washington, DC: WND, 2010.
- Motadel, David. *Islam and Nazi Germany's War*. Cambridge: Harvard University Press, 2014.
- Murashko, G.P., and M.I. Odintsov, eds. *Vlast' i tserkov v SSSR i stranakh Vostochnoi Evropy 1939- 1958. Diskussionnye aspekty*. Moscow, 2003.
- Nabiev, R.A. *Gosudarstvenno- konfessional'nye otnosheniia v Rossii*. Kazan: Kazanskii Gos. Universitet, 2013.
- Nabiev, R.A. *Islam i gosudarstvo: Kul'turno- istoricheskaia evoliutsiia musul'manskoi religii na Evropeiskom Vostoke*. Kazan: Kazanskii Gos. Universitet, 2002.
- Nicosia, Francis R. *Nazi Germany and the Arab World*. Cambridge: Cambridge University Press, 2014.
- Northrop, Douglas. *Veiled Empire: Gender and Power in Stalinist Central Asia*. Ithaca: Cornell University Press, 2003.
- Nurullaev, A.A. "Musul'mane Sovetskogo Soiuz v Velikoi Otechestvennoi voine." In *Religioznye organizatsii Sovetskogo Soiuz v gody Velikoi Otechestvennoi voiny 1941-1945 gg.*, edited by N.A. Trofimchuk, 57-69. Moscow: RAGS, 1995.
- Oboznyi, Konstantin. "'Novyi kurs' religioznoi politiki Stalina i tserkovnaia situatsiia na okkupirovannykh territoriiakh Leningradskoi oblasti (1943-1944 gg.)." *Gosudarstvo, religii, tserkov v Rossii i za rubezhom* 3 (2017), 360-387.
- Odintsov, M.I. *Russkaia pravoslavnaia tserkov' nakanune i v epokhu stalinskogo sotsializma, 1917- 1953 gg.* Moscow: Politicheskaia entsiklopediia, 2014.
- Odintsov, M.I. *Velikaia Otechestvennaia voina (1941-1945) i religioznye organizatsii v SSSR*. Moscow: Pravoslavnaia Entsiklopediia t. 7, Varshavskaia eparkhiia—Veroterpimost', 2004.
- Odintsov, M.I. *Vlast' i religii v gody voiny. Gosudarstvo i religioznye organizatsii v SSSR v gody Velikoi Otechestvennoi voiny. 1941- 1945*. Moscow: OOO "Favorit," 2005.
- Odintsov, M.I., and A.S. Kochetova. *Konfessional'naia politika v Sovetskom Soiuz v gody Velikoi Otechestvennoi voiny 1941- 1945 gg.* Moscow: Nauchno-politicheskaia kniga; Politicheskaia entsiklopediia, 2014.

- Olcott, Martha Brill. *The Kazakhs*. Washington, DC: Hoover Press, 1987.
- Paert, Irina Korovushkina. "Memory and Survival in Stalin's Russia: Old Believers in the Urals during the 1930s-50s." In *On Living Through Soviet Russia*, edited by Daniel Bertaux, Paul Thompson, and Anna Rotkirch, 195-213. New York: Routledge, 2004.
- Paert, Irina Korovushkina. "Popular Religion and Local Identity during the Stalin Revolution: Old Believers in the Urals, 1928-1941." In *Provincial Landscapes: Local Dimensions of Soviet Power, 1917- 1953*, edited by Donald J. Raleigh, 171-193. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 2001.
- Pasherstnik, A.E. *Buiuk Vatan urushi va yangi ishchilar*. Tashkent: O'zSSR davlat nashriyoti, 1942.
- Pianciola, Niccolo. "Orthodoxy in the Kazakh Territories (1850-1943)." In *Kazakhstan: Religions and Society in the History of Central Eurasia*, edited by Gian Luca Bonora, Niccolo Pianciola, and Paolo Sartori, 237-254. Turin: Umberto Allemandi, 2009.
- Podmarkov, V.I., A.N. But, L.V. Gnedenko, T.A. Medvedkina, and V.I. Shabel'nikov, eds. *Pamiat': Vospominaniia rabotnikov Donetskogo natsional'nogo universiteta o Velikoi Otechestvennoi voine 1941- 1945 gody*. Donetsk: Iugo-Vostok, 2011.
- Pospelovskii, D.V. *Russkaia pravoslavnaia tserkov' v XX veke*. Moscow: Respublika, 1995.
- Privratsky, Bruce. *Muslim Turkiṣtan: Kazak Religion and Collective Memory*. Richmond, Surrey: Curzon, 2001.
- Privratsky, Bruce. "Turkiṣtan: Kazak Religion and Collective Memory." Ph.D. dissertation, University of Tennessee, 1998.
- Qazaq aieldernyng otkendegysy men kazyrgy jaiy*. Kzyl-Orda: Izdanie Kazanskogo Gusudar, 1927.
- Raev, R.A., and R.I. Iaqubov, eds. *Islam yuldarynda: Sufrysilik habaqtari ham shdyekh Zdynulla Rdsulev shdjdrdhe. Islam dine tarikhi, dthdrdhdr hdm khaliq izhadi*. Ufa: MUDN RF, 2011.
- Rakhmankulova, S.G. *Muftii Gabdrakhman Rasulev— starshii syn Ishan Khazrata Rasuleva*. Cheliabinsk, 2000.
- Reese, Roger. R. "The Russian Orthodox Church and 'Patriotic' Support for

- the Stalinist Regime during the Great Patriotic War." *War and Society* 33/2 (2014), 131-153.
- Reese, Roger R. *Why Stalin's Soldiers Fought: The Red Army's Military Effectiveness in World War II*. Lawrence: University of Kansas Press, 2011.
- Ro'i, Yaacov. *Islam in the Soviet Union: From the Second World War to Gorbachev*. New York: Columbia University Press, 2000.
- Rosloff, Edward E. *Red Priests: Renovationism, Russian Orthodoxy, and Revolution, 1905-1946*. Bloomington: Indiana University Press, 2002.
- Rubin, Barry, and Wolfgang G. Schwanitz. *Nazis, Islamists, and the Making of the Modern Middle East*. New Haven: Yale University Press, 2014.
- Sadr-i Ziya, Muhammad Sharif-i. *The Personal History of a Bukharan Intellectual: The Diary of Muhammad Sharif-i Sadr-i Ziya*. Edited and translated by Rustam M. Shukurov, Muhammadjon Shakuri (Shukurov), Shahrbanou Tadjbakhsh, and Edward A. Allworth. Leiden: Brill, 2003.
- Saidbaev, T.S. *Islam i obshchestvo*. Moscow: Nauka, 1984.
- Sartori, Paolo. "Of Saints, Shrines, and Tractors: Untangling the Meaning of Islam in Soviet Central Asia." *Journal of Islamic Studies* 30/3 (2019), 1-40.
- Sartori, Paolo. "Toward a History of the Muslim's Soviet Union: A View from Central Asia." *Die Welt des Islams* 50 (2010), 315-334.
- Schechter, Brandon M. "'The People's Instructions': Indigenizing the Great Patriotic War Among 'Non-Russians.'" *Ab Imperio* 3 (2012), 109-133.
- Schechter, Brandon M. *The Stuff of Soldiers: A History of the Red Army in World War II through Objects*. Ithaca: Cornell University Press, 2019.
- Sartori, Paolo and Bakhtiyar Babajanov. "Being Soviet, Muslim, Modernist, and Fundamentalist in 1950s Central Asia." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 62 (2019), 108-165.
- Selianinova, G.D. "Musul'manskaia obshchina Prikam'ia v gody Velikoi Otechestvennoi voiny." In *Religioznye organizatsii verushchie Prikam'ia v gody Velikoi Otechestvennoi voiny: materialy nauchno-prakticheskoi konferentsii 12 maia 2005 g.*, edited by L.P. Markova, M.G. Nechaev, L.V. Masalkina, and S.A. Plotnikov, 18-22. Perm': Bogatyrev P.G.; Gosudarstvennyi obshchestvenno-politicheskii arkhiv Permskoi oblasti, 2005.
- Shamsutidinov, Rustam. *Ikkinchi jahon urushi va front gazetalari*. Tashkent: Akadernashr, 2017.

- Shanazarova, Aziza. "A Female Saint in Muslim Polemics: Agha-yi Buzurg and Her Legacy in Early Modern Central Asia." PhD dissertation, Indiana University, 2019.
- Shaw, Charles. "Soldiers' Letters to Inobatxon and O'g'ulxon: Gender and Nationality in the Birth of a Soviet Romantic Culture." *Kritika* 17/3 (2016), 517-552.
- Shikhaliev, Sh.Sh. "Transformatsiia sufisma v svete religioznoi politiki i pereselenii gortsev v Dagestane 1930-1990-x gg." *Pax Islamica* 2/11 (2013), 93-109.
- Shin, Boram. "Red Army Propaganda for Uzbek Soldiers and Localised Soviet Internationalism during World War II." *The Soviet and Post-Soviet Review* 42/1 (2015), 39-63.
- Shkarovskii, M.V. "Stalinskaia religioznaia politika i Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' v 1943-1953 godakh." *Acta Slavica Iaponica* 27 (2009), 1-27.
- Shkarovskii, M.V. *Russkaia Pravoslavnaia Tserkov' pri Staline i Khrushcheve— Gosudarstvenno-tserkovnye otnosheniia v SSSB v 1939-1964 godakh*. Moscow: Krutitskoe Patriarshee Podvor'e; Obshchestvo liubitelei tserkovnoi istorii, 1999.
- Smolkin, Victoria. *A Sacred Space is Never Empty: A History of Soviet Atheism*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2018.
- Solzhenitsyn, Aleksandr I. *Letter to the Soviet Leaders*. New York: Harper & Row, 1975.
- Starostin, A.N. *Islam v Sverdlovskoi oblasti*. Moscow: Logos, 2007.
- Steigmann-Gall, Richard. *The Holy Reich: Nazi Conceptions of Christianity, 1919- 1945*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2003.
- Sulaev, I.Kh. "Musul'manskoe dukhovenstvo v Velikoi Otechestvennoi Voine 1941-1945 gg." *Voенно-istoricheskii zhurnal* 5 (2007), 24-26.
- Tasar, Eren. "Soviet and Muslim: The Institutionalization of Islam in Central Asia, 1943-1991." PhD dissertation, Harvard University, 2010.
- Tasar, Eren. *Soviet and Muslim: The Institutionalization of Islam in Central Asia*. New York: Oxford University Press, 2017.
- Tasar, Eren. "Unregistered: Gray Spaces in the Soviet Regulation of Islam." In *Islam, Society and Politics in Central Asia*, edited by Pauline Jones, 127-148. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 2017.
- Tasar, Eren. "Islamically Informed Soviet Patriotism in Postwar Kyrgyzstan," *Cahiers du monde russe* 52/2-3 (2011), 387-404.

- Usmanova, Dilyara, Ilnur Minnullin, and Rafik Mukhmetshin. "Islamic Education in Soviet and Post-Soviet Tatarstan." In *Islamic Education in the Soviet Union and its Successor States*, edited by Michael Kemper, Raoul Motika, and Stephan Reichmuth, 21-67. New York: Routledge, 2010.
- Vasil'eva, O.Iu., I.I. Kudriavtsev, and L.A. Lykova, eds. *Russkaia pravoslavnaia tserkov v gody Velikoi Otechestvennoi voiny, 1941- 1945 gg. Sbornik documentov*. Moscow: Izd. Krutitskogo podvor'ia Obshchestvo liubitelei tserkovnoi istorii, 2009.
- Werth, Paul W. *The Tsar's Foreign Faiths: Toleration and the Fate of Religious Freedom in Imperial Russia*. New York: Oxford University Press, 2014.
- Werth, Paul W. "Conformity and Defiance in a Religious Key." *Kritika* 17/4 (2016), 869-896.
- Yakovlev, Alexander N. *A Century of Violence in Soviet Russia*. New Haven: Yale University Press, 2002.
- Yakupov, R.I. *Russian Islamic University CSDM of Russia: History and Nowadays*. Ufa: RIU, 2011.
- Zaripov, I.A., and M.A. Safarov. *Akhmetzian Mustafin: iz istorii islama v SSSR*. Moscow: Medina, 2017.
- Zhiromskaia, V.B. "Religioznost' naroda v 1937 godu." *Istoricheskii vestnik* 5/1 (2000), 105-114.

الكشاف الجامع



الأذر: ٣٨

أذربيجان: ١٢٠، ٣٢٧، ٣٣٣-٣٣٨، ٣٣٣
 أرمينيا: ١٢٠، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٣
 أرنبورغ: ٢٢، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢،
 ٢٢٥، ٣١٦، ٣١٧
 الإرهاب الكبير: ١١، ٣٧، ٤١، ٤٦، ٧١،
 ٧٢، ١٠٧، ١١٢، ١١٥، ١٢١، ١٣٣،
 ١٣٤، ١٤٩، ٢١٢، ٢١٨، ٢٥٥، ٢٦٨،
 ٣٠٣

إزفيسيتيا (جريدة): ١٤١، ١٩٥

إسبانيا: ١٦٥

إسكرا ريفالوتسيه (دار نشر): ٥٦

الإسماعيليون: ٥٧

البروپاغندا الموجهة للإسماعيليين:

١٨٣، ١٩٢

آسيا الوسطى: ٢٢، ٢٥، ٢٨، ٤٢، ٤٣،

٤٤، ٦٣، ٦٤، ٧٨، ٨١، ٩٢، ١٠٧،

١٥٢، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٧٠، ١٧١،

(أ)

إبرات (إسحاق خان تورا جنيد الله أوغلي):

١٠٨

ابن سعود: ٢١٨، ٢٢٠

ابن سينا: ٣٤٨

أبي عز الدين، جهانگیر: ٩٥، ١٠٨

إتشكالف (انظر أرنبورغ): ٢٠١، ٢٠٥،

٢٠٦، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٦٦،

الإحصاء العام للاتحاد السوفيتي: ١٢٢،

١٢٣، ١٢٤

أخونباييف، يولداش: ١٧١

إدارة الدولة السياسية: ٥٧، ١٣٤

الإدارة السياسية لجيش العمال والفلاحين

الأحمر (PURKKA): ٢٢، ١٦٠، ١٦٤،

الإدارة المركزية للمحاسبة الاقتصادية

القومية (TsUNKhU): ٢٣، ١٢٢،

أدامياني، كاتسي (إيروسلافسكي): ١٢٩

- إنغوشتيا: ٢٥٤ ، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٨،
 أنقرة: ٢٢٢ ، ١٩١، ١٩٦، ٢٠٠، ٢١٠، ٢١٥، ٢٢٤،
 أهل الطريقة النقشبندية الخالدية: ١٥٣ ، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٧٥، ٢٩٤، ٣٠٩،
 أهل العقيدة القديمة: ٧٢، ١٠٦، ١٢٣، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٤،
 ٢٠٣، ٢٦٠ ، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥٣،
 أوديسا: ٧٦ ، ٣٣٥، ٣٣٠، هادي: أصلانوف،
 أورغنش (مدينة): ١٧٧، ٣٤٩ ، ١٨٥-١٨٧، ١٩٠-١٩١،
 الأوزبك: ٣٨، ٤٣، ٦٤، ١٥٩، ١٧٨، آغا خان،
 ٣٤٨، ٢٦٩، ١٨٩ ، ١٧٥،
 أوزبكستان: ٦٣، ٦٥، ١١٩، ١٧١، ٢٢٢، آغاى بزرک:
 ٣٤٩، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣١٧ ، ٣٤٨، ١٩٢، ١٨٧، ٥٧،
 الأوسيتيون: ٣٨ ، ٢٧٠،
 الأوسيتيون (مدينة): ٩٥، ١٠٨، ١١٤، أکوش (قرية):
 ٢١١، ١٦٤ ، ٢١٠، ٢٠٩،
 الأوكران: ١٨٩، ٨٤، ٦٣، ألبانيا: ١٦٥،
 أوكرانيا: ٦٣، ١٤٢، ٣٥١، ألماتي (مدينة):
 أولوغ بك: ٤٣، ٣٤٨، ٣٤٩ ، ١٣، ٢١، ٣٤٩،
 أوليا آتا (مدينة): ١٧٧ ، ١٢٦، ٧٠، ٥٦، ٥٣، ٥٢، ٣٧،
 الأويغور: ٤٢، ٤٣ ، ٢٧٩، ٢٢٣، ١٨٢، ١٦٥، ١٦٢، ١٦١،
 إيتغيلوف، داشي - دارچو: ٣٤١ ، ٣٥١، ٣٤٧، ٣٦٤، ٣٣٠، ٣٢٨، ٢٨٢،
 إيران: ٤٤-٤٥، ٤٩-٥٠ ، ١٣٤، ١٢٨،
 إيروسلافسكي، إميليان ميخايلوفيتش: ١٤٣، ١٣٨-١٣٥،
 إيروولتيف، شوينزن - دارچو: ٣٤١ ، الإمام:
 إيشان باباخان: ٢٨، ٨١، ١٩١، ١٩٦، دور الإمام في الشعائر الإسلامية
 اليومية: ٨١، ٨٢،
 الأممية الثالثة (الكومنترن): ٥٣، ٥٤،
 الأمير كارا-أوغلي سليمانوف: ١٩٦،
 أمير كلال: ١٧٥، ٣٤٨،
 أمين لجنة المنطقة: ١٢٩،
 أندرونك، كبير أساقفة مدينة پيرم: ٨٩،

براندغيندلر، لازار سليمانوفيتش: ١٢٥	٢١٠-٢١١، ٢١٤، ٢٢١، ٣٠٨-٣٠٩،
برلين: ٣١٤، ٢٥٤، ١٣١، ٧٧، ٣٨	٣١٣-٣١٥، ٣٣٤-٣٣٧، ٣٤٦،
معركة برلين: ٢٢٤، ٢١٤	٣٤٧-٣٥١
بريطانيا: ٣٣٢، ٢٢٠، ٢١٩، ١٨٥، ٥٢	لقاءه مع ستالين: ١٧٢، ١٧١
بشكورستان: ١١٥، ١٠٢	خطابات البروياغندا
البشكير: ٢٥٤، ١٩٣	: ٢٨، ٤٢-٤٥، ١٥٢-١٥٣، ١٦٩-
البطريك سيرغي: ٣٩	٣٠٨، ١٨٣
سجن البطريك: ٥٥	إطلاق سراحه من السجن: ١٧٠-١٧٢
لقاء ستالين: ١٤٤-١٣٣	رحلته إلى مكة: ٢٢٣
ترسيمه بطريكاً: ٣٠٩، ١٣٧، ٧٢	الإشارات الشُّعر: ٢٨٤
البطريك سيرغي والبروياغندا: ٣٩،	إيطاليا: ٣٥٢، ١٦٥
١٣٢، ١٢٨، ٧٩، ٥٥	الأيقونات: ٨٤، ٨٩، ٩٠، ١٤٩، ٢٣٧،
التصالح مع البلاشفة: ٩٢-٩١	٢٤٠
بطل الاتحاد السوفيتي: ٣٣٥، ٣٣٠، ٢٣٥	(ب)
بغداد: ٢٢٢	باش نماز زاده، أخوند ميرزا فرج الله:
بلغاريا: ١٣٤	٣٣٦-٣٣٤
بوتلخ (قرية): ٢١٢، ٢١١	باغاييف، خ. س.: ٢٧٣-٢٧٤، ٣٠٢،
البوذية: ٢٦، ٣٦، ١٢٣، ٢٠٣، ٣٣٩،	٣٠٤
٣٤٢، ٣٤١	باقلودر (مدينة): ٢٧٨
البوريات (رتبة في الكهنوت البوذي):	باقروف، جعفر: ٣٣٩، ٥٠
٣٤٣، ٣٤١	باكو (مدينة): ٣٩
بي بي خانم: ٣٤٩	بايماغامبيتوف، كولاش: ١٩٦
البيروني: ٣٤٩	بخارى (مدينة): ١٠٥، ١٧٦، ٢١٧، ٣٤٨،
بيريا، لافرييتي: ١٦٠، ١٣٦، ١٣٤	٣٤٩
بيزوچنيك (جريدة): ١٣٠، ١١٩	بدخشان: ١٨٥، ١٨٧، ١٩٠
بيشكك (مدينة): ١٧٧	البدو: ٩٧، ٩٨

(ت)
التمر: ١٠٧، ١١١، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٥،
٢٧٧، ٢٦٩
ترستان: ٢١، ١١٥، ٢٤٥، ٢٥٣، ٢٧٤
ترچماني، كشاف الدين: ١١٤-١١٥
التركماني: ٣٨، ٤٣، ٦٤، ١٠٥، ١٧٨،
٣٤٨، ١٨٩
تركمانيستان: ٩٣، ١٩٧، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩
ترود (جريدة): ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٨
ترومان، هاري إس: ٥٢
ترويتسك (مدينة): ٢٠٦
التسجيل / الترخيص: ٩٩، ١٢٠، ٢٧٤
- ٢٧٧، ٢٩٢، ٢٩٤، ٣٠٥
تشرشل، ونستون: ٧٧، ١٧٣
تشيلياينسك (منطقة): ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٤
تشولبان (عبد الحميد سليمان أوغلي):
١٠٨
تشويخوف، فاسيلي إيقانوفيتش: ٢٤٢
التشيك: ١٣٤
تشيكوسلوفاكيا: ١٣٢
تعدد الزوجات: ٧٤
تغانروغ (مدينة): ٣٣٠
التفتازاني، سعد الدين: ٣٤٩
توغزبايف، باي محمد: ٢٠٥
تونس: ٣٣٤

بيلاروس: ٦٣، ١٢٠
بيلغورْد (مدينة): ١٧٣
پارانجا (مدينة): ١١٣
الپامير (جبال): ١٨٧، ١٩٠، ١٩٢
الپروپاغندا:
الپروپاغندا المناهضة للدين: ٧٥، ٧٦،
٩٣-٩٤، ١٠٩-١١١، ١٥٥
الپروپاغندا والوطنية: ٣٤-٣٥، ١٥١
- ١٩٢، ٢٠٩-٢١٠، ٢١٢-٢١٣
نشر الپروپاغندا: ٥٤-٦٠، ٢١٦-
٢١٧، ٣٣٤-٣٣٦
الپروپاغندا الدينية: ٢٨-٣٣، ٣٦-
٦٦، ٨٤-٨١، ١٢٩، ١٥١-١٩٣،
٢٠٩-٢١٠، ٣٠٦-٣٠٩، ٣٢٧
- ٣٥٣
الپروپاغندا العلمانية: ٢٥-٢٧، ١٥٦
- ١٦٠، ٣٢٠-٣٢٣
پهلوي، رضا شاه: ٢٢٢
پوتما (منطقة): ١٠٧
پوليانسكي، إيقان فاسيليفيتش: ٤٦، ٥٨،
٢٠٣
پيرم (مدينة): ١١٢، ٢٣٤، ٢٦٧، ٢٦٩
پينزا (مدينة): ٢٩٨

الروح المعنوية للجيش: ٦٢ - ٦٤،
١٥٨ - ١٦٠

الدين في الجيش: ٦٨ - ٦٩، ١٢٥،
٢٢٩ - ٢٧١، ٣١٠ - ٣١١، ٣١٩،
٣٢١، ٣٢٣ -

جامبيل باچايف: ٣٩

جورچيا: ٢٢، ١٠٨، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠،
٣٣١، ٣٣٣

چوكوف، المارشال ج. ك.: ٢٤٢

(ح)

الحبشة: ١٦٥

الحج: ٢١٨، ٢٢٣

الحجاب: ٧٤، ٧٥، ٢٣٩

الحرب الروسية اليابانية: ٢٥٣، ٢٥٦

الحرب العالمية الأولى: ٢٥٣، ٣٢٤

الحزب الشيوعي السوفييتي: ٢٨، ١٢٠،
٢٦٥، ٢٦٦

حسين، الشريف: ٢١٩

الحسيني، الحاج أمين: ٥٨

حفلات الزفاف: ٨٥

حكيموف، كريم: ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢

الحملات المناهضة للدين: ٨٢ - ٨٣

ضد المسلمين: ٩٢ - ١١٣

ضد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية:
٨٩ - ٩٢، ١٢٨

حملة فيينا: ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤١

تيخون (بظريك): ٩١، ١٣٤، ١٣٧

تيليا كاري (مدرسة): ٣٤٩

تيورياكولوف، نظير: ١٠٤

تيومين (أوبلاست): ٢٢٦، ٢٩٩

(ث)

الثورة البلشفية: ٤٣، ٢٧١، ٢٩٧، ٣٠٩،
٣٢٤

(ج)

جُدَّة: ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢

الجدديون: ١٠٧

الجزائر: ٣٣٤

الجنائز: ٥١، ٨١، ١٠٩، ١١٣

الجهاد: ٢٨، ٢٩، ٨٧، ١٥٢، ١٦٢، ١٦٧،
١٧٩، ١٨١، ٣٤٦

جوفوروف، المارشال ليونيد
ألكسندروفيتش: ٢٤٢

الجيش الأحمر:

خسائر الجيش: ٦٢ - ٦٣، ١٧٣

الفرار من الجيش: ٦٢ - ٦٣

التبرعات للجيش: ١٩٥ - ٢٠٠، ٢٠٣

٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣ - ٢١٤

٢١٦ - ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٧، ٣١٠ -
٣١١، ٣٣١ -

خطابات الجيش: ١٢٥ - ١٢٦، ٢٤٢ -
٢٤٦ -

(خ)

خاتسكيشيتش، ألكساندر إسحاقوفيتش:

١٢٠، ١١٧

خاركوف: ٧٦، ١٧٣، ١٨٩، ٣٥١

الختان: ١١٠، ٢٦٦، ٢٦٧، ٣١٠

خچند (مدينة): ١٧٧

خراسان: ٣٤٨

خواجه أحرار: ١٧٥، ٣٤٩

خواجه أحمد يسوي: ١٧٦

الخوارزمي، محمد بن موسى: ٣٤٩

خوشتادا (قرية): ٢٥٩

خيوه (مدينة): ٣٤٨

(د)

الدارغين: ١١١

داغستان: ١١٠، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣،

٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٠

الدستور السوفييتي: ٤٤، ٥٠، ١٠٥، ١١٢،

١١٥، ١١٦، ٣٣٧، ٣٥٠

دور الإفتاء:

إنشاء دور الإفتاء: ٤٨-٤٩، ٥١، ٦٩،

١٣١-١٣٤

أهمية دور الإفتاء: ٣٠٨-٣١٩

دونباس: ٣٤٠

(ذ)

الذكر: ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٩، ٢٦١،

٢٦٢

(ر)

رافعييف، نجفقلي: ٣٣٥

رحمنكولوف، ضياء الدين محمد

چانوفيتش: ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٢٣، ٢٢٤،

رسولوف، عبد الرحمن: ٥٨، ٧٣، ١١٤،

١١٥، ١٣١، ٣٤٥

قصص شعبية عن رسولوف: ١٥٢،

١٩٣

لقاؤه مع ستالين: ١٥٣

خطب البروپاغندا: ٥٨، ١٣١-١٣٢،

١٥٢، ١٥٦-١٥٨

صعود نجم رسولوف: ١٥٣-١٧٠

التنافس مع ترچماني: ١١٤-١١٥

خدمة الجماعة المسلمة: ٢٠٥-٢١١

رحلته إلى مكة: ٢٢٢-٢٢٣

رسولي، الشيخ زين الله: ١٥٣، ٣٣٦

رضاء الدين بن فخر الدين: ١٠٠، ١٠٧،

١١٤

رمضان: ٢٠٥، ٢١٨، ٢٥٩، ٢٧٨، ٣٠٥

روزقلت، فرانكلين دي لانو: ٥٢، ٥٧، ٧٧

روستوف (مدينة): ٢٣٦

روش هساناه: ٣٤٤

روما: ٣٨، ٧٧، ١٣١

رومانيا: ١٣٢، ١٣٤، ٣٣١

ودور الإفتاء: ١٣١ - ١٣٤، ١٦٩ -

١٧٢

والإحصاء العام للاتحاد السوفيتي لعام

١٩٣٧: ١٢٢ - ١٢٦

ومؤتمر طهران: ٥٢ - ٥٤، ٧٧

السرهندي، أحمد: ٣١٤

سفر دلو فسك (مدينة): ١١١، ٢٦٩

السلطان محمد شاه (الأغا خان الثالث):

١٨٧

سليمانوف، إدريس: ١٩٦، ٣٣٥، ٣٣٠

سمرقند (مدينة): ٤٣، ٧٥، ١٧٦، ١٨٣،

٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠

سمولنسك (مدينة): ١٥٤

سميدوفيتش، بيوتر: ١٠١، ١٠٢

سوريا: ٥٧، ١٨٧

سوفوروف، ألكسندر: ٣٢٥، ٣٤١

سولچنيتسين، ألكسندر: ٦٦، ٣١٨

سيدوف، مير أحمد: ٢١٠

سيف الدين البخارزي: ١٧٥

سيقاستوپول (مدينة): ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠

(ش)

شامشي: ٢٤٧

شاه زنده (ضريح): ١٧٥، ٣٤٨

شاهي ماردان (قرية): ١٧٦

شبه جزيرة القرم: ٤١، ٤٥، ٩٢، ١٠٩،

١٣١، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٨، ٢٦٩، ٣٥١

(ز)

الزكاة: ١٩٨، ٢٠١٤ - ٢٠١٥، ٢١٨، ٣٠٥

(س)

سيمبلاتنسك (مدينة): ٢٨٨

سيمفروبول (مدينة): ٣٣٠، ٣٣٥

سايبيتوف، ن.: ٢٧٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨،

٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٠

سافاروف، فريد: ١٠٧، ١١٣، ٢٥٨، ٢٦٣،

٢٦٨، ٣١٢، ٣٣٠

ساكسين، غريغوري فيليپوفيتش: ١٣١

ستافورد كرپس: ٤٠

ستالين، جوزيف: ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣٧، ٤٣،

٤٤، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩،

٧٥، ٧٩، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ١٠٥،

١١٠، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١٢١، ١٢٢،

١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٩٧ -

١٩٩، ٢٣٠ - ٢٣٣، ٢٧٣، ٢٩٣، ٣٠١ -

٣٠٤، ٣٠٥ - ٣٠٨، ٣١٩، ٣٢٢ -

٣٢٦

قصص شعبية عن ستالين: ١٥١، ١٩٣

ستالين و«صداقة الشعوب»: ١٠٥

ولقاء المطارنة: ١٢٨ - ١٢٩، ١٣٣ -

١٤٤، ٣٢١ -

ولقاء إيشان بابا خان: ١٧١ - ١٧٣

ولقاء عبد الرحمن رسولوف: ١٥٣

التهجير من شبه جزيرة القرم: ١٣١،

٢٦٩

الشرق الأوسط: ١٣١، ١٦٥، ٢٢١، ٢٢٢،

٢٧٠، ٢٢٣

الشعر الإسلامي السوفييتي: ٢٣٢، ٢٥٢،

شمال إفريقيا: ١٦٧

شمس الدين خان باباخان: ٣١٣

شمس الدينوف، عبد الله حسن: ١٠٧،

١١٣

شنشادزي، إسرائيل: ٣٣٠

شيديينكه، يفيم: ٦٣

شير دار (مدرسة): ٣٤٩

شيرباكوف، ألكساندر سيرغييفيتش: ١٣١،

١٦١

الشيشان: ٣٨

شينغيانغ: ٤٢، ٥٠، ٥٦، ٥٧، ٨٣

(ص)

صالحوف، حارث صالح أولي: ٢٢٩-

٢٤٤، ٢٣٤

الصلاة: ١٠٩، ١١٠، ١٦٦، ٣٣٨

في الجيش الأحمر: ٢٢٩، ٢٣٠-٢٤٢

في السر: ٧٢-٧٥، ٧٦، ١٠٧-١١٠،

١٢٥-١٢٨، ١٤٧-١٤٩، ٢٦٩-

٢٧١، ٢٩٠-٢٩٣

إمامة النساء للصلاة: ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٩٦

الصين: ٥٧، ١٨٧، ٣١٥

(ض)

ضياء الدين باباخان: ٣١٣، ٣٣٦

(ط)

الطاچيك: ٧٤، ١٠٥، ٢١٨

طاچيكستان: ٧٤، ١٨٥، ١٩٢، ٣٤٦،

٣٤٩، ٣٤٧

طرابلس: ١٦٥

طشقند (مدينة): ١٧١، ١٧٢، ١٧٦، ٢١٧،

٢٢٤، ٣٠٢، ٣١٨، ٣٣٦، ٣٤٨، ٣٤٩

طهران: ٥٣، ٥٤، ٧٧، ٢٢٢، ٢٢٣

طهور، هوفاندي: ١٧٦

(ع)

عبد الرحمنوف، عزيز: ٣٣٥

العتبات: ٤٩، ٣٣٧

عثمان بن عفان [رضي الله عنه]: ٤٢

العراق: ٥٧، ١٨٧

عشق آباد: ١٧٧

عصبة المناضلين الملحدين: ٥٦، ٧٢،

٩٣، ١٠٤، ١١١، ١١٨، ١٢١، ١٢٩،

١٥٤، ٢٧٣

عكاشة بن محصن [رضي الله عنه]: ١٧٧

علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]: ١٧٦

علي زاده، أخوند أغا: ٤٧-٥٠، ٥٢، ٥٥،

٥٦، ٨١، ٨٥، ١٨٣، ١٨٤، ٣٣٦،

علييف، مصيب: ٣٣٠، ٣٨٥، ٣٣٨

القولغا-أورال (منطقة): ٢٥، ٦٤، ٩٢،

١٥٣، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٤، ١٩١، ١٩٥،

٢١٥، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٩٦،

فِيرْخَنِيه تَشْبَنكِي (قرية): ٢١٢،

(ق)

قادرِي، عبد الله: ١٠٨، ٣٣٦،

القاراكولباك: ٤٣، ١٧٨، ٣٤٨،

قازان: ٢١، ١١٣، ١١٤، ٢٤٢، ٢٧٣،

٣٠٤

قبردينو-بلقاريا (منطقة): ١١٠،

قثم بن العباس [رضي الله عنه]: ١٧٥،

٣٤٨

القدس: ٧٧، ١٣٤

القرآن: ٢٨، ٤٨، ٤٩، ١٥١، ١٥٦، ١٥٧،

١٥٨، ١٦٦، ٢٢٩، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٥٧،

٢٦٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٢٩، ٣٣١،

٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٩،

قشغر: ٣٤٨

القشغري، محمود: ٣٤٩

القفال الشاشي، الإمام: ١٧٦

القوقاز: ٢١، ٣٦، ٤٦، ٤٧، ٦٤، ٧٥، ٨١،

١٥٩، ١٦٦، ١٧٤، ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩،

١٨٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢٥٤، ٢٦٣، ٣١٢،

٣٢٧، ٣٣٩، ٣٣٢،

التهجير من القوقاز: ٣٦، ٢٥٣، ٢٥٥،

جنود من القوقاز: ٣٦، ١٥٨، ٢٤٥،

عيد الأضحى: ١١١، ٢١٥، ٢٤٧، ٢٦٤،

٢٧٧

عيد الفطر: ٢٠٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٧،

(غ)

غجدوان (مدينة): ٩٨،

غلماني، سعد وقاص: ٣١٣

غاربت، سيريل (كبير أساقفة يورك): ٥٥

الغوسبانك (البنك المركزي السوفييتي):

٢٧٨

غولاييشا، ن.: ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٥،

٢٩٦-٢٩٩، ٣٠١-

غوليف، مهدي: ٣٣٠، ٣٣٥

غيبيكوف، خضري: ١٨٣، ١٨٤، ٢٠٩،

غير ماغين قس توبولسك: ٨٩

(ف)

الفارابي، أبو نصر: ٣٤٩

فرغانة: ١٧٥، ٢٦٥، ٣١٨، ٣٤٨،

الفرغاني: ٣٤٨

فرنسا: ٥٣، ١٦٥

فطرت، عبد الرؤوف: ١٠٧

فنلندا: ٢٤٩

فيليب (كبير أساقفة أستراخان): ١٢٨

فاخيتوف، موسى: ١٠٧

فاسيلي (كبير الأساقفة): ٨٩

فلاديمير (مطران كييف): ٨٩

فنيامين (مطران سان بطرسبرغ): ٨٩

الكولخوز: ٢٧٠، ٢٦٤، ٨٤
الكومسمول (الشبيبة اللينينية الشيوعية
السوفيتية): ٧٠، ٨٤، ١١٩، ١٩٢،
٢٦٦، ٢٦٥، ٢٣٥
كويششف (زمارا) (مدينة): ٢٦٦
كويتهكن، أليمبي أريستارخوفيتش: ١٢٥
كيروف، سيرغي: ١٠٤
كييف: ٧٦، ٨٩، ١٢٨، ١٤٢، ٣٤٠
(ل)
اللاكيون: ١١٠
لاهوتي، أبو القاسم: ٣٩
اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا:
١٠٠-١٠١، ١١٨،
اللزغيون: ١١٠
ليبيا: ١٦٥
لينين، فلاديمير: ٩٠
لينينغراد: ٧٦، ١٠٤، ١٢٨، ١٤٨، ٢٤٢
(م)
ماغيرموف، مالك: ٣٣٠، ٣٣٥
مالينكوف، غيورغي ماكسميليانوفيتش:
١٢١، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٩١، ١٩٢
المجر: ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٥
المجلس الديني لمسلمي أرنبورغ: ٢٢،
٣١٦-٣١٧
مجلس الشؤون الدينية: ٢١، ٤٦، ١٠٨،
١٤٥، ٢٠٣-٢٠٥، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٣،

قوليف، عادل: ٣٣٥
القوموق: ١١١، ٢٧٠
قوهستان: ١٨٧، ١٩٠
القيرعيز: ٤٣، ٦٤، ١٧٨، ٣٤٨
قيرعيزستان: ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩
(ك)
كاتدرائية يلوخوفيه (موسكو): ١٢٨
كاربوف، غريغوري غريغوريفيتش: ١٣٣-
١٣٧، ١٣٩-١٤١، ١٤٣، ١٤٥-
١٤٩، ٣١٧
الكازاخ: ٨٨، ١٥٩، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٠
كازاخستان: ٩٧، ١١٥، ٢٤٥، ٢٧٣، ٢٩٦
كالندر، هارولد: ٥٤
كالينين، ميخائيل إيفانوفيتش: ١٠١
كالينينسكي، ميخائيل: ٢١٣
كراسنادار (مدينة): ١٧٤، ١٨٩، ٣٥١
كراسيكوف، بيوتر أنانيفيتش: ١١٦-١٢١
كريموف، م. س.: ٢٢٣
كزيموف، صلاح الدين: ٣٣٠
الكنيسة الأرثوذكسية الروسية: ٣٦، ٧٣،
٣١٧، ٣٢٤-٣٢٥
والإحصاء العام للاتحاد السوفيتي في
عام ١٩٣٧: ١٢٣
مفاوضات ستالين المتعلقة الكنيسة:
١٣٣-١٤٣
بروباغندا الكنيسة زمن الحرب: ١٢٩

اللوثرية: ٢٠٣
 الخمسينية: ٢٦٠
 الكنيسة التجديدية: ٣٦، ٩٠ - ٩١
 الكاثوليكية الرومية: ٣٦، ٨١، ٢٠٣،
 ٢٦٠
 السبتيون: ٢٦٠
 مشهد (مدينة): ٢٢٢
 مصر: ٣٣٨، ٣٣٤
 مصطفىيف، خضير: ٣٣٠
 مصطفىيف، زبير: ٣٣٥
 معركة الدنيبر: ٢٣٥
 معركة ستالينغراد: ١٧٣، ٢٣٦، ٢٤٢،
 ٢٤٣
 معركة كورسك: ١٧٣
 معهد الإمام البخاري الإسلامي: ٣١٨
 مفوضية التنوير: ٩٨
 مفوضية الشعب لأمن الدولة (NKGB):
 ١٦٩، ٥٧، ٢٢
 مفوضية الشعب للشئون الخارجية
 (NKID): ٣٨، ٢٢
 مقابر: ٧٦، ٢٦، ١٧٦، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٩٦،
 ٣٣٧
 مكة المكرمة: ٤٩، ١٠٤، ١٠٧، ١٥١،
 ١٨٥، ٢١٨، ٢٢٠ - ٢٢٣، ٣١٦، ٣٣٧
 مكتب المعلومات السوفييتي: ٢٢، ٣٨،
 ١٣١

- ٢٨٠، ٢٧٨ - ٢٧٣، ٢٧٠، ٢٢٦
 ٢٨٣، ٢٨٥ - ٢٨٦، ٢٨٨ - ٢٨٩،
 ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٠٠ - ٣٠٤
 مجلس شئون الكنيسة الروسية
 الأرثوذكسية: ٢١، ١٣٥، ١٤١، ١٤٥،
 ٣١٧، ١٤٦
 مجلس مفوضي الشعب: ١٣٥، ١٣٦،
 ١٤٦، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١٤
 محمد بن إسماعيل البخاري: ١٧٥
 محمد [ﷺ] (النبي): ٢٨، ٤٣، ١٥٧،
 ١٦٢، ١٦٣، ١٦٧، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩،
 ١٨٠، ٢٨٢، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٤٥، ٣٤٦،
 ٣٥٠، ٣٤٨
 محمد يوسف، محمد صادق: ٣١٧
 المدارس: ٤٢ - ٤٣، ٤٩، ٩٥، ٩٦، ١٠٨،
 ١٦٥، ١٦٦، ٢١١، ٢٢٤، ٢٧٧، ٢٨٥،
 ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٢١، ٣٣٧، ٣٣٨،
 ٣٥٠، ٣٤٩، ٣٤٨
 مدرسة بركة خان (طشقند): ١٧٢
 مدرسة سراي طاش (بخاري): ١٧٢
 المدينة المنورة: ٢٢٢
 المسيحية (انظر أيضاً الكنيسة الأرثوذكسية):
 المعمدانيون: ٢٦٠
 الإنجيليون: ٢٦٠
 الكاثوليكية اليونانية: ٢٠٣
 رأي هتلر في المسيحية: ٦٢

١٧٤، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٣،

٢١٠، ٢٣١، ٢٣٥

نصر الدينوف، خليل: ١١٣، ١١٤، ٣٣٦،

النظارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا:

٢٣

النظارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى

وكازاخستان (SADUM): ٣١٤، ٣٤٦،

٣٤٨

النظارة الدينية لمسلمي شمال القوقاز: ٢١،

٢١٢، ٣١٢

النظارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز:

٢١، ٤٦، ١٨٣

نقشبند، بهاء الدين: ١٧٥، ٣٤٨،

النمسا: ٧٠

نهر آراكس: ٣٢٩

نهر كورا: ٣٢٩

نيچنييه كازانش (قرية): ٢١٢

نيڤسكي، ألكسندر: ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥،

٣٤١

نيقولاي (المطران): ١٢٨، ١٣٤، ١٣٥،

١٣٦، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٣

(هـ)

هتير، أدولف: ٢٥، ٢٨، ٤٠، ٤٤، ٥١،

٥٢، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٨،

١٢٦، ١٢٩، ١٣١، ١٥٢، ١٦٠، ١٦١،

١٧٤، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٨،

مكتب تسجيل الأحوال المدنية: ٧٤، ٨٤،

١١٠

مليتوپول (مدينة): ٣٣٠

منور قاري عبد الرشيد خان أوغلي: ١٠٨

موردوفيا: ٧١

موسيف، مروان: ٣٣٥

موسكو: ٣٥، ٣٩، ٥٢، ٥٤، ٥٩، ٦٨،

٧٢، ٧٦، ٩٨، ١٠٧، ١١٣، ١٢١،

١٢٨، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٥،

١٥١، ١٥٢، ١٥٩، ١٦٢، ١٧٠، ١٧١،

١٧٢، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٣٦، ٢٥٨، ٢٥٩،

٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٧، ٢٧٩،

٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٣٦،

٣٤٤، ٣٤٥

المولد النبوي: ٢٦٢

مولوتوف، فييتشسلاف ميخايلوفيتش: ٣٨،

٥٨، ١٣١، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣،

١٤٦، ١٤٨، ٢٢١، ٢٣٤، ٢٧٧، ٣١٧،

مير عرب (مدرسة): ٣١٨

ميرزايف، صخرة الله: ٢١١

ميركولف، سقلود: ١٦٩

(ن)

النازيون: ٣٠، ٣٧، ٤١، ٤٥، ٥٨، ٥٩،

٦١، ٦٢، ٧٦، ٧٧ - ٨٢، ٨٥، ٨٧،

١٢٦، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٣، ١٥٤، ١٥٥،

١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٤، ١٧٣،

الولايات المتحدة الأمريكية: ٧٠، ٥٢	٣١١، ٣٠٧، ٣٠٦، ٣٠٢، ١٩٢، ١٩١
(ي)	٣٤٠، ٣٣٤، ٣٣٢، ٣٣٠، ٣٢٩، ٣٢٨
اليابان: ٨٩، ١٩	٣٥١، ٣٤٢ -
اليهودية: ٢٠٣، ٣٨، ٣٦، ٢٦	الهند: ٣٤٨، ٥٨
يوسف خاص حاجب البلاساغوني: ٣٤٩	هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى في
يوغوسلافيا: ١٣٤، ١٣٢	الاتحاد السوفييتي: ١٧١، ١٧٠
اليونان: ٢٠٣، ١٣٢	(و)
	وزارة الاستعلامات البريطانية: ٤١، ٤٠
	١٣١

